

نهضة الأمة وحياتها

تأليف

طنطاوي جوهري

تقديم

حازم زكريا محيي الدين

دار الكتاب اللبناني
بيروت



دار الكتاب المصري
القاهرة


نهضة الأمة وحياتها

هـذا الكتـاب

طُبع لأول مرة عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، ويسعى إلى تجديد الفكر الإسلامي؛ ليواكب محاولات نهضة المسلمين على كل المستويات العلمية والحضارية، كما يحاول تقديم نظرية شبه متكاملة في النهضة، مؤصلة تأصيلاً شرعيًّا ومعرفيًّا، ومعززة بالخبرة التاريخية، والأمثلة الواقعية.

وتقوم رؤيته في النهضة بشكل رئيس على أساس المؤاخاة بين العلم والدين، وإحياء قيم الاجتهاد والنقد في الفكر الإسلامي، والانفتاح النقدي على الثقافة الغربية، ومحاصرة ظاهرتي الاستبداد والاستعمار، وتعزيز قيم الحرية والشورى والمشاركة السياسية، والعمل الدؤوب على نشر فكرة السلام العالمي بين الشعوب.

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور – هالة عبد الوهاب

اللجنة العلمية

محمد عمارة — محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري — إبراهيم البيومي غانم

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

(**فريق العمل**: ريم نعمان – صفاء حسين)

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان — محمد القاسم

(**فريق العمل**: أحمد عبد الحميد – سماح رضوان – عائشة الحداد)

الأعمال التحضيرية والمتابعة

نهال بدر – هدى سيد – شيماء التركي



نهضة الأمة وحياتها

تأليف

طنطاوي جوهري

تقديم

حازم زكريا محيي الدين

٢٠١٢







مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

جوهري، طنطاوي، 1862- 1940 م.

نهضة الأمة و حياتها / تأليف طنطاوي جوهري ؛ تقديم حازم محيي الدين.– الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، 2011

ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-133-8

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. الإصلاح الاجتماعي. 2. الإصلاح الاجتماعي -- الدول العربية. أ. محيي الدين، حازم. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي – 303.484 　　　　2011554577

ISBN: 978-977-452-133-8

رقم الإيداع: 2011/ 9842

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديَّين»

المحتوى

مقدمة السلسلة ١١
تقديم ١٧

كتاب «نهضة الأمة وحياتها»

مقدمة الطبعة الأولى ٣
مقدمة الطبعة الثانية ٧

الباب الأول

الفصل الأول: في وصف الجمعية الإنسانية ١١
الفصل الثاني: إذا سلبت الأمة حريتها أسرع إليها غالبًا الفناء ١٧
الفصل الثالث: كيف يكون الإصلاح؟ ٢٣
تذكرة ٣١
لا سبب لنهضة الأمة وسقوطها سوى ارتقاء العلم والعمل وانحطاطه ٣١
الفصل الرابع: الأزهر والتعليم فيه ٤٩
التوحيد وكيفية تدريسه في الأزهر ٥٠
الفصل الخامس: أسباب انحطاط التعليم في الأعصر الأخيرة ٥٥
إيضاح لما مضى ٥٥
الفصل السادس: التعليم في الأزهر بأجلى مظاهره ٦١

الفصل السابع: حال التعليم في الأزهر ووجوب إصلاحه ٦٧
الفصل الثامن: محاورة بين الشيخ والعالم العصري ٧٣
الفصل التاسع: فيما يضر بالعقائد الدينية ٧٧
الفصل العاشر: في علم الفلك ٨٣
الفصل الحادي عشر: في علوم الطبيعة ٨٩
الفصل الثاني عشر: في التعصب الديني ٩٣
الفصل الثالث عشر: في اقتراحات متعددة في أشياء كثيرة ٩٩
الفصل الرابع عشر: بشائر الإصلاح في الأزهر ١٠٣
تذكرة ١٠٧
ما جاء بصدد الإصلاح الجديد في الأزهر... إلخ ١٠٧

الباب الثاني

الفصل الأول: أنواع السعادات ١١٧
الفصل الثاني: التمدين والمدنية ١٢٥
الفصل الثالث: فذلكة التمدين ومنافع المدنية ومضارها ١٣١
الفصل الرابع: لماذا لم يكثر في مصرنا النابغون؟ ١٣٥
الفصل الخامس: متى ينبغ في مصر النابغون؟ ١٤١
الفصل السادس: الوطن والدين ١٤٧
الفصل السابع: حرصنا على الدين ١٥٣
الفصل الثامن: مخاطبة الحكمة للإنسان: في الوطنية والدين ١٥٩
الفصل التاسع: خطاب الحكمة للإنسان: في الدين والوطن ١٦٥

نصح الإنسان ١٦٥
خطاب أوربا في رقي الشرق ١٦٦
موقف أوربا بإزاء المسلمين ١٦٨
خطاب النوع الإنساني ١٧٠
الفصل العاشر: عجائب الرِّشوة ١٧١
شكل عجيب للرشوة في الشرق ١٧٣
شكل الرشوة في الغرب ١٧٤
الفصل الحادي عشر: الجمال مساء في الهرم ١٧٧
الفصل الثاني عشر: الجمال مساء أمام الهرم (تابع ما قبله) ١٨٥
الفصل الثالث عشر: القرعة وعلم الأخلاق ١٩١
الفصل الرابع عشر: الرحمة في القلوب سر الشرائع ١٩٩
الفصل الخامس عشر: علماء الشرق وعلماء الغرب ٢٠٧
الفصل السادس عشر: علماء المشرق والمغرب: العلامة الغزالي
وباكون الإنكليزي ٢١٥
الفصل السابع عشر: العقول والأوهام ٢٢٣
الفصل الثامن عشر: العقول والأوهام (تابع ما قبله) ٢٣١
أوهام صبيان الناس وصبيان العلوم والمغرورين ٢٣٦
الفصل التاسع عشر: العقول والأوهام (تابع ما قبله أيضًا) ٢٣٩
الوهم في الأمثال ٢٤٠
الفصل العشرون: سعادات الأفراد والأمة ٢٤٧

الفصل الحادي والعشرون: سعادات الأمم والأفراد ٢٥٣
الفصل الثاني والعشرون: الإنسان في الحياة كسفينة في البحر ٢٥٩
الفصل الثالث والعشرون: أخلاق الجمعيات الإنسانية ٢٦٧
الفصل الرابع والعشرون: نظام الأمة كنظام الجسم البشري ٢٧٣
الفصل الخامس والعشرون: نظام الأمة كجسم الإنسان، ودرس في علم اليابان ٢٨١
الفصل السادس والعشرون: نظام الأمة كنظام جسم الإنسان ٢٨٧
الفصل السابع والعشرون: قطع العلائق بين الأمم الخاملة وبين ربها ٢٩٣
الفصل الثامن والعشرون: وصف أحوال الأمم العاملة والخاملة ٢٩٩
الفصل التاسع والعشرون: هل لمصر برلمان في التوراة والقرآن؟ ٣٠٥
الفصل الثلاثون: هل للعرب برلمان؟ ٣١٣
الفصل الحادي والثلاثون: اقرءوا وانظروا واعلموا... إلخ ٣١٩

الباب الثالث

الفصل الأول: قل سيروا في الأرض فانظروا ٣٢٩
الفصل الثاني: لغة الآباء كنز ثمين. لغة الفلاحين هي العربية الصحيحة ٣٣٥
الفصل الثالث: الشعر والتاريخ ٣٤١
الفصل الرابع: الرِّقّ في الإسلام ٣٤٩
الفصل الخامس: جاموسة في جنازة ٣٥٧
إنفاق المال ٣٦١
الفصل السادس: أدب الهرَّة والإنسان ٣٦٣

الفصل السابع: الرسالة القازانية ٣٧١
الفصل الثامن: أضاع الإسلام ملك ظالم، وصوفي طامع، وفقيه جاهل ...إلخ ٣٨١
الفصل التاسع: في الحثّ على استعمال ما عملته أيدينا ٣٩١
الفصل العاشر: البدع والضلالات، محادثة مهمة بين أستاذ وابنه الصغير.. ٣٩٩
الفصل الحادي عشر: الدولة الفاطمية واللغات الأجنبية ٤٠٧
الفصل الثاني عشر: كتاب من المؤلف إلى صديق له من الإنكليز ٤١٣
الإنسان والعلم ٤١٤
الفصل الثالث عشر: الحقائق في الحدائق - العالم كتاب لا يقرؤه إلا المستبصرون ٤١٩
الفصل الرابع عشر: أنشودة وطنية ٤٢٥
الفصل الخامس عشر: الدرس الافتتاحي لتفسير القرآن الشريف ٤٣١
الفصل السادس عشر: ملخص الخطبة التي ألقاها المؤلف ..إلخ ٤٤١
اتحاد اللغتين الفصحى والعامية بالبلاد المصرية ٤٤١
الملابس ٤٤٢
الحبوب ٤٤٤
خلاصة المباحث المذكورة في الخطبة ٤٤٦
خاتمة الكتاب: الإصلاح العام ٤٤٩

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا - في إطار هذا المشروع - بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا - وغيرهم - لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب

المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي

غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

والمشرف العام على المشروع



تقديم



«نهضة الأمة وحياتها».. دراسة تحليلية

حازم زكريا محيي الدين

تمهيد

شهد العالم الإسلامي، منذ القرن (الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي)، متغيرات سياسية واجتماعية وفكرية وأيديولوجية، كما شهد اختلالاً في موازين القوى مع قوى الغرب الصاعدة علميًّا والممتدة عسكريًّا، اقتضت ظهور مشاريع إصلاحية تبنتها «الدولة»[1]، وسبقها ورافقها ظهور طبقة من رجال الإصلاح انتشرت في معظم بلاد العالم الإسلامي، واستمرت في توقدها وعطائها حتى النصف الأول من القرن العشرين على أقل تقدير، سعت في مجموعها لاستعادة وترميم الوجود السياسي للعالم الإسلامي، وإلى تجديد الفكر الإسلامي ليواكب دخول المسلمين في الأزمنة الحديثة على كل المستويات العلمية والحضارية[2].

---

(١) نشير هنا على سبيل المثال إلى المشاريع الإصلاحية التي قامت بها الدولة العثمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وإصلاحات محمد علي في مصر في القرن التاسع عشر.

(٢) يمكن أن نذكر من أعلام هذه الحركة التي عمّت العالم الإسلامي، الأسماء التالية على سبيل المثال لا الحصر: ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م) في الهند، ومحمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م)، ومحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) في الجزيرة العربية واليمن، وعثمان دان فوديو (ت ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م) في إفريقيا، وجمال الدين الأفغاني (ت ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م)، ومحمد عبده (ت ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) في مصر، وخير =

وفي الحقيقة، فقد تنوعت مساهمات رجال الإصلاح تبعًا لمعايير كثيرة، منها اختلاف المكان والبيئة الجغرافية، وخصوصية الظروف الاجتماعية والسياسية، والمرحلة الزمنية التي عاشوا فيها، ومنها المرجعية الدينية والمعرفية التي استند إليها كلُّ مصلح، وطبيعة العلاقة مع الدولة ومشاريعها الأيديولوجية، وطبيعة العلاقة والموقف من الغرب الثقافي والسياسي، ومنها - بطبيعة الحال - الرؤية الإصلاحية التي رأى كل مصلح الأمور من خلالها، وتبعًا لذلك كله فقد اختلفت المشاريع والأفكار الإصلاحية المطروحة في تلك الفترة، الأمر الذي نتج عنه ثروة فكرية أخصبت التجربة الإسلامية المعاصرة، وشكَّلت تراثًا معرفيًّا جديدًا، يمدُّ الفكر الإسلامي الراهن بمنبع ثري من الأفكار الإصلاحية والتجديدية، ويمكن أن يساهم - لو تمت دراسته بطريقة علمية نقدية - في إثراء هذا الفكر، وتقويم مساره وتجديده من داخله.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد تمَّ التعامل في كثير من الحالات مع مفكري هذه الحركة الإصلاحية وتراثها، بمنطق أيديولوجي ضيق، فقد تمَّ إبراز عدد من رجال هذه الحركة، وتسليط الضوء على حياتهم ومشاريعهم الإصلاحية لتحقيق أغراض

= الدين التونسي (ت ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م) في تونس، وجمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، في بلاد الشام، ومحمد حسين النائيني (ت ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) في إيران، وعبد الحميد بن باديس (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) في الجزائر. هذا فضلاً عن ظهور بعض الحركات الإصلاحية ذات الطابع السلفي أو الصوفي، مثل الحركة الوهابية في نجد، والحركة السنوسية في ليبيا، وحركة الخلافة والجهاد في إفريقيا، وحركة إحياء الخلافة في الهند.

أيديولوجية[١]، وقد اتسم عدد من هذه الدراسات بِسمةٍ دعائية سطحية[٢]، في حين تمّ إهمال دراسة وفحص مشاريع إصلاحية مهمة، وتستحق نصيبًا من الدراسة العلمية، مثل حالة: حسن العطار (ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م)، وحسين الجسر (ت ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، وطاهر الجزائري (ت ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، وطنطاوي جوهري (ت ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م)، وعبد القادر المغربي (ت ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)، وفي هذا الإهمال ما لا يخفى من حرمان الفكر الإسلامي المعاصر من الاطلاع على تجارب إصلاحية، قد يجد فيها هذا الفكر الكثيرَ مما يمكن أن يستفيده منها، بعد دراستها دراسة علمية نقدية تقويمية جادة.

وبناء على ما تقدَّم، نحاول هنا أن نسلِّط بعض الضوء على أحد رجال الإصلاح المغمورين، وهو الشيخ طنطاوي جوهري (١٢٧٩ - ١٣٥٨هـ/ ١٨٦٢ - ١٩٤٠م)، الذي لم ينل حتى الآن الحدَّ المعقول من الدراسة العلمية لجهوده في ميدان الإصلاح والعمل النهضوي، ربما كان السبب وراء ذلك هو التصنيف السهل لتفسيره «الجواهر»، وهو أهم وأشهر كتبه، ضمن مدرسة التفسير العلمي فقط، بالإضافة إلى أنّ العديد من الدراسات الحديثة التي أرّخت للحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي الحديث، قد أهملت النظر في البعد الإصلاحي والفكري

(١) مثل إعطاء الشرعية التاريخية للأفكار العلمانية أو الدولة الوطنية من خلال إعادة قراءة خطاب بعض المفكرين ورجال الإصلاح، مثل: الطهطاوي، والكواكبي، أو إعطاء الشرعية الدينية للأصولية أو الحركة الإسلامية من خلال إعادة قراءة خطاب بعض رجال الإصلاح، مثل محمد بن عبد الوهاب، ومحمد رشيد رضا.

(٢) أذكر على سبيل المثال: كتاب «عبد الرحمن الكواكبي»، قدري قلعجي، بيروت، دار الشرق الجديد، ١٩٦٣. وكتاب «قادة التحرير العربي في العصر الحديث»، الدكتور إبراهيم أحمد العدوي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د. ت.

في مؤلفاته الكثيرة، وبالتالي لم تقم بإدراج اسمه في قائمة المصلحين في العصر الحديث، الأمر الذي أدى إلى تجاهل أو تهميش جهود هذا الرجل وأفكاره المهمة في مجال الإصلاح الديني، والاجتماعي[(١)].

أولاً: النشأة والتكوين العلمي

وُلد الشيخ طنطاوي في قرية «كفر عوض الله حجازي»[(٢)] إحدى قرى مديرية «الشرقية» في مصر سنة (١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م)[(٣)]، وقد نشأ وترعرع في أحضان الريف المصري، وهناك بدأت رُوحه النقية، تشرب حب الطبيعة وتهيم بجمالها، وبدأت تأسره مناظرها الخلابة الساحرة، وتطبع في نفسه حب الوجود، وتزرع في داخله الرغبة في الوقوف على أسراره، واكتشاف نظامه، وقد رافقته هذه الرغبة، التي ازدادت عمقًا ونضجًا مع مرور الأيام، حتى آخر يوم من حياته، ويمكن لنا عن طريق هذه الرغبة أن نفسِّر انبهاره بأي علم يساعده على فك رموز

---

(١) لعل أهم كتاب تناول حياة الشيخ طنطاوي وأفكاره بشكل عام هو كتاب «الشيخ طنطاوي جوهري: دراسة ونصوص»، عبد العزيز جادو، القاهرة، دار المعارف، د.ت. ومن أهم الكتب التي عرضت بشكل محدود لمشروع الشيخ الإصلاحي، أذكر «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، الدكتور محمد محمد حسين، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٥٦م. وكتاب «أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث»، الدكتور فهمي جدعان، عمّان، دار الشروق، ١٩٨٨م.

(٢) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، ط٢، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٠هـ، ١/ ٢٥٧. زكي محمد مجاهد، الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، ط٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤م، ١/ ٣١٨.

(٣) انظر: أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي، ط١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م، ص ١٨١.

الطبيعة والكون من حوله ويُطلعه على أسرار الجمال والإبداع والنظام فيهما، ونفسِّر أيضًا سر إقباله وحماسه الشديد فيما بعد للفلسفة وعلوم الرُّوح في الوقت نفسه، لما لهما من علاقة وطيدة باكتشاف الكون، وما وراءه من عوالم مجهولة، كانت تستفز عقله ورُوحه، وتدعوهما إلى الإبحار في عوالمها، واستكشاف أسرارها.

ويجب ألا ننسى الإشارة هنا إلى مدى اهتمام طنطاوي جوهري في هذه المرحلة الأولى التكوينية من عمره بالقرآن الكريم تلاوةً وتدبرًا[١]. ولعل اقتران حب القرآن الكريم والطبيعة وتفاعلهما في قلب الفتى الصغير وعقله ، ونمو هذا الحب والتفاعل مع مرور الزمن في داخله، يساعدنا على فهم القاعدة الإصلاحية التي انطلق منها جوهري عندما اكتملت عدته العلمية، واستقرت رؤيته الإصلاحية، التي انطلقت أساسًا من القرآن الكريم، والعلوم الكونية.

بعد أن أتمَّ حفظ القرآن الكريم، وأخذ مبادئ العلم في «كُتَّاب» بلدة (الفار) بلدة جدته لأمه، انتقل عام (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، وهو في الخامسة عشرة من عمره للدراسة في الجامع الأزهر، فلما وقعت الثورة العُرابية (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) انقطع عن الدراسة، وعاد إلى قريته، فلما انتهت أحداث هذه الثورة عاد من جديد للدراسة في الأزهر، ليبقى فيه عدة سنوات أخرى استكمل فيها تحصيله في علوم اللغة العربية، وعلوم الشريعة من فقهٍ وكلامٍ وحديثٍ وتفسير[٢]. ثم انتقل إلى

(١) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ١٠/ ١٢٦.
(٢) انظر: المرجع السابق، ٤/ ١٦٩ - ١٧١، ١١/ ٧١.

مدرسة «دار العلوم»، سنة (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م)، وهي مدرسة حكومية رسمية، حيث أقبل هناك على دراسة الفلسفة، ومبادئ العلوم الحديثة من حساب وهندسة وجبر وفلك وكيمياء وطبيعة ونبات وحيوان، بالإضافة إلى دراسته وتعمقه في علوم اللغة والشريعة على اختلاف أنواعها[(١)]. ويمكن النظر إلى المرحلة التي قضاها جوهري في مدرسة «دار العلوم» على أنها المرحلة الحاسمة في تكوينه العلمي، حيث اكتسب من خلالها الأساس الشرعي والفلسفي والعلمي الذي قام بتطويره بعد ذلك بشتى الوسائل التي أُتيحت له، من قراءاتٍ خاصة في كل ميادين المعرفة تقريبًا، وبشكل خاص، التاريخ، وتاريخ الأديان، وعلم النفس، والتربية، والآداب، والسياسة، بالإضافة - بطبيعة الحال - إلى علوم اللغة، والشريعة، والعلوم الكونية، والفلسفة القديمة والحديثة، ومن حواراتٍ مستمرة مع نخبة المثقفين والعلماء الذين التقى بهم، المسلمين منهم وغير المسلمين على السواء.

وبهذا التكوين المتميز نستطيع أن نقول: إن الشيخ طنطاوي جوهري كان أحد رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث الذين جسّدوا نموذج العالم والمفكر المسلم المطّلع والمتفتّح على ثقافة عصره وتياراته الفكرية، وهمومه ومشاغله السياسية والأيديولوجية، مثل رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، ومحمد عبده، وطاهر الجزائري، ورشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس.

(١) انظر: أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين، مرجع سابق، ص ١٨١. زكي محمد مجاهد، الأعلام الشرقية، مرجع سابق، ٢/ ٣١٨.

ثانيًا: النشاط الاجتماعي العام

بعد أن تخرَّج الشيخ طنطاوي في دار العلوم سنة (١٣١١هـ/ ١٨٩٣م)، عُيِّن مدرسًا في التعليم العام، حيث بدأ بالتعليم في مدرسة ابتدائية في دمنهور[١]، ثم انتقل إلى التعليم في مدارس الجيزة والقاهرة، حيث استقر به المقام في المدرسة الخديوية بدرب الجماميز في القاهرة، التي بقي فيها من سنة (١٣١٨ - ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٠ - ١٩١٠م)، وفي أثناء وجوده في هذه المدرسة بدأ يتصل بالصحافة، ويكتب لها، وعكف أيضًا على دراسة اللغة الإنكليزية حتى أتقنها، وتعرَّف من خلالها على كبار علماء الإنكليز في عصره، وترجم عددًا من نصوصهم، كما ترجم شعرًا بعض أعمال الشعراء الإنكليز إلى العربية، وبشكل خاص شعر شكسبير[٢]. وفي تلك الفترة نفسها بدأ يكتب بواكير مقالاته في التفسير، وينشرها في الصحف المحلية[٣].

وفي سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، عُيِّن الشيخ طنطاوي مدرسًا للتفسير، والحديث بمدرسة «دار العلوم» التي تخرَّج فيها، وعُيِّن فيما بعد محاضرًا في «الفلسفة العربية والأخلاق» في الجامعة المصرية - أي جامعة القاهرة اليوم -

(١) انظر: زكي محمد مجاهد، المرجع السابق، ١/ ٣١٨.
(٢) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٢/ ١٦٠.
(٣) انظر: أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين، مرجع سابق، ص ١٨٢.

في العام الدراسي (١٣٣٠ - ١٣٣١هـ/ ١٩١٢ - ١٩١٣م)[١]. ثم تقلَّبت الأحوال بشيخنا طنطاوي، فأُقصي من التعليم في دار العلوم، وجامعة القاهرة سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، بسبب نشاطه الوطني المناهض للاحتلال الإنكليزي الذي اتهمه بإثارة الرُّوح الوطنية، ومعاني الحرية بين طلابه، وعاد مرة أخرى إلى التعليم الثانوي حيث تابع رسالته، ونشْر مقالاته وكتبه دون كلل أو ملل، غير آبه بأعدائه المتربصين به من الإنكليز، ولم يتوقف عن العمل الوطني، ففي خلال أحداث ثورة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م)، داهمت قوات الشرطة منزله، وقامت بتفتيش محتوياته بأمر من سلطة الاحتلال، وضيقوا عليه بسبب إصراره على نشر سلسلة مقالاتٍ له في جريدة الحزب الوطني تحت عنوان: «الأمم المستعبَدة وكيف تُقاوِم؟»[٢].

لم يقْصِر الشيخ طنطاوي جوهري نشاطَه على العمل العلمي والتربوي، بل اقتحم أيضًا ميادين العمل الاجتماعي العام، من خلال مشاركاته العديدة، والمتميزة في الجمعيات العامة، حيث أسس «جماعة الأخوة الإسلامية» التي كانت تضم في عضويتها عددًا كبيرًا من الطلاب المسلمين، وبشكل خاص من جنوب وشرق آسيا الذين وفدوا إلى مصر لمتابعة تعليمهم الديني فيها، وكان

(١) انظر تحليلاً لمضمون محاضرات الشيخ طنطاوي في الجامعة المصرية عند: أحمد عبد الحليم عطية، الدرس الفلسفي عند طنطاوي جوهري: قراءة في محاضرات الشيخ الفيلسوف في الجامعة الأهلية، مجلة المسلم المعاصر، السنة ٢٣، العدد ٩٠، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥٩ - ٧٨.

(٢) انظر الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين، مرجع سابق، ص ١٨٢.

عضوًا في جمعية «البر والإحسان» الخيرية، وكان عضوًا بارزًا في «جمعية الشبان المسلمين»، وساهم في إنشاء «جمعية المواساة الإسلامية»، وتولى رئاستها مدة من الزمن، كما كان عضوًا مؤسسًا في «دائرة القاهرة الرُّوحية»[(١)]، هذا دون أن ننسى الإشارة إلى مشاركته الفعالة في النشاطات الدعوية والتربوية لجماعة «الإخوان المسلمين» التي كانت حديثة النشأة والتكوين في ذلك الوقت، وتمتاز وقتئذٍ بالعناية بالجانب التربوي والاهتمام بالشباب وخصوصًا طلاب الجامعات، وهو الأمر الذي كان يوليه جوهري جُلّ اهتمامه. حيث كان يلقي دروسًا في التفسير في المركز العام للجماعة، كما كان أول رئيس تحرير لأول مجلة أصدرها الإخوان المسلمون من عام (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) إلى عام (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)[(٢)]. وقد عرض عليه الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) أن يكون مرشدًا عامًّا للجماعة، فاعتذر، وآثر أن يكون عضوًا، وبايع الشيخ حسن البنا، وظل على بيعته حتى وافاه أجله.كما كان يحرص على إلقاء المحاضرات الدينية والعلمية، وبالذات المحاضرات التي تُظهر التوافق بين الدين والعلم في الجمعيات العامة، والمؤسسات التعليمية، وكان يحرص على إدراج معظم هذه المحاضرات في تفسيره، إذا وجد أية مناسبة تساعده على هذا الإدراج، ولو كانت بعيدة[(٣)].

(١) انظر: عبد العزيز جادو، الشيخ طنطاوي جوهري: دراسة ونصوص، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص٤٠.

(٢) انظر: محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ: رؤية من الداخل، الإسكندرية: دار الدعوة، د.ت، ص١٨٣ - ١٨٧. وانظر أيضًا: محمد فتحي شعير، وسائل الإعلام المطبوعة في دعوة الإخوان المسلمين، ط١، جدة، دار المجتمع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٢٠٥ - ٢٠٧.

(٣) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ١/ ١٩٤.

وبعد كفاح طويل في كل ميادين الفكر والعلم في سبيل نهضة الأمة وتقدّمها، وبناء عالم ومجتمع إنساني فاضل، فاضت رُوح الشيخ إلى بارئها تعالى في أول ذي الحجة من عام ١٣٥٨هـ الموافق ١١من يناير ١٩٤٠م، رحمه الله تعالى.

ثالثًا: النتاج العلمي وكيفية تلقيه

ترك لنا الشيخ طنطاوي تراثًا فكريًّا قيمًا، يكاد يشكّل وحده مكتبة كبيرة، فقد ترك لنا بالإضافة إلى عشرات المقالات الصحفية، حوالي ثلاثين كتابًا في ميادين التربية والتعليم، واللغة والآداب، والفلسفة، والسياسة، والتاريخ، والعلوم، والتفسير، تشيع فيها جميعًا رُوحه الإصلاحية المتوهجة، ويمكن لنا من خلال العرض الموجز لأهم هذه المؤلفات أن نقف على المشاغل الإصلاحية الكبرى التي شكلت محور اهتمامات جوهري.

حيث يمكن تصنيف معظم هذه المؤلفات وفق الترتيب الموضوعي التالي:

(١) مؤلفات دينية علمية: مزج فيها الحديث عن العلوم الكونية، والمكتشفات العلمية بالآيات القرآنية الكريمة، وحاول من خلالها إعادة فهم الدين في ضوء التطورات العلمية الحديثة، ووفق ظروف ومقتضيات العصر الحديث

بشكل يضمن للإسلام دوره الحيوي والفاعل في بناء وإدارة عملية النهضة والتقدم في العالم الإسلامي، ومنها:

- جواهر العلوم: النظر في الكون بهجة الحكماء وعبادة الأذكياء، طُبع للمرة الأولى سنة (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)، ثم طُبع للمرة الثانية سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م). وهذا الكتاب هو أول مؤلفاته، وقف فيه على كثير من حقائق الكون التي اكتشفها العلم الحديث، وقرنها بذكر ما يتعلق بها من الآيات القرآنية. وقد كتب طنطاوي هذا الكتاب على شكل رواية أدبية ليقربه من نفوس وعقول طلبة المدارس، ونابتة الجيل الجديد بشكل عام، ونظرًا لأهمية هذا الكتاب فقد قررته وزارة المعارف المصرية في ذلك الوقت على طلاب المدارس[١].

- التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم، طبع سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، وهو يحتوي على اثنتين وخمسين جوهرة، كل جوهرة منها تفسِّر آية من آيات القرآن الكريم في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة. وقد أهدى جوهري كتابه هذا إلى ميكادو اليابان، وقدمه أيضًا إلى مؤتمر اليابان الديني عام (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، ليساعد اليابانيين على فهم مبادئ الإسلام، ويبين لهم مدى انسجامه مع مقتضيات المدنية الحديثة على أملٍ منه أن يختاروا الإسلام دينًا لهم. وقد انتشر هذا الكتاب أيضًا في تركيا، وإيران، وروسيا، والصين بعد أن تُرجم إلى لغات هذه البلاد.

---

(١) المرجع السابق، ٤/ ١٦٨.

وقد استفادت تركستان الصينية في تطوير نظامها التعليمي من أفكار ومقترحات جوهري فيه. وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة الأوردية في الهند، وإلى اللغة القازانية في روسيا، وتم نشره وتداوله في الصين واليابان وروسيا، وأفغانستان، وماليزيا وإندونيسيا وإيران، وتركيا، وفي بلاد شمال إفريقيا[(١)]. أعاد جوهري طبع هذا الكتاب للمرة الثانية عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م).

- جمال العالم طُبع للمرة الأولى عام (١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢م)، ثم طُبع للمرة الثانية عام (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، وهو عبارة عن سلسلة من الدراسات في الحيوان والطير والحشرات والهوام، مقرونة بما يتوافق معها من آيات القرآن الكريم.

- القرآن والعلوم العصرية ، طُبع للمرة الثانية سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م)، دعا فيه جوهري المسلمين إلى الإقبال على دراسة العلوم الكونية الحديثة؛ ليكونوا على مستوى رسالة القرآن الكريم - الذي أبدى اهتمامًا كبيرًا بدراسة الكون والطبيعة في كثير من آياته، وأمر بدراستهما - وحتى

(١) نقل جوهري على لسان أحد الطلبة الآسيويين ما نصه: «إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكبَّ المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربع قرن بإرشاد المشهور عبد الرشيد إبراهيم السياح على قراءته، والآن في اليابان على ما سمعت من بعض الثقات أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني، فصار هذا الأثر النفيس (دُولَةً) أي تتداوله الأيادي، وأثر في زيادة محبتهم لدينهم، والآن ينتشر الدين الإسلامي بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشارًا واسع النطاق». الجواهر، ٢٢/ ١٩٦. وانظر، طنطاوي جوهري، نهضة الأمة وحياتها، الطبعة الحالية، ص ٣٥.

يستحقوا بذلك شرف قيادة البشرية إلى ما فيه رفعة شأنها. وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة المالاوية المنتشرة في ماليزيا وإندونيسيا[١].

- ميزان الجواهر في عجائب هذا الكون الباهر، طُبع سنة (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م)، ويقع الكتاب في حوالي ٢٧٠ صفحة.

(٢) مؤلفات دينية فلسفية: دعا فيها إلى دراسة نظام الكون، وبناء نظام الأمم وَفْقَه، حتى يحلّ العدل والسلام والمحبة بين الشعوب.

- الزهرة في نظام العالم والأمم، طُبع سنة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)، ثم طبع مرة ثانية سنة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٦م). وهذا الكتاب يتناول دراسة عالم الزهور والنبات، ويحاول اكتشاف طبيعة النظام فيهما، ثم يحاول تطبيق هذا النظام على الأمم. وهو في الأصل عبارة عن ترجمة عن اللغة الإنكليزية لأحد مؤلفات اللورد إيفبري (السير جون لوبك)، أحد مشاهير علماء الطبيعة في إنكلترا في القرن التاسع عشر، وهو المؤلف الذي ترجم له طنطاوي الكثير من النصوص، وأدرجها في تفسيره.

- نظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا، طُبع سنة (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م). قدّمه جوهري هدية إلى مدرسة ساكنة الجنان والدة الخديوي عباس باشا الأول.

(١) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٢٢/ ٧.

وقد تُرجم إلى اللغة الهندية، والفارسية وانتشر انتشارًا طيبًا بين مسلمي الهند وأفغانستان[١].

- النظام والإسلام، طُبع للمرة الأولى عام (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م). ثم طبع ثانية عام (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م). كان هذا الكتاب في الأصل عبارة عن مجموعة مقالات نشرها طنطاوي في مجلة «المؤيد» ذات الاتجاه الإسلامي، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغتين التركية، والأردية.

- بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية، طُبع في مطبعة مصطفى البابي الحلبي، في القاهرة، دون تاريخ نشر، تحدث فيه عن نشأة الفلسفة، وتطورها عند اليونان، وعن مدى عناية وإسهامات المسلمين بالفكر الفلسفي، وحاول فيه بكل قوة التوفيق بين الفلسفة والدين.

- أصل العالم: مباحث فلسفية في الجغرافية الطبيعية، طُبع في مطبعة الفنون الجميلة بالإسكندرية، دون تاريخ نشر.

- المدخل إلى الفلسفة، درس فيه مختلف العلوم الفلسفية التي عرفتها الحضارتان اليونانية والإسلامية عن طريق المقارنة بينهما.

- كتاب التربية للحكيم الألماني كانْتْ، صدر عن المطبعة السلفية، القاهرة، عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، ترجمه الشيخ طنطاوي بتصرف وزيادة عن

(١) انظر: المرجع السابق، ٢٢/ ١٩٥.

الترجمة الإنكليزية له التي قامت بها الآنسة اَنّْتْ تْشَرْتون عن الألمانية. وقد أعاد نشر هذه الترجمة بشكل كامل تقريبًا في تفسيره[١].

(٣) مؤلفات مدرسية وتربوية وأخلاقية وأدبية:

- الفرائد الجوهرية في الطرق النحوية، طُبع (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، ألفه، ودرَّسه لطلابه في مدرسة دار العلوم.

- جواهر التقوى في الأخلاق، طُبع سنة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)، وهو كتاب في علم الأخلاق درسه لطلابه في دار العلوم.

- جوهرة الشعر والتعريب، صدرت الطبعة الثانية عن مطبعة السعادة في القاهرة، دون تاريخ نشر، يحتوي هذا الكتاب - بالإضافة إلى بعض القصائد التي كتبها طنطاوي نفسه، ونشرها على صفحات بعض المجلات الأدبية في عصره - على أشهر ما ترجمه طنطاوي عن أشهر شعراء الإنكليز[٢].

- مذكرات في أدبيات اللغة العربية، طُبع سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، وضعها لطلابه في المدرسة الخديوية.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ١٨/ ٢٠٩ - ٢١٦. يقول أحمد عبد الحليم عطية عن هذه الترجمة: «وأعتقد أنه أول من نقل كانْتْ إلى العربية استجابةً لطلب من مجلة النهضة النسائية، ليكتب شيئًا يتعلق بتربية النشء، وطرق معاملة الأطفال، والمبادئ التي على الأم الإلمام بها لإعداد جيل صالح»، الدرس الفلسفي عند طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص ٥٢. وانظر تحليله لهذه الترجمة في، المرجع السابق، ص٨١ - ٨٢.

(٢) يرى بعض النقاد أن الشيخ طنطاوي جوهري كان من الشعراء الذين وظفوا شعرهم في خدمة أفكارهم الإصلاحية. انظر: عبد العزيز جادو، الشيخ طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) رسائل في مسائل متفرقة:

- رسالة القول الصواب في مسألة الحجاب، وهي عبارة عن ثلاثة مقالات حاور وناقش فيها جوهري آراء قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة».
- رسالة في الهلال، طُبعت في الإسكندرية، عام (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م)، تُرجمت إلى اللغة الهندية، والتركية، والقازانية (لغة أغلب مسلمي روسيا).
- براءة العباسة أخت هارون الرشيد، وتروي هذه الرسالة قصة رُوحية حدثت مع طنطاوي جوهري، مفادها أن رُوح هارون الرشيد اتصلت بطنطاوي جوهري سنة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م)، وطلبت منه تبرئة أخته العباسة مما نُسب إليها من علاقة سيئة مع جعفر البرمكي!
- رسالة عين النملة، عرض فيها آخر الاكتشافات العلمية التي تُظهر إبداع الخالق في تركيب عين النملة.
- السر العجيب في حكمة تعدد أزواج النبي ﷺ طُبعت سنة (١٣٣٣هـ/١٩١٥م)، وفي هذه الرسالة أيضًا مقالة تتناول الوضع في الأحاديث النبوية، وسبب الكذب على رسول الله ﷺ، وقد تُرجمت إلى اللغة الأوردية، وطُبعت مرتين في عام واحد.

- الموسيقى العربية، طبعت في سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، مع أن هذه الرسالة عبارة عن بحث في الموسيقى فإن كل ما فيها هو بحوث في الكيمياء، حيث أثبت جوهري بالقوانين الكيميائية أنَّ هذا الكون إنْ هو إلا موسيقى.

- مجموعة رسائل تتضمن الرسائل التالية: الحكمة والحكماء، ما المقصود من هذا العالم؟، وجهة العالم واحدة، هي النظام العام، قطع شعرية معربة عن الإنكليزية، قصائد شعرية. طُبعت هذه الرسائل عام (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م).

- سوانح الجوهري، مطبوع في مصر، دون تاريخ نشر، وهو عبارة عن مذكرات يومية له، رصد فيها كثيرًا من مشاهداته وتجاربه وأحداث حياته اليومية، وما كان يطوف بباله من أفكار ذاتية تتعلق بالأمور السياسية والتربوية، وشؤون الأمم وسبل نهضتها[١].

ولعل أهم مؤلفاته التي حوت أكثر من غيرها عناصر مشروعه العلمي والإصلاحي، هي الكتب التالية، فضلاً عن كتابه «نهضة الأمة وحياتها»، الذي سنتناوله بالتفصيل فيما بعد:

---

(١) انظر: يوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، ٢/ ١٢٤٣ - ١٢٤٤. يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٨٣م، ٢/ ٢٧٦ - ٢٧٨. أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، ط١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٦م، ٤/ ٥٤٣. عبد العزيز جادو، الشيخ طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص ٢٠ - ٣٩. أحمد عبد الحليم عطية، الدرس الفلسفي عند طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص٤٩ - ٥٦.

- أين الإنسان؟[١]، وضعه بطريقة روائية فلسفية، قام فيها المؤلف برحلة خيالية للكواكب، دعا من خلالها إلى السلام العالمي، وبناء المجتمع الإنساني الفاضل، وقد قدَّم طنطاوي كتابه هذا إلى مؤتمر الأجناس الذي انعقد في لندن سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)[٢].

وقد شرح فيه فكرة مركزية من أفكاره الإصلاحية التي رددها مرارًا وتكرارًا في تفسيره وكتبه الأخرى، خلاصتها أنَّ سبب شقاء البشرية ووقوعها في الحروب والمنازعات، هو خروج وتمرد البشر على شروط النظام العام، ومقتضيات العدل القائمة على قاعدة الحب والتكامل التي تعم الكون بأسره، والتي يجب أن تشمل عالم الإنسان؛ لأن عالم الإنسان ما هو في حقيقة الأمر إلا جزءٌ لا يتجزأ من الكون الشامل الذي خلقه الله تعالى؛ لذلك فلا منجاة للبشر ولا خلاص لهم إلا بالعودة إلى إشاعة رُوح العدل والنظام والتكامل عن طريق التعاون، وتبادل المنافع والمصالح المشروعة بينهم كما هو الأمر بين سائر الكائنات في هذا الوجود، وإلا فإن الدمار والهلاك هو الذي ينتظر نوع الإنسان على هذه الأرض.

---

(١) نُشر هذا الكتاب أول مرة عام (١٩١٠م)، ثم أعادت دار المعارف طباعته سنة (١٩١٣م)، في ٢٧٢ صفحة. يشير أحمد عبد الحليم عطية في تحليله القيم لكتاب «أين الإنسان؟»، إلى أن طنطاوي جوهري قد استلهم في كتابه هذا محاولة الفيلسوف الألماني كانْتْ «مشروع للسلام الدائم»، من جهة، والعلوم الرياضية من جهة أخرى. انظر: أحمد عبد الحليم عطية، الدرس الفلسفي عند طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٢) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٣/ ١١٠.

وبكلمة أخرى فقد دعا جوهري القائمين على تصريف شؤون الاجتماع الإنساني من رجال السياسة والفكر إلى العمل على بناء نظامٍ لاجتماعهم البشري بشكلٍ يكون متطابقًا مع نظام الكون، بما هو عليه من نظام وائتلاف، وانسجام وتكامل، فهو يرى أن عالم الإنسان جزءٌ من الكون، فلا يصلحه إلا ما أصلح الكون من حوله أي النظام التام، والمحافظة على القوانين، والسُّنن الكونية، وهو ما يسميه بالعدل على غرار تسمية اليونان لنظام الكون. فمصير البشرية مرهون بمدى قدرتها على تحقيق العدل والنظام وإشاعة رُوح المحبة والتفاعل السوي فيها على مستوى الأفراد والمجتمعات والأمم[١].

وفي الحقيقة، فقد لقي هذا الكتاب إعجابًا واستحسانًا كبيرين من فلاسفة الغرب وكتّابه الذين أدركوا الحاجة الكبيرة لمثل هذه المؤلفات في الوقت الذي كانت تدلف فيه البشرية إلى أحضان الحرب العالمية الأولى، التي جلبت الويلات والبؤس إلى البشرية.

فها هو المستشرق الفرنسي البارون كارا دي فو يتحدث عن هذا الكتاب، وعن صاحبه، فيقول: «وكتاب (أين الإنسان؟) هذا، وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية. فهو في هذا يشبه الفارابي من حيث أصل الفكرة، وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج، فجمع بين دقة الفكر وجمال الأسلوب.. وصف

(١) انظر: محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٨٠م، ص ٢٠١ - ٢٠٣.

الأستاذ الجمعية الإنسانية وصفًا لا يشرفها بالكمال، بل أظهر نقائصها، وأبان سوء أفعالها، وأخذ يسدي نصائح ويبدي حججًا لالتئام الأمم واتحاد الدول. بل يطلب ما فوق ذلك، وهو الحب والإخلاص العام، والمثل الأعلى في ذلك، ويتمنى كما تمنى الفارابي أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام، وتبادل المنافع... ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠، وتنبأ فيه بطريق حِكَميّ شعريٍّ بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى... فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلمًا، الغزير المادة، السامي الفكرة، الناتج من تفكير عميق، وبحث يقلُّ نظيره، يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين، ويدعو أيضًا بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام، وهو مفخرة لمصر والإسلام»[(١)].

- الأرواح[(٢)]: يمثل هذا الكتاب جانبًا رئيسًا من الجوانب التي استحوذت بل هيمنت على مجمل تفكير طنطاوي جوهري، وصبغت هذا الفكر بصبغتها العامة.

(١) طنطاوي جوهري، أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام العام، ط١، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، المقدمة، صفحة: ى، ك. وقد قرّظ هذا الكتاب (في المقدمة، صفحة: د – ذ) بالإضافة إلى البارون كارا دي فو، كلٌّ من جوزيف شاخت، وهاملتون جيب، وسانتلانا الإيطالي، والجمعية الآسيوية الفرنسية.

(٢) ظهر هذا الكتاب لأول مرة عام (١٩١٨م)، ثم طُبع ثانية عام (١٩٢٠م)، ثم طُبع للمرة الثالثة في حياة جوهري سنة ١٩٣٥م، وهي الطبعة التي أعود إليها هنا. وقد قرَّظ هذا الكتاب الشيخ الصوفي يوسف الدجوي. انظر: طنطاوي جوهري، الأرواح، ط٣، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

حاول الشيخ في كتابه هذا إثبات عالم الأرواح، واستحضار أرواح الموتى، وإثبات قدرتها على مخاطبة البشر، والتدخل في شؤونهم، وحاول فيه إثبات الكشف الرُّوحي، وكل أبعاد الطاقة الرُّوحية، فضلاً عن إثبات وجود الله ﷻ، ويوم القيامة، والجنة والنار، والملائكة والجن، ضمن رؤية تأويلية تنسجم مع ما أسفرت عنه نتائج البحوث الرُّوحية في الغرب(١). وبشكل عام، فقد حاول في كتابه هذا تأويل نصوص الكتاب والسنة، وقراءة التراث الصوفي في الإسلام، وبشكل خاص أفكار الغزالي والرازي وإخوان الصفا بشكل يتوافق مع النظريات الرُّوحية الحديثة التي ظهرت في الغرب في عصره. ولعله في هذا الكتاب كان مأخوذًا ومنبهرًا بالاكتشافات الغربية الحديثة في هذا المجال التي أظهرت توافقًا ولو ظاهريًّا مع مقررات العقيدة الإسلامية، فأراد أن يوظفها في مشروعه الخاص، وهو إقناع مثقفي عصره المنبهرين بالغرب وحضارته المادية، بضرورة العودة إلى الإيمان، والتمسك بالإسلام الذي أثبت الفكر الغربي نفسه أهم ثوابته العقدية التي تخلخلت الثقة بها في نفوس هؤلاء المثقفين(٢).

---

(١) انظر على سبيل المثال ما قاله في الفقرة التي عنونها بـ «معجزات القرآن التي ظهرت مطابقة لما تقدم عند بعض علماء النصارى الذين حدثوا الأرواح»، الأرواح، ص ٢٨٣ - ٢٨٨. وانظر تأويله أيضًا للعذاب والنعيم بعد الموت، ص ٢٩٧ - ٣٠٨.

(٢) يقول طنطاوي جوهري: «هذا كلام الأرواح، وقد ألفت كتابًا في هذا الصدد سميته (كتاب الأرواح)، وقد أشرت إليه في هذا التفسير من قبلُ، وهذا من أعظم معجزات القرآن، وكيف يوافق الكشف، والعلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم، ويكشف الغامض من عجائب هذه العوالم الغائبة عنا، وكيف تنطق الأرواح اليوم بنفس ما شرحه نبينا ﷺ، وما جاء في القرآن». الجواهر، ٤/ ٢٥٥. وانظر أيضًا: ٢/ ١٧٣ - ١٧٤.

- أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام العام[١]: كتبه باللغة الإنكليزية مباشرة، ثم ترجمه بنفسه إلى العربية عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م). وهو في هذا الكتاب يمضي في شرح أفكاره بضرورة السلام العام بين البشر جميعًا، وأوضح فيه أن مدنية اليوم أصبحت مدنية حيوانية، فدعا الناس إلى الإنسانية الحقَّة التي يقوم فيها السلام على المحبة الشاملة، وتبادل المنافع بين جميع البشر على اختلاف أديانهم وأوطانهم وأعراقهم.

وقد تقدّم الشيخ طنطاوي سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، أي قُبيل وفاته، بطلب شخصي منه إلى لجنة نوبل لنيل جائزة نوبل العالمية للسلام، وقد اعتمد في طلبه هذا بشكل أساسي على كتابيه «أين الإنسان؟» و«أحلام في السياسة»؛ نظرًا لأنهما يضمان أفكاره في سبيل تحقيق السلام العالمي. وقد دعم طلبه هذا مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم في جامعة القاهرة آنذاك، وعبد الحميد سعيد عضو البرلمان المصري، الرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين في مصر. لكن إرادة الله تعالى كانت أسبق، حيث توفاه الله تعالى قبل صدور قرار لجنة نوبل، وبذلك ذهب حقه بنيل الجائزة؛ لأنها لا تُمنح إلا للأحياء من المرشحين[٢].

- الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكوّنات وغرائب الآيات الباهرات: وهو آخر مؤلفات الشيخ طنطاوي، وأهمها، ويمكن اعتباره

(١) طبعته مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنة ١٩٣٥م، في ١٠٩صفحات.
(٢) انظر: عبد العزيز جادو، الشيخ طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص ٩٣ - ٩٤.

خلاصة عامة جامعة ومركّزة لكل الأفكار التي أفنى عمره كله في سبيل دراستها ونشرها بين الناس، إذ ضمنه الكثير من كتاباته ورسائله التي ألفها سابقًا. وقد طُبع في حياته بين عامي (١٣٤١ـ ١٣٥٤هـ/ ١٩٢٢ـ ١٩٣٥)[١].

أعلن جوهري في مقدمة تفسيره أن هدفه الرئيس من هذا التفسير هو تفهيم المسلمين العلوم الكونية، وحثهم على الإقبال عليها، والتفوق في دراستها، كمقدمة ضرورية لاستئناف المدنية الإسلامية المجهضة[٢].

وقد أشار بوضوح تام في مكان آخر إلى أن تجديد الأمة، وترقية الجنس البشري بشكل عام هو الهدف الأخير من وضع هذا التفسير: «وعسى الله أن يُجدد لهذه الأمة أمرها، ويُرجع مجدها، ويرفع عنها نيرَها، ويجعلها رحمة للعالمين. اللهم إني لا أريد بكتابي إلا رقي النوع الإنساني، وأن يكون المسلمون أرشد العالمين، وأصلح بني الإنسان، وأن يكونوا قادة وسادة ورحمة لهم لا يظلمون ولا يُظلمون»[٣]. وبهذا نفهم أن الغاية الإصلاحية هي الغاية التي هيمنت هيمنة تامة على تفسير «الجواهر». ومن هنا يحق لنا أن نستغرب كيف تم إغفال دراسة

---

(١) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ١٧/ ١٨٥ - ١٨٦، مساعد مسلم آل جعفر، محيي هلال السرحان، مناهج المفسرين، ط١، بغداد، دار المعرفة، ١٩٨٠، ص ٢٦٠.
(٢) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ١/ ٣.
(٣) المرجع السابق، ٥/ ٨٧.

وتحليل هذا التفسير ضمن تفاسير المدرسة الإصلاحية؟! وكيف تمَّ تصنيفه في مدرسة التفسير العلمي فقط؟!

وفي الحقيقة، فقد تم استقبال هذا التفسير بشيءٍ من الفتور، وأحيانًا بشيء من الإعراض والتجاهل في مصر، وبعض البلاد العربية في الأوساط الدينية ذات الثقافة التقليدية[١]، وربما يعود سبب هذا الفتور والإعراض، إلى ما ذهب إليه الشيخ بحماس شديد من تفسيرٍ للقرآن الكريم على ضوء النظريات العلمية، التي لم تصل هي نفسها بعد إلى درجة الحقائق العلمية، وما قام به من حشدٍ للمسائل الكونية في تفسيره دون إحكام الصلة بينها وبين السياق التفسيري الذي جاءت فيه.

وكذلك يمكن القول بشكل عام إنّ أحد أسباب ضعف استقبال تفسير «الجواهر»، ومعه معظم كتب جوهري الأخرى، في صفوف الفئات التقليدية، وبشكل خاص طلاب العلوم الشرعية في المؤسسات الدينية الرسمية، هو الحضور الكثيف للعلوم، والفلسفة ومصطلحاتها فيها، وحضور علم الأرواح وحوادثه

(١) يقول محمد حسين الذهبي: «ويظهر لمن يتصفح هذا التفسير أن المؤلف - رحمه الله - لاقى الكثير من لوم العلماء على مسلكه الذي سلكه في تفسيره، مما يدل على أن هذه النزعة التفسيرية لم تلقَ قبولاً لدى كثير من المثقفين». محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ط٢، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦م، ٢/ ٥٤٥ - ٥٤٦. وانظر الرسالة التي وجهها طنطاوي جوهري إلى عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز، محتجًّا فيها على منع علماء بلده من السماح لتفسير الجواهر من الدخول إليها، الجواهر، ٢٥/ ٢٤٤ - ٢٤٦.

وأحواله فيها ضمن إطار ورؤية فلسفية عميقةٍ شيئًا ما[١]، وهو الأمر الذي استفزَّ الحسَّ الديني العفوي الذي لا يطيق صبرًا على الفلسفة وتجريداتها، وهو بمنهجه هذا قد خالف الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) [٢]، ومن قبله ابن رشد (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، اللذيْن صرّحا بأن خلط الدين بالفلسفة خطأٌ معرفي ومنهجي في الآن نفسه، في حين أن دراسة الفلسفة بشكل مستقل أمر نافع؛ بل يشكِّل ضرورة معرفية للعقل الإسلامي الباحث عن الحقيقة، والمستكشف للكون وآفاقه، أما خلطها بالدين فهو مفسدٌ لها، وللدين نفسِه إذ لكل منهما منهج وموضوع يختص به دون الآخر، ومصلحة الاثنين تكمن في تعاونهما دون أي دمج أو تداخل بينهما على مستوى المنهج أو الموضوع[٣]. وهذا هو الخطأ الكبير الذي وقع فيه جوهري عندما خلط الدين بالفلسفة، وقد دفع ثمن هذا الخلط غاليًا، عندما زهد كثيرٌ من القراء التقليديين فيه، ونظروا إليه نظرة ريبة وشك، وبهذا تقلصت قاعدة قرائه بشكل عام، وعجز بالتالي عن توصيل رسالته الإصلاحية كما كان يحب ويريد من خلال تفسيره وبقية كتبه الأخرى بشكل عام.

---

(١) انظر: محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، ط١، القاهرة، دار التراث، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٧١١ - ٧١٢.

(٢) ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الشيخ طنطاوي جوهري من مدرسة الشيخ محمد عبده الإصلاحية، انظر: عبد العزيز جادو، الشيخ طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص ٤٦ - ٤٩.

(٣) انظر: محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ٣/ ٣٦٣ قارن طبيعة رؤية محمد عبده للفلسفة، ومنهج التعامل معها بجهود ابن رشد في الميدان نفسه، محمد عمارة، الموقع الفكري لابن رشد بين الغرب والإسلام، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الأولى، العدد الثاني، ١٩٩٥م، ص ٧٩ - ١١١.

وفي هذا السياق نفسه، يمكن القول إنّ أحد أسباب محدودية انتشار مؤلفات جوهري بين صفوف الفئات التقليدية، هو أنها نصوصٌ فاجأت قراءها آنذاك بالجمع بين المرجعية الإسلامية، ومرجعية غربية تمثلت في الرجوع للفلسفة اليونانية والكثير من الكتب الأوربية في مجال العلم والفلسفة والتاريخ...، وصادف أنَّ المرجعية الغربية في ذلك الوقت كانت تُشكِّل بالنسبة للوعي الجمعي الإسلامي - الذي يكتب من خلاله وله - اعتداءً صارخًا عليه وعلى أرضه، ومقدساته، ورموزه؛ لذلك حُكم بالإقصاء والإهمال على تفسير جوهري[(١)]، وبعض كتبه الأخرى، وسبب استمرار هذا الإقصاء حتى على مستوى بعض النخبة المثقفة من المسلمين هو استمرار الظرف التاريخي المنتج للحساسية والنفور من الغرب وثقافته، من خلال استمرار حدوث ظواهر اعتداء الغرب على البلاد الإسلامية بين الحين والآخر تحت هذه الحجة أو

(١) لاحظ الباحث أن كل التفاسير الحديثة التي انفتحت على الثقافة الغربية واستفادت منها لاقت شيئًا من الإهمال والحذر من الفئات التقليدية التي تريد المحافظة على القديم كما هو، هذا فضلاً عن السبب الذي ذكرته في البحث. هذا الكلام خاص بالفئات التقليدية أما الفئات التي نالت نصيبًا من الثقافة الحديثة فقد رحبت بتفسير الجواهر واستقبلته استقبالاً طيبًا كما أوضحت ذلك في كلامي اللاحق، وفي جميع الحالات فإنه لا يمكن اللجوء إلى سبب واحد يفسر لنا كل الحالات الفكرية، فلكل حالة تفسيرها الخاص بناء على ظروفها الخاصة بها؛ لذلك لا يشترط في نظري تعليل ظاهرة إقصاء تفسير المراغي بنفس السبب الذي عللت فيه ظاهرة إقصاء تفسير طنطاوي جوهري من قبل الفئات التقليدية حصرًا، فتفسير المراغي لم يلق النجاح المنتظر في رأيي المتواضع لأن الشيخ المراغي كان ينتمي لمدرسة الشيخ محمد عبده الإصلاحية وكان يعد أحد أبرز مناصريه، وهذا الأمر جرّ عليه معاداة كل من كان يعادي شيخه من قبل وهم في معظمهم من الفئات التقليدية، هذا فضلاً عن أن الشيخ كان معروفًا بحبه للاجتهاد وحرية الرأي ومهاجمة التقليد، وهذا الأمر لم يكن يلاقي قبولاً عند معظم التقليديين؛ فتم الحكم على تفسيره والتعامل معه بناء على الحكم على شخصيته الإصلاحية؛ لذلك تم إقصاؤه إلى حد ما من قبل الفئات التقليدية بغض النظر عن مضمونه المعرفي.

تلك. وعلى عكس الاستقبال الفاتر والحذر لمؤلفات جوهري بين الفئات التقليدية، فقد تمّ استقبالها باهتمام وحماس من قبل كثير من المسلمين المتدينين المطلعين على الثقافة الحديثة، حيث دفعتهم إلى الإقبال على العلوم الكونية، وتسخير هذا الإقبال لمصلحة تدشين النهضة الإسلامية المنشودة[١]. وكذلك الأمر فقد لقيت كتب جوهري إقبالاً كبيرًا عند مسلمي آسيا، حيث شهدت رواجًا كبيرًا في الهند وتركستان وإيران وجاوة، والصين واليابان وتركيا، وقامت لجان مختلفة في هذه البلاد بترجمة العديد منها إلى لغاتهم المحلية كما ذكرنا سابقًا[٢].

وبشكل عام، فإنه يمكن لقارئ كتابات جوهري عمومًا، بما فيها كتاب «نهضة الأمة وحياتها»، أنْ يلاحظ بوضوح سيادة النزعة الخطابية، والشعرية، والجدلية فيها على مستوى الشكل، وذلك واضح من خلال إكثاره الشديد من الشعر، والقصص، والأسلوب التصويري الأخّاذ، والحوارات الطريفة والممتعة، والطرائف التاريخية، والأمثال، والحِكم، والأحداث والحكايات، والأحلام الشخصية. ويلاحظ تأثره الانفعالي الشديد على مستوى المضمون بمقولات العصر المعرفية

(١) قارن بـ عبد القادر زمامة، وآخرين، معجم تفاسير القرآن الكريم، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ٢٤٢. وانظر: أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين، مرجع سابق، ص ١٨٠ - ١٨٣.

(٢) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٤/ ١٦٨. وانظر: محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها، مرجع سابق، ص ٢١٥.

والفلسفية إلى درجة صبغت مؤلفاته بروح توفيقية واضحة[١]. ولعل هذا المنهج الذي اعتمد عليه جوهري في كتاباته، يُفسِّر لنا رواج هذه الكتابات، بين صنفين من القراء: الصنف الأول، وهو الذي كانت تتوق نفسه للتغيير والإصلاح، ويتطلع نحو الجديد، وأغلب وجود هذا الصنف من القراء كان بين المسلمين الذين تعلموا في المؤسسات التربوية الحديثة. وقد وَجد هذا الصنف من القرّاء في كتابات طنطاوي ما يشبع فضوله المعرفي، ويروي ظمأه الرُّوحي، ويَعِدُه في الوقت نفسه بالدخول إلى الأزمنة الحديثة بأقل تكلفة، والتمتع بثمراتها المادية والمعنوية دون أن يخسر شيئًا من دينه. والصنف الآخر هم المسلمون المهتمون بالثقافة الغربية الذين أرضاهم اهتمام جوهري بالعلوم والفلسفة، وتأويل نصوص الدين في ضوئهما.

ولعل هذا يفسِّر لنا أيضًا سبب القبول والاستحسان الشديد الذي لقيته مؤلفات جوهري بين أوساط المستشرقين الذين سرَّهم اضطلاع عالم ديني له مكانة وشأن في مجتمعه بالتبشير - ولو بشكل غير مقصود - للثقافة الغربية علمًا وفلسفة. ولعل أجمع نص يمكن أن نستشف من خلاله خلاصة موقف مستشرقي الغرب من طنطاوي جوهري، وآرائه الفكرية التي عبّر عنها في كتبه، ما جاء في تقريظ الجمعية الآسيوية الفرنسية لكتابه «نظام العالم والأمم»: «نحن لا يسعنا إلا الاعتراف للشيخ طنطاوي جوهري بسعة المدارك والاطلاع الواسع

(١) انظر على سبيل المثال: طنطاوي جوهري، نهضة الأمة وحياتها، مرجع سابق، ص١٩١ - ٢٣٦، أحلام في السياسة، ص ٣٧ - ٧٩، الأرواح، ص ١٥٥ - ١٧٥.

المقرون بعقل رزين، وحكمة وذكاء، فانظر كيف أتى بالفلسفة العالية، والنواميس الطبيعية، وفنون الآداب العربية الواسعة، وإبرازها بمهارة وعبارة عالية ثمينة، وبلاغة باهرة... وليس إجلالنا لهذا الأستاذ لما تقدم فقط، بل لأنه أيضًا ترجم آراء مؤلفي الإنكليز .. وبحث في الفلسفة الإغريقية واللاتينية.. الشيخ طنطاوي جوهري رجل فيلسوف حكيم بقدر ما هو عالم بالدين، وبهاتين الصفتين قد فسَّر القرآن الذي أثبت أنه دين الفطرة بما هو أكثر ملاءمة للطباع البشرية، وموافقة للحقائق العلمية، والنواميس الطبيعية أيما موافقة... فبهذه المباحث يخاطب المؤلف الأمم الإسلامية عمومًا، وعشاق البحث من كل أمة، ويحاول إزالة الغشاوة عن أعين الأمم الإسلامية، وتحرير عقولهم من الجمود المخيم عليها في جميع الأقطار، وسائر الممالك على اختلاف مذاهبهم، وتباين مشاربهم؛ لأن بحثه عام في الكائنات، ونداءه عام حتى يلتحق الشرق الأدنى بالأمم الغربية في المعارف والعلوم والمدنية والحضارة»[1]. على الرغم من إشارة هذا النص إلى بعض الحقائق التي تتعلق بثقافة، وأسلوب الشيخ طنطاوي، وهدفه الإصلاحي من التفسير، ورُوحه وفكره الإنساني الشامل، وعلى الرغم من النغمة التبجيلية الظاهرة فيه، فإنّ هذا النص يفوح برائحة المركزية الأوربية التي لم تكن ترى طريقًا لمعايرة مدى مدنية وحضارة أي أمة إلا من خلال النموذج الغربي في التمدن

(١) طنطاوي جوهري، أحلام في السياسة، المقدمة: والجواهر في تفسير القرآن، ١٢/ ١١١.

والتحضر، وهذا الرأي هو الذي رافق الحملات الاستعمارية الغربية على العالم الإسلامي بحجة الأخذ بيده نحو ما ينبغي له من التقدم(١).

وفي هذا السياق قام بعض المثقفين الغربيين، وعلى رأسهم بعض المستشرقين بتوظيف كل النصوص الإسلامية التي لاحظوا إمكانية توظيفها في سبيل هذه الغاية، حتى ولو كان مقصد أصحاب هذه النصوص، وطريقة فهمهم للعلاقة مع الغرب تختلف قليلاً أو كثيرًا عن رؤية الغربيين لهذه النصوص، كما حدث هنا مع نصوص طنطاوي جوهري حيث تمت قراءتها قراءةً أيديولوجية لا ترى فيها إلا ما يؤكد مركزية النموذج الغربي، وهامشية النموذج الإسلامي، وضرورة اقتفائه لأثر الغرب في التحديث والتقدم . ومن الأدلة على أيديولوجية هذا الرأي، وتاريخيته، وارتباطه بحاجة المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يشهد في ذلك الوقت ذروة اندفاعه ووحشيته، التي كشفها ونقدها طنطاوي جوهري بوضوح في تفسيره، هو أن الجيل التالي من المستشرقين قد قلب له ظهر المجنّ، ولم يُشر إليه، ولا إلى تفسيره إلا إشارات وجيزة ملؤها التعجب من محاولته تفسير القرآن في ضوء العلوم الكونية الحديثة!(٢).

---

(١) انظر: Merad, Ali, L'Islam Contemporain. Paris, Presses universitaires du France, 1984. pp 37–42

(٢) انظر: Baljon, J. M.S, Modern Muslim Koran Interpretation (1880 - 1960). Leiden, E. J .Brill, 1968. pp 29, 59.

Andrew, Rippin, The Quran and its Interpretative Tradition, Ashgate, Variorum, Aldershot, Burlington, 2001, pp X 20–21.

=

رابعًا: الرؤية الإصلاحية العامة

لا يمكن للباحث عن رؤية طنطاوي الإصلاحية التي شكلت الإطار العام والأساس النظري لأفكاره وجهوده الإصلاحية؛ إلا أن يضع في اعتباره أولاً المحدِّدين الرئيسين اللذين كانا خلف هذه الرؤية، والمشروع الإصلاحي الذي تقدَّم به جوهري إلى مسلمي عصره بشكل عام، والمثقفين منهم بشكل خاص:

المحدِّد الأول لهذه الرؤية: فلسفة العلم السائدة في عصره، أي الوضعية المادية، والأيديولوجية التطورية، التي تؤمن بأن العالم مادي، ينمو ويتطور باستمرار وفق قوانين ذاتية، لا علاقة لها بوجود أول، أو إله مفارق[1]. فقد كان رهان جوهري هو نقض هذه الرؤية المادية للعالم؛ لكي يفسح المجال لإحلال الرؤية الإسلامية بديلاً عنها، وبالتالي يعيد الثقة بالإسلام وعقائده كخطوة أولى على طريق التأسيس المعرفي لمشروعه الإصلاحي المنطلق من الإسلام أولاً، والمنفتح بعد ذلك على العالم المعاصر، وعلومه وثقافته دون أن يخسر إسلامه،

= ونجد هذا الموقف نفسه، بالإضافة إلى الاعتراض على النزعة الإصلاحية المهيمنة فيه، عند بعض الباحثين المعاصرين ممن ينتمون إلى تيار الحداثة، انظر: عبد المجيد الشرفي، الإسلام والحداثة، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٩١م، ص ٦٩ - ٧٦.

(١) يقول محمد محمد حسين: «كان اهتزاز اليقين في هذا الجيل أثرًا من آثار الافتتان بالبحث التجريبي، والانبهار بالآفاق الجديدة التي فتحها هذا المنهج العلمي ولا يزال، مما كان في عداد الأحلام، وترتب على ذلك دعوةٌ تدعو الناس إلى رفض كل ما لا تثبته التجربة، واعتبار كل العقائد الدينية التي تتصل بما غاب عن حواسنا أوهامًا تعوق مسيرة البشرية في الانطلاق إلى المعرفة». محمد محمد حسين، أزمة العصر، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص ١٢٦.

وقد استعان في سبيل هذا النقض بما يملك من عدة فلسفية، وبشكل خاص بالفلسفة الأفلاطونية والفيثاغورية[١] في الفكر القديم، وبعلم الأرواح في الفكر الحديث ليثبت أن للعالم إلهًا، وأن الأمور الغيبية، وما ذكره الإسلام من عقائد متعلقة بها، ممكنة معرفيًا، بالاستناد إلى ما وفره له علم الأرواح الحديث ذو المرجعية الغربية المصطبغة بالعلم، وكشوفاته في العصر الحديث، من سند علمي يحاجج به أصحاب الثقافة الغربية أنفسهم من ذوي النزعة المادية، وهم أغلب مثقفي عصره آنذاك. فهو يريد أن يحاججهم من داخل مرجعيتهم الثقافية نفسِها أي الدائرة اليونانية القديمة، والدائرة الغربية الحديثة حتى يكون تأثيره بهم أبلغ وأعمق، وهذا ما كان له فعلاً، فقد كان أثره في مثقفي عصره أكثر من تأثيره في سواهم.

والمحدِّد الثاني: حالة التخلف الشامل التي كان يعيش فيها عموم المسلمين في عصره على كافة الصُّعُد والمستويات، وبشكل خاص على المستوى العلمي والسياسي، ومقارنة هذه الحالة بالمستوى المتقدم الذي كان يعيشه الغرب آنذاك، وما أدى إليه هذا التفاوت التاريخي، والشرخ الحضاري الكبير بين المسلمين والغربيين من أزمة ثقة عند كثيرٍ من المسلمين بدينهم وقدرته على تحقيق ما كانوا يتوقون إليه من اللحاق بركب الحضارة والتقدم إلى جانب الغرب من جهة، وإلى تمدد الغرب عسكريًا واقتصاديًا على حساب العالم الإسلامي، وما أدى إليه هذا التمدد من استعمار وسلب ونهب للدول الإسلامية، وإنهاء

(١) الفيثاغورية Pythagoreanism هي مصطلح يستخدم للإشارة إلى المعتقدات الباطنية والميتافيزيقية التي آمن بها فيثاغورس وأتباعه، الفيثاغوريون.

الوجود السياسي للدولة الإسلامية في العصر الحديث، ومن صراع وتنافس بين دول الغرب نفسها، الأمر الذي أنذر بحدوث كوارث كونية يمكن أن تعمّ آثارها البشرية كافة من جهة أخرى.

والآن يمكن لنا تلخيص أهم العناصر التي شكّلت نسيج الرؤية الإصلاحية عند طنطاوي جوهري على النحو التالي:

- التأكيد على أنه لا خوف على الإيمان بالله تعالى من العلم، ولا خوف على العلم من الإيمان بالله تعالى، وبث رُوح الطمأنينة بين المسلمين الذين بهرتهم العلوم الكونية، والفلسفات الأوربية الحديثة، والتي أحدثت عند الكثير منهم في النصف الأول من القرن العشرين هزة عَقَدية، أطاحت بإيمان الكثير منهم، وأفقدت الكثير منهم الولاء للإسلام، ودفعتهم إلى النظر إليه على أنه دين رجعي لا يساير العلم والتقدم. بل أكثر من ذلك، إن الدين يدعو إلى اكتساب العلوم الكونية، ويعطي المشروعية الدينية التامة لهذا الاكتساب، ويجعله فرضًا كفائيًّا على الأمة بأكملها.

وكان يرى أن الجمع بين الدين والعلم هو الطريق الأمثل لتحقيق النهضة المنشودة، وأن دفع الأمة لاكتساب العلوم الكونية عن طريق الدين هو أسرع وأضمن الطرق لتحقيق التقدم. يقول جوهري ردًّا على ليبرالي علموي مصري يذهب إلى أن العلم هو السبيل الوحيد للنهضة: «إن أستاذنا المرحوم علي مبارك،

قال لنا: إنكم انتُخِبْتم من الأزهر، والأزهريون إذا قرؤوا علوم أوروبا، وطبقوها على الدين أزهرت بلاد الإسلام، وأينعت، وأخذت زخرفها، وازيَّنت، وما دام العلم في ناحية، والدين في ناحية، فإن بلاد الإسلام تبقى وحوشًا يبابًا، وقاعًا صفصفًا، وصعيدًا جُرُزًا تذروه الرياح،..(ثم قال جوهري على لسانه هو): فالأمة الإسلامية اليوم لقلة العلم بهذه الدنيا، ونظامها، وجهل القائمين بإرشادها واقعة في براثن الاستعمار والإذلال، فإذا قام فريق من أهل العلم الديني، وكانوا على نور من ربهم في العلوم العصرية، اتبعتهم الأمة، وأسرعوا إلى الرقي أكثر من جميع الأمم؛ لأن العقيدة الدينية يكون لها أثر عظيم في العلوم، وتحصيلها.. ومن العجيب العجيب أن أرباب الفكر في الإسلام غاب عنهم أنّ أوروبا لما أرادوا الارتقاء لم تقل نترك ديننا، فأما نحن فإننا نريد تركه!»[(١)].

إذًا، فإن جوهري يتفق من حيث الهدف مع دعاة الإصلاح الليبرالي من حيث ضرورة العلوم لرقي الأمة، ولكنه يختلف عنهم من حيث ضرورة تأسيس هذه الدعوة على الدين؛ لأن الناس أكثر اتباعًا للدين، والدين أضمن وأدعى لإقبال النفوس على العلم.

وفي ضوء هذا الفهم نستطيع أن نُدرج الحملة الكبيرة التي شنها جوهري على بعض فقهاء ومتصوفي عصره الذين وقفوا حجر عثرة في سبيل دعوة المسلمين إلى العلم عن طريق القرآن والدين بسبب فهمهم الخاطئ لهما،

(١) طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٥/ ١٨١.

ونستطيع أن نفهم أيضًا دعوته الجريئة إلى تغيير، وإصلاح مناهج التعليم الديني في المؤسسات التربوية لتشمل العلوم الكونية على أنها علوم دينية أصيلة[١]. يقول جوهري: «ما عذَّب المسلمين، ولا أزاحهم عن مكانهم السامي الذي خوله الله لهم من الشرف العميم، والفضل العظيم إلا القصاصون المخرِّفون، وأدعياء العلم، وما أكثرهم، وهم ضالون مضلون بما يفترونه على الله عز وجل باسم الدين، والدين بريء مما يقولون، فعلى قادة الأمة الإسلامية أن يدخلوا البيت من بابه، ويدعوا المسلمين للعلم بطريق الدين، كما أُخرجوا منه بطريق الدين، فبالدين ادعاءً أُخرجوا، وبالدين تحقيقًا يدخلون»[٢].

- دعوة البشر أجمعين إلى الكف عن حالة العداوة والاقتتال، والدخول جميعًا في حالة السلام العام الذي يحقق مصلحة الجميع[٣].

- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وجمع شمل المسلمين بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والوطنية والمذهبية، أي الحث على تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة[٤].

- إثبات أن لا حياة للأمة الإسلامية إلا بالحياة الدستورية القائمة على قيم الحرية والعدل والمساواة، ونبذ الاستبداد وكل قيم العبودية والاستذلال.

(١) انظر: المرجع السابق، ١/ ٢٨٨ – ٢٨٩، ٤/ ٦٦ – ٦٩، ١٩٥ – ١٩٦.
(٢) المرجع السابق، ٧/ ٣.
(٣) انظر: عبد العزيز جادو، الشيخ طنطاوي جوهري، مرجع سابق، ص ٣٠ – ٣١.
(٤) انظر على سبيل المثال: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٢/ ١٣٥ – ١٣٦.

يقول جوهري: «ولعمري ما أضل أمة الإسلام ولا أخلَّ بنظامها إلا الاعتماد على الرؤساء والخضوع التام لملوكهم؛ فاستبدوا بهم خاضعين، وأذلوهم مخدوعين، وقتلوا رجالهم واستحيوا نساءهم، وهم خاضعون»[١].

- ثقته التامة بقدرة المسلمين على استعادة مكانتهم الحضارية، وإصلاح أحوالهم ومجتمعاتهم، واسترجاع القدرة على الفعل والإنجاز التاريخي الذي يتجاوزون به كل مأزقهم ومشاكلهم الداخلية، ويساهمون مساهمة فعالة في حلّ المشاكل والأزمات العالمية[٢].

- كان يرى أنَّ إصلاحَ بنية التعليم الديني، عن طريق دمج دراسة العلوم الكونية فيه باعتبارها علومًا إسلامية أصيلة، من حيث إن الله ﷻ أمر بتعلمها، وعن طريق تعميم التعليم العام بعد إصلاحه وإعادة تنظيمه، وربطه بالقرآن الكريم، والقيم الإسلامية عمومًا، ونشر هذا التعليم المتكامل بين كافة طبقات المجتمع، مدخلٌ إجباري لإصلاح أحوال المسلمين، وخطوة حتمية إذا ما أرادوا استعادة استقلالهم، وتحرير بلادهم، وتطوير مجتمعاتهم[٣].

(١) المرجع السابق، ٢/ ١٥٩، ٢/ ٩، ٧٧ - ٧٨.
(٢) انظر: المرجع السابق ، ١/ ٣، ٢٣٤، ٦/ ١٧، ١٧/ ١٣٩، ٢٤/ ٢٥٠.
(٣) انظر: المصدر السابق، ٤/ ٦٦ـ ٦٩، ٥/ ١٩٠ـ ١٩١.

- كان يرى أن أحد أسباب ضعف المسلمين، وانتقاض أمرهم هو انكبابهم الكبير على دراسة العلوم الشرعية واللغوية (التي يصفها بأنها علوم وسائل، ولفظية، وهي من فرائض الكفاية)، وإهمال دراسة العلوم الكونية، على الرغم من أن القرآن الكريم قد أَولى الآيات المتعلقة بالكون والطبيعة مساحة أكبر بكثير من المساحة التي خصصها لعرض الأحكام الشرعية[(١)]. يقول الشيخ طنطاوي في تقرير هذا الرأي، ما نصه: «يا أمة الإسلام، آيات معدودة في الفرائض اجتذبت فرعًا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رُقِيِّه، يا ليت شعري! لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟ ولكني أقول: الحمد لله، الحمد لله، إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض؛ لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر.. إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[(٢)].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ٢٥/ ٥٣ - ٥٤.
(٢) المرجع السابق، ٣/ ٩.

وهكذا، فإنّ جوهر الرؤية الإصلاحية التي أضنى طنطاوي جوهري نفسه في الدعوة إليها، تتلخص في المعادلة التالية: إنّ وجود العلم بجميع فروعه والاهتمام به قد أدى في السابق ويؤدي اليوم إلى نهضة المسلمين وسيادتهم، وبالمقابل فإن إهمال العلوم، والتقصير في تعليمها يؤدي إلى ذلة المسلمين وضياع دولتهم واستقلالهم[(١)].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تفوق الغرب الكاسح في ميدان العلوم، وشيوع الاعتقاد بأن تقدُّم الغرب العلمي هذا، هو مبعث وعلة نهضته وتقدمه، هو الذي دفع الشيخ جوهري وبعض المصلحين من أمثاله، إلى الاعتقاد بأن العلم والتعليم هما البلسم الرئيس والأهم لشفاء أمراض الأمة الإسلامية، ورد غائلة الأعداء عنها، وإنجاز نهضتها، وتحررها واستقلالها من رِبقة الغرب وسيادته[(٢)].

---

(١) الأدلة على رسوخ هذه المعادلة في فكر الشيخ طنطاوي واضحة وضوحًا شديدًا في تفسيره، فها هو يقول بعد أن ذكر دور العلوم والاهتمام بها في نهضة أوربا: «بهذا وحده ارتقت أوربا، وبهذا وحده يرتقي الإسلام.. ». الجواهر، ٢ / ١١. ويقول في موضع آخر: «والإسلام (يقصد النهضة الإسلامية) لا يحتاج إلا إلى نظرة بسيطة، وقراءة العلوم لا غير»، ٥ / ١٨١.

(٢) من الأسباب التاريخية المسئولة عن ولادة النهضة الأوربية التي لم ينتبه إليها طنطاوي جوهري بشكل واضح ومباشر: حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، واكتشاف العالم الجديد، واكتشاف طرق المحيطات، والوصول إلى الهند، وانتشار ظاهرة التسابق على الوصول إلى منابع الثروة في العالم خارج الحدود الأوربية؛ الأمر الذي أدى إلى استعمار معظم بلاد العالم، ونقل خيراتها إلى أوربا، وتراكم الثروات فيها؛ وقيام الدولة/ الأمة في الغرب، التي ترتب عليها توحيد أجزاء متناثرة من أوربا في ظل دولٍ كبيرة وقوية... بالإضافة بطبيعة الحال إلى الثورات الصناعية والسياسية التي وفَّرت مناخ الحريات، وحقوق الإنسان ضمن المجال الأوربي.

خامسًا: عرض كتاب «نهضة الأمة وحياتها»[١]

بنية الكتاب

نشر جوهري كتابه هذا بادئ ذي بدء في أعداد من مجلة «اللواء»، التي أسسها مصطفى كامل (ت ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) زعيم الحزب الوطني، ثم قام بجمعها ونشرها في كتاب مستقل يحمل عنوان «نهضة الأمة وحياتها» في عام ١٩٠٨م، وقد قام مصطفى كامل بسبب اهتمامه الشديد بهذا الكتاب وبصاحبه بطبعه في مطبعة اللواء، الأمر الذي ساهم في رواج الكتاب وانتشاره بين الناس[٢]. ونشير هنا إلى أنه قد سبق لجوهري قبل نشر هذا الكتاب أن نشر كتبًا أخرى منها: «جواهر العلوم»، و«ميزان الجواهر»، و«النظام والإسلام»، و«نظام العالم والأمم»، و«التاج المرصع بالجواهر والعلوم»، و«جمال العالم».

وبعد حوالي ربع قرن (عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، أعاد جوهري نشر الكتاب للمرة الثانية، دون أن يغير شيئًا من أفكاره الأصلية التي نشرها في الطبعة الأولى، مضيفًا إليه بعض النصوص الأخرى التي كتبها فيما بعد، مثل المقدمة التي وضعها لكتابه «التاج المرصع» في طبعته الثانية التي نشرها عام (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)[٣]..

---

(١) سنعتمد في طبعتنا لهذا الكتاب على الطبعة الثانية له التي صدرت عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، وهي آخر طبعة صدرت من الكتاب في حياة المؤلف.

(٢) طنطاوي جوهري، نهضة الأمة وحياتها، مرجع سابق، ص ٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٧، ٣٦ – ٤٨.

وبعض المقالات التي تابع فيها حديثه عن إصلاح الأزهر. وهذا يدل على ثبات جوهري في أفكاره واستقراره عليها، ويدل في الوقت نفسه على رواج هذا الكتاب بين الناس والقراء. يضم الكتاب ستين مقالة وزعها جوهري على ثلاثة أبواب: تناول في الباب الأول حرية الأمم، ونظام التعليم في الجامع الأزهر (١٣فصلاً)، وفي الباب الثاني أنواع السعادات، والمدنية، والوطنية، وانتخاب المجالس النيابية (٣١ فصلاً)، وفي الباب الثالث شؤون عامة علمية وأدبية (١٦ فصلاً).

أفكار الكتاب

على الرغم من أن القارئ المتعجّل لكتاب جوهري قد يقع في ظنه أن الكتاب تنقصه اللُّحمة الداخلية، ويفتقد للإشكالية الواحدة التي تتبدى في كل جزء من أجزائه. وذلك بسبب كثرة العناوين التفصيلية المتغايرة على مستوى الظاهر في كل الكتاب.

ولكن هذه النظرة العَجْلى تتبدد مباشرة في الوقت الذي يمضي فيه القارئ في قراءة الكتاب بطريقة عميقة، ترد الأفكار الجزئية إلى كلياتها، وتشد أطراف المواضيع المتناثرة إلى بعضها، وتجمعها في إطار كلي جامع وموحد.

وإذا اجتهدنا في البحث عن هذا الإطار الكلي الجامع والناظم لكل جزئيات الكتاب، فسنجد أن جوهري قد أدار كتابه بشكل مقصود ومدروس

حول قضية واحدة على مستوى العمق والمضمون، ألا وهي قضية نهضة الأمة (المصرية خاصة، والإسلامية عامة)، وقد تناول هذه القضية من عدة نواح، حيث تطرق إلى فكرة النهضة وأصولها ومشروعيتها، وبيان أهميتها وضرورتها، وحاول الكشف عن بعض قوانينها العامة، وانتقل بعد ذلك إلى معالجة بعض المسائل الجزئية ذات الطابع العيني المحدد، التي من شأنها أن تمهد الطريق للوصول إلى النهضة، وتعمل على إزالة ما يعترض هذا الطريق من موانع موجودة في مصر والعالم الإسلامي بشكل واقعي، مثل: قضية الإصلاح السياسي، والإصلاح الخلقي، وإصلاح الأزهر، وإصلاح طريقة التأليف، وإصلاح نظام الجندية، وتنظيم عمل الجمعيات الخيرية، وإصلاح تدريس العلوم الدينية، والإصلاح اللغوي، وإصلاح تدريس الشعر والتاريخ، وبناء الكليات الجامعية، وتحسين نظام البعثات العلمية إلى الخارج، ودفع الشبهات التي تغض من الطبيعة الحضارية للإسلام، والإنفاق في المصالح العامة وخاصة في مجال التعليم والصحة، والدعوة إلى التصنيع المحلي، والاكتفاء الذاتي على المستوى الاقتصادي. وهكذا يمكن لنا أن نتعرف على النسيج الفكري المكون لخطاب جوهري في كتابه «نهضة الأمة وحياتها»، وفق النقاط الرئيسة التالية:

١ - أسئلة النهضة

إن أسئلة طنطاوي جوهري النهضوية التي ثارت في فكره ونفسه، والتي جاءت في سياق الاحتلال الإنكليزي لمصر، الذي فتّح عيني جوهري على الفجوة التاريخية والحضارية التي تفصل بين العالم الإسلامي والغرب في جميع المجالات، هي التي شكّلت الحافز له على الانخراط في العمل النهضوي، وصاغت فيما بعد كل عناصر مشروعه الفكري.

ويمكن لنا صوغ أسئلة جوهري وفق النقاط التالية:

- لماذا وقعت الأمة الإسلامية فريسة الاستعمار الغربي؟
- هل العلوم التي ساد بها الغرب على المسلمين محرّمة دينيًا؟ وما هو موقف القرآن الذي يصوغ الرؤية الإسلامية والعمل التاريخي منها؟
- لماذا انحطت الأمة؟ وهل في الإمكان ارتقاؤها؟
- لماذا لا يتقدم المسلمون مثل الغربيين، بل لماذا لا يسبقونهم في مضمار التقدم؟[١]

---

(١) يقول طنطاوي جوهري: «لما أخذتُ أتعلم في الجامع الأزهر.. وقرأت بعض العلوم الدينية واللسانية والعقلية.. هنالك فكرت في أمتنا الإسلامية والأمم التي تحيط بها وتستعبدها، وهل العلوم التي يقرؤونها حتى سادوا بها علينا محرّمة في ديننا؟ وهل القرآن يبيحها أو يوجبها؟ ولماذا انحطت هذه الأمة، وهل في الإمكان ارتقاؤها، وإذا كان خالق العالم قد أرانا شجرًا ونهرًا وفلكًا.. وكذلك أرانا أممًا تعلمت الصناعات، وآلات الانتقال، وآلات =

وبكلمة أخرى، فإن القضية المركزية التي استحوذت على اهتمام جوهري في حياته كلها، وطرحها بشكل واضح في كتابه هذا، هي أسباب انحطاط الأمة وتأخرها، والبحث عن سبُل ارتقائها، والبحث عن قوانين نهوض وسقوط الأمم، وتطبيق ذلك على الأمة الإسلامية بشكل عام، ومصر بشكل خاص.

٢ - مشروعية العمل النهضوي

يرى جوهري أن الدافع الرئيس للعمل النهضوي هو نصوص القرآن الكريم نفسه التي تأمر المسلمين بالاهتمام بأحوال أمتهم وشؤونها، والتي تحضهم على التفاعل الإيجابي مع همومها وأزماتها، والانشغال بمصيرها التاريخي. «رباه أنت أبدعت هذه الدنيا ونظامها، ... ومن نظامك الذي أبدعته الأمم الأرضية، ومنها أمم الإسلام التي جعلتنا في عدادها، وكلفتنا بالنظر في أمرها، والبحث في إسعادها، وارتقائها، بقولك: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة/٢]، وبقولك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ. إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة/ ١٥٩ -١٦٠] وبقولك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران/١٨٧] وبقولك: ﴿وَٱلْعَصْرِ. إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ. إِلَّا

= الأعمال، وسادوا علينا بها، فلماذا لا نكون مثلهم، بل لماذا لا نفوقهم؟ ألسنا خير أمة أُخرجت للناس؟ هذه الآراء كلها شغلتني بضع سنين عقب احتلال الجيش الإنكليزي بلادنا العزيزة.. »، نهضة الأمة، ص ٣٢.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر/١ -٣] وبآيات كثيرات في القرآن كلها تحضنا أن نكون مفكرين في حال أمتنا الإسلامية»[١].

بهذا النص وأمثاله حاول جوهري أن يضمن الشرعية لفكره، ومشروعه النهضوي، وسعى في الوقت نفسه لكسب الأنصار والمؤيدين لهذا المشروع، وخصوصًا إذا علمنا أن جوهري كان يتوجه بخطابه وأفكاره بشكل رئيس للمسلمين ومثقفيهم، وكان يسعى إلى تحييد المعارضة الشديدة التي كان يلقاها من بعض رجال الأزهر، وبعض الشيوخ والمتصوفة الذين كانوا يجتهدون في سبيل استدامة الذهنية التقليدية التي ترفض الإصلاح والتجديد.

٣ - إشكالية التأخر والتقدم: الإصلاح الديني سبيل النهوض

يرى جوهري أن الانفصام بين العلم والدين هو أساس كل التخلف والتأخر الذي أصاب العالم الإسلامي، ويرى أن الإصلاح الديني - الذي يقوم في نظره على تحقيق الانسجام بين الدين وعلوم العصر وثقافته وفكره، وإسباغ الشرعية على العلوم الكونية والعلوم الحديثة بشكل عام، وتجسير الفجوة بينها وبين العلوم

---

(١) المرجع السابق، ص٣١ يقول جوهري في موضع آخر: «أليس الذي قال في الكتاب: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج/ ٢٧] هو الذي يقول: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الروم/ ٤٢] فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخرابها وسياستها كما أوجب الحج في ميقاته على المستطيع. أتدري لماذا ترك الناس الأول، وأدوا الثاني؟ لأن الحج سهل معروف. أما السير في الأرض فما أحوجه إلى اللغات وفهمها، والأموال وصرفها، والعلوم وجمعها، وذلك أصعب الأمور، وأشق على الجمهور..»، ص ٣٩١.

الشرعية المعروفة، والاستفادة من تقدم الغرب في مجال المدنية والتقدم الإنساني دون التفريط بخصوصية الإسلام وأسسه، ومنطقه الداخلي القائم على الجمع بين عالم الغيب والشهادة – هو الشرط الضروري والسبيل الأقوم لاستئناف النهضة الإسلامية، وإعادة رُوح الحياة والفاعلية إلى العالم الإسلامي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن جوهري يرفض رفضًا قاطعًا اللجوء إلى العنف والثورة والصدام لإنجاز النهضة التي يدعو إليها، ويدعو بدلاً من ذلك إلى ضرورة اعتماد العمل الفكري والتربوي المسالم في رفع بنيان الإصلاح الديني الذي يدعو إليه[١].

وانسجامًا مع الأهمية المركزية التي يعطيها جوهري للإصلاح الديني، فقد أولى اهتمامًا خاصًّا بطبقة علماء الدين ورجال الصوفية، وحاول دمجهم في مشروعه الإصلاحي، بل أسند لهم دورًا رياديًّا في العمل النهضوي، وناشدهم مرارًا وتكرارًا لتجديد علوم الدين، وتوسيع هذه العلوم لتشمل علوم الكون والطبيعة والفلسفة والآداب والتاريخ، ودعاهم إلى المساهمة في تعميم القيم ومبادئ الأخلاق في مجتمعاتهم؛ لأن لهم في نظره «السلطان الأعظم على

(١) يقول جوهري على لسان أحد تلاميذه الآسيويين: «ولا يمكنكم أن تُنهضوا أمتكم إلا عن طريق الإصلاح الديني. فكلكم تعرفون أن الشرقيين إلى هذا الآن يعتقدون بالتدافع والتضاد بين الدين والعلوم الحاضرة، وهذا الاعتقاد هو أساس كل مصيبة أتت، وتأتي على رأس الشرق، وهو الذي أخّر الشرق، وعوّق رقيَّه، ... فعليكم أيها الشبان الشرقيون أن تسقوا أمتكم العطشى بزُلال المدنية والعلوم الحاضرة.. إن للنهضة الفكرية بين الأمم طريقتين: الثورة الدامية المخرّبة، والإصلاح الهادئ المعمّر، وأعتقد أن الطريقة الثانية هي التي تنمو الآن في الشرق، وأهم هذه الإصلاحات هو الإصلاح الديني ..». نهضة الأمة، ص ٤٤ – ٤٥.

القلوب، وهو أقوى أثرًا من سلطان الملوك ورجال السياسة على الأجسام، وقد قال علماء العمران: إن الإصلاح الديني أسرع تأثيرًا في إسعاد الأمم من الإصلاح السياسي. فإذا لم يتجه أولئك للإصلاح العام، فلا سبيل لترقي الأمة، وسعادتها»[١].

وفي هذا السياق سعى جوهري للقيام بإعادة ضبط بعض المفاهيم الدينية، مثل: التوكل، والقضاء والقدر، والفقه، التي تم توظيفها من قبل بعض الشيوخ والمتصوفة بطريقة تخرجها عن معانيها الحقيقية، وتجعلها تقف عائقًا في وجه الإصلاح الديني الذي كان يسعى له، وتشكّل في مجموعها، بسبب انتشارها وتجذرها، معوّقات داخلية للعقل الإسلامي، حيث يتسرب منها الدجل والاستلاب، والعجز والهروب من تحديات الواقع إلى نفوس المسلمين وعقولهم[٢]. ولعل أهم هذه المفاهيم، مفهوم الولاية؛ حيث رأى ضرورة عدم الخلط بين هذا المفهوم الديني الأصيل، وبين الشعوذة والكهانة، وادعاء العلم بالغيب، وتغيير السنن الكونية. وحرصًا على ضبط هذا المفهوم المنتشر بكثرة في المجتمعات الإسلامية، وضعَ معيارًا ضابطًا له، وهو مقدار نفع الإنسان للآخرين، ومدى تأثيره الإيجابي فيهم، فضلاً عن الإيمان والتقوى والعمل الصالح. «ولا

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٠ وانظر: ص ٤٥١.
(٢) انظر على سبيل المثال: المرجع السابق، ص ٢٣٩ - ٢٤٥، ٣٨١ - ٣٨٩، ٣٩٩ - ٤٠٥.

ريب أن ولاية المرء وصلاحه يقدَّران بمقدار امتداد نوره على الأمم، فمن كان نفعه أكثر فهو لله أقرب(...) فالولاية ترجع إلى علم وعمل ونفع للناس»[١].

وفي إطار محاولة جوهري تحديد علل التأخر الإسلامي، خصّ الفلسفة والحكمة والعلم بمزيد اهتمام لدرجة أنه جعل بقاء هذه المعارف في العالم الإسلامي شرطًا لبقاء هذا العالم في لوح الوجود، وأكّد على أن نبذ دراسة الفلسفة، والحكمة، والعلم أدى إلى تراجع المستوى المعرفي في العالم الإسلامي، وهذا التراجع هو الذي مهّد السبيل لتخاذل أصحاب الأمر والقرار والسلطة في العالم الإسلامي واستبدادهم بشعوبهم، وحرمان هذه الشعوب من حقوقها ونصيبها من التقدم والازدهار، وترتب على هذين الأمرين خضوع البلاد الإسلامية للاستعمار الخارجي عقابًا من الله عَزَّوَجَلَّ على الجهل والاستبداد. واستعان جوهري في سبيل تقريره هذا الكلام بما حدث مع الغزالي وابن رشد في التاريخ الإسلامي؛ حيث رأى أن إعراض العالم الإسلامي بل وهجومه على هذين المفكرين هو المسؤول عن السقوط الحضاري في وقتهما. فها هو يقول عنهما: «وقد أنذرا المسلمين وحذراهم من الإهمال، ونبذ العلوم فكذبوهما، واتحد الشرقيون منهم والغربيون على نبذهما وعاندوهما... (ثم قال بعد هجوم التتار على بغداد وخروج المسلمين من الأندلس): وكأنهم لما عادوا الحكمة وأجلوها من عقولهم أُجلوا من أرضهم ليس هذا القول خيالاً مجردًا، أو مثلاً مضروبًا، كلا، فللرقي أسباب وللخراب

(١) المرجع السابق، ص ٢٤١.

أسباب(...) لو كان للحكمة مجال، وللعلم هيبة، لأدرك عقلاؤهم ما أنذرهم المنذرون، وحذروهم. أنذر الحكيمان بغداد وقرطبة وحذراهما فخالفا أمرهما، فهل ترى لهما إلا آثارًا مبدلة، ودولاً معطلة، فحلّ بهما ما تعلمون»[١].

٤ - الإصلاح السياسي

على الرغم من أن جوهري قد أعطى الإصلاح الديني الأولوية في مشروعه الإصلاحي نظرًا لمكانة الدين ودوره المركزي في صياغة المجتمعات، وسلطته على قلوب وعقول البشر الفاعلين في عملية البناء الاجتماعي؛ فإنه لم يأل جهدًا في العمل على تقديم خطاب إصلاحي سياسي يتكامل مع رؤيته الإصلاحية العامة التي تنسج خطوطها العامة من الدعوة إلى العلم والسلام، وتحقيق كرامة الإنسان، وضمان حقوقه.

اعتنى جوهري في خطابه السياسي بشكل رئيس في كتابه «نهضة الأمة» بنقد ظاهرة الاستبداد التي حمّلها إلى جانب العلل العلمية والدينية التي تعرضنا لها سابقًا، مسؤوليةَ سقوط الحضارة الإسلامية، وجفاف ينابيع الإبداع فيها، وتأخر العالم الإسلامي في العصر الحديث.

(١) المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩.

ودعا باهتمام إلى تقييد السلطة وترشيدها من خلال الالتزام بدستور مكتوب وقانون مسنون، ودعا إلى مشاركة الأمة في الحكم، ومراقبة الحكام ومحاسبتهم، فضلاً عن تطوير القوانين ومتابعة تنفيذها في الواقع، من خلال ممثلي الأمة الشرعيين، أعضاء مجلس النواب، بشرط أن تنتخبهم الشعوب بحرية من أصحاب العلم والكفاءة، وأن يكون هؤلاء النواب من جميع فئات الشعب وشرائحه(١) حتى يتمكنوا من تمثيل الناس والدفاع عن حقوقهم ومصالحهم(٢).

واشترط جوهري نشر التعليم وتعميمه بين كل عناصر المجتمع وفئاته؛ حتى يتمكن الناس من القيام بواجبهم في المشاركة بالسلطة ومراقبتها. إذ من دون التعليم والمعرفة يفقد الناس القدرة على اختيار ممثليهم ونوابهم بشكل سليم، ولا يقدرون على متابعة أداء نوابهم وتقييمه، وبالتالي لا أمل في المحصلة بالوصول إلى حياة دستورية وبرلمانية حرة كريمة(٣).

---

(١) استند جوهري في فكرته عن ضرورة مجلس النواب وضرورة تنويع اختصاص النواب، فضلاً عن المرجعية القرآنية إلى الأيديولوجية التطورية التي انتشرت في أوربا في عصره، والتي اهتمت بعقد وجوه المقارنة بين نظام الجسم البشري، ونظام الاجتماع الإنساني. انظر: نهضة الأمة، ص ٢٧٣ - ٢٩٥ وقارن: سامي عون، الداروينية العربية، الموسوعة الفلسفية العربية، رئيس التحرير، معن زيادة، ط١، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٨م، ج ٢، القسم الأول، ص ٥٥٨ - ٥٥٦.

(٢) طنطاوي جوهري، نهضة الأمة، مرجع سابق، ص: ١٢، ١٩ - ٢٢، ١٧٤، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٣ - ٢٩٤، ٣٠٥ - ٣١٨ يقول جوهري: «رأس مال الأمم الحرية وسيادة الدستور، وما عداه فتبع له»، ص٢٢ ويقول في موضع آخر: «الله الذي يأمرنا أن يكون أمرنا شورى بيننا، يأمرنا أن يكون نوابنا من كل طبقة، من التجار والصناع والفلاحين والمهندسين والأطباء والماليين...»، ص ٢٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١٩.

٥ - قضية الاستعمار

لم يتناول جوهري في كتابه «نهضة الأمة» ظاهرة الاستعمار الغربي التي عمّت العالم الإسلامي في عصره تقريبًا إلا من حيث صلتها بقضية الكتاب المركزية أي نهضة الأمة الإسلامية.

يرى جوهري أن مسؤولية استجلاب ظاهرة الاستعمار للبلاد الإسلامية يتحملها الفقهاء الجامدون الذين ضيقوا آفاق الشريعة وعلوم الدين، وقصروها بشكل أو بآخر على دراسة الفقه في أضيق معانيه وحدوده، ونبذوا خارج حدود العلوم الإسلامية، الفلسفةَ والحكمة والعلوم الكونية، وكفّروا رجال الفكر والفلسفة في الإسلام مثل ابن رشد، ويشاركهم في هذه المسؤولية بعض أدعياء التصوف الذين خدعوا المسلمين، وأقنعوا كثيرًا منهم بأن العلم حجاب بينهم وبين الله تعالى، وحذروا عامة المسلمين من العلوم «لئلا يستضيء الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين، وينبذوهم نبذ النواة»[١].

ويرى أن انتشار هذه الطبقة الجاهلة المؤلفة من هذين الصنفين هي التي مهّدت الطريق للاستبداد والطغيان السياسي الذي استفاد من خدماتها، وتهاونها معه ليعيث في بلاد المسلمين فسادًا، وليصول ويجول وينهب البلاد والعباد دون محاسب ولا رقيب.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٩.

ونتيجة لتحالف والتقاء مصالح هذه العناصر الثلاثة سقطت الأمة الإسلامية في حفرة الجهل والتخلف والضعف قرونًا طويلة، وترتب على هذه الحالة الحضارية المزرية أن فقدت الأمة منَعَتها الداخلية، وعناصر قوتها الذاتية، فوقعت فريسة سهلة في براثن الاستعمار الغربي عندما تدفقت جحافله مدججة بكل أسباب القوة على العالم الإسلامي لاقتسامه ونهب ثرواته في العصر الحديث. «فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث (الفقهاء الجامدون، وأدعياء التصوف، والحكام المستبدون)، ونامت الأمم الإسلامية أجنّة في الدهر.. في ظلمات ثلاث، سلّط عليهم (الله تعالى) سيولاً جارفة، وصواعق محرقة من أمم الإفرنجة، فأذلوهم، واستعبدوهم، ومزقوهم كل ممزق... إذا اختصرنا نقول أضاع الإسلام مَلِكٌ ظالم، وصوفي طامع، وفقيه جاهل اتحدوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة»[1].

لم يكتف جوهري بتحميل المسلمين أنفسهم المسؤولية عن ظاهرة الاستعمار، وحثهم على تجاوز كل العوامل التي أدت إليها كما رأينا سابقًا. بل اجتهد أيضًا في تحليل وكشف أساليب الاستعمار في البلاد الإسلامية المستعمرة ليساعد المسلمين على التنبه لهذه الأساليب، والحذر من الوقوع في أحابيلها، وبالتالي إعطاء الاستعمار الفرصة لإطالة أمد وجوده، وتحقيق كل أغراضه.

فقد نبه إلى أنّ الغرب الاستعماري يحرص كل الحرص على الإبقاء على حالة الفصام بين العلم والدين في العقل الإسلامي، وإشعال جذوة الفتنة بين

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

المسلمين المتنورين، والمسلمين التقليديين؛ حفاظًا على تأخر المسلمين من أجل تسهيل مهمته في استعمار بلادهم، واستغلال ونهب ثرواتهم. ونبه إلى اختلاف سلوك رجال الاستعمار في معاملتهم لبني أوطانهم، وأبناء مستعمراتهم، وبيّن أن السياسة الغربية تكيل بمكيالين: مكيال خاص لأبنائها، ومكيال آخر لأبناء المستعمرات. وحذّر من الدعاية الغربية، ومن خداع رجال الاستعمار وتوظيفهم وإعادة تأويلهم الدين الإسلامي وفق رؤيتهم، واستخدام بعض الشخصيات الدينية للوصول إلى مصالحهم.

وأشار إلى أن الاستعمار يجتهد في سبيل التصفية الرمزية لتاريخ الإسلام الحضاري، حيث قام بتدوين تاريخ العلم بطريقة تقوم على تمجيد الذات وطمس الآخر، أو مركزية الدور الأوربي وهامشية الدور الإسلامي، وتجاهل الإسهام الحضاري للمسلمين في تاريخ العلم والحضارة لغرس مركب النقص في نفوس المسلمين، وحملهم على التبعية للغرب، والخضوع لسيطرته في كل الميادين المعنوية والمادية. وفي مواجهة موقف الغرب هذا قام بتسليط الضوء على التراث العلمي والحضاري للمسلمين؛ ليكون في هذا تذكيرٌ بضرورة استئناف ما سبق، والتحرر من التبعية للغرب، ورفض الإحساس بالنقص إزاءه، ومواجهة مسألة الانبهار به، والحدّ من ازدراء الذات والتعالي عليها.

ودعا إلى بناء علاقة تفاعل سوية ورشيدة مع الغرب تقوم على الندية واحترام الذات، دون بخس لحقوق الآخرين والاعتراف بإنجازاتهم، والاستفادة منها[١].

٦ - قوانين السقوط والنهوض

فكرة السنن الإلهية (أي القوانين التاريخية والاجتماعية) في سقوط الأمم ونهوضها هي فكرة إسلامية أصيلة، نجد جذورها في نصوص القرآن الكريم، ثم نجد لها بعض الحضور والتنظير الفكري في نصوص بعض علماء الإسلام ومفكريه، مثل: ابن حزم، وابن رشد، وابن تيمية، وابن خلدون.

ويمكن لنا أن نعدّ إشارات الأفغاني وعبده في نصوص مجلة «العروة الوثقى» هي المنطلق الذي انطلق منه رجال الإصلاح في العصر الحديث، وقاموا من خلاله بتوظيف هذه الفكرة في مشروعاتهم الإصلاحية، حيث نجدها بنسب متفاوتة، في كتابات رشيد رضا، وعبد القادر المغربي، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد فريد وجدي،.. وعليه، فلم يكن غريبًا أن يستخدم جوهري - وهو أحد رجال الإصلاح الذين ينتمون إلى مدرسة محمد عبده الفكرية - فكرة السنن الإلهية، ويحاول من خلالها تحديد ما أمكنه تحديده من قوانين سقوط الأمم ونهوضها.

(١) انظر: المرجع السابق، ص: ٤٣ - ٤٤، ٢٠٧ - ٢٢٢، ٢٢٧ - ٢٣٣، ٤١٠ - ٤١١.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن جوهري قد حرص بعد تقريره أي قانون من قوانين السقوط والنهوض على انتزاع الأدلة والشواهد على ما ذهب إليه من النصوص الدينية قرآنًا وسنة، ومن الموروث الشعبي، مؤيدًا ذلك كله بالخبرة التاريخية للشعوب الإسلامية والشرقية، والشعوب الغربية على حد سواء من أجل أن يضمن ما يستطيع من الشرعية الدينية والتاريخية للقوانين التي توصل إليها.

ونكتفي الآن بعرض بعض أهم هذه القوانين التاريخية التي اجتهد جوهري في تنبيه الناس إليها، من أجل تكوين ثقافة سُننية تحلّ محلّ الذهنية اللاعلمية واللاتاريخية التي وسمت بالفوضى والاضطراب طريقة تعامل كثير من المعنيين بإشكالية النهضة في صفوف الإسلاميين في عصره:

- الدور المحوري في بقاء الأمم ونهضتها يعود للمصلحين والمثقفين والحكماء والكتاب: «لولا الهداة والمصلحون في الدول الشرقية، والمحررون والحكماء في الدول الغربية لغلب العزيزُ أذلها، وأكل الكثيرُ أقلّها، وأضحت طُعمة للآكلين فريسة للقانصين، فأسرع إليها الفناء»[1].
- إذا تم بقوة الاستبداد منع النخبة المثقفة ورجال الإصلاح في أي أمة، أو أصاب هذه النخبة الجبن بسبب ما يتهددها من بطش الحكام الفاسدين،

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

آلت هذه الأمة إلى السقوط والزوال: «إذا أُلجم المرشدون أو جبنوا عن النصح والإرشاد سقطت الأمة إلى الدرك الأسفل من البوار والخراب»[١].

- الحرية أساس بقاء الأمم وإبداع أفرادها. والذل والاستعباد يؤديان إلى هلاك الأمم. «إذا سلبت الأمة حريتها أسرع إليها غالبًا الفناء»[٢].

- «من نظر إلى الأمم ونهضتها وسقوطها وعظمتها وانحطاطها لا يجد سببًا لذلك سوى ارتقاء العلم والعمل والخُلق وانحطاطه في نفوسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد/ ١١]»[٣]. نفهم من هذا الكلام أن جوهري كان يرى على غرار معظم الإصلاحيين في عصره أن العامل الحاسم في عملية السقوط والنهوض إنما يعود إلى الذات الحضارية، وعليه، فإن المسلمين هم وحدهم الذين يتحملون مسؤولية انحطاطهم الحضاري، ويقع عليهم وحدهم عبء ومسؤولية النهوض واستئناف الدورة الحضارية، وما العوامل الخارجية مثل الاستعمار وغيره إلا آثار ونتائج لسلوكهم الحضاري نفسه[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١٧ وانظر: ص ٢١.
(٣) المرجع السابق، ص ٣١.
(٤) نشير هنا إلى أن التركيز على الدور الحاسم للعوامل الذاتية الداخلية في تأخر العالم الإسلامي وتخلف المسلمين عن ركب الحضارة والتقدم، استمر يشكّل المقولة المركزية لعدد كبير من أبرز رجال الفكر الإسلامي في العصر الحديث بعد طنطاوي جوهري أيضًا، أخص بالذكر منهم، مالك بن نبي، صاحب كتاب «شروط النهضة»، وجودت سعيد صاحب كتاب «حتى يغيروا ما بأنفسهم».

- «إذا عَظُم بناء صرح المدنية، وتمّ نظامه لم تؤثر فيه زعازع المفاسد، وإنما يبقى ثابتًا إلى أجله، فلا يَهُولنَّك ما تسمع من فساد الأخلاق والغش والخيانة.. في أمم عظمت مدنيتها، فاعلم أن ذلك قليل في جانب شامخ عزها، ورفيع مجدها، فالبحر لا ينجسه شيء...فلئن سمعت عن موبقاتهم، فلتقرأ آدابهم وعلومهم وما عملوا أكثر من الإفساد، ومتى زاد الضرر، فغلب المنافع آلت الأمة للخراب»[١] يريد جوهري من خلال عرضه لهذا القانون الحضاري أن يخبر أبناء عصره من الذين يبشرون بتقهقر الغرب وانهياره، بسبب شيوع كثير من المفاسد الخلقية فيه، أن الغرب باقٍ طالما أن كفة العلم والخير والمنافع فيه تغلب كفة الفساد الخلقي فيه؛ لذلك على المسلمين أن يشمروا عن ساعد الجد، وينخرطوا في تحصيل العلم واكتشاف العالم من حولهم، حتى يخلصوا أنفسهم بأنفسهم من قبضة الغرب وسيطرته على بلادهم، بدل انتظار انهيار الغرب وموته الحضاري من الداخل.

٦ - إصلاح الأزهر

احتل الجامع الأزهر وقضية إصلاحه على المستوى الإداري والتعليمي حيزًا كبيرًا من تفكير جوهري[٢] الذي بدأ حياته العلمية فيه، وسبب هذا

(١) طنطاوي جوهري، نهضة الأمة، مرجع سابق، ص ١٣٣.
(٢) يكاد يكون الاهتمام بالأزهر والانشغال بإصلاحه وتطويره حتى يأخذ دوره المنتظر في نهضة الأمة الإسلامية، محورًا ثابتًا ودائمًا في جدول اهتمامات معظم رجال الإصلاح في العصر الحديث، أذكر منهم، رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومحمد مصطفى المراغي، ومصطفى عبد الرازق، وعبد المتعال الصعيدي، (كما =

الاهتمام أن جوهري، كما ذكرنا سابقًا، يرى أن الإصلاح الديني هو المدخل الضروري للنهضة، ولما كان الأزهر هو المحضن الأكبر للعلوم الإسلامية، وهو المؤسسة الدينية الكبرى المنوط بها إعداد وتكوين الشيوخ وعلماء الدين ورجال الدعوة الذين يقودون الرأي العام على أقل تقدير بين فئة المتدينين الذي يشكلون في الواقع غالبية الناس في مصر، والعالم الإسلامي في عصره، فقد استحق في نظر جوهري كل اهتمام وعناية بالغة تتناسب مع حجمه ودوره الكبير في تشكيل عقلية المسلمين وصياغة ضميرهم الجمعي في عصره.

وفي الحقيقة، فقد وصل تقدير جوهري لأهمية الأزهر ودوره في حياة مصر بشكل خاص إلى أن ربط صلاح الأحوال في مصر بصلاح الأزهر «الأزهر مدرسة عظيمة كبرى، أشهر مدارس العالم تهم الأمة المصرية خصوصًا، والعالم الإسلامي عمومًا، في الأزهر وتوابعه من أبنائنا ما يبلغ نحو الخمسة عشر ألفًا (آنذاك)، فمنهم القضاة والمفتون والمدرسون بالمدارس الأميرية، والمفتشون، والعلماء... وهؤلاء هم رُوح القطر وقلبه، فإذا صلح صلحت البلاد، وإذا فسد فسدت، فأهميتهم عظمى..»[(١)].

= كتب حسن البنا حوالي عشر مقالات، ووجه عدة رسائل تتضمن برامج تفصيلية لإصلاح الأزهر). للاطلاع على بعض محاولات إصلاح الأزهر وتطويره في العصر الحديث، انظر: محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، ط٢، القاهرة، مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨م، و عبد الحميد يونس وعثمان توفيق، الأزهر، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.

(١) طنطاوي جوهري، نهضة الأمة، مرجع سابق، ص ٤٩، وانظر أيضًا: ص ٦٧.

ولعل أهم الانتقادات التي وجهها جوهري للأزهر تتلخص في نقده لمناهج التعليم، وطرائق التدريس فيه، فقد كان ينتقد إسراف الأزهر في شحن العقل بالمعلومات الكثيرة التي لا تسهم مباشرة في إثراء عقول الطلبة، وتنمية مداركهم. ورأى أن غاية التعليم في الأزهر، التي تكمن في تربية مَلَكة الطلاب في فهم ومحاكمة عبارات المصنفين في المتون والشروحات والحواشي التي يدرسونها، تدفع الطلاب - على الرغم من إقراره بأن هذه الغاية هي «فضيلة بحد ذاتها شاحذة للأذهان»[١] - إلى الوقوع في أسر تقديس هذه الكتب، الأمر الذي يحملهم على النفور والإحجام عن بقية الكتب والمعارف التي لا يدرسونها.

ولاحظَ بأنَّ معظم هذه الكتب، التي صنفها علماء متأخرون، ركيكةٌ من حيث الأسلوب ونظام التأليف، وهزيلة من حيث المعاني؛ لأنها تقتصر على معلومات، ومعان جزئية، تحول بين الطالب وبين تكوين نظري كلي متماسك في العلوم التي يدرسها؛ لذلك دعا إلى تجاوز هذه المؤلفات الأزهرية القديمة القائمة على التلخيص، وضغط العبارات، ولفها بالإشكالات والغموض، والتي تعرض المادة العلمية بطريقة جزئية، ومفككة، ومتناثرة، ودعا بدلاً من ذلك إلى التعامل المباشر مع نصوص الدين الرئيسة المتمثلة بالقرآن والسنة، وشحذ ملكة الاستنباط المباشر منهما. ودعا أيضًا إلى الاتجاه إلى دراسة نصوص الأدب والشعر والفكر النابضة بالحيوية والإبداع، والمربية لعقول الطلاب وأذواقهم، والمطورة لقدراتهم في التفكير والتعبير.

(١) المرجع السابق، ص ٦٣.

وانتقد بكل قوة حصر اهتمام الطلاب تقريبًا بدراسة الفقه وعلوم الآلة والدين التي تخدمه، وحرمان الطلاب من التواصل المباشر مع الطبيعة، وعدم اطلاعهم إلا على النزر اليسير من العلوم الكونية. ودعا في هذا السياق الحكومة المصرية إلى تحمّل مسؤوليتها نحو الأزهر، والعمل الجاد في سبيل رعاية طلبته، وتأمين احتياجاتهم المالية، وتوفير المدرسين الجامعين بين علوم الشريعة، والاطلاع على علوم العصر وثقافته، وأحواله وظروفه التاريخية[1].

وقد قدّم جوهري في أثناء حديثه عن ضرورة إصلاح الأزهر برنامجًا حدد فيه النقاط التي يراها ضرورية حتى يتمكن الأزهر من القيام بالمسؤوليات المنوطة به، ويستطيع تصحيح صورة الإسلام في نظر الغرب، ودفع تُهَم التعصب الديني والنفور من العلم والحضارة والمدنية عن المسلمين الذين يعكس الأزهر صورتهم أمام العالم. ولعل أهم هذه النقاط التي أشار إليها جوهري في برنامجه هي:

- إدراج دراسة بعض العلوم الحديثة في صلب مناهج الدراسة في الأزهر، مثل: الجغرافيا، والتاريخ، وعلم الفلك الحديث، وعلوم الطبيعة، ومبادئ علم الصحة والطب. والاهتمام بممارسة الرياضة. ودعا إلى زيادة الاهتمام بعلم أصول الفقه من أجل العمل على تكوين ملكة الاستنباط المباشر من الكتاب والسنة عند الطلاب، وتهيئتهم للاجتهاد في المستقبل.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٦١ - ٦٩.

- ضرورة الابتعاد في أثناء تدريس التاريخ عن إثارة وتأجيج الصراعات والخلافات المذهبية والطائفية بين مكونات الأمة، التي تغرس رُوح الانقسام، وذهنية الإقصاء بين المسلمين. ودعا في مقابل ذلك إلى ضرورة الاعتناء بإبراز فقه الحياة والفقه الحضاري في الكتاب والسنة[١].

ويندرج أيضًا في سياق دعوته إلى إصلاح الأزهر دعوتُه إلى إصلاح نظام التأليف، وفن الكتابة والإنشاء، حتى يتم وصول أكبر قدر ممكن من المعارف والأفكار إلى الطلاب والنشء الجديد بأسهل أسلوب وأجمل عبارة، وبذلك يتم تشجيع الناس عمومًا والشباب خصوصًا على الانفتاح على العلم والمعرفة بعد أن كانوا زاهدين فيهما بسبب صعوبة أسلوب المؤلفات القديمة، ورداءة طريقة تأليفها[٢].

ويتساوق مع اهتمام جوهري بالدعوة إلى إصلاح الأزهر دعوتُه إلى إعادة بناء علم الكلام القديم الذي فقَدَ بسبب منهجه القديم القائم على الظن والجدل – الذي كان يُدرس وفق هذا المنهج في الأزهر مدة طويلة – القدرةَ على القيام بدوره ووظيفته المعرفية في العصر الحديث، وهي تقديم الدين بطريقة علمية حديثة تزيد المؤمنين بالدين ثباتًا واطمئنانًا، وتدفع عنه كل الشبهات المثارة في وجهه بسبب التطورات العلمية والفكرية، وتغير المقتضيات الاجتماعية والحضارية. وتتلخص

(١) المرجع السابق، ص ٩٩ – ١٠٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٣١٩ – ٣٣٤.

دعوته في تجديد علم الكلام بإعادة الاعتبار إلى القرآن ومنهجه في بيان وعرض أسس العقيدة والدعوة إليها، وضرورة الاقتصاد في عرض العقائد، والاعتماد على الأدلة اليقينية المستمدة من قوانين الطبيعة والكون، الشاهدة على وجود الله تعالى وصفاته كما فعل الغزالي وابن رشد من قبل[١]. وحرص أيضًا على الدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية الفصحى، وإيلاء اللهجة المصرية الدارجة اهتمامًا خاصًّا يرفعها بعد تهذيبها وتطويرها إلى مستوى اللغة العربية الفصحى القادرة على أن تكون أداة تعبير عصرية وحديثة ومفهومة من قبل عموم الشعب المصري؛ لتؤدي دورها في صهر الشعب المصري في بوتقة لغوية وثقافية واحدة، تتمكن من تسهيل نقل الأفكار والمعارف الحديثة إليه بلغة متأصلة في تاريخه وتراثه وواقعه، ومنفتحة في الوقت نفسه على العصر الحديث ومتطلباته المعرفية والعملية[٢]. وفي هذا الصدد حرص جوهري على تحذير المصريين بخاصة، والمسلمين بعامة من تذويب هويتهم الوطنية ولغتهم العربية ودينهم لصالح الانبهار بالغرب ولغته ودينه، مع ضرورة الحفاظ في الوقت نفسه على رُوح الانفتاح عليه بطريقة نقدية، والتسامح مع الآخرين، والمساهمة معهم في خلق مناخ وثقافة السلام العالمي لمصلحة المسلمين وغيرهم على السواء[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٥ - ٣٤٨، ٤٤١ - ٤٤٨.
(٣) المرجع السابق، ص ١٥٣ - ١٦٩وانظر أيضًا: ٢٠٧ - ٢٣١، ٢٤٣ - ٢٤٤.

الخاتمة

بعد هذا العرض الموجز لمحاور الكتاب وأفكاره الأساسية، يمكن لنا أن نقرر بأنه يكاد يكون لجوهري نظريةٌ متكاملة في النهضة مؤصلة تأصيلاً شرعيًّا، ومعززة بالخبرة التاريخية، والأمثلة الواقعية. فقد تناول أسباب التأخر وعلله، وطريق النهوض ووسائله، وعرض مجموعة من قوانين النهوض والسقوط، وعالج مجموعة من قضايا ومشاكل عصره في ضوء النظرية التي آمن بها ودعا إليها. وقد لا يكون من المبالغة في شيء إذا قلنا بأن العديد من القضايا التي عالجها جوهري في خطابه الإصلاحي، لا تزال تتمتع بكثير من الراهنية والحضور في المشهد الفكري الإسلامي المعاصر، وما تزال تحتاج إلى استدعاء خطاب جوهري المتعلق بها لإثراء النقاش، وتطوير البحث حولها. من قبيل: ضرورة الاعتناء بالإصلاح الديني، وتقديمه على الإصلاح السياسي على الرغم من أهميته أيضًا، وتعزيز مكانة العلم وترسيخ العقلية العلمية في العالم الإسلامي، وتوسيع منظومة العلوم الإسلامية لتشمل العلوم الإنسانية والاجتماعية والكونية على السواء للمساهمة في رأب التصدع المعرفي في العقل الإسلامي المعاصر، والعمل على إثراء الفكر الإسلامي المعاصر من خلال التفاعل النقدي مع إنجازات الفكر الإنساني في جميع المجالات. وفقه السنن الإلهية وقوانين سقوط ونهوض الأمم والشعوب والحضارات، ومنهج التغيير السلمي والداخلي للمجتمعات الإسلامية، ونقد ظاهرة الاستبداد التي ما زالت تضرب بجذورها في معظم أرجاء العالم الإسلامي،

وإثراء الحوار حول إشكالية العلاقة مع الغرب، وتنمية ثقافة السلام والإخاء الإنساني، ونقد المفاهيم الدينية المنتشرة بين الناس بطريقة مغلوطة، أو التي تم الاستيلاء على شحنتها الدلالية لصالح مذاهب وتوجهات أيديولوجية تهدف إلى التأثير على المجتمعات الإسلامية في اتجاه مصالحها ومشاريعها الخاصة.

وبناءً على ما سبق، فإننا ندعو إلى تجاوز حالة التهميش والتجاهل التي أصابت الشيخ طنطاوي جوهري ومشروعه الإصلاحي، وندعو إلى إعادة الاعتبار لدوره المهم في تاريخ حركة الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي الحديث.

وهنا، لا بدّ لنا من أن نشير إلى أنه تتم في أيامنا هذه محاولات علمية عدة لإعادة إدراج جهود جوهري في عموم المشروع الإصلاحي الإسلامي المعاصر، ومن هذه الجهود ما قامت به مكتبة الإسكندرية حيث أطلقت في ربيع عام (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، موقعًا إلكترونيًا للشيخ جوهري ترصد فيه سيرته وتجربته الإصلاحية، وتقوم بتوثيق كل ما أمكنها الوصول إليه من مؤلفاته، وصوره، وما كتب حوله من مقالات ودراسات وكتب. ومن المتوقع لهذا الموقع الإلكتروني أن يقوم بتنشيط الدراسات والبحوث حول الشيخ وفكره.



تأليف

الأستاذ الحكيم فيلسوف الشرق والاسلام

طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً



الطبعة الثانية

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م - ٥٤١

صفحة الغلاف الداخلي لآخر طبعة للكتاب صدرت في حياة المؤلف



تأليف

طنطاوي جوهري

طُبع لأول مرة عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) بمطبعة اللواء؛
تقديرًا من الزعيم الخالد مصطفى كامل للكتاب وصاحبه.

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا من أحكمت نظام العالم والأمم، وأتقنت الخلق والإبداع في الذرّات والنسم، ونصلي ونّسلم على واسطة نظام عِقْد هذا الوجود، صاحب الشرع الأبْيَن والحكمة العالية.

وبعد، فقد وضع هذا الكتابَ الجليل، والسّفرَ العظيمَ، حكيمٌ من حكماء هذه الأمة، وعالمٌ عصريٌّ من أبناء المِلَّة، وقد نشره بادئ بَدْء في أعداد من اللواء الأغرّ رسائل تُزْري بالجُمَان[1]، وفصولاً تتيه على اللؤلؤ والمَرْجان.

أعجب كل قارئ قرأ هذه الرسائل الموسومة بـ «نهضة الأمة وحياتها» في اللواء الأغرّ، وطرب كل من أمعن النظر وأنعم الفكر فيها بأسلوبها الحكيم، وفلسفتها العالية، ومراميها السامية، ومواضيعها الحيوية الهامة.

---

(١) تُزْري بالجُمَان: الجمان: اللؤلؤ، وتزري به: تستخف به وتقلل من شأنه. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجِعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يستعمل الرمز (م). لاحقًا للإشارة إلى ذلك).

أقول: حيوية هامة، وكيف لا تكون كذلك وقد استوفى فيها واضعها الحكيم - حفظه الله - جُلَّ ما يهم الأمم الإسلامية والشعوب المحمدية معرفته، والوقوف عليه مما له كبير مساس بتنظيم حياتهم الاجتماعية، وأمورهم العلمية والأدبية، مما يذكرنا بمصنفات الإمام حُجَّة الإسلام الغزالي، وابن رشد، والفارابي مؤلف المدينة الفاضلة وكثيرين غيرهم ممن خدموا الإسلام، وأعْلَوا كعب تعاليمه في التعاليم، وشرّفوا أبناء الملة السمحاء بين الملل.

المؤلف - حفظه الله - حكيم، وليس حكيمًا كحكيم فحسب، بل هو من أولئك الأفراد الذين عرفوا كيف يوقظون النفوس، ويطبقون ويستنتجون ويستخرجون، فكانوا في مؤلفاتهم ومُصَنَّفاتهم كمشكاة فيها مصباح يضيء على العالم الإسلامي بنور لطيف لا يمكنني أن أصوّر لك جماله وجلاله، وعظم ما تجني النفوس الإسلامية من فوائده الجَلَى[١].

يضمّ هذا السِّفْر بين دفَّتيه ستين رسالة أو بحثًا، جمعت فأَوْعَت مما يهمنا معشر المسلمين في جميع أقطار المعمور معرفته والاطلاع عليه، فهو - كما ستقف عليه - صوّر حال الأمة أجمل تصوير، وأرشد الحكام أَيَّما إرشاد، ووصف الأمم المظلومة أحسن وصف، وقال في المدنية وعلومها ما شاء أن يصوغ بليغ قلمه، وجال جولة في علوم الإسلام والأزهر ورجال الدين استغرقت شطرًا من الكتاب.

(١) الجَلَى: الواضحة. (م).

وأفاض في شرح المجالس النيابية ببيان لم ينسج على منواله إلى الآن ناسج دقة وإجادة في انتخاب الأَكْفَاء من رجال الأمة بالتطبيق على ذلك التركيب العجيب من بنية الإنسان وتشريح هَيُولى[1] جسمه.

وجاءنا في فصل تأليف الكتب وتصنيف الأسفار بالمعجب والمُطْرِب وبيان التأليف عند الأمم، وكيف يؤلف التاريخ ثم الشعر ودرجاته.

وعقد – حفظه الله – فصلاً جميلاً غريبًا في بابه، لطيفًا في أسلوبه، بالنسبة إلى ما يجب أن تكون عليه الأمة في نظام الجُنْديّة والقرعة العسكرية.

وهناك تلك الرسالة الجليلة الموسومة بالرسالة «القازانية»، شرح فيها المؤلف حال علماء الإسلام في الأقطار قديمًا وحديثًا، وما يجب عليهم الآن، تعدّ من أحسن ما كتب في هذا الباب وأتى عليه إلى اليوم قلمُ كاتب.

هذا بيان موجز لما تضمن هذا السفر العظيم الذي جمع فيه مؤلفه الحكيم – حفظه الله – ثمرات العلوم البشرية، وزبدة الأحوال السياسية، والحقائق الاجتماعية، ونظام الأمم والدين والأخلاق والحكمة العملية والنظرية، مما تراه مستفيضة به صفحاته، تنمّ على فضل واضعه وتضلّع نفثاته، وإن لم يشأ أن يصرّح بكريم اسمه.

---

(١) هَيُولَى: لفظ يوناني بمعنى الأصل أو المادة. (م).

هذا النهج في التأليف العصري هو ما نرى الأمة في حاجة إليه، وافتقار شديد إلى بثّ مثل تلك المعارف والأفكار بينها، خصوصًا وهو أسلوب لم يسلك سبيله - كما ترى - إلا الأقلُّون مثل حكيمنا واضع هذه الرسائل مصنف هذا السفر الجليل الذي فيه للأمم الإسلامية موعظة وذكرى، ولأبناء الشبيبة روضة عقول وبستان أذهان، بل هو أسمى من ذلك، هو كنز كل قارئ، وذخيرة كل مسلم عصري، فاقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

صديق المؤلف

صالح حمدي حماد

القاهرة في ١٠ رجب سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩ أغسطس سنة ١٩٠٧م.



مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

أما بعد...،

فإن كتاب «نهضة الأمة وحياتها» للعَلاَّمة الشهير الحكيم «الشيخ طنطاوي جوهري» من الكتب التي ظهرت آثارها في عصرنا الحاضر جليَّة واضحة في حياة الأمة المصرية، فقد نشرها المؤلف – حفظه الله – في أوائل هذا القرن، وهو القرن العشرون في العشرة الأُوَل منه، فأحدث ضجَّة كبيرة في البلاد، وكان له أحسن الآثار في نظام الأزهر الحديث، فإن الأستاذ ابتدأ تعلمه في الجامع الأزهر، وأتمه في دار العلوم، فبهذه السبيل أمكنه أن يشرح حال الأزهر وما يجب له.

ولقد اقتضت الحال أن يزيد في هذه الطبعة ما يشاء من آثار تلك المقالات في الأزهر الشريف من الإصلاح والرقيّ والحكمة والعلم تحدّثًا بنعمة الله على الإسلام والمسلمين والأزهر الشريف، ثم انتقل إلى نظام الأمة فدرسه دراسة

جيدة، وكتب ما يجب للأمة وعليها، وأبان طرائق عِزِّها وذُلِّها، وكيف يكون دستورها وانتخاب ذوي الرأي القويم، لتسيير دفّتها، ونظام حكومتها، وهكذا من المباحث القيّمة التي استرعت نظر أُولي الأمر في البلاد أن ينسجوا على منوال المؤلف.

وأوّل من شهد للمؤلف بالحكمة في هذا الكتاب وأصالة الرأي هو المرحوم مصطفى باشا كامل، حتى إنه هو الذي طبعه في مطبعة اللواء على نفقته، ونشره فحاز رواجًا عظيمًا، والكتاب يحوي ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: في حرّية الأمم، ونظام التعليم في الجامع الأزهر، وفيه ١٣ فصلاً[1].

الباب الثاني: في أنواع السعادات والمدنية والوطنية وانتخاب المجالس النيابية ونحو ذلك، وفيه ٣١ فصلاً.

الباب الثالث: في شئون عامة علمية ومدنية، وفيه ١٦فصلاً.

أحمد سعد علي

أحد علماء الأزهر الشريف، ورئيس لجنة التصحيح

بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

---

(١) وَرَد بالباب الأول ١٤ فصلاً وليس ١٣. (م).

الباب الأول



الفصل الأول
في وصف الجمعية الإنسانية

الجمعية الإنسانية جسم، أعضاؤه أفرادها، صحته الهدى، داؤه الغيّ، دواؤه النصح والإرشاد، هل يقوم الفرد الواحد بعمله أو يتمّ وظيفته في الحياة إلا إذا صحّ الجمع وتمّ نظامه وكمل؟ فلا سعادة للفرد إلا بسعادة مواطنيه، ولا نظام في منزله إلا إذا انتظمت سائر مصالح بلاده، وقامت على أساس متين، سائلْ نفسك، وحادث ضميرك، أيَلذُّ لك الطعام، أو يسوغ التنزه، وقد صفر البلد، ونقص العدد، وحاقت الأحزان، وانتُهِبت الجيران، وابتُلِي مواطنوك في الأموال والأنفس والثمرات. فإذا سمعت سمعت باكيًا، أو نظرت رأيت كئيبًا حزينًا، أفلا تتقطع الأنفس حسرات، ويتبدّل الفرح تَرَحًا، واللذة ألمًا؟ ذلك ما يدعو إليه الوجدان، ويوحيه الضمير، ويبرهن على صحته العقل، ويقرّره في قياسه المنطق، ويفقهه العالمون.

إذا لم يأمر الآمرون بالمعروف، وينهى الناهون عن المنكر، خسروا الدنيا والآخرة، وباءوا بغضب يحارب ضمائرهم، وخسارة تنقص أموالهم، وقتل يحصد رؤوسهم، وانتهاك لحرماتهم، وصُبَّت اللعنة عليهم والخزي والعذاب المهين. بهذا

يُفهم ما ورد: «لا تقفن عند رجل يقتل مظلومًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلومًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه». وورد أيضًا: «لا ينبغي لامرئ شهد مقامًا فيه حق ألاَّ يتكلم به، فإنه لن يقدّم أجله ولن يحرمه رزقه».

تقويم اعوجاج أولياء الأمور فرض على كل قادر، وليكن بما في قدرته وما استطاع إليه سبيلاً، وما مثل حال الأمة إلا كمثل ميزان القَبَّان[١]، فساقه ذات الذراعين القصير والطويل، المعلَّقة بالرافعة كأولياء الأمور، والأمة المحكومة كالأشياء الموزونة من البضاعات التي وقع عليها السَّوْم[٢]، والهداة من أرباب الجرائد والمجلات كالصَّنْجَة (الرمانة) التي تعادل بها الأشياء الموزونة موضوعة فوق الذراع الطويل، ولْنُسَمِّ الأولى ذراع القوة، والثانية ذراع المقاومة، فإذا قام الهداة بإرشادهم، وأوقفوا الأمراء عند حدّهم إذا ظلموا، وعلّموهم إذا جهلوا، وذكّرُوهم إذا نسوا كان العدل، وانتظم الأمر، واستوت ساقة الميزان على حدّ الوسط، وسَبَّح لسان العدل الشاخص فوق الساق بحمد أولئك الهداة، وملأ الآفاق شكرًا لهم مع الشاكرين. هذه حال الأمّة إذا استقام حُكّامها، وهُدِي علماؤها، وانتظم شملها كحال الميزان، وقد وضعت الصنجة في مقابل الموزون

---

(١) القبَّان: ميزان ذو ذراع طويلة مقسّمة، يُنقل عليها جسم ثقيل يُسمّى الرّمّانة لتعيين الوزن، وتوزن به الأشياء الثقيلة. (م).

(٢) السَّوم: طلب شراء السلعة أو عرضها للبيع مع تحديد السعر. (م).

في الدرجة المطلوبة بالعدل. فإذا أجم المرشدون أو جبنوا عن النصح والإرشاد سقطت الأمة إلى الدَّرْك الأسفل من البَوَار[١] والخراب، فهي كحال الموزون إذا رفع ما يعادله من الصنجة (الرمانة) وما يوازنه، فهناك تكون الأمة في أسفل سافلين، ويشمخ الحاكم بأنفه ويتجبر ويتيه رأسه في السماء ورجلاه على أولئك المظلومين المحقورين، كما ترى في الميزان المحسوس إذا رفعت صنجته ارتفعت الساق إلى أعلى، وخرّ الموزون صريعًا تحته، وعكس ذلك إذا مال الهداة على القائمين بالأمر فَدَقُّوا أعناقهم، وأذاقوهم حَتْفَهم، فأوردوهم النكال، وأَصْلَوْهم النار إذا طغوا وبغوا. فإذن يصبحون تحت الأمة فتطحنهم بكَلْكَلِها[٢]، وتدوسهم بأرجلها، كما ترى إذا وُضعت الرمانة وتطرّفت إلى نهاية الساق فتنزل إلى الثرى.

فهذه ثلاث أحوال لكل أمة خلت أو ستأتي، وهل فهمت من هذا قوله في الكتاب: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ . وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن / ٧ - ٩] وهي الأحوال الثلاثة التي ذكرناها: الزيادة والنقصان والعدل؟

من هذا نفهم ما قاله كسرى، وقد سئل: بم انتظم مُلْكُك؟ فقال: بالعدل؛ لأني نظرت في هذا العالم فوجدته قائمًا بالعدل، فبنيت ملكي عليه فكان وطيدًا.

(١) البَوَار: الهلاك. (م).
(٢) بكَلْكَلِها: صدرها، وكَلْكل مفرد، جمعها كَلاكِل. (م).

لم يَأْلُ الناصحون من الأمم جهدًا في غابر الأزمان في النصح والإرشاد، ولم يبالوا بما ينالهم من الأذى والموت قيامًا بما عهد إليهم، وما توحي به ضمائرهم.

ألا أنبئك بـ (دبشليم) ملك الهند قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون؛ إذ طغى وبغى وتَجَبَّر، فوقف بيدبا حكيم البراهمة وعظيمها، وقام مقام الخصم الألدّ مدافعًا عن أبناء أُمَّته الضعفاء في منزلة بين المنزلتين: إما استقامة الأمور وانتظام الجمهور، وإما سفك دمه، وإذاقته طعم الموت الزؤام[١]، واحتساء كأس الحِمَام[٢]، وأبى الفيلسوف البقاء على الذِّلَّة والهوان، أو الخروج من الأوطان، فنال بُغْيَتَه بعد أن خاطر بمُهْجَتِه، وأبقى له أثرًا يذكر بعده، فقل لي - رعاك الله: إذا لم يكن هذا الحكيم، فكيف يكون العدل؟ ومن ذا الذي يُذَكِّر الظالم بظلمه، والباغي ببغيه؟ فحَيَّا الله الحكمة والحكماء ومن معهم، وهاك دولتنا العربية، أتدخل في خَلَدِك[٣] رِيبَة من عدل الخلفاء الأربعة، أَوَ ليسوا هم عنوان العدل ونبراس الهدى، وعَلَم السعادة؟ ومع ذلك لم يَذَرْهم الناصحون، ولم يَدَعْهم المرشدون. واذكر في الكتاب قصة أبي موسى الأشعري؛ إذ كان واليًا على البصرة، وكان إذا خطب يدعو لعمر، ولا يذكر أبا بكر، فاغتاظ منه أبو مِحْصَن العَنَزِيّ يومًا وهو يخطب، وقال له في وسط الجمع: «أين أنت من صاحبك تفضله عليك؟[٤]»

---

(١) الزؤام: العاجل. (م).

(٢) الحِمَام: قضاء الموت وقدره. (م).

(٣) خَلَدِك: بالك. (م).

(٤) الصواب وفق الرواية التي ذكرها الإمام الغزالي في الإحياء: «أين أنت من صاحبه (أبي بكر) تفضله (عمر) عليه؟». (م).

فعمل أبو موسى بنصيحته، وذَكَر أبا بكر في خطبته مع عمر من بعد. ثم شكاه أبو موسى لعمر، فاستحضره فقصّ عليه القصص، فبكى عمر. وقال للعنزي: «أنت والله أَوْفَق من أبي موسى، فلله دَرُّ تلك الأيام، ولله درّهم مِنْ رجال لا يخافون في الحق لومة لائم»، ترى النصحاء وقفوا في وجوه بني أُمَيَّة، واستعذبوا التعذيب، ورضوا بالموت كما وقع لحُطيط الزَّيَّات؛ إذ قال للحجاج: إنك من أعداء الله في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظِّنَّة، وعبد الملك بن مروان أعظم منك جرمًا، وأكبر منك إثمًا، وإنما أنت خطيئة من خطاياه، وسيئة من سجاياه، فأمر بقتله، فقتل شهيد الحرّية وهو في الثامنة عشرة من عمره.

هكذا ملوك العباسيين، كم وعظهم الواعظون، وأنذرهم المنذرون! هذا أبو جعفر المنصور، وهو المشهور بالعلم والفضل. دخل عليه عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي، ومما قال له: «يا أمير المؤمنين، أخاف أن تسمع النصح، ولا تعمل به، فصاح به الربيع، وانْتَهَرَه[1] بالسيف». فقال المنصور: «هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة»، وسار الأوزاعي في نصحه، ووعظه وزَجرِه لأمير المؤمنين، وإنذاره للخليفة المنصور.

وهذا هرون الرشيد أُعطي قوّةً وملكًا، لا ينازعه فيهما ملوك زمانه، أرسل خادمًا يحضر عود الغناء وقت الفراغ فأحضره، وبينما هو سائر يقصد باب الخليفة إذا رجل فقير يلتقط النوى من الأرض نواةً نواة يجمعها؛ ليبيعها ويعيش من ثمنها، فقال الخادم: تَنَحَّ عن الطريق يا رجل؛ فرفع رأسه، وأمسك بالعود

(١) انْتَهَرَه: زجره بعنف. (م).

فكسره، فأُخبر الخليفة بذلك، فاستشاط غضبًا، ثم أحضره وسأله، فقال يا أمير المؤمنين: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل / ٩٠]، وأنا رأيت منكرًا فأزلته، فما تريد مِنّي؟ فَخَلّى سبيله، وأمر أن يوصل بثمانمائة دينار فردّهَا ذلك الفقير. وقال: ليردّها الخليفة إلى من أخذها منه. هذه حال الدول الشرقية الكبرى، وملوكها، ونصحائها قديمًا، وهذه دول أوربا، ونصحاؤها، أخبارها معلومة بين القارئين.

لولا الهداة والمصلحون في الدول الشرقية، والمحررون، والحكماء في الدول الغربية؛ لغلب العزيزُ أذلَّها، وأكل الكثيرُ أقلَّها، وأَضْحَت طعمةً للآكلين فريسة للقانصين فأسرع إليها الفناء.



الفصل الثاني
إذا سُلبت الأمّة حرّيتها أسرع إليها غالبًا الفناء

يعرف الإنسان بأنه حيوان ناطق، وحيوانيته جسم مُسْتَوٍ، وقامة معتدلة، وأعضاء وحواس وإدراك، والناطقية قوّة امتاز بها على سائر الحيوان، وهي رُوح نوراني مجرّد عن المادّة، تنزَّل من سماء العظمة والجلال، واستوى على عرش جسمه، فصرّفه في الأرض خليفة الله أمينًا على العالمين، من هذا افترق الناس ثلاث فِرَق لا رابع لها في حقيقة الرُّوح والجسم. فقال قوم: إن هو إلا جسم مقدّر، وهيكل مدبر، والروح إفرازه والعقل صفته، مبدؤه الولادة، نهايته الموت.

وهؤلاء لا تراهم يُعَوِّلُون[1] إلا على الأجسام وتوابعها، واللّذّات وشوائبها، ويحرصون على الحياة حرص النَّهِمِين، يودّ أحدهم لو يُعَمَّر ألف سنة، وما هو بمُزَحْزِحِه من عذاب الخزي في الحياة الدنيا أن يُعَمَّر، يقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا مرور الدهور وكرّ العصور، ويقولون:

مَنَعَ البقاءَ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ ... وطُلُوعُها مِنْ حَيْثُ لا تُمْسِي
وشُرُوقُهَا حمراءَ صافيةً ... وغُرُوبُهَا صفراءَ كالوَرْسِ[2]

---

(١) يُعَوِّلون على: يعتمدون. (م).
(٢) الورس: نبت أصفر يستعمل لتلوين الملابس. (م).

وقال آخرون: إن هناك رُوحًا تستقل عن الجسم إذا اضمحل؛ فقالوا: الإنسان إنما هو روح وجسم. وآخرون قالوا: الإنسان إنما هو الرُّوح، والجسم مركبها، والحياة سيرها، والعمر طريقها، والسنون مراحلها، والولادة مبدؤها، والموت وصولها لمستقرها؛ فتلقى عصى التَّسْيَار، نزلت - أي النفس - عالم الإنسان بكبريائها وعظمتها وشرفها وحريتها التي هي أصل جِبِلّتها مُتَّسمة بالعلوّ والقهر، فهي شعاع من النور امتدّ من الله، واتصل بهذه الأجسام الأرضية؛ فشعر بشرف أصله، ورفعة منزلته، وعظم جلاله، فإن سِيمَ الخَسْف[١]، واستنزل بعد عز من مراتبه، وأودع في سجين الرّق والعبودية والذلة والغلبة، نقصت ملكته العقلية، وأخذ يحبو مع الحيوان تحت إِمْرَةِ القاهر المسيطر عليه من أبناء جنسه، وضعفت الصلة بينه وبين مُبْدِعِه الأول، وأضحى يُشابه الحيوانات المنزلية، ويشارك البهائم، فيستمد من رؤسائه، ويعول في رزقه على أُمَرَائه، ولا يسجد إلا لعظمائهم، نراه يترك التدبير لرؤوسهم، والعمل لأيديهم، فيحصر همه فيما لديهم من حطام الدنيا.

الأمم المغلوب على أمرها لا يطلق عليها اسم المتوكلين، أولئك هم الخاملون الخامدون. أَلاَ إنما المتوكلون قوم فُكّ العقال عن عقولهم، وكُسرت الأغلال عن أيديهم؛ فأخذوا بالعقول يدبرون، ومن الله وآلائه يستمدُّون، ويستنتجون ويخترعون، وسارعوا إلى الخيرات، وهم لها سابقون، وأولئك هم المقرّبون، الذين

(١) سِيمَ الخَسْف: كُلّفَ وأُلْزِم الذُّلَّ والهوان. (م).

يتقنون الزراعات والصناعات، فعقولهم مع الله بلا واسطة الغالبين المُدَبِّرين، وأيديهم مُطْلَقَة فيما لديهم من المواد الحاضرة، فهؤلاء هم المتوكلون.

مَثَلُ الأمم الحرة كَمَثَلِ الحيوانات الكاسرة من السباع والنمور والبُزَاة والصقور، ولن ترى الصَّوْلَة والقوة والتدبير، وعجائب الذكاء والحيل المنقولة في الكتب إلا عن هذه. وإلى هذه المشابهة ورد في الحديث: «لو تَوَكَّلْتُم على الله حَقَّ توكُّله؛ لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا[1]»، فغدوّها ورواحها بأنفسها، وتمييزها بغرائزها هو عين التوكل عند الإنسان. على هذا ترى العزيز إذا ذلّ، والسيد إذا استُعْبِد ساءت حاله، وضَني جسمه، وقلّ نسله، فترى النمور والأسود وأمثال الطيور الجارحة من البزاة والصقور إذا سُجنت في الأقفاص، تركت السِّفاد[2] حرصًا على نسلها من الذلة والعار، وهكذا ترى الأمم العزيزة الجانب إذا غُلبت على أمرها، أسرع إليها الزوال. هذه أمة الفُرس كيف كانت تملأ السهل والجبل، حتى إذا غلب على أمرها، وافتتحها العرب، أخذ الفناء يسرع إليهم كالشّيب يصيح في جوانب الشباب، والبِلَى يسرع في الثياب؛ فتَنَاقَصَ عمرانهم، وقلّ عددهم حتى قيل إن سعد بن أبي وَقّاص أحصى مَنْ وراء المدائن، فكانوا مائة وسبعة وثلاثين ألفًا، فما لبثوا أن تلاشوا رغْمًا عما كان الصحابة والتابعون عليه من العدل وحسن السيرة، ولكن هي النفوس العزيزة الجانب لا ترضى إلا بهلك أو ملك، بهذا يُحلّ اللغز المشهور المذكور في المحافل والنوادي،

(١) تغدو خِماصًا: تخرج في طلب الرزق خالية البطن جوعًا، وتروح بطانًا: تعود من سعيها ممتلئة البطن شبعًا. (م).
(٢) السِّفَاد: الجماع في الحيوانات والدواجن. (م).

وعلى صفحات الجرائد، وهو: لمَ نرى المخترعين والمكتشفين من رجال أوربا لَّما جاءوا بلاد الشرق وعَلَّموا أبناءه لم نر لهم اختراعًا؟ فترى من لا تَبَصُّر له يجيبك: إن الشرقي عمومًا، والمصري خصوصًا سُلِب الموهبة العقلية، والفطنة الكمالية، أَوَ لا يعلمون أن النفوس إذا انقبضت عن الأمل كَمشت في أعمالها؟ فترى الأوربي تتسع آماله، ويأخذ الحاكم بناصره، ويعلم أن حكومته أبٌ شفوق وأمّ رحيمة، فيعمل واثقًا بنجاح عمله، مؤمّلاً حسن جزائه، وعلى العكس في بلاد ضُرِبَت عليهم الذلة والمسكنة، فترى النابغين والمفكرين الذين لا يَتَمَلَّقُون[١]، في بيوتهم مُنْزَوين[٢]، وعن العمل مُعْرِضين لانقطاع الآمال، خبِّرْني بالله أيّ عامل كوفئ على حسن عمله؟ وأي خادم لبلاده أخذ بناصره؟ اللهمّ إلا بعوامل غير رسمية، على أن العاملين يخشَوْن قرناءهم في الأمم الضعيفة أشدّ من خشيتهم لغيرهم؛ لِمَا تأصّل في قومهم من الحسد والتخاذل، الذي يؤصله في النفوس الذلة المتوالية على ممرّ الزمان في الأجيال المتعاقبة. قلنا إن النفوس عزيزة، فإذا غلب على أمرها زالت من الوجود، فلعلك تقول: ها نحن نرى أممًا مغلوبة مقهورة، تعيش وتتناسل بل قد تنمو وتتكاثر. قلنا: ذلك لا يحصل إلا لأحد أمرين؛ إما لنزولهم في الحيوانية أو النباتية كأمم من الزّنوج يتناسلون ويتكاثرون. وإما أن يكون المُرَبِّي (بالكسر) يزيد في المُرَبَّى (بالفتح)؛ ليعتمد عليه في مهامّ الحياة؛ فيكون الأمل والعمل سببين لبقاء أولئك المستعبدين في الحياة، واعتبر ذلك في

(١) لا يتملَّقون: لا يتوددون ولا يُبدون من الود ما ليس في قلوبهم. (م).
(٢) مُنْزَوين: منعزلين عن الآخرين. (م).

المماليك المستعبدين للملوك العباسية، وبني أيوب بمصر، فهؤلاء كانوا يترقبون الملك في مصر، وقد تمّ لهم فعلاً.

ولا بقاء لأمّة مغلوبة بغير هذين إلا بقاءً محدودًا إلى أجل معدود. فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وغلبوا على صناعاتهم وتجاراتهم، وطارت منهم الآمال، وذهبوا مع الذاهبين الأوّلين.

يا قوم، ما أجمل الشقاء مع الحرّية، وما أقبح الحياة مع الذُّل! فإن لم تكن في الحياة سعادة، فليكن الفناء. يا قوم، إني أخاف أن يمسكم عذاب من الترف، ونعيم السَّكْرَة والغنى، فتستحلوًّا شرابها، وتَسْتَمْرِئُوا[١] طعامها، ثم لا تلبثون أن يأتيكم عذاب ذهاب المال، وضياع التجارة بغتة، وأنتم لا تشعرون، ولن ينفعكم أن تقول نفس خاسرة كاسلة بخيلة: يا حسرتا على ما فرّطتُ فيه من الأموال، وفعلت من الإثم، فحاق بي[٢] الخسران، وقد كنت من الساخرين بعلوم الأوّلين، واكتشاف الغابرين. وهل يُغني عنكم أن تلقوا التَّبِعَة[٣] على القضاء والقدر، فيقول الكسول: لو أنّ الله هداني للعمل، وفسح لي في الأجل، لكنت بَنَيْتُ المجد باكتساب المفاخر ونيل المحامد؟ فإذا دنا الأجل، وفات العمل، وهُدّمت

(١) تستمرئوا الطعام: تجدوه مقبولاً مُستساغًا. (م).
(٢) حاق بي: أصابني وأحاط بي. (م).
(٣) التَّبِعَة: المسئولية. (م).

الحصون، ودَنَت الأمّة من المَنُون[١]، فهناك لا ينفع مال مكنوز، ولا ولد مُتْرَفٌ في نعيم.

ألا هل أدلُّكم على تجارة تُنْجيكم من عذاب الخزي في الحياة الدنيا، والسعير في الآخرة؟ أنفقوا المال للكليات، وانشروا العلوم بإخلاص، واعلموا أن الأمّة لا تقوم إلا على دعَامتين، ولا تقف إلا على رِجْلَيْن - سأذكرهما في الفصل الثالث - وهل ينفع الغبيَّ مالُه إذا دَهَى[٢] الأمّةَ الخطوبُ[٣]، وحاقت بها الكروب؟ وماذا نفع المُسْتَعْصِم آخر ملوك العباسيين ببغداد، إذ ضربه هولاكو التتاري وأَسَرَه، وانتهب القناطير المقنطرة من الذهب، والفضة، والجواهر المكنونة، ووضعها في أواني المائدة بألوان مختلفات، وأمره أن يأكل منها وهي لا تؤكل؛ تقريعًا[٤] له وإذلالاً؟! ثم قال له هولاكو: هذه الأموال انتَهَبْتُها من خزائنك، وأنت بين يديّ، ثم قتله، وأخذ ملك الإسلام الواسع.

فهل خطر ببال هذا المَلك يومًا أن ينفق ماله على الجيوش والسلاح في الحروب والخيل والكُرَاع[٥] فضلاً عن بيت المال؟ فرأس مال الأمم الحرية وسيادة الدستور، وما عداه فتبع له، ولتترقب في الفصل الآتي الأمرين اللذين بهما تسود الأمم، وتحيا حياة طيبة.

---

(١) المَنُون: الموت. (م).
(٢) دَهَى: أصاب، نزل بـ. (م).
(٣) الخطوب: النوازل، المصائب. (م).
(٤) تقريعًا: تعنيفًا. (م).
(٥) الكُرَاع: هو اسم يجمع الخيل والسلاح. (م).

الفصل الثالث
كيف يكون الإصلاح؟

وَعَدْنا في القول السابق أن نشرح ما تمسّ حاجة الأمّة إليه من الإصلاح، وما يلزم لها من الأمور العامّة، فنقول: إذا تأمّلت المواليد الثلاثة، وما نتج منها، وما أحاط بها، رأيت قانونًا مسنونًا بخط حروفه كبيرة، يقرؤها ذوو الأبصار الناظرة، والقلوب الواعية، ويعجز عن إدراكها متناول الغافلين، ذلك أن كل نتيجة تصدر من مقدِّمتين، وكل مولود فإنما ينشأ من أبوين، وكل ثمرة محصولها من متضايفين.

على هذه السُّنة دَرَجت كل أمّة في الأرض، فتربت في حضن أبوين، فأبوها عظماؤها السابقون، وأبطالها المشهورون، وكبارها الغابرون، وأمّها ما أحاط بها من علوم وعمران، وسياسات ونظم، وما تعلمه من مخترعات المخترعين، ومبتدعات المُجِدِّين، ومكتشفات الدول والممالك.

فلمعرفة أسلافها، وفضائل أجدادها، تقرأ تاريخ قومها، وتدرس دينها، وتبني مجدها مُؤَثَّلاً[1]، وترفع عزّها مُمَنَّعًا، وبالسير في الأرض ودرس علوم

(١) مُؤَثَّلاً: عريق الأصول. (م).

الشعوب، ودستور الأمم ونظام الدول، تغذي جسمها، ويبزغ سعدها، وتَرْفُلُ[١] في عِزِّها المَكِين، فإن نبذوا الأول تَخَطَّفَهُم الناس من حولهم، وضَرَسُوهم بأنيابهم، ووطئوهم بمَناسِمِهم[٢]، ومَزَّقُوهم كل مُمَزَّق، وبدّدوهم أيدي سَبَأ[٣]، حَيَارى لا مأوى لهم ولا معين، سُكَارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب العار والخزي على النفوس في الدنيا شديد، ذكر الآباء والأجداد وتاريخ القوم، ودينهم عصمة من التفريق، والتمزيق، وذهاب العصبية القومية، وحصن حصين، وإن استمسكوا بالجدود، واعتصبوا عصبة واحدة، ونبذوا ما وصلت إليه الجمعية الإنسانية من المعارف والصناعات صاروا كنَبْت البيداء، وحشيش الصحراء، تجافاه الغيث، وتحاماه الوابل والطلّ؛ فاكتَظّه الحرّ، وأضناه الصَّقيع[٤] والبرد، فرعته الأمم الجياع، وأضحى طُعْمَة للآكلين، لا غنى للأمة عن دين قومها، ولا مَنَاصَ لها عن مجاراة جاراتها، ذلك هو الصراط المستقيم، إن لم تدرس الأمة تاريخ رجالها، وآثار قومها، تنازعتها الأمم، وتناوشتها[٥] الدول، كل منها تسلب عقول رجال، وأفئدة شبان، بمحاسن قومها، وفضائل رجالها، فيرى الناشئ أن لا قوم له ولا رجال، فيحفظ أشعارهم، ويذكر في الفخر رجالهم، فيحقر أبويه لما يراهما يجهلان آثار من تربَّى على لسانهم، ونشأ على ذكر رجالهم، ومفاخرهم، ونثرهم وشعرهم، ولا يجول

(١) تَرْفُل: تنعم وتعيش مترفة. (م).
(٢) مَنَاسِم: جمع «مَنْسِم»، وهو طرف خُفّ البعير أو هو للإبل كالظفر للإنسان. (م).
(٣) بَدّدوهم أيدي سَبَأ: مثل عربي، ويقصد به: فرقوهم كما تفرقت قبائل اليمن في البلاد عندما غرقت أرضهم وذهبت جناتهم. (م).
(٤) الصّقيع: الثلج، الجليد. (م).
(٥) تناوشتها: تناولتها. (م).

بخاطره يومًا ما دوّنه أسلافه وحفظه التاريخ لهم، وهل درى أولئك الذين يعجبون بشكسبير، ويُسَبِّحُون بحمد نظائره من أهل أوربا، ويطربون لأشعارهم، أن في أهل أوربا من يَتَغَنَّوْنَ بقول عنترة في الحنين إلى الأحبة والأوطان:

ألا قَاتَلَ اللهُ الطُّلُولَ[1] البَوَالِيَا وقاتل ذكراكَ السِّنِينَ الخَوَالِيَا
وقولُكَ للشَّيْءِ الَّذِي لا تَنَالُهُ إذا ما هو احْلَوْلَى ألا لَيْتَ ذا لِيَا

وقوله في الفخر واحتقار الحياة:

نَديمي رَعَاكَ اللهُ قُمْ غَنِّ لِي عَلَى كُؤُوسِ المَنَايَا من دَم حينَ أَشْرَبُ
ولا تَسْقِنِي كَأْسَ المُدَامِ فَإِنَّهَا يَضِلُّ بها عَقْلُ الشُّجَاعِ وَيَذْهَبُ

وقوله في الشجاعة والكرم والعفة:

لِيَ النُّفُوسُ وللطَّيْرِ اللُّحُومُ وللـ وَحْشِ العِظَامُ وللخَيَّالَةِ السلبُ

وقوله في العفة:

وأَغُضُّ طَرْفِي إن بَدَتْ لِي جَارَتي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

وبقول أبي الطيب:

الخيلُ والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي والسَّيْفُ وَالرُّمْحُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ

(١) الطُّلُول: ما بقي من آثار المنزل بعد رحيل أصحابه. (م).

وهكذا يقرأ القوم هناك في التاريخ ما يُروى أن معاوية هزم بفصاحته وذكائه جندَ ملك الروم؛ إذ طلب منه الجزية لمّا اشتجر[١] بينه وبين علي رضي الله عنه القتال، واحتدم وَطِيس الحرب[٢]، فأرسل إليه يقول: «كفّ هذا وأقصر وإلا صالحت صاحبي - يعنى عليًّا - وكنت أوّل جندي يحضر إليك؛ فأُكَبِّلُك[٣] أسيرًا»، فقامت كلمته مقام جيش مُدَرَّبَ مُنَظَّم، فانظر كيف هزمه بالمقال، ولم يحتج لجيش منظم من الرجال!

وترى القوم يَخِرُّونَ سُجَّدًا[٤] لسياسة جعفر البَرْمَكِيّ، وقد سأله الرشيد يقول: «إن عاملنا عرض علينا أن يفتح برزخ السويس»، فأطرق رأسه ثم رفعها وقال: «كيف تهدّ رفيع مجد بنيناه، وشامخ طَوْدٍ[٥] رفعناه، إنا يا أمير المؤمنين إذا مَرَجْنَا البحرين[٦] يلتقيان، جالت الإفرنج جولات فيها، وسلبت مِنَّا مُلْكًا أراق المسلمون فيه دماءهم، وأَفْنَوْا رجالهم، فكفّ هرون عن فتحه. فانظروا كيف صدّق التاريخ على جعفر ظَنَّه بعد ألف سنة وتزيد في التاريخ، وأصبحت كلمة جعفر الآن حكمة الحِكَم وعبرة العِبَر، وظهر سرّها المكتوم، وهل الأمة إلا كهيكل إنساني هيئته وشكله من آثار الآباء، وغذاؤه ولحمه وجماله مما حوله من الأغذية

(١) اشتجر: اشتدّ. (م).
(٢) احتدم وَطِيس الحرب: اشتدت. (م).
(٣) أُكَبِّل: أُقَيِّد. (م).
(٤) يخِرُّون سُجَّدًا: يسجدون في خشوع. (م).
(٥) طَوْد: جبل عظيم راسخ. (م).
(٦) مَرَجْنا البحرين: تركناهما. (م).

والمواد مما يكتنفها من الأمم والدول والممالك؟ ولْنُمَثّل سلف الأمة بعمود امتدّ إلى السماء، واتصل بالأرض، ومنه اتجهت الأقطار حوله، واتصلت أقطارها بمحيط دائرة، فالعمود سلف الأمة، والسماء دينها، والنقطة تحت العمود (أي مركز الدائرة) هي الأمة، وأقطارها علاقاتها المتواصلة مع الأمم، ودول الأرض قَاطِبَةً محيط تلك الدائرة، وكل قوس بين قطرين أمة من أمم الأرض، فأنت ترى المركز الذي أردنا به أمتنا المصرية والأمم الإسلامية يُسْتَمَدّ من طريقين: طريق الآباء وشعورهم وآدابهم، وطريق الأمم المعاصرة لنا، فإذا اقتُلع العمود الممثّل لتاريخ الرجال، وما يكتنفه من أصول عقيدتهم القومية تنازعتها تلك الأقطار الممتدة إلى المحيط، فتنتهب كل أمة فريقًا من الناس، ولا تظن أنّا نضرب هذا جُزافًا، فاجلس في نادٍ عام، وحادث أفرادًا مختلفين تَرَبَّوْا في مدارس متباينة تَرَ هذا يميل لإيطاليا، وهذا لبريطانيا، وذلك لفرنسا، والآخر لألمانيا، وهم في ذلك معذورون لا يُلامون؛ إذ لا يحبّ المرء إلا ما عرف، وهؤلاء ما عرفوا إلا أولئك الذين أحبّوهم، فالحبّ تابع للمعرفة، فكيف تجمعهم وشيجة[1] الآباء والجدود؟ مأم كيف تضمهم قوّة الشعور العام وهم ما عرفوا تلك السبيل؟

أَمَا وَرَبِّك لو أن هؤلاء شَمَلَهم تعليم عام، ونظام شامل بدراسة التاريخ على شكل بهيج جميل، لكان اختلافهم اتحادًا، واستفادوا من الأمم ما به كان الغذاء لا الداء، ولو أنّ هذا العماد بقي ثابتًا، وأُزيلت الأقطار، وفُصِمَت العُرَى

(١) وشيجة: قرابة متصلة مشتبكة. (م).

فيما بينها وبين الأمم، انقضت عليها عاجلاً أو آجلاً، فافترستها ومزّقت جسمها تمزيقًا وتَبَّرَتْهَا[1] تتبيرًا، بهذين الأصلين - مراعاة الأمم وتاريخ الآباء - بقاء الأمم وحياتها، وتبقى الأمة وسطًا بين عاملين يتجاذبانها، فيكون عقلاؤها شهداء على الأمم، ويكون تاريخهم وآباؤهم مُمِدِّينَ لهم شعور تاريخهم، وروحهم الفعالة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة/ ١٤٣].

أدرك المأمون هذا الوسط والعدل فلم يعتزل الأمم بل ترجم كتب اليونان، فلم تمنعه فلسفته من بلاغة قومه، وذكرى عشيرته، وعزّ العرب وفخرهم، وكان يستشير مَنْ لهم معارف، واطلاع على سياسات دول الفرس والروم، بل كان معاوية يستمدّ من سياسات الفرس ونظامها فكان غلمانه يقرءون له في جُنَح الليل، وطرفي النهار ما ساسه الأكاسرة وهو يستمع له، بل كان عمر رضي الله عنه وهو من أجلّ الخلفاء الراشدين يقتبس من نظام الفرس، يشهد لذلك الديوان والتاريخ الهجري، بل حفر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق بإشارة سلمان الفارسي، ووصفه لذلك في بلادهم.

فهذه حال سلف الأمّة وهو الوسط ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ ولو أنك الآن استبدلت شكل الدراسة الدينية بشكل جديد يناسب الأمم الراقية أو استعنت عليها بما أبرز الله من المصنوعات، لقال قوم هذا هو الكفر المبين، كأن هؤلاء أحرص على

(١) تبَرْتها: أهلكتها. (م).

الدين من صاحبه، واعتبر هذا بحال بُخَارَى؛ إذ جاءهم تاجر من أنفسهم يقول: إن الروسيا أصرَّت على أخذ بلادنا، وأشار على أميرهم أن يتعلموا ضرب المدافع، ويشتروها فاستحسن الأمير، فَكَفّر العلماء التاجر وأفتوا بقتله، فما لبثوا خمس سنين حتى جاس الروس خلال الديار، وكان وعدًا مفعولاً، فَقَارِن بين هؤلاء ونفس صاحب الشرع كيف أخذ هو بالأحسن، فحفر الخندق، وكيف وقفوا وقوف العير في الطريق، ولقد سألهم سائل: هاهم أولاء الروس دخلوا البلاد، وأهلكوا العباد، فما كان جوابهم إلا أنهم قالوا إنما دخلوها ظاهرًا، وما دخلوها باطنًا، كأن المسألة نَحْوِيَّة أو فقهية تُؤَوَّل على غير ظاهرها، ولئن سألت عن الحق في ذلك؛ فلَنُجِيبَنَّك بتوجيه عنايتنا للأزهر الشريف في المقالة الرابعة وما بعدها.

تَذْكِرَة

لا سبب لنهضة الأمة وسقوطها سوى ارتقاء العلم والعمل وانحطاطه

مَنْ نظر إلى الأمم، ونهضتها، وسقوطها، وعظمتها، وانحطاطها لا يجد سببًا لذلك سوى ارتقاء العلم، والعمل، والخلق، وانحطاطه في نفوسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد/ ١١]. سبحانك اللهم وبحمدك. رباه أنت أبدعت هذه الدنيا ونظامها، وأدهشنا صنعك الذي بمعرفته تاقت نفوس ونفوس إلى لقائك، ومن نظامك الذي أبدعته الأمم الأرضية، ومنها أمم الإسلام التي جعلتنا في عدادها، وكلفتنا بالنظر في أمرها، والبحث عن إسعادها وارتقائها بقولك: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة/ ٢]، وبقولك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ. إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة/ ١٥٩ - ١٦٠]، وبقولك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران/ ١٨٧]، وبقولك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

إِمَامًا ﴾ [الفرقان/ ٧٤]، وبقولك: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر/١ - ٣]، وبقولك: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران/ ٢٠٠]، وبآيات كثيرات في القرآن، كلها تحضُّنا أن نكون مفكّرين في حال أمّتنا الإسلامية.

ولقد حفظتُ القرآن وأنا صبيّ لا أعقل شيئًا، ولما أخذت أتعلم في الجامع الأزهر منذ نحو ٦٠ سنة، وقرأت بعض العلوم الدينية واللسانية والعقلية، وكان عقلي غفلاً لا يدري شيئًا إلا هذا، ونفس القرآن الذي أحفظه لا أعرف من معناه كلمة واحدة، هنالك فكَّرت في أُمَّتنا الإسلامية، والأمم التي تحيط بها، وتستعبدها، وهل العلوم التي يقرءونها حتى سادوا بها علينا محرّمة في ديننا؟ وهل القرآن يبيحها أو يوجبها؟ ولماذا انحطَّت هذه الأمة؟ وهل في الإمكان ارتقاؤها؟ وإذا كان خالق العالم قد أرانا شجرًا ونهرًا وفلكًا وشمسًا وقمرًا وكوكبًا وسحابًا ومطرًا وثلجًا وبردًا، وكذلك أرانا أُممًا تعلمت الصناعات، وآلات الانتقال، وآلات الأعمال، وسادوا علينا بها، فلماذا لا نكون مثلهم؟ بل لماذا لا نفوقهم؟ أَلَسْنَا خير أمة أُخرجت للناس؟

هذه الآراء كلها شغلتني بضع سنين عقب احتلال الجيش الإنجليزي بلادنا العزيزة، وقد انقطعت عن الجامع الأزهر الشريف، ولم يكن لي شغل إلا هذه

الآراء، وهكذا رأيت والدي مريضًا، واعتراني مرض أيضًا، وصارت حياتي كلها أمراضًا جسمية، وأمراضًا عقلية، فوجَّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا أن يُلْحقني بالجامع الأزهر ثانيًا، وأن يُسهّل الأمر، وأن يريني الحقّ في هذه الدنيا، ومتى عرفت الحقيقة؟ وكيف كان نظام هذا العالم؟ وما الذي يُرَقِّي المسلمين في هذه الحياة، ويخرجهم من ذُلِّهم؟ وقطعت على نفسي عهدًا مؤكَّدًا أنني إن وقفت على الحقيقة أذعتها بين المسلمين؛ تخليصًا للشبيبة الإسلامية من المرارة التي تَحَمَّلْتُها، ومن الشك الذي انتابني، وقلت في نفسي: فليكن نَصَبي وتعبي في هذه الحياة خاصًّا بي، ولا أريد أن يُلِمَّ بأحد من الشبان بعدي، وذلك بقراءتهم ما كتبته في هذا الشأن. أجاب الله دعائي، ورجعني إلى الأزهر، فقرأنا علومًا وعلومًا، ثم دخلت مدرسة دار العلوم، وهناك دُهِشْت؛ إذ رأيت العلوم التي افتخرت أوربا بها علينا هي نفس التي كنت أفكر فيها في الحقل، وهي التي خَصَّص القرآن لها ٧٥٠ آيةً، وأما الفقه فليس له إلا ١٥٠ آيةً. فعلمت إذ ذاك حق النعمة، وألّفْتُ كُتُبًا مثل كتاب «جواهر العلوم»، و«ميزان الجواهر»، و«النظام والإسلام»، و«نظام العالم والأمم»، وهذا الكتاب «نهضة الأمة وحياتها».

ومما وجدته من أول الواجبات عليّ أن أفكر في الجامع الأزهر الشريف، الذي له الفضل عليّ، وعلى مشايخي، وعلى الأمة الإسلامية، فكتبت فيه هذه الفصول العشرة الآتية، قاصدًا بذلك إنارة الطريق للمعلمين، ولقد عجبت واللهِ كل العجب أن تكون هذه الفصول العشرة وأمثالها من آراء المفكرين في مصر

قد آتت أُكُلَها، وأثمرت ثمرًا ناضجًا! أفلا يجب عليّ أن أحمد الله عَزَّوَجَلَّ على أنه أراني الجامع الأزهر المحبوب الذي له الفضل علينا وعلى الناس، قد أصبح في حال لم تكن لتخطر لي ببال، فهذه العلوم التي أردت دخولها في الجامع الأزهر الشريف في هذه الفصول، قد دخلت فيه، ونبغ في الأزهر علماء وعلماء، فلك الحمد اللَّهُمَّ على النعمة، ولك الشكر على أنك أريتني في حياتي ثمرة هذه الآراء، وأمثالها من آراء الكُتَّاب المشهورين، وعلى أنك أخرجت من الأزهر فضلاء في كل علم وفنّ حتى أصبحوا بحمد الله نورًا يهتدي بهم المُتَّقون، والحمد لله رب العالمين.

وسأذكر بعد هذه الفصول العشرة مكانة الأزهر في العصر الحاضر، ونظامه الزاهر، ولكن لابد لي هنا أن أُبَيِّن للإخوان ما فتح الله به على أمتنا الإسلامية، وعلى ما أيدني به، أقوله تَحَدُّثًا بالنعمة، وأقول فوق ذلك لجميع المتعلمين في مصر، وبلاد الإسلام.

لقد كنت مدرسًا بدار العلوم في القسم الثاني أوّل ما تخرَّجت منها، فكتب أحد الطلبة موضوع إنشاء، وأتى فيه بهذه الحكمة «لا تحتقر صغير عملك فربما كان عندك بَعْرَة[1]، وعند الناس جوهرة»، فهذه الحكمة لما قرأتها، عملت بها، وهذه الفصول العشرة الآتية في هذا الكتاب قد نشرت في بعض الجرائد مع

(١) بَعْرَة: فَضَلات ذوات الخُفّ ويُعَبَّر بها عن الشيء الحقير. (م).

الكتاب كله، وأخذ الناس يتكلمون في شأنها، وأحدثت دَوِيًّا عظيمًا، ولم تذكر الجريدة إذ ذاك اسمي، فلما رأيت هذا القول أثمر، وسمعت أن في اليابان مجلسًا يبحث عن أحسن الأديان أَلَّفْتُ كتابًا اسمه «التاج المُرَصَّع» على منوال هذه المقالات تتميمًا لها، فلك الحمد يا ربنا على نعمك، ولك الشكر على آلائك.

لقد تُرْجِم هذا الكتاب إلى اللغة السنسكريتية بالهند، وإلى اللغة القازانية باليابان، وأثمر ثمرًا بعيدًا، ما كان ليخطر لي ببال، وقد رأيت من آثار ذلك الكتاب الذي هو مُتَمِّم لهذه الفصول العشرة ما أدهشني، وكيف لا أدهش وقد علمت علم اليقين أن التركستان الصينية التي استقلت في العام الماضي قد جعلت نظام مدارسها على مقتضى نظام هذا الكتاب؟

نعم ستعجب أيها الأخ حين تقرأ هذا، وأقول: لقد عجبت أنا أكثر منك، ولكن هي الحقيقة التي وصلت إليّ، فإن كنت في شك مما ذكرته لك، فاقرأ هذا الفصل الذي صدّرت به الطبعة الثانية للتاج المُرَصَّع المذكور، المطبوع سنة ١٩٣٣؛ لتقف على بعض هذه الحقيقة، ولتجعل حياتك وقفًا على أمَّتك، وعلى تعليمها، ولا تحتقر صغير عملك، بل ادأب على العمل ليلاً ونهارًا، واعلم أن الله مع المحسنين، وهذا نصّ المقدمة المذكورة:

بسم الله الرحمن الرحيم

لك الحمد اللهم على ما أسبغت علينا من نعمة العلم، وما أَفَضْتَ من الحكمة، وما أَوْلَيْتَ من النصر والفتح المبين.

ما كان ليخطر لي أيام تأليف هذا الكتاب منذ نَيِّف وعشرين سنة أنه سيعمّ نشره أطراف المعمورة شرقًا وغربًا، وأنه يُتَرْجَم إلى اللسان التركي القازاني ببلاد الروسيا، وإلى اللسان الأوردي ببلاد الهند، ولا أنه سيقرؤه إخواننا سكان بلاد الملايو، وجزائر الهند الشرقية، وإخواننا الإيرانيون، والترك، وسكان شمال أفريقيا، وجميع المسلمين، فَحُقّ لي أن أقول: نصرٌ مِن الله وفتحٌ قريب.

لك الحمد اللهم نصرت، وأيَّدت، وفتحت، وخلقت جيلاً جديدًا في الأمم الإسلامية، وأنا في هذه الحياة.

وهل كان يُخَيَّل لي أثناء تأليفه أن المسلمين في الصين واليابان والأفغان سيقرءونه ويفرحون به؟ أم كنت أظن أن التركستان الصينية - كما سيأتي - يستقبلون حالاً جديدة بعد قراءة هذا الكتاب وأمثاله، ويشيدون مدارس على مقتضى ما بَيَّنَّا فيه، ويذرون تلك التقاليد العتيقة التي ورثوها عن الآباء قرونًا وقرونًا؛، إذ كانوا يحرّمون النظر في هذه العوالم، فرحين بما لديهم من ظواهر

القشور العلمية في التوحيد وغيره، زاعمين أن النظر في هذه العوالم كالكفر الصُّرَاح[١].

أشرقت الأرض بنورك، وازَّيَّنَتْ بآياتك، ما أسرع التطور الآن، وما أقرب التقدم والفلاح في بلاد الإسلام! نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.

ومن أبهج ذلك النور الإلهي المشرق على الأقطار الإسلامية في زماننا ما قَصَّه في مجلس حافل، وفي حفلات عامة ببلادنا، ذلك الشاب التركستاني منصور خان أمين - الآتي ذكره - أن مبدأ حياته في إبّان صغره كان على نهج ما قصصناه في هذا الكتاب، حيرة وتردد وشك وارتياب في أمر الحياة والدنيا والدين، حتى إذا أتيح له قراءته انفتح ما كان مغلقًا، وأسرع هو وآلافٌ أمثاله إلى السير في سعادة الحياة، وهو الآن يُدرّس في جامعتنا المصرية. وهاك ما جاء في جريدة المُقَطَّم بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١، تحت عنوان: معلومات جديدة عن بلاد تركستان الصينية (كاشغر)، نصف ساعة مع السيد منصور خان، وصَدَّرها كاتبها الشيخ سعيد درويش من سوريا الباب بمقدّمة ذكر فيها أنه لما انصرف من المؤتمر الإسلامي بالقدس الذي كان هو أحد أعضائه قابل الشاب التركستاني المذكور، وبعد أن وصفه بأنه يعرف خمس لغات: التركية، والفارسية، والعربية، والفرنسية، والإنكليزية، قال: سألته:

(١) الصُّرَاح: الخالص. (م).

س: ما السبب الذي حملك على مغادرة الوطن؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الإسلامية؟

ج: كنت تلميذًا في المدرسة الثانوية في (كاشغر)، والعلوم العصرية قليلة في بلادنا جدًّا بالرغم من رقي العلوم الإسلامية، والآداب العربية والفارسية.

فمنذ عصور قديمة، كانت بلادي وإخواني المسلمون غَرْقَى في لُجَّة[١] الجهالة؛ بحيث لا يمكنني تفصيل أحوالهم الاجتماعية في هذه المدّة القصيرة، فها أنا ذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادي وشعبي - وهم مسلمو تركستان الصينية - بالعلوم العصرية، تلك العلوم التي كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب الزندقة[٢] والإلحاد في البلاد بل الكفر، وأن كلّ من يتعلم علمًا عصريًّا يعده قومي مارقًا[٣] من الدين، إلى أن بزغ في آفاق عالم الإسلام شمس أحرقت بأنوارها حجب الجهالة، فتجلّى جمال الحقيقة، وأزيل الغطاء عن عيون شباب بلادي جميعًا في بضع سنين، الأمر الذي عجزت عنه القرون المتطاولة، والمؤلفات التي كانت تصدر آنًا فآنًا لفلاسفة الإسلام، وما هذه الشمس التي مزقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات حضرة فيلسوف الإسلام الأوحد فضيلة الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري، المصري الذي سحر

---

(١) لُجَّة الجهالة: ظلمتها وسوادها. (م).
(٢) الزَّنْدَقة: الإلحاد، ومخالفة مبادئ الإسلام الأساسية. (م).
(٣) مارق: خارج. (م).

عقول بلادنا في مدة وجيزة، وأبدع قرنًا جديدًا في الحياة الاجتماعية الإسلامية، ووفَّق بين القرآن والعلوم العصرية، مما لا يدع مجالاً للشك والريب في أن تلك العلوم هي نفس الدين، وأخصّ بالذكر من المؤلفات «التاج المُرَصَّع»، الذي أهداه لميكادو اليابان، و«نظام العالم والأمم»، و«تفسير الجواهر»، وكتاب «القرآن والعلوم العصرية».

ومن العجب أني في أي بلاد مررت بها في سفري إلى تركيا، كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوي جوهري، وفي يده أثر من آثاره القَيِّمَة يريد أن يتثقَّف به أو يثقف به غيره. والحقّ يقال إن آثار الفيلسوف – على ما أعتقد – ستؤثر في عقلية الشعوب تأثيرًا يشبه تأثير المصلح في الدين المسيحي (لوثر).

ولما كنت في بلادي كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يُشَيِّدُوا باسم الفيلسوف الجوهري جامعة تكون تذكارًا لاسمه، وتقديرًا لأعماله.

إن تلك الآثار القيِّمة أَثَّرَت في عقلية شبان تركستان الصينية، الذين كانوا يتيهون في بيداء آسيا الوسطى حيارى، لا مرشد لهم، ولا دليل في عزلة عن الأمم المتمدنة، فلما رأوها أقبلوا عليها، وحلّ في قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية، فسعوا إلى منابعها في جامعاتها في الممالك المتمدنة الأوربية والإسلامية، وإن هذه الكتب الطنطاوية هي التي بعثتنا في أقطار الشرق والغرب؛ لدراسة علوم

الأمم مما حُرِم منه جميع أجدادنا وآبائنا، وأنا واحد من أوّل وفد قام من البلاد، وعددنا ثلاثون شابًّا، وقام بعدنا وفد آخر، كل ذلك بتأثير حضرة الفيلسوف، فها أنا ذا غادرت بلادي إلى تركيا؛ لاقتباس العلوم العصرية، وللارتشاف من مناهل حِيَاضِها.

- ذكرتم أن في بلادكم مسلمين، فكم عددهم؟ ومن يحكمهم؟
- عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية.

أما المسلمون في بلاد الصين، فإنهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلّمون باللغة الصينية، ويعتادون العادات والتقاليد الصينية، ويدينون بالديانة الإسلامية المحمدية، وإن الذي يحكمهم هي الحكومة الصينية الإمبراطورية.

- هل تُضَيِّق الحكومة عليكم في دينكم؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية؟
- نحن أحرار بكل معنى الكلمة.
- هل زُرْتُم غير مصر وتركيا؟
- الأفغان وإيران في طريقي إلى تركيا.
- هل مكثتم طويلاً في بلاد الأفغان؟
- جُلت في الأفغان ستة أشهر، وإن رفيقي أمين أفندي الكاشغري دخل في إحدى المدارس الأفغانية مجانًا تحت حماية أمان الله خان – الملك السابق – فحينما

ذهبت إلى وزارة المعارف الأفغانية، أخبرني معاون الوزير أنه في صدد ترجمة كتاب «نظام العالم والأمم» لحضرة الأستاذ طنطاوي جوهري إلى اللغة الفارسية لشبان الأفغان.

- قلتم إن كتاب «التاج المرصع» لهذا الفيلسوف أهداه صاحبه لميكادو اليابان، فهل لذلك الكتاب أثر في تلك البلاد اليابانية؟
- إن «التاج المرصع» لما وصل اليابان، أكبّ عليه المسلمون اليابانيون، الذين أسلموا منذ ربع قرن بإرشاد المشهور عبد الرشيد إبراهيم السياح، والآن في اليابان – على ما سمعت من بعض الثقات – أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني، فصار هذا الأثر النفيس دُولَة – أي تتداوله الأيادي – وأثر في زيادة محبَّتهم لدينهم، والآن ينتشر الدين الإسلامي بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشارًا واسع النطاق. انتهى ما جاء في المقطم.

ثم هاك ما كتبه الفاضل التركستاني المذكور في تاريخه أدناه، يصف به هذا الكتاب، ويُحَرِّض شباب الشرق الأقصى على قراءته، قال:

«حينما بدأت في أن أكتب تقريظًا لهذا الأثر الجليل حوَّل فكري قلمي شطر هذا الشرق، هذا الشرق المسكين الأسير، هذا الشرق الضعيف القويّ، هذا الشرق العزيز الذليل، هذا الشرق النجيب، الذي كان منبع الحضارة البشرية،

ومهد العلوم والحكمة، هذا الشرق الذي ربى في حجره قادة للفكر الإنساني، هذا الشرق الذي علّم الإنسان ما لم يَعْلم، هذا وما أدراك ما هذا الآن؟ إنه الآن عبارة عن مستعمرات الغرب، أهلها أُسارى أوربا، وما كانوا بأسارى، ولكن عفريت ذكاء الإنسان المدني المتقدم أفسد هذه النفوس الذكية الابتدائية الجاهلة الطاهرة، فأيقظ مطامعها، فَسَهَّل أسر هذا الشرق المسكين، فهو يبكي الآن متألمًا مما أَلَمَّ به، ويدعو أبناءه المخلصين؛ لتحريره بقدر الإمكان، وإعادة مجده التليد[١] الذي زال».

وأنا أخاطبك دائمًا كما خاطبتك من قبل أيضًا: أيها الشباب الشرقي، إنك أيها الشباب الشرقي النبيه، إنك.... أنت مفتاح مستقبل الشرق. أخاطبك إذ إنك فقط مخاطبي، قلبك الصافي، وعقلك الحادّ المُتَوَقِّد، ووجدانك الحساس الشاعر، يصرف خطابي وقلبي دائمًا إليك عن أولئك الذين ران[٢] على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وأفسدهم المجتمع. وأنت لم تخرج بعد إلى ساحة الحياة الاجتماعية، ولم تختلط كثيرًا بالمجتمع، فلم يفسدك بعد، فقلبك صافٍ كمياه الأمطار حينما فارقت قطراته السحاب، وحينما هي ساقطة في الهواء، فأنت لم تتلوّث بعد بالأَدْرَان[٣] الدّنِسَة القذرة، فلا أرى في مرآة نفسك إلا الأمانة

(١) التليد: القديم، عريق. (م).
(٢) ران: غلب، طبع، ختم. (م).
(٣) الأدران: الأوساخ. (م).

والصداقة، فأنت لا تعرف الكذب والرِّياء والخيانة والغدر، والمجتمع الغَدّار لم يُلَوِّثْك بعد بهذه الأخلاق.

لهذا أردت أن أخاطبك بشيء مما يجيش في قلبي، وإن كنت قد أقسمت ألا أخاطب أحدًا من بني الإنسان، وألا أكلم إلا تلك الطيور حينما تجمع واحدة منها أوراقًا من الأشجار؛ لتبني وَكْرها[١] تحت إِفْرِيز[٢] سقف، وألا أُعَاشِر إلا جماعة هذا النمل الذي تتماشى أفرادها في طريق مستقيم، ويحملون حبات من الحِنْطة إلى بيوتهم. ولا يتجادلون، ولا يتحاربون فيما بينهم كما يتقاتل مجتمعات الإنسان. فإن هذه الأمم التي أحببتها أنا لا يتّصِف أحد منهم بتلك الأخلاق الذميمة التي تأتي وتنبعث عن العقل الإنساني، فهم بُرَآء من العقل[٣].

فأنت كذلك أيها العقل الشابّ مخاطبي. ولعلك أيها الشاب الشرقي – الذي سيقرأ لا شك هذا الكتاب حينما أكتب هذا الخطاب – تعيش في بلادك بين عائلتك، ولست غريبًا مثلي أو أنك غريب مثلي أيضًا، ولكنك حاضر عندي، وبلادك أيضًا حاضرة عندي، فحينما أنا أخاطبكم: أيها الشباب المعصومون، الذين يجولون على أفراسهم على سفوح جبال (التاي) و(تيانشان)، ويا إخواني النجباء، الذين يروحون ويغدون بين (كابل)، ومدارس (دار الأمان)، ويا أيها

(١) الوَكْر: عُشّ الطائر. (م).
(٢) إفريز: ما يبرز عن جدران العمائر أو المباني في هيئة حافة أفقية. (م).
(٣) الكاتب جعل تلك الحيوانات بمنزلة العقلاء، ولولا ذلك لم يقل (فهم) وما معها، بل كان يقول (فهن). اهـ

الشبان، الذين يتفسَّحون في أيام مسامحتهم على سواحل نهر (ركاباد)، وحديقة (السعدي)، ويا أصدقائي، الذين يتفرّجون كل جمعة، ويبحرون في (البوغازين)، ويا شبان (الهند والجاوي والصين) والعالم العربي، حينما تجتهدون لتأمين مستقبلكم، لا تنسوا وطنكم العزيز الشرق، واسعوا لرُقِيّه، ونهضته، وتقدمه، ولا يمكنكم أن تنهضوا أمتكم إلا عن طريق الإصلاح الديني، فكلكم تعرفون أن الشرقيين إلى هذا الآن يعتقدون بالتدافع والتضادّ بين الدين والعلوم الحاضرة، وهذا الاعتقاد هو أساس كل مصيبة أتت وتأتي على رأس الشرق، وهو الذي أخّر الشرق، وعَوّق رُقيَّه، وهذا الاعتقاد هو الذي يستعمله المستعمرون، ويستفيدون منه في جميع أغراضهم السياسية، فيضربون المتنوّرين بالمتعصبين.

فعليكم أيها الشبان الشرقيون، أن تسقوا أمّتكم العَطْشَى بزُلال[1] المدنيّة والعلوم الحاضرة من حوض كوثر القرآن الحكيم، فإن الحقائق العلمية التي أتى بها القرآن، وإن بقيت مخبأة عدة من القرون، قد كَشَفَ عن غطائها فيلسوف شرقي، حَبّذَه علماء الغرب، كما حبذه المحققون المخلصون من فلاسفة الشرق، فكُتُبُ هذا الفيلسوف النابغ ستتكفل بإنقاذ الشرق من هذه المصائب الحاضرة، ولا شك أن الشباب التركستاني الصيني، والشباب الصيني أول من سيهتمّ بها كما اهتمّ من قبل.

(١) الزلال: الماء العذب الصافي البارد السهل المرور في الحَلْق. والمراد هنا مظاهر المدنية الصافية التي تنبع من القرآن الكريم. (م).

فهذا الفيلسوف الشرقي الأكبر الذي قد عرف عقلية الأمم الشرقية، قد أهدى إليهم ما كانوا يتمنَّوْن، ولكن لا يجدون.

ألا أيها الشباب الشرقي، إن للنهضة الفكرية بين الأمم طريقتين: الثورة الدامية المُخَرِّبة، والإصلاح الهادئ المعمر. وأعتقد أن الطريقة الثانية هي التي تنمو الآن في الشرق. وأهمّ هذه الإصلاحات هو الإصلاح الديني، وهي الطريقة التي أتى بها الفيلسوف المصري (الأستاذ: طنطاوي جوهري)، فاقرأ آثاره، وطَبِّق ما يقول فيها على بلادك.

أرشد شعبك إلى الحياة السعيدة العصرية عن طريق القرآن، وتفسير طنطاوي، واذهب إلى أنحاء وطنك ماشيًا، وعَلِّم أبناء بلادك بالخطب والمواعظ والجرائد، أن القرآن يدعوهم إلى العلوم الحاضرة، والحضارة المعاصرة، فإن أعرضوا عنه فما عليك إلا البلاغ المبين، فلا يبالي رأيهم في أيّ واد هلكوا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت/ ٤٦]، وأنا موقن بما سيتمّ من الرقيّ القويم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾ [ص/ ٨٨].

منصور جنكيز خان التركستاني».

ولعل الإخوان يسألونني عن هذا الشاب أين هو؟ فأقول: لقد كان له مقال حديث شيّق وطويل، فإني منذ بضع سنين كنت جالسًا في منزلي، إذا شابٌّ

ممتلئ الجسم معتدل القامة دقّ الباب، فأُذِن له فدخل، فقال: أنا (منصور خان أمين) التركستاني، قلت: إذن أنت الذي تكتب في الجرائد المصرية، قال: نعم، وأنا بحثت عنك ثلاثة أشهر، ولم أعرف البيت إلا هذا اليوم من الأستاذ لطفي جمعة. ثم حدثني حديثًا طويلاً في أمر بلادهم (التركستان الصينية)، وقال إنهم كانوا يُكَفِّرون كل من يقرأ العلوم من حساب، وهندسة، ومخلوقات، وعجائب حتى ظهر كتاب «التاج المرصّع»، وكتاب «نظام العالم والأمم»، وبعض أجزاء من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم، فانقلبت أحوال الأمة، وأرسلوا وفودًا إلى أوربا؛ ليتعلموا، ونظموا مدارس على مقتضى ما قلتَه أنت في الكتاب. ولما جئت إلى مصر، توجَّهت إلى جريدة الأهرام، فأبَوْا أن يكتبوا هذه الحقيقة، فذهبت إلى الأستاذ هيكل بك فكتبها، وهكذا أخذ يخطب في مجالس كثيرة بهذا المعنى، ودخل الجامعة المصرية وقصّ عليهم هذا القصص، فقَبِلُوه، وأسرع في التعلم، ولكن في آخر الأمر أنهكت قواه ونهيته مرارًا، ولكن الغرام بالعلم قضى عليه، فمات منذ نحو سنة واحدة من هذا التاريخ، وأنا أكتب هذا في أواخر إبريل سنة ١٩٣٤، فمات محزونًا عليه، رحمه الله تعالى.

ومما حدَّثني به هذا الشاب - رحمة الله عليه - أنه قال: لقد اضطرَبَتْ آرائي في هذا الوجود، وصرت أنظر إلى الأشجار والأنهار والجبال والحيوان والنجوم والشمس والقمر، وأقول: ما هذه وما حقائقها؟ فلم أجد نصيرًا ولا معينًا، ولقد كنت يومًا أدرس المنطق على أستاذ شهير، ووصلنا إلى هذه القضية (زوايا المثلث الثلاث

تساوي قائمتين). قال: فلما سألت الشيخ عن برهان ذلك، قال: هذا علم اليونان، وهو حرام، فلما أعيت حيلتي، ولم أجد لي معلّمًا ولا نصيرًا، وقد سئم العلماء من أسئلتي، وقالوا إنني مجنون، وكيف لا أكون مجنونًا في نظرهم وأنا أسألهم عن هذه المخلوقات، وهم يقولون خلقها الله؟ أفليس من الجنون أن أسأل أكثر من ذلك؟ هي فعْل الله وكفى. أمَّا معرفتها، وما اشتملت عليه من العجائب فلا قيمة له في نظرهم، هناك خرجت من المدينة، وهِمْتُ على وجهي[١] في الفَلَوَات[٢] وأنا حائر ليلاً ونهارًا، ولما رجعت إلى القرية، ودخلت مسجدًا، أَلْفَيْتُ[٣] عالِمًا حوله مئات ومئات يسمعون درسه، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾ [الرعد/ ١٥]، مع تفسير آية ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ[٤] عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف/ ١٧] إلى آخره، فسمعته يقول: طار طائر من فوق الشجرة، ووصل إلى نهاية ظلها، ونريد أن نعرف الخط الذي قطعه الطائر، وقد علمنا من المثلث القائم الزاوية ضلعين: الضلع الأول هو الشجرة، والضلع الثاني هو الظل، فما الضلع الثالث إذن؟ فأدهشني هذا القول، وبعد أن أتمّ الدرس سألته: أليس هذا كفرًا؟ فقال: كَلاَّ، هو في كتاب «نظام العالم والأمم» تأليف الشيخ طنطاوي جوهري. قال: فأخبرته خبري وحيرتي، فأعطاني كتاب «التاج المرصع»، فرأيت كل ما فيه

(١) هِمْتُ على وجهي: خرجت ولا أدري أين أتوجه. (م).
(٢) الفَلَوات: جمع «فَلاة»، وهي الأرض الواسعة المُقْفِرة التي لا ماء فيها. (م).
(٣) أَلْفَيْتُ: وجدت. (م).
(٤) تَزَاوَرُ: أصلها «تَتَزَاوَر» أي تميل وتنحرف. (م).

منطبقًا على حالي، وهناك ألفيتُ كثيرًا من الشبان قد ثارت فيهم هذه الثائرة، وفارقوا الوطن بتحصيل العلم، والوطنيون قد فتحوا مدارس تدرس فيها هذه العلوم التي كانت كفرًا قبل ظهور هذه الآراء، فصارت اليوم من جوهر دين الإسلام. انتهى.

وقد آن أن نذكر هذه الفصول بعد أن ذكرنا بعض نتائجها ونتائج أمثالها في أمم الإسلام.



الفصل الرابع
الأزهر والتعليم فيه

الأزهر: مدرسة عظيمة كبرى، أشهر مدارس العالم، تهم الأمة المصرية خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا. في الأزهر وتوابعه من أبنائنا ما يبلغ نحو الخمسة عشر ألفًا، فمنهم القضاة والمفتون، والمدرّسون بالمدارس الأميرية، والمفتّشون، والعلماء، وخدمة المساجد، وأئمتها، والمؤذّنون، والوعّاظ، وهؤلاء هم روح القُطْر وقلبه، فإذا صَلَحَ صلحت البلاد، وإذا فسد فسدت، فأهميتهم عظمى، فهم مسئولون، والحكومة مسئولة عنهم أمام الله والناس والرأي العام والأمم جمعاء، ومن العبث بل من الجهل الفاضح أن يسئل عن الأزهر أهله الذين درجوا فيه، فشبّوا وشابوا ودنوا من الموت، فلم يخرجوا إلى دنيا غير الدنيا، فكيف يعرفون القصور أو التقصير، ولئن سألتهم ليقولنّ هذا نظام سماويّ، وأمر رباني تنزل من سماء الآباء والأجداد.

وأهمّ ما يدرس فيه الآن: التوحيد، وقواعد العربية (٥ علوم)، والفقه وأصوله، والمنطق، وما عدا ذلك من الحديث والتفسير والجدل والمناظرة وعلم الأخلاق فهي ثانوية، وبعضها يُدَرَّس تَبَرُّكًا.

التوحيد وكيفية تدريسه في الأزهر

هذا الفنّ يدرس بطريقة جدلية اضطرّ قدماء العلماء لاتباعها، لما كان جهلة المتفلسفين في الأزمان الغابرة يُشَوّشُون على علماء الدين بأقاويلهم، فَدَوَّنُوا هذا العلم للردّ عليهم، وكانوا يذكرون أن الذات هي عين الصفات، وأن الله وصفاته شيء واحد، وأن العالم قديم لا أوّل له، وأن الأفلاك التسعة ذات أَجْرَام[1] مخالفة للعناصر الأربعة[2]، وأن الكواكب السبعة يصدر منها السعود والنحوس في بروجها، وهكذا من الأشياء التي تضر بالعقيدة. ومن العجيب أنهم كانوا يقولون بقدم الأرض والعناصر، بل وكل نوع من أنواع الحيوانات، ولا جرم[3] أن هذه الآراء كلها قد أبطلتها الفلسفة الحديثة، وبنت على أنقاضها فلسفة أخرى حديثة مطابقةً تمام المطابقة لما يطلبه الإسلام. واعلم أنهم لا يزالون الآن في الأزهر يردّون على مثل هذه الآراء المدفونة تحت الثرى، وتتسرب تلك الآراء إلى عقول الشبان، ولا علم لهم بالعلوم الحديثة التي أبادت القديمة، وبنت على هيكلها

(١) أَجْرَام: جمع «جِرْم» وهو جسم كل شيء، ومنها الأجرام السماوية: النجوم أو الكواكب. (م).
(٢) العناصر الأربعة: التراب والماء والهواء والنار. (م).
(٣) لاجَرَم: لامحالة، لابد، وتأتي بمعنى حقًا.(م).

قصرًا مشيدًا جميلاً مشابهًا لما بناه الإسلام. ومن العجيب، أن ترى الرازي في تفسير القرآن يُحاجّ[١] أولئك المتفلسفين القائلين بِقِدَمِ الأرض ومن عليها، ويبطل دعواهم، وهكذا أكابر علماء الإسلام، ولم يعلموا في زوايا الأزهر أن أقوال أكابر علمائنا أصبحت الآن هي المذهب الوحيد في أنحاء المعمورة، فواحسرتا على أمة خمدت نارها، ولم تجد من يُنَقِّب[٢] عن حالها، وينقذها من التَّهْلُكَة، والتخبُّط، والوقوع في المهواة، ولا أشبّه تعاليم التوحيد الآن إلا بتعليم الصين الذي وضعه حنجنزي الصيني المُسَمَّى كونفشيوس قبل الميلاد بستة قرون، فتراهم يقرءون كتبه التي مضى عليها قرون، وهم لا يعلمون ما حولهم من علوم الأمم، وإنما يشرحون ويحشون كأنهم لها عابدون، وكذلك يشبه بعض المشابهة لتعليم اليهود قبل ظهور يوشَع بن جمال سنة ٦٤ من الميلاد لقصوره في الكمّ، فانتشل الصين من هذه الوَهْدة[٣] الآن ما صدر من المنشور الإمبراطوري في هذه السنة بالتوسع في المعارف، ونبذ تلك التطويلات التي لا فائدة فيها، وهكذا يوشع بن جمال استبدل طريقة اليهود بأحسن منها، ولكنه لم يأتِ إلى الآن بالفائدة المطلوبة.

وأما الصين، ففي الغيب آثارها، والمستقبل يظهرها، وما أدري ما سيتم في الإسلام. لقد كثر المصلحون فيه، ولقد نبذ العلماء كل مصلح في حياته. فإذا مات قدّسوه وسمَّوْه حُجَّة. هذا الغزالي وكتبه بين ظهرانَيْنَا يقرؤها الخاص

---

(١) يُحَاجّ: يبرهن بالحجة والدليل ليقنع الآخرين. (م).
(٢) يُنَقِّب: يبحث. (م).
(٣) الوَهْدة: الأرض المنخفضة والحفرة، والمقصود: القاع. (م).

والعام، أمر باتباع الكتاب، والنظر في الخليقة، وأفهم أن هذا هو التوحيد، وقال إن فنّ التوحيد سلاح لا غير، ولا يجوز أنْ يقرأه إلا القليل - وذلك كان في زمانهم، أما الآن فقد حدثت أقاويل أوربية فوجب دَحْضها[١] - وقام بعده ابن رشد، وناضله في بعض النقط، ثم اصطلح معه على أن هذا الفن فيه خلل، وها هو كتابه مطبوع يقرؤه الناس خارج الأزهر لا فيه، ويقول إن التوحيد يرجع فيه إلى القرآن، فما للناس لا يقرءون؟ وإذا ذُكِّرُوا لا يذكرون، وإذا رأوا عالمًا نبذوه حتى إذا مات رحموه وعَظَّمُوه والموت خير من حياة مَحُوطَة بالجهل والآلام؟ أَمَرَ ابن رشد العلماء بعده أن يدرسوا علوم المخلوقات والطبيعة والرياضة، ويطبقوها على القرآن، ويأمروا علماء الدين بمعرفة العلوم والعلماء بغير الدين أن يتعلموه، وأن كلاًّ منهما مقصر لجهله بعلم الآخر.

ومما استدلّ به على فساد تلك الطريقة قوله: كيف يستدل بالأَخْفَى على الأَجْلَى؟ وهذا البرهان عَوِيصٌ[٢] مع أن معرفة الله جليَّة واضحة لأجهل الجهلاء، مع أنك تراهم لا يكادون يخلصون إلى الله في المعرفة إلا بعد الجهد الجهيد مع التشويش، ويدخلون في الأعراض والجواهر، وأن العرض لا ينتقل ولا يَكْمُن، والقديم لا ينعدم، وهكذا من المطالب السبعة التي تراها بلا محصّل إلا مجرّد خيال في خيال، وكلام في كلام، فلو أن هذا الزمن صَرَفَه الطالب

---

(١) دَحْضها: إبطالها. (م).
(٢) عويص: صعب. (م).

في معرفة ما أرشد إليه القرآن من النظر في الحكم التي أبدعها مبدعها، وسَنَّها واضعها كما أرشد إليه مُحْكَم التنزيل، لخرج من الأزهر بعد خمس سنين من يُضرَب بهم المثل في العلم والقدر، ولفاقوا نظائرهم، فيا ليت شعري، هل ينبذ المسلمون هذا القول الآن كما نبذه الذين من قبلهم؟ أنا لا أظن ذلك، كيف ومولانا العباس أجلّ وأعلى مكانةً وأرفع شأنًا، وقد تربَّى تربية الملوك العظام، وهو أدرى بالزمان والمكان والحال؟ ولنُذَكِّر سموّ أميرنا بما وقع للعَلاَّمة ابن رشد، وقد طلب الإصلاح الذي نطلبه الآن من الملك الأندلسي يعقوب المنصور بالله في أواخر القرن السادس الهجري، فما كان جزاؤه مع قربه من الملك وسموّ مكانته، وحب الملك له إلا أن أصدر منشورًا بإيعاز[١] العلماء بإبعاد الحكيم من العاصمة، ونَفْيِه في قرية صغيرة قرب قرطبة، وأمر الملك بإحراق كتبه مع أنه كان يقرؤها سرًّا؛ وذلك للتقرّب من العلماء؛ ليبقوه في الخلافة، ولقد كان قبل اضطراب أمره يخاطب الحكيم بلفظ الأخ، وكذلك يخاطبه بالأخوة، وما كان عاقبة هذه السياسة المبنية على المحاباة[٢] والجبن إلا أن المسلمين حرموا علم الرجل، وحمل اليهود تلاميذُه علومَه إلى أوربا ونشروها هناك، فأحدثت حركة عجيبة، وأضحى أهل أوربا قسمين: قسم يتعصب للقديم، وقسم يميل لتعاليم ابن رشد، وهكذا تغلبت فلسفته عليهم، فخرج منهم لوثر الألماني، وهو المُصلح العظيم، وكان ما

(١) إيعاز: إشارة، إعطاء تعليمات بشأن أمر ما.(م).
(٢) المحاباة: التحيُّز.(م).

كان من عِظَمِ ملك الغرب، وضعف الشرق، ولم يظهر في بلاد الشرق بعد هذين الحكيمين مصلحون، اللهم إلا في هذا العصر، وعندنا أمل عظيم أن يكون مولانا العباس أوّل المصلحين؛ ليقرن اسمه باسم أكابر الملوك إن شاء الله تعالى.



الفصل الخامس
أسباب انحطاط التعليم في الأعصر الأخيرة

إيضاح لما مضى

ألمعنا فيما مضى إلى نُبْذَة مما جرى بين ابن رشد والخليفة يعقوب المنصور الأندلسي، ولنَذْكُر الآن نبذة من مَنْشُورِه الذي أصدره في بلاد البربر والأندلس، وهاك بعض ما قاله، فخَلّدوا في العالم صُحُفًا ما لها من خَلاَق[1]، مُسَوَّدَة المعاني والأوراق، بُعْدُها من الشريعة بُعْد المَشْرِقَيْن، وتباينها تباين الثَّقَلين[2]، يوهمون أن العقل ميزانها والحق برهانها، وهم يَتَشَعَّبُون في القضية الواحدة فِرَقًا، ويسيرون فيها شواكل وطرقًا، ذلك بأن الله خلقهم للنار، وبعمل أهل النار، يعملون؛ ليحملوا أَوْزَارهم[3] على ظهورهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يَزِرُون، ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين إنس ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة/ ٩] ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

(١) خَلاَق: حظٌّ ونصيب وافر من الخير. (م).
(٢) الثَّقَلين: الإنس والجن. (م).
(٣) أَوْزَارهم: آثامهم. (م).

﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام/ ١١٢] فكانوا عليها أضرّ من أهل الكتاب وأبعد عن الرّجْعَة إلى الله والمآب. اهـ.

وجميع المنشور على هذه الصفة المُطْرِبَة للعامة، المُفرِحَة لبسطاء أهل العلم، المقتنعين بظواهر ما يعلمون، وهم عن الآخرة هم غافلون.

وبينما ترى مسلمي الأندلس فرحين بهذا المنشور، ترى من وجهٍ آخر مسلمي الشرق فرحين بما يسمعون من ذمّ حُجّة الإسلام الغزالي، ونَبْذ كتبه في بلادهم وهَجْرها، فكان القرن السادس محصورًا بين الحكيمين، مات الأَوّلُ في آخره، والثاني في أوّلِه، وقد أنذرا المسلمين وحذّرَاهم من الإهمال، ونبذ العلوم، فكذّبوهما، واتّحد الشرقيون منهم والغربيون على نبذهما، وعاندوهما.

فإن كنت في شك مما ذكرنا، فاقرأ باب العلم في الجزء الأول من الإحياء للغزالي، أو الرسالة التي وضعها ابن رشد في التوحيد، وحادثني في شأنهما، ثم عَرِّج على الأزهر، تَرَ التعليم فيه لا يزال على الطرق التي نبذها الحكيمان مهما اختلفت آراؤهما، وتباينت أقوالهما.

ضاق الخناق على العلم في الشرق بعد الغزالي، فأخذ يُهروِل من بغداد ومصر وأفريقيا، وانطلق يعدو إلى جبل طارق، فعبرت أفراس صباه، ورواحله البحر الأبيض، واستقرّت في الأندلس حتى انتهى القرن السادس الهجري، فقيدها يعقوب المنصور، ففكّ أغلالها، وأطلقها من عقالها تلاميذ ابن رشد، وأغلبهم من

اليهود الذين كانوا يقطنون[١] الأندلس أيام شباب العلم والدولة والملك، فأخذوا يَنْسَلُّون إلى برونسينا والأقاليم المُتَاخِمَة[٢] لجبال البيرنية، وأضحت العربية غريبة في بلاد الأعاجم، فكان أول مترجم للفلسفة الرُّشدية للعبرانية موسى وصموئيل ابنا طيسيون، وقد هاجرا هما وأسرتهما إلى لونل في فرنسا، ثم أخذ بِنَاصِرِ هذه الفلسفة الرشدية المضطهدة الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا، وكان مُحبًّا للفلسفة، فَعَهِد إلى كثيرين أن يترجموا الفلسفة من اللغة العربية إلى العبرانية واللاطينية، فدارت الفلسفة الرشدية دورتها الدموية بالبلاد الأوروبية، إذ اكتُسِحَت من البلاد الإسلامية.

ودارت دورات في شرايينها وأوردتها في القرن الثالث عشر المسيحي، والرابع عشر والخامس عشر. وكان ما كان من جدل وعناد، ثم أخذت طورًا آخر في القرون الأربعة الأخيرة، وأخذت التربية أدوارها إلى الآن.

هذا تاريخ العلم وسير حياته، وأين كان مولده، وكيف كان مهاجره، فيا شرق مَطْلَع الأنوار، ومَجْمَع العلم، ومحطّ الرِّحَال، أين أنوارك الباهرة؟ وأين علومك الزاهرة؟ خُلقت حليف التقوى، رفيق العلم، رضيع الحكمة، فلما نقضت عهودها، وأخلفت وعودها عاقبك الله على خطيئتك؛ ليكفّر سيئاتك، وجزاء سيئة سيئة مثلها.

---

(١) يقطنون: يقيمون. (م).
(٢) المتاخِمَة: المجاوِرَة. (م).

قطعت صلة عِلْم حُجَّة الإسلام الغزالي في آسيا، فوجه إليك التتار، فَتَبَّرُوك تَتْبِيرا وجاسوا خلال الديار[١]، ونهبوا الأعمار، وأَخْلَوا الديار كأن لم تغن بالأمس ، ولكنك لم تُجْلِ الحكيم من بلادك، ولم تهجه من أرضك، وخلا بنفسه عشر سنين من عمره الذي يبلغ ٥٣، ولعله لو عاش ٧٥ كابن رشد لنكّلْت به[٢] تنكيلاً، ولكن سَلِمَ بالموت وسَلِمْت من أذاه، ولو أنك تطاولت عليه بالأذى، ونفيته من بلادك، وأجليته من معاهدك، لأجلاك التتار كما أجلى الأندلس قوم غِلاَظٌ شداد بأمر الملك فرديناند والملكة إيزابلا الإسبانيين، وكأنهم لما عادوا الحكمة وأجلوها من عقولهم أجلوا من أرضهم.

ليس هذا القول خيالاً مجرّدًا، أو مثلاً مضروبًا. كَلاَّ، فللرُّقيِّ أسباب وللخراب أسباب، ولا ريب أن القرن الثالث عشر المسيحي وما بعده، أخذ الغرب فيها يخصب بتلقيح الشرق، مع أن الثاني تبرّأ من العلم، وتدلى[٣] إلى الشيخوخة. فأَوْدَى به[٤] المُهْلِكَان: الحروب الصليبية والتتار، وأثخنوا[٥] فيهما قتلاً وأسرًا، وختمت الرواية بجلاء الأندلسيين، وموت الشرقيين، فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم، وأشباحهم كأنها أعجاز نَخْلٍ خاوية.

---

(١) جاسوا خلال الديار: طافوا بينها بالإفساد والعبث. (م).
(٢) نكَّلْتَ به: عاقبته بما يروع ويردع ويكون عبرة لغيره.(م).
(٣) تدلَّى: نزل من علوّ.(م).
(٤) أودى به: ذهب به. (م).
(٥) أثخنوا: بالغوا. (م).

لو كان للحكمة مجال، وللعلم هَيْبَة، لأدرك عقلاؤهم ما أنذرهم المنذرون، وحذّرُوهم.

أنذر الحكيمان بغداد وقرطبة وحذراهما، فخالفا أمرهما، فهل ترى لهما إلا آثارًا مُبَدّلة، ودولاً مُعَطَّلَة؟ فحلّ بهما ما تعلمون.

ظهور الحكماء في الأمم، إما إنذار بوقوع الواقعة، أو تبشير بسعادة مقبلة، وكأن القلوب الإنسانية زرّ كهربائي تضغط عليه اليد الإلهية، فيكهرب الأعصاب، فينطق اللسان بما سيكون.

ولئن أنذر الحكماء السابقون، وساء صباح المُنْذَرِين، فلعل في إشراق صباح اليوم بطَلْعَة أنوار تتلألأ بين ظلمات ليل الجهل، مما نراه يتزايد آنًا فآنًا، علامة سعادة المستقبل والبُشْرَى.

يا قوم، ألم يَأْنِ لكم أن تخشع قلوبكم للحق، وتعتبر بالحكمة؟ يا قوم، هل قُدَّت القلوب من الصخر[١]، أو خُلِقَت من الحجارة؟ وكم تفجّر النهر من الحجر، ونبع الماء من الصخر. أَمَا آن للغطاء أن يُزَال عن الأعين، وللغشاوة أن تُماط[٢] عن الحَدَق[٣]، وللوَقْرِ[٤] أن يَزول عن الآذان، يا قوم، حَيّاكم الله، ها هو ذا الزمان

(١) قُدَّت القلوب من الصخر: كانت شديدة لا تتأثر. (م).
(٢) تماط: تُنَحَّى وتُبْعَد. (م).
(٣) الحَدَق: جمع «حَدَقة» وهي السواد المستدير وسط العين، وتسمى إنسان العين.(م).
(٤) الوَقْر: ثقل السمع أو ذهابه. (م).

قد استدار كهيئته يوم شَرَفِنَا الأَوّل، ها هو ذا نسيم الشمول حيا العقول فَتَعَرَّضوا له.

إنَّ لربكم في أيام دهركم نَفَحَات[١]، أَلاَ فَتَعَرَّضوا لها، ها نحن أولاء نُذَكِّرُكم بما سنح لنا، فسارعوا لبذل المال وحَوْز[٢] العلم، وإلا انقلب هذا التبشير بعد هذا اليوم إنذارًا ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا[٣]﴾ [طه/ ١٢٤]، ولكن أرى الزمان قد أقبل فرأيت مكان القول ذا سعة فقلت:

وإلى هنا وقف بنا جواد القلم لنوفّي حقه في الفصل السادس.

---

(١) نَفَحَات: جمع «نَفْحَة»، وهي طيب ترتاح له النفس. (م).
(٢) حوز: ضمّ وملك. (م).
(٣) معيشة ضنكا: ضَيِّقة. (م).



الفصل السادس
التعليم في الأزهر بأجلى مظاهره

ذكرنا في الفصل السابق أن نبذ الحكمة أدَّى إلى ضعف العقول، فتخاذل الرؤساء، فخُضِّب[1] وجه الأرض بالدماء؛ عقابًا من الله على الجهل، فانزوى العلم في المساجد، وعكف العلماء على العلوم الدينية، وجمدوا عليها وهم معذورون في ذلك، ولولا الثقة بالجزاء الأخروي ما أقاموا له وزنًا، فهم مشكورون لا مَلُومون.

فلا عجب إذا كان التعليم في الأزهر على ما هو عليه الآن، لاسيما وقد ابتلي بالمماليك البرية والبحرية في تلك القرون وما بعدها، ففعلوا ما فعلوا، وزُلزلت مصر بهم زلزالاً شديدًا، لاسيّما بعد دخول السلطان سليم.

ولقد وجدت شَبَهًا بين تعليم الأزهر، وبين تعليم الصين، وقدماء المصريين، ولكنه إلى التعليم الصيني أقرب منه إلى المصري القديم، وهو يخالفهما معًا في كثير من أصوله وأحواله — فتراه يشبههما في شحن العقل بالمعلومات الكثيرة مما لا يقوي النفس العاقلة – والأزهر وإن كان فيه حُرِّيَّة، حَرِيَّة بالاعتبار، جديرة

---

(١) خُضِّب: لُطِّخ. (م).

بالشرف، فهي محصورة في أقوال مدوّنة في الكتب - كما سنفصله بعد. وتمتاز الصين بالأعمال اليدوية، والحكمة العملية مما لا أثر له عندنا.

يذكر عن الأوربيين أحاديث الحرية، وظهور الأفكار، وأن لا حجر على أحد فيما يقول، ويقولون: ذوو الآراء لهم شأن عظيم وجلال في قومهم، بل هم كعبة الزائرين، ومحطّ رحال الطالبين، فإن شئت فقل هذا جميعه عند ابن الأزهر، يتمتّع بمناقشة أستاذه والكتاب الذي يقرؤه، وَلكَم يحاكم المَتْن وشارحه وحاشيته وتقريرها، ثم حاشية أخرى وشرحًا آخر، وربما يتناول العبارة عشرة كتب تضم عشرين قولاً، فيحكم بينها، ويقضي بما يفتح عليه.

هذه حال الأزهري في تدريسه، يسعى لهذه الغاية، فمتى أحكم تلك المَلَكَة، وعرف كيف يحكم بين الشيوخ الغابرين[١] في أقوالهم المتناقضة، وآرائهم المتشعِّبة؛ بحيث يكون ثابتًا في آرائه، ماضيًا في عزمه، قويَّ الجَأْش[٢]، ثابت الحكم، كان له القدح المُعَلَّى[٣]، وأخذ المقام الأول فيما بين القوم.

هذه هي الفضيلة التي عليها يدور محور نظام الأزهر، ولن يُقرأ فنّ من الفنون العربية، أو الفقهية، أو الأصولية، أو المنطقية إلا والمسعى الحقيقي له هذه

---

(١) الغابرين: القدماء. (م).
(٢) قوي الجأش: جريء ثابت عند الشدائد. (م).
(٣) القدح المُعَلَّى: النصيب الأوفر. (م).

الملكة، وتحصيل هذا المقصد الشريف، فإذًا صار كل ما يَرُومه[١] القارئ أصالة وبالذات هذه الملكة. وأما قواعد اللغة والبلاغة والنحو والفقه، فإنما ترسخ في ذهن المرء بالتتبُّع لتلك الملكة، وبالطبع لا يبقى إلا القليل.

هذا هو الأصل والمحور (وقد بلغنا أن فيه الآن حركة كبرى حَوَّلَت الوِجْهَة إلى الأحسن الأجمل، وإنما نحن نكتب بحسب عادته السارية).

هذا هو الأصل الذي يفاخر به ابن الأزهر كُلَّ من على الأرض، فهو يقول: إنهم ليس لهم بُعْدٌ في النظر، ولا طول الباع في فهم ما يقال وما يكتب، وليسوا بقادرين على المناقشات والمباحثات مثل ما أقدر عليه، فهم حافظون وأنا المُتَعَقِّل. هذه هي الصفة الراسخة التي تحتاج إلى عقول كبيرة لتنظر فيها.

هذه وإن كانت فضيلةً في حدٍّ ذاتها شاحذة للأذهان[٢]، ظهرت ثمرتها في أُناسٍ نبغوا واختلطوا بالأمم الأوربية في زمن محمد علي باشا، وفي قوم آخرين في الأعصر الأخيرة، أفادوا الأمَّة، ونفعوها بما مزجوا قوَّة الفِطْنَة بالعلوم العصرية، ولكن يحتاج القول فيها إلى بيان شافٍ.

ذلك أن تلك الحرية محصورة فيما يدرسون، وليسوا إلا على الكتب التي دُرست، يُعَوِّلون.

---

(١) يَرُومه: يطلبه. (م).
(٢) شاحذة للأذهان: جاعلة الأذهان تتعمق في التفكير. (م).

تراهم ينفرون مما لا يقرءون، ويحجمون عمَّا لا يعلمون، ويقدِّسُون كلَّ ما يرون فيها ويسمعون. على أن المتون واختصارها، والحواشي وهوامشها، لا تَخْرُج الملكة الناجمة عنها إلا ناقصة مبعثرة، كما قرره العلاَّمة ابن خلدون، بل الكتب يجب أن تكون سهلة التناول. أما شحذ الأذهان والقدرة والملكة والتعقُّل التي يفخر بها، فأفضل ما تكون بممارسة الأحكام، واستنباطها من الكتاب والسنة، وقياس المسائل العصرية الحاضرة المتجدِّدة كل يوم، وقياس الحاضر بالغائب.

ولَعَمْري لو أُبدل بكتاب الأَشْمُونيِّ في النحو ديوان شعر أو نهج البلاغة، أو ابن خلدون مع نَظْم بعض النثر، ونثر بعض النَّظْم، لخرج التلميذ شاعرًا، ناظمًا، حكيمًا في مدَّة قراءة الأشموني مثلاً، وهي ثلاث سنين.

هذه العقول طيبة جيدة. أمَاَ وربِّك لو أنهم أقاموا التعليم الصحيح، ونبذوا ما قلّدوا فيه تقليدًا لخرج منهم الفطاحل، وكبار الرجال في سنين معدودة، وأيام محدودة.

ملكة الإنشاء تحصل بما يقرؤه المرء في حياته من الكتب سقيمة العبارات أو صحيحتها، وهل يؤمل فيمن اعتاد العبارات المنسوجة نسجًا أعجميًّا في الشروح والحواشي إلا عبارات تشبه هيئة الفرس في نَظْمها، وأشعار شكسبير في اعْتِيَاص[١] إعرابها؟

(١) اعتياص: صعوبة. (م).

يدخل الأزهري بين جدران الأزهر فلا يسمع إلا تمجيد العبارات الصعبة، وتقديس الواضعين لها، فهل بعد هذا يُمَجِّد حديثًا نبويًا يقول: «تَبَسُّمُك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف لك صدقة، ونَهْيُك عن المُنْكَر لك صدقة»؟ لا، وإنما يقول نقرؤه تبرُّكًا كما يُقرأ القرآن، وتفسيره تبركًا، اللهم إلا آية اشتبه إعرابها، فيعطيها فضل عناية للإعراب، لا لروحها ومغزاها، ويمرّ مرورًا كطَيْفِ الخيال؛ إذ العناية مُوَجَّهَة إلى ما صعب مناله نحو: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة/ ١٠٦]... إلخ.

ابن الأزهر في حُرِّيَّة كما قدَّمنا، ولكنها حُرِّيَّة محصورة كحال السمك في الجابية[١]، يسبح في قليل من الماء كيف يشاء، أو كحوت في غَدِيرٍ[٢] صغير، فهو مختار في الجَبْر، مُجْبَرٌ في الاختيار. كيف لا وأنت تراه قصر نظره على كتب ألّفَها المتأخِّرون، قصرت عبارتها عن البلاغة، ومعانيها على أمور جزئية؟ يظن أن الفقه وحده هو أهمّ ما في الدين، وحَرّم النظر في هذه الحكم المشاهدة مناظرًا في العالم، وجماله، ولا حظَّ له من هذا الكتاب المفتوح - وهو العالم - إلا قليلاً.

وسنشرح في الفصل السابع بعض تفصيل لما تقدم فلينتظر البيان.

---

(١) الجابية: الحوض يُجمع فيه الماء. (م).

(٢) غدير: نهر صغير.(م).

الفصل السابع
حال التعليم في الأزهر، ووجوب إصلاحه

أخلص القلوب وأنقاها، وأحبها إلى العلم وأتقاها، قلوب أولئك الذين يُهْرَعُون[1] إلى الأزهر، من كل حَدَب[2] يَنْسِلُون[3]، ونفوسهم مخلصة، يُعَظِّمون القرآن والحكمة، يرون أن الله هو المُجازي لهم على إخلاصهم للعلم والتعليم.

من معجزات الحوادث، وعجائب القدر أن يَظهر فيهم العلماء، وينبغ فيهم نابغون، وهم متروكون في زوايا النسيان، بعيدون عن العمران لا تواسيهم حكومة، ولا ينظر إليهم ناظر. قام إخلاصهم، واعتقادهم مقام المال والمرشدين والأعوان. أُهملوا فلا نصير لهم ولا مُعين، ومع ذلك تراهم ثابتين على عزمهم، مُصَمِّمين على عملهم، كأن الله خلقهم لذلك بِفِطَرِهِم.

أليس من غرائب هذا العصر المبني على المال، أن يكون الأزهر حياة مصر الأدبية؟ أليست دار العلوم من ثمراته؟ أليس كلُّ كاتب نبيل أو مترجم فإنما هو

(١) يُهْرَعون إلى: يسرعون. (م).
(٢) من كل حَدَب: من كل مكان، من جميع الأقطار والجهات. (م).
(٣) يَنْسِلون: يسرعون. (م).

من آثار الأزهر الشريف؟ إذا كانت هذه حاله وهو على ما نرى، فكيف به إذا مَدّت الحكومة له يدًا وساعدته بالمال، وواسته برجال من أهل العلم والحكمة، وممن درسوا فيه دراسة تامة، وعرفوا قِسْطًا من العلوم العصرية، حتى أشرفوا على التعليمين، وأحاطوا بالمكانين، فأفادوا إخوانهم الأولين ما اقتبسوه من العلوم والحكم، وأَرَوْهُم أن كثيرًا من آراء علماء الإسلام هي السائدة الآن في أوربا؟

إذا تمَّ هذا، فما يكون حال الأزهريين بعد سبع سنين؟ جَنّة عِرْفَان، دانية[١] الأَفْنَان[٢]، تؤتي ثمراتها كلّ حين، ويؤثّر هذا في نظام الحكومة تأثيرًا حسنًا، وتسير البلاد سيرًا حثيثًا[٣] إلى مراقي الفلاح والنجاح.

إني أعرف مِنَ الذين نبغوا في الأزهر، ثم تخرّجوا من دار العلوم، مَنْ يعتقدون أن العلوم العصرية هي التي كان يحاول علماء الإسلام بَثَّها بين المسلمين، وقد رأيت لهم في ذلك كُتبًا كثيرة كلها براهين، وحجج واضحة جليَّة، ناطقة، موضحة قضايا أكثر العلوم تطبيقًا على الشريعة الإسلامية مما لا مجال للشك فيه.

هؤلاء أقرب لإخوانهم، ومن المُحَال أن يقبل ابن الأزهر إلا من يفهمه بلسانه، ودينه، ومن أقرب إليهم من أولئك المدرسين المتخرّجين في دار العلوم.

(١) دانية: قريبة. (م).
(٢) الأفنان: الغصون. (م).
(٣) حثيثًا: سريعًا. (م).

إن العلاقة بين الطائفتين أقرب من كلّ علاقة سواها. حدَّثني أبو زيد السروجي قال: دخل أحد مُدَرِّسي دار العلوم الأزهر فلقي شيخًا، فلما كلّمه قال: يا بُني، ما لهؤلاء يعيبون على الأزهر طرقَ التعليم، ويريدون إدخال علم الطبيعة؟ فقال ابن دار العلوم: أمَّا إصلاح التدريس فإني أراه ضروريًّا، ألا ترى أننا كُنَّا نسمع حضرتكم في أغلب الأوقات تنادون بالويل والحرب من الحواشي والتقارير، أليس كذلك؟ فقال الشيخ: نعم، فقال: وأنت مع ذلك تستمرّ في تتبُّع الحواشي والتقارير، وإني على يقين أن المانع من تركها ما وقر في أذهان الطلبة أن الشيخ كلما أغرب في التعقيد، وأطال في التقرير، كان أكثر علمًا، وأطول باعًا في العلوم، فكأن هذه العادة الراسخة لن تزول ما بقي على الأرض عالم أو متعلّم في الأزهر؛ لِمَا بين العلماء من التناظر. فقال الشيخ: صدقت، ثم قال له: أمّا علم الطبيعة فإنه شيء وهمي، سرى إلى الأذهان من كلمة قديمة تذكر في الكتب، منقولة عن أناس كانوا لا يسندون صنع هذا العالم إلى خالق، ويقولون إنه قديم، وإذا سُئلوا قالوا إنه خُلق بطبيعته.

ومن العجيب أن هذه الطائفة قديمة العهد جدًّا قبل أرسطاطاليس وسقراط ومن بعدهم، وهذا قول نبذه حكماء اليونان الذين نقل ابن سينا حكمتهم إلى اللغة العربية، ثم هذه الحكمة كانت ذات شعب من النور يخالطها الدخان، فأصبحت الآن صافية، تسرّ الناظرين، فقال الشيخ: أوَ أنت تقول بهذا يا بُني؟ فقال: نعم، ألا يتذكر سيدي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ

يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر / ٢١]؟ فقال الشيخ: وما لنا ولهذه؟ فقال: هذه هي الطبيعة التي تدرس الآن في أوربا وبلاد الإسلام، وهي التي ذكرها الغزالي وابن رشد، هذه الآية تفهمنا ماء الآبار والعيون النابعة في الأرض، وأنها إنما جاءت من المطر، فينزل على الجبال، وفي السهول، فيجري في مجارٍ باطنة، فتكون الينابيع والعيون والآبار، وبينها اختلاف كثير بحسب المعادن التي تمرّ عليها، وما يصادفها في سيرها. ترى الثلوج المتراكمة فوق الجبال تُثَأْثِئ[1] شيئًا فشيئًا، فتكون الأنهار الدائمة، هذا معنى الآية، ثم قال: أستاذي إني أعتقد اعتقادًا جازمًا أن معرفة هذه العلوم فرض واجب؛ لأنها هي نفس التوحيد، هي نفس ما يطلبه القرآن، هي نفس الشرع الإسلامي، أنا في غاية العجب من هذا الانقلاب والكفران المبين. كيف يكون ما هو توحيدٌ كفرًا؟ إن الكفر كلّ الكفر هجر هذه العلوم. ألم يقل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر / ٢٧ - ٢٨]؟ فقال الشيخ: وما لهذه الآية؟ فقال: إن الله سَمّى من عرف هذه العجائب والحِكَمَ علماء، وخصَّهم بالخشية، ووسمهم بأنهم عباده، وكيف يكون العلم الذي يطلبه الله، وسُمِّينا به علماء كفرًا؟ أم كيف يَحلّ الضلال محلّ الهدى؟ فقال الشيخ: وما الضلال؟ فقال: أليس مما يقرأ في

(١) تُثَأْثِئ: تزول. (م).

الكتب أن سبب حرارة ماء الآبار في الشتاء، وبرودتها في الصيف أن الشمس تغرب عندنا، وتطلع عند قوم آخرين، فيغلي الماء، فيصير حارًّا في الآبار، مع أن هذا مناقض للآية السابقة القائلة بأن الينابيع في الأرض من ماء السماء؟ أليس من العار أن نخالف الكتاب المقدَّس، والعالم أجمع؟ فيا ليت شعري، إذا كانت الشمس طالعة على أستراليا، فكيف تتعدّى حرارتها إلى بئر في مصر؟

إن هذه لَمِنْ أكبر مصائب الإسلام والمسلمين، أن نخالف العقل والنقل، يقول الله: الماء مُنزَّل من السماء، ويجري تحت الأرض، ونحن نقول: إن هذه من بحر آخر تحت الأرض، فهذا جهل منا بالقرآن، وبما في هذه الدنيا من العلوم. فقال الشيخ: هل هذه هي العلوم الطبيعية جميعها، وربما كان فيها أمور أخرى تضرّ بالدين؟ فقال له: إن العلوم الطبيعية ترجع إلى معرفة النبات والحيوان والإنسان والمعدن وغرائبها كما ذكرها علماؤنا، وعجائب النور والكهرباء والمغناطيس ونواميس الضوء في سَيْره بقوانين تدلنا على عجائب عين الإنسان، ومناسبتها للمنظار المُعَظِّم والحِكَم الباهرة، وكلّ هذه تدلّ على حكمة القادِرِ المبدع، وهي التوحيد الحقيقي، ومنها الكيمياء التي تحلل الشيء إلى عناصره الأُولَى، وقد أبرز السرّ المكنون عند علماء الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد/ ٨]، فعجب الشيخ من ذلك البيان، وقال زِدْني من هذا، فكان الموعد غدًا، ومتى وقفت على ما سيدور بينهما، أَقُصُّ لكم القصص في الفصل الثامن.



الفصل الثامن
محاورة بين الشيخ والعالم العصري

حدَّثنا عيسى بن هشام قال: أخبرنا الحرث بن همام قال: أنبأنا أبو زيد السروجي قال: دخلت الأزهر مرّة أخرى، فألفيت[1] الشيخ أخذ يتحدث مع العالم العصري، فقال: إنك بالأمس لم تجز أن يكون ماء الآبار من بحر متصل بالجهة الأخرى من الأرض؛ فلمْ تكن الحرارة هناك واصلة إلينا، وأقمت دليلاً صادقًا فما السبب إذن؟ فقال العالم العصري: ماء الآبار ثابت على حرارة واحدة صيفًا وشتاءً، وترى الجوّ يختلف فيهما حرًّا وبردًا، والأجسام الحية طوع الجوّ المحيط بها، فيكون الماء في الصيف أقلّ حرارة من الجو، وفي الشتاء أكثر، فتتأثر اليد في الأول بالبرودة إذا وضعت فيه، وفي الثاني بالحرارة، فهذا هو السبب، وعليه ترى الآبار والأنهار تتطاير منها صباحًا أبخرة متصاعدة؛ لملاقاتها لبرودة الجو، فكأنها ضباب صغير يراه الناظرون كطريقة تكوين السحاب والضباب والبرد وأمثالها.

---

(١) ألفيت: وجدتُ. (م).

ولَعَمْري إن من حَرَّم هذا النظر والفكر، فقد أعرض عن الحق، واشترى الضلالة بالهدى، فصفقته خاسرة وتجارته بائرة[١]، فذلك هو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فَأَنَّى تُصْرَفُون؟ فغضب الشيخ وقال: ما الضلال الذي تُعَرِّض به؟ فأخذ العالم العصري يلاطفه، ثم قال: أنت تعلم أنهم يقولون: إن الضباب يخرج من دابة تتنفس بخارًا، فيملأ السهل والجبل والبرّ والبحر، ولقد بنوا على هذا الأساس أنه نَجِسٌ مَعْفُوٌّ عنه؛ لعسر التحرُّز[٢] عنه، فكيف تبنى مسألة فقهية كهذه على خرافة ينبذها صغار الطلبة في أحقر الأمم؟ أم كيف نبخس هذا الدين حقه، ونُدْخِل عليه ما ليس منه؟ لعلّ الذي ظنّ هذه الخرافة نظر فرأى ثوره يتنفس صباحًا فيلاقي الهواء الخارج منه الجو فيصير قطرات كالضباب، فقاس هذه عليها، أَوَ لا يعلم أن الدنيا كقِدْر، والأرض قاعه، والبحر ماؤه، والطبقة الباردة غطاؤه، والشمس ناره، والأبخرة المتصاعدة دوامًا بخاره؟ حتى إذا لامس الغطاء، وهو هنا الطبقة الباردة، تجمد على درجات متفاوتة، فكان منه السحاب والضباب، ويتكوّن الثلج والبرد باختلاف الطبقات، والحرارة، وملامسة البرد.

ثم قال العالم العصري بعد شرح طويل: الحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبَع. إن علماءنا السابقين الهادين كانوا على نور وتقى، ولقد حفظوا وضيَّعْنَا، وعلموا وجهلنا، وأحيوا وأمتنا، ألست تراهم يقولون عند الكلام على الطهارة: المياه التي يجوز

(١) بائرة: كاسدة. (م).
(٢) التحرُّز: الاتّقاء. (م).

التطهير بها سبع مياه: ماء السماء، وماء البحر، وماء النهر، وماء البئر، وماء العين، وماء الثلج، وماء البرد؟ ثم يقولون: إن الماء المشمس في البلاد الحارّة مكروه استعماله على درجة مخصوصة لضرره بالأجسام. ألم يذكروا كراهة الاغتسال من الماء الراكد في كثير من الأحوال؟ كانوا يعتنون بالمياه، وملاءمتها للصحة وعدمها. فناشَدْتُك الله كيف يصبح ابن الأزهر مُعْرِضًا عن ذلك كله؟ إذ الشيوخ اعتادوا أن يُفْهِمُوه أن قسم المكروه في الشرع لا يعاقَب عليه المرء إلا عقابًا خفيفًا في الآخرة، فتهاون الطالبون في أمر المياه، فترى المتديِّن يتوضأ من الماء راكدًا أو غير راكد، مفيدًا للصحة أو غير مفيد، لا يراعي أحوال الجسم، حتى درج المتأخرون أجمعون على الوضوء والاستحمام من الماء الراكد الممتلئ مكروبًا، المُضْعِف للأجسام، المميت للضعفاء.

هذا التعليم ضارّ بالعقول والأجسام، وكيف يحتاط القدماء، فيمنعون الماء المشمس؛ لضرره بالأجسام؟ ولا يكون عندنا اليوم نموذجٌ قليلٌ من قانون الصحة حتى نعرف المياه الضارة والنافعة؛ ليعلم الطالبون أن الضرر العاجل اللاحق بالأجسام يجب الابتعاد عنه، وينبغي الاحتراز[١] منه كما هي القاعدة الشرعية «كل ما أضر بالجسم ينبذه الشرع».

(١) الاحتراز: التوقِّي. (م).

ترى العامة في المدن والقرى أقرب إلى حفظ الصحة من المتعلم، فالأَوَّلون لا يتطهرون بما تعافه نفوسهم، والآخرون يقولون: ما زاد على خمسمائة رطل فليس ينجس بشيء، وإن امتلأ بالعفونات والمكروبات، واخضرّ لونه أو احمرّ بما نبت فيه أو ما دعت الضرورة إليه، أَوَ لم يعلموا أن الطهارة غير كافية وحدها؟ فلنا أجسام إن لم تصحّ فلا عبادة لنا.



الفصل التاسع
فيما يضر بالعقائد الدينية

حدّثني حكيم عظيم من حكماء المسلمين السائحين في أقطار الإسلام أنه زار بُخَارَى، فوجد القوم يتطهَّرون من مصنع (صهريج)[١]، مملوء ماء قد تغيّر طعمه ولونه وريحه بالأقذار، فَفَتَكَتْ بالقوم فتكًا ذريعًا، وسَرَتْ فيهم الأمراض سريان الجهل بالعقول، فوعظهم الشيخ بالتباعد عنه، فقالوا: هذا المصنع كله بركة، وما عملنا إلا كما عمل آباؤنا الأوّلون، فقال لهم: أَوَ لَوْ كان الآباء لا يفكِّرون؟ فقالوا: إنها طاهرة، والماء لا ينجسه شيء، فقال لهم: ولكن الصحة يجب حفظها، وكيف يقام دين بلا صحة؟ وقد أشار الأئمة إلى كراهة تلك المياه؛ إيقاظًا لمراعاة الصحة، كأنهم نبَّهوا الناس إلى أمر الصحة، ولكنّ أكثر الناس لا يعقلون، فقال الشيخ: لا بأس بقانون الصحة إذا كان مختصرًا مفيدًا. ولكن هناك أشياء أخرى تضرّ بالعقيدة الدينية في العلوم العصرية، فقال العالم العصري: ليكن الموعد غدًا، فانصرفا؛ ليلتقيا غدًا، وإن موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟

(١) صهريج: حوض كبير يجتمع فيه الماء. (م).

حدَّثني مُحَدِّثي بالسَّنَدِ المتقدِّم قال: اجتمع العالم العصري والشيخ، فقال الشيخ: وعدتك أمس بذكر شيء مما يضرّ بالعقائد الدينية، والآن أذكرها، فقال: نعم. فقال الشيخ: إنكم تقولون إن الأفلاك تسعة، وسُمْك كلّ فلك عظيم جدًّا، والأفلاك متماسكة متَّصلة، ويقولون إن سبعة فيها السيارات السبعة، وفوقها فلك الثوابت، وهو الكرسي، وأعلى منها الفلك الأطلس، وهو العرش بلسان الشرع.

أليس يخالف العقيدة الدينية، وهي مسألة الإسراء؟ وكيف يكون المعراج وقد حكمتم على الأفلاك أن لا خَرْق فيها ولا التئام وأنها دائمة أزلاً وأبدًا لا أول لها ولا آخر، فهي أول وآخر؟ فهذه تخالف عقيدتنا من وجهين: مسألة الإسراء وقِدَمُها؛ إذ لا قديم إلا الله، فتبسَّم العالم العصري وقال: مَنْ أولئك الذين يعتقدون ما تقولون؟ أَعُلَمَاءُ هذا العصر؟ إن الذين أقرُّوا هذه الهيئة قوم من اليونان ابتدعوها بما خيلت نفوسهم، وليس يعلمها أحد على وجه البسيطة إلا متفلسفو الأزهر وحدهم، يقرءونها، فتضرّ العقائد، وتباعد عن الدين، ويؤولونها تارةً، ويسلمونها أخرى، وهم في عُزْلَةٍ عن العالم لا يعلمون ماذا جرى في الدنيا، وما الذي عرف الأمم، وما الذي قال علماؤنا السابقون واللاحقون. يا أستاذي، هذه من أغرب ما يحدث في دهر الدهارير[١]، وما يرويه الراوون، ألم تعلموا أن أكابر علماء الإسلام حاربوا هذه الهيئة أزمانًا، وحاول الفخر الرازي منهم التفكير

(١) دهر الدهارير: زمن المصائب والنوائب. (م).

في هيئة جديدة تلائم هيئة القرآن، وقد أتمَّها فعلاً؟ وقال – رحمه الله – بعد أن ذكر وجوهًا عدة: إن الأقرب للقرآن أن الكواكب تسبح في الأفلاك كما هو نص الآية ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس/ ٤٠]، وقال مثل قوله ابن العربي، فلقد رأيته يقول: كُشف لي فرأيت الكواكب تسبح في فضاء واسع، وهذا بعينه ما اكتشفه العلماء المحدثون كما هو رأي العلماء قبل بطليموس، فطاح[1] ما كنتم بالأزهر تدرسون، وضاع ما يضاد الدين وأنتم لا تعلمون، ولو سألت أصغر تلميذ في أي مدرسة من مدارس الدنيا، وقلت له: هل الأفلاك تمنع الإسراء؟ وهل هي قديمة؟ لانبهر من سماعه هذا السؤال، وعدّه قولاً غريبًا.

يقول علماء العصر: إن هذه الدنيا ستتبدل وتتغير ويأتي خلق جديد ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم/ ٤٨]، ولو سألت دولة الغازي مختار باشا لَشرَحَها لك شرحًا تعجب منه وتعلم أن الأمم الراقية سبقتنا مراحل، فَأَنَّى تُصْرَفُون؟ فنحن كما في المثل المشهور (الْتَمَسَ من مُحِبِّيه النجدة في دفن أبيه، فتولى وجرى).

فقال الشيخ: إذن، كأنك تلزمنا قراءة الهيئة الجديدة، وكيف نقرؤها؟ وما للدين والعلوم؟ وهل تريد أن يكون ابن الأزهر يعلم كل شيء؟ أتريد أن يكون فلكيًّا، مهندسًا، طبيبًا، يداوي الجراح والعيون، فيلسوفًا؟ وهل يتقن المرء إلا فنًّا

(١) طاح: سقط. (م).

واحدًا في هذه الحياة القصيرة؟ فقال: ومن ذا الذي يريد ذلك، وهو المحال؟ إن تلاميذ المدارس ليقرءون من كلٍّ فنٍّ طرفًا في المدارس الابتدائية والثانوية، حتى إذا وصلوا إلى المدارس العالية، حصروا همَّهم في فن واحد على حسب ما تتوجه إليه رغباتهم. ترى المهندس يعرف مبادئ علوم الطبيعيات، والطبيب يعرف مقالات الهندسة الثمانية؛ وذلك ليكون بينه وبينهم علاقات وصِلاَت، وإلا عاش بين أقرانه غريبًا نافرًا وحيدًا. فمبادئ العلوم صلة بين رجال الأمة على اختلاف مشاربهم[1]، وتباين أغراضهم، أيحسن بابن الأزهر، وهو العظيم القدر، القديم الشرف أن يجهل مبادئ العلوم، ويعيش فريدًا طريدًا ينبذ الناس وينبذونه؟ فهذا سبب أول. السبب الثاني أن العلوم بينها وشيجة[2] نسب وَرَحِمٍ وقرابة، فوجب صلتها، وما العلوم إلا كشجرة ذات ساق وفروع لها علاقات يستمد بعضها من بعض، فمن وقف على علم واحد، ولم يدر مبادئ العلوم الأُخْرىَ، ضاعت ثمرة علمه، ونفر المتعلمون الآخرون منه. وهل تنكر سيدي ما يذكره علماء التفسير في مئات من الآيات القرآنية على الفلك والطبيعة؟

أَوَلاَ تتذكر ما نقله الشيخ الجمل في حاشيته على الجلالين التي تدرس في الأزهر دراسة رسمية عن العلامة زاده في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ

(١) مشاربهم: ميولهم، أهوائهم. (م).
(٢) وشيجة: قرابة متصلة متشابكة. (م).

ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة/ ١٦٤]؟ فانظر كيف شرح اختلاف الليل والنهار هناك بطول البلاد وعرضها! فكل بلد كان أقرب إلى خط الاستواء، كان اختلاف الليل والنهار فيه متقاربًا، ويشتدّ الخلاف بالتباعد عن خط الاستواء إلى جهة القطبين، فيكون أحدهما ١٤ ساعة و١٥ أو ١٦، وهكذا حتى يصل أطول نهار عند القطبين إلى ستة أشهر، وهكذا أطول ليل، فتكون السنة كلها يومًا وليلة، كما أن كُلاًّ من الليل والنهار عند خط الاستواء ١٢ ساعة، وهناك ترى أعجب ما يدرسه الناس، وأغربَ الحِكَمِ وأعجبها، وترى الشمس وأنت في تلك الأقطار الثلجية، تلقي أشعتها الجميلة، فتنعكس على ذلك الثلج الناصع، فتبرز ألوان زاهية زاهرة بهجة؛ لتسر الناظرين، وتأخذ بالألباب، وتراها فوق الرؤوس تدور دورة رحويّة كما تدور الرَّحَى[١].

والسائحون يشاهدونها تتم دورتها كل ٢٤ ساعة مرة، وبين أيام خط الاستواء والقطبين درجات تختلف ما بين ١٤ ساعة كما في مصر و ١٥ وهكذا إلى شهر وشهرين، وثلاثة في جنوب الروسيا شمالاً، وفي المحيط الهادي جنوبًا حتى القطبين.

---

(١) الرَّحى: أداة يُطحن بها. (م).

هذا كله اختلاف بالعرض. وأما الاختلاف بالطول، فترى أن مصر تطلع الشمس عليها قبل مراكش، ومراكش قبل أمريكا، وأمريكا قبل أستراليا، وأستراليا قبل الهند، وهكذا.

هذا تفصيل ما أجمله الشيخ زاده في الحاشية التي تدرس في الأزهر الآن. وأنا تلقيتها عنك. فقال الشيخ: صدقت، هذه حقيقة تُفْهِمُنَا معنى القرآن.

ثم قال العالم العصري: حينئذ التوحيد الحقيقي معرفة مثل هذه، فمن أراد معرفة الله، فلتكن بهذه العجائب المدهشة، أليس هذا هو اختلاف الليل والنهار؟ أليس هذا هو الذي يطالبنا به الدين والقرآن؟

طاحت هذه الأمة وضاعت، فلا صلة بين رجالها، ولا مرشد لعقلائها، هذه الحقيقة يعلمها طلاب العلوم في المدارس، ولا يعلمون أن هذا مطلوب دينهم، ويجهلها عالم الدين، وهو المأمور بها. أليست هذه إحدى الكُبَر، وأشنع العبر، وأفظع ما جرى للبشر؟ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ[١]. فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر/ ٨ - ١٠]. فشا الجهل في هذه الأمة، فطاحت بهم الطوائح[٢]، وأَوْدَتْ بهم الجوائح[٣]، وتقطَّعت الأفئدة بين الجوانح، فلا معين ولا نصير، وسنذكر ما جرى بين الشيخين في الفصل العاشر.

---

(١) نُقِر في الناقور: نُفخ في الصور للبعث والحساب. (م).
(٢) الطوائح: المهالك. (م).
(٣) الجوائح: المصائب. (م).

الفصل العاشر
في علم الفلك

اجتمع العالم العصري والشيخ الأزهري، فابتدأ الشيخ يقول: ذهب الزمان وضاعت الآمال، فقال العالم العصري: ماذا جرى؟ فقال: ظننت فيك الصدق والإخلاص والعلم والورع والغيرة على الدين، والسير على سنن المتقين، حتى إذا خَبرْتُك خابت آمالي، ووقعت في أوحالي[1]، ألم تر كيف تصدق بعلم الفلك، وهو الذي اختلَّت حركاته، واشتبكت دوراته من أزمان أَنْ وقفت الشمس ليوشع فتى سيدنا موسى عليه السلام، فاضطرب في سيره، ومشى متعثرًا في خطواته؟ فقال العالم العصري: عجبًا! أَوَ مثلك يعتقد مثل هذا أيها الشيخ؟ إن هذا تكذيب للقرآن، ومنافاة للحكمة والدين.

---

(١) أوحالي: أعمالي غير المشروعة. (م).

أنا لا أذكرك بعظمة الشمس وبُعْدها، والكواكب وعظمتها، وسرعة حركاتها، وأن شمسنا كوكب صغير منها، ومع ذلك فهي أكبر من الأرض نحو مليون و٣٠٠ ألف مرّة، ولإعظام أمر النجوم أقسم الله بها، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة/ ٧٥]، ثم أَعْظَمَ القسم وأكبره، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[الواقعة/ ٧٦]، ولو تأملت حركات الأرض حول الشمس، وحول نفسها، وكذا الشمس حول كوكب آخر لعجبت عجبًا وألف عجب، ورأيت من الحكم ما لم يخطر على بال المقلدين، ولرأيت حركة الأرض حول نفسها أسرع من قذيفة المدفع مرة ونصفًا في دورتها اليومية، ومائة مرة في دورتها حول الشمس، وثلاثين مرة في دورتها مع القمر والشمس حول آخر، وقذيفة المدفع تجري في الدقيقة نحو عشرة أميال، فلو رأيت حركة الشمس مع كواكبها وسياراتها، وهي تُزَفّ كعروس حول نجم آخر، وهي تجري في الدقيقة ٣٠٠ ميل، وتمرّ أسرع من المدفع ٣٠ مرةً لهَالَكَ[1] المنظر، فمن الذي يتصوّر مثل هذه العظمة، ولا يخرّ لمن يراها ساجدًا، ويخضع لحكمة قاهرة، وعظمة باهرة؟ وإذن يفهم قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا. وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس/ ١ - ٢]، فهو تابع لها في الحركة، مُشَايع[2] لها في سيرها، يزفها حول نجم آخر هو والمجموعة الشمسية.

---

(١) لهَالَكَ: لأبهرك وأعجبك. (م).

(٢) مُشَايع: تابع، مؤيِّد. (م).

أنا لا أُذكِّرُك بمثل هذا؛ فهو واضح لأمثالك من العلماء الذين مارسوا التفسير، ووقفوا على خفاياه. بل لا أذكِّرك أيها السيد بقوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ﴾ [الرحمن/ ٥]، مُقدَّر في علم الميقات ساعات ودقائق وثوانٍ، لا تتغير ولا تتبدّل، فهو واضح لك معلوم بالبداهة. ولم أكن لأذكرك باختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، واستدلاله على حكمته وعظمته بهما وبنظامهما وحكمهما.

وإن الخجل ليمنعني، والحياء ليلجمني[١] أن أقول: إن من أشد الجهل، والتباعد عن العقل الذهول عن آية الكتاب ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس/ ٥]، فكيف يكون اختلال الدوران والمنازل مقدّرة، وعلم الحساب مقدّمتها، والجبر رائدها، والهندسة نِبْرَاسها[٢].

ولا جَرَمَ أن هذه معلومة عند أسفل الطبقات، ألا ترى الساعة التي في جيبك كم هي الآن؟ فقال: ٣ بعد الظهر، فقال العالم العصري: نحن ما عرفنا الزمن إلا بالساعة المبنيّة على حساب الفلك، وهو مبني على سير الكواكب، فلولا انتظامها في سيرها ما صحَّت صلاتنا، ولا صومنا وإفطارنا، ولتعطلت حركاتنا

(١) يلجمني: يسكتني. (م).
(٢) نِبْرَاسها: مصباحها. (م).

في ذهابنا وإيابنا. ولو اضطرب الفَلَكُ لاصطدم القطار، وطاح البحار، وأضحت الدنيا قاعًا صَفْصَفًا[١].

لم يغب عن الفلاح في حقله نظام النجوم والشمس، فاهتدى بظل الشواخص، إذا تناوب العمل مع شركائه، بل عقله الطائر في وكره، فغرّد إذا انبلج الفجر[٢] ولمع النور، وتبادل العمل مع أنثاه في حضن بيضه في ساعات محدودة مقدّرة تبع سير الضوء في النهار والليل.

لم أرد أن أُذَكِّرَك بما مضى كله؛ لوضوحه وضوحًا جليًّا للعجماوات[٣]، فضلاً عن الأناسي، ولكن أريد أن ألمع لك بمسألة السنة الشمسية والقمرية، وما أشار لهما الكتاب إلا لنتبين الهدى من الضلال في آية ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف / ٢٥]. يقول زيد لعمرو وهو في حقله جالس، وفأسه بجانبه: هل صمت رمضان مرة أخرى في الشتاء، فيقول: نعم، فيتناقشان الحساب كم بين المرتين من الزمن، فيتراوحان في التقدير ما بين ٢٠ و٣٠ سنة، ولتقريبها أفرض أن أول يناير من سنة كان ابتداء شهر عربي، ثم تربَّصنا[٤] يناير الثاني، إذن نجد أنه قد مضى ٣٦٥ تقريبًا، ونرى القمر دار ١٢ دورةً، وزاد نحو ١١ يومًا أي أنه أتمّ الدورة الثانية عشرة قبل أول يناير من السنة الثانية

(١) صَفْصَفًا: أرض مستوية ملساء ليس فيها نبات ولا ماء ولا بناء. (م).
(٢) انبلج الفجر: أسفر فأنار، طلع. (م).
(٣) العجماوات: الحيوانات. (م).
(٤) تربَّصنا: انتظرنا. (م).

بأحد عشر يومًا، فالسنة المبتدئة بيناير، والشهور القبطية التابعة لسير الشمس المنضجة للثمار والبقول والزرع، إذا مضت ثلاث وثلاثون سنة منها، زادت السنين العربية سنة تقريبًا ١١٣٣ = ٣٦٣ يومًا، وهي قريبة من السنة. ففرق ثلثمائة سنة يبلغ نحو تسع سنين.

هذا يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف / ٢٥].

وما رأيت في هذه الحياة أعجب ممن يظن الهدى ضلالاً، والسعادة وَبَالاً[1]، والخير شرًّا. يقول الكتاب: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس / ١٠١]، ويقول قوم: النظر كفر ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[يونس / ٥]، وهم يقولون: لا تقدير الآن فقد آن أوان خراب الأرض، وليذهبنّ الإسلام ويذهب السلام ويعم الخراب، ولا يبقى إلا الكفران: اللهم غوثًا من عذاب الخزي المهين.

(١) وَبَال: شدة وضيق. (م).

الفصل الحادي عشر
في علوم الطبيعة

قال الشيخ للعالم العصري: ها أنا ذا أيقنت بأن علوم الفلك، وما يتقدّمها من الرياضيات مطلوبة للدين لسببين: توحيد الخالق، وأعمال الحياة. وأن لا سعادة في الحياة، ولا نور في الدنيا إلا بمزاولة[1] هذه العلوم، والقول بالمنافاة كان غفلة من الغافلين، وسهوًا من القائلين، ولكن أنا اليوم سائلك عن علوم الطبيعة، فقد أَجْمَلْتَ في مقالك السابق، وأدمجت فيه إدماجًا، فقال العالم العصري: هل أتاك نبأ الأحجار الساقطات، ونظامها في سقوطها، فلو أنك راقبت حجرًا نزل من سقف عالٍ أو جبل شاهق[2]، لرأيت ثَمّ حكمة نطق بها الكتاب، وهي أنه يسرع في سقوطه إسراعًا مقدَّرًا بالتربيع، فلو كان في الثانية الأولى سرعته أربعة أمتار، لكان في الثانيةِ الثانية ١٦ مترًا، فتربع ٢ فيصير أربعة، ويضرب في أربعة، وهكذا تراه في الثانية الثالثة ٣٦، فتربع ٣، فتكون ٩، وتضربها في أربعة، وهكذا يتزايد بالتربيع. هذه مسألة نطق بها الكتاب قبل هذا العصر بقرون كثيرة، فقال:

---

(١) مُزَاولة: ممارسة. (م).

(٢) شاهق: عظيم الارتفاع. (م).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد / ٨]، ومن ذا الذي كان يظن أن في الحجر وسقوطه علمًا وحكمة وتقديرًا وحسابًا حتى يعلم ما يقول الكتاب: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر / ٢١].

أَلاَ أدلُّك على ما تَرُوقُك[١] حكمتُه، وتُدْهَش لسماع آياته، هذه مسألة الذكور والإناث في النبات، وأن لها مناهج في حياتها ونظامها الزوجي، وأن الزواج والطلاق ليسا خاصَّين بنوع الإنسان، وأن للزهرات في النبات أيامًا تتزاوج فيها، وأن هذا الجمال الزاهر في وجوهها الباسمة على فروع الأشجار حِبَالة[٢] صيد وشبكة قَنْص[٣]، وحيلة محتال لبقاء حياتها كما كان الجمال في الإنسان؛ لاجتذاب الأفئدة، والتزاوج الناجم عنه النسل حتى تتم لنا السعادة في الحياة.

كم مرة تنظر النحل والحشرات، وهي طائفة على الأشجار تغني حول الزهرات، دواخل في زهرة واحدة، خوارج من أخرى، حاملات حبوبًا، ناعمات كالدقيق من زهرة ذكر، واضعاتها في الأنثى، وربما رأيت الزهرتين في شجرة واحدة، وربما كانتا من شجرتين، فالنحلة تسبح بحمد ربها، شاكرة على شمع جَمَعَتْه، وعسلٍ جَنَتْه، والزهرة تتقبلها قبولاً حسنًا بحللها الجميلة، ومناظرها البديعة احتفالاً بالعرس، وإقامة للزينة، وابتهاجًا باللقاء، ولعلَّ هذا الزواج زواج

(١) تَرُوقُك: تعجبك. (م).
(٢) حِبَالة: مصيدة. (م).
(٣) قَنْص: صيد. (م).

بالبريد، ولن ترى نحلة يومًا ضلَّت طريقها في غُدُوِّها ورَوَاحها، فلو افتتحت العمل صباحًا في مقثأة خيار[١] لم تعدل عنها إلى مقثأة بطيخ، بل تلازم عملاً واحدًا؛ لحكمتين شريفتين اقتصادًا لزمنها في عملها في دخول الزهرة، فلا تحتاج لمعاناة أعمال أخرى في زهرات غيرها، ووصول الطلع من ذكور هذا النوع الواحد إلى إناثه، وهذه نطق بها الكتاب، فقال في النحل: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [٦٩]، فجعل طرقها مُذَلَّلَة مُسَخَّرة؛ لئلا تضلّ في عملها وسيرها، ويقول في الإلقاح ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر/ ٢٢]، ويقول: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[ق/ ٧]، ويقول: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات/ ٤٩]، وإذا لم تدرس هذه العلوم، فما الذي يدرس؟

غفل عن هذه الحكم الغافلون، وأدركها المستبصرون، وربما ظن قوم أن هذه لم تكشف إلا في عصرنا، ولو قرءوا ما سَطَّرَه الفارابي في الأعصر الأُوَل، لأيقنوا أن العلم سلسلة واصلة من مبدأ الخليقة إلى الآن، وأنه يأخذ أساليب باختلاف الأمم والمشارب والأذواق.

وكان علماء الإسلام المستبصرون إذ ألفوا السواد الأعظم من إخوانهم[٢] عاكفين على الفقه، والنحو، وجدل التوحيد، والخلاف والمناظرة، وضعوا مثل هذه الحكم تحت إشارات ورموز، ومتى عثر أولئك الغافلون عليها رَمَوْهم بالزَّندقة

(١) مقثأة: موضع زراعته. (م).
(٢) السواد الأعظم من إخوانهم: معظمهم. (م).

والكفر، سادِلين[1] بذلك ستارًا على جهلهم، ثم يدلون إلى الأمراء، فيغرونهم بهم، فيطيحون مع الطائحين، ثم عثر عليها علماء عصرنا، فأبرزوها نقية واضحة يفقهها المتوسطون، ولأكْتَفِ بهذه النُّبْذَة، فهي تبصرة وذكرى لقوم عاقلين.

(١) سادِلين: مُرخين. (م).

الفصل الثاني عشر
في التعصب الديني

ثم قال العالم العصري للشيخ: هل علمت ما يدور في أنحاء أوربا والشرق من قولهم: تعصب ديني، وإن المسلمين متعصبون، ودينهم ينفر من المدنية والحضارة وعلوم العمران، وهم ظالمون للنساء، متباعدون عن الأعمال، يأمرهم دينهم بالكسل، وينهاهم عن العمل؟ فقال الشيخ: كلا، فقال العالم: هلاَّ خضتم في بحار هذه المعاني، فأبرزتم للناس كنوز العلم المدفون تحت جدران الأزهر، فكم حضّ على العمران، واتخذ له نواميس، وبنى لها أسسًا متينة، وأنبأ عن خراب الدول، وزوالها من الوجود؟ فجاء في الحديث «أنَّ من علاماتها أن يُرفع العِلم، ويثبت الجهلُ، ويُشْرب الخمر، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقلّ الرجال، وأن يختلط نسل الأمم، وتُتَّخذ السَّرَاري[1] والإماء، فتنشأ أجيال مختلطة الدماء، وأن يعمّ الترف، فيتطاول رعاة الغنم في البنيان».

ولا ريب أن الترف والنعيم، والإسراف في الشهوات، وكثرة السراري كانت سبب سقوط دولة بني العباس، فملكهم عبيدهم، ومماليكهم كما أنبأ الحديث،

---

(١) السَّرَاري: الجواري.(م).

وكانت نهايتها بعد ظهور حادثة القسطنطينية بدخول محمد الفاتح كما أنبأ بذلك النبي ﷺ، ولو عَلّمْتم الناس ما ورد في الحديث أن من أمارات[١] سقوط الدول وقيام قيامتها «أن تلد الأَمَة رَبَّها»، فيتزوَّج رجالها إماء من أمم بعيدة عنها أخلاقًا وتاريخًا وأصلاً وأرضًا، ثم قرءوا ما قضى به الحكيم الإنجليزي (اسبنسر) للحكيم الياباني إذ سأله: أيتزوَّج اليابانيون من الأوربيين؟ فقال: ألا لا يتزوّجن يابانيّ إفرنجية؛ لئلا يضعف الولد الناتج من أبوين مختلفي الإقليم والعوائد والأخلاق، كالحَمَل المولود من أبوين مختلفين من الغنم. فلو قرأ الناس ذلك وعلموه لدُهِشُوا من أن نهاية بحث علماء العمران في هذا العصر، بداية علوم الإسلام لا المسلمين في القرون الخالية. ثم إن كثرة النساء، وقلة الرجال كانت من علامة خراب الدول كما ظهر في السودان؛ إذ قتل الظَّلُوم الغَشُوم[٢] (عبد الله التعايشي) الرجال، واستحيا النساء، فلو مررت في بعض قراهم لرأيت فيها العشرين رجلاً وألف امرأة، فيكون للخمسين امرأة القَيِّم[٣] الواحد، فكانت هذه أمارة تبدل الدولة من حال إلى حال، وهكذا كثرة الزنا تقلّ النسل كما في بعض أمم أوربا التي أزالت نظام الزواج. وهلا أفهمتم الناس ما ورد في الحثّ على الائتلاف والمودّة بيننا وبين الأمم الأخرى من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٦]، حتى يخسأ الذين يرموننا بالتعصب

(١) أمارات: علامات. (م).
(٢) الغَشُوم: الظالم، من يأخذ كل ما قدر عليه من الناس. (م).
(٣) القَيِّم: الزوج، العائل. (م).

الديني؟ وهلاَّ برزتم إلى الناس، فقلتم لهم ما قال الله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة/ ٥]، فأحلّ لنا مخالطتهم، ومعاشرتهم أكلاً وتزوُّجًا، ولن يتم ذلك إلا مع المودَّة الصادقة؟

ولو أبرزنا للناس المنشور الصادر من النبي ﷺ إلى الملوك لعلموا كيف يأمر الإسلام بالاتحاد والائتلاف مع الأمم، ونبذ الاستبداد في الأحكام، وهذه نبذة مما كتبه إلى قيصر عظيم الرّوم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران/ ٦٤]، يريد أننا نتَّحد وجهةً وعملاً، فلا يكون أحد سيدًا، والآخر عبدًا، بل يكون أمرنا شورى بيننا.

أيها الأستاذ، جَهِل الناس أمر الإسلام، فصاروا يظنُّون أنه دين الكسل لا العمل، ولن تراهم يذكرون: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، حتى يظن القارئ أنه ليس في الإسلام إلا هذا في الحثّ على العمل، وفيما قرّرناه في مجالسنا السابقة من الحثّ على جميع العلوم من عُلويَّة وسُفليَّة مقنع لمقتنع، ولنزد الآن قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة/ ١٠٥]، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [العنكبوت/ ٢٠]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ

﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج/ ٤٦]، فَوَسَمَ[١] الذين لا ينظرون في أحوال الأمم بميسم العمى، وأبَّد[٢] عليهم عمى القلوب، وهل نسير في الأرض إلا ببخار، وكهرباء، ولغات، وزاد، وأخلاق نخالط بها الأمم؟

ثم قال العالم العصري للشيخ: هل تذكر شيئًا مما ورد في الشفقة على النساء، ومعاملتهنّ، وحقوقهن، فقد اتُّهِمَ الإسلام بظلمهن؟ فقال الشيخ: ظلم النساء، واتخاذهن لهوًا إن كان فهو عادة، وإلا فها هو ذا الكتاب يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء/ ١٩]، يأمر بالمعاشرة وإمساك المرأة مع الكراهة، ويعد المؤمن الخير والجزاء على صبره، ويقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾ [البقرة/ ٢٢٨]، فساوى بين الصنفين في الحقوق وفضّل الرجال، ولقد أوصى بهن النبي ﷺ في يوم حجة الوداع إذ قال: «استَوصُوا بالنِّساء خيرًا، أَلاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللهمَّ فاشهَد»، ولم يكتف بالوصية، بل كان أكرم الناس عِشْرةً معهم، وكم كُنَّ يغلظن في القول وهو يصبر عليهنّ. بل روى أبو سعيد الخدْرِيّ رضي الله عنه قال: «قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهنّ يومًا لقيهنّ فيه، فوعظهنّ وأمرهنّ، فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدّم ثلاثة من ولدها إلا كان حجابًا من النار، فقالت امرأة منهن: واثنين، قال: واثنين» اهـ.

---

(١) وسم: جعل له علامة. (م).
(٢) أبَّدَ: أدَام. (م).

فقال العالم العصري: فلو أن مثل هذا النور المبين برز للناس، لألجمت أفواه أعداء الإسلام في الغرب، ولعرف جهلة الشرق حقيقة أمر الإسلام. فقال الشيخ: لن يتم هذا إلا بإصلاح الأزهر. وختما جلساتهما بقانون سنذكره بعد.




الفصل الثالث عشر
في اقتراحات متعددة في أشياء كثيرة

اجتمع الشيخان في اليوم التالي، فقال الشيخ للعالم العصري: إني بما قُرِّر في المجالس السابقة مقتنع بأن هذه العلوم الطبيعية والفلكية تناسب مشرب الدين، بل هي التوحيد بعينه، وإني بعد انصرافي من المجلس قرأت الليلة عن أكابر المتقدّمين: أن العاميّ يعرف الله معرفة تَفُوق معارف من قرأ التوحيد بهذه الطريقة المشئومة التي تحصر المعرفة في أمور جدلية لا تفيد، ولقد صرّح بها صاحب «إلجام العوامّ عن علم الكلام»، ولقد وَقَرَ في نفسي هذه الأشياء، وتذكرت كثيرًا مما كتب الأقدمون في أثناء الحواشي من عجائب هذه الدنيا، وتحققت أننا إن رفضناها أضعنا ما بقي في أيدينا من هذه الحياة، وبهذه العلوم ننال سعادَتَيْ الدنيا والآخرة، فقرّ رأيهما على ما سيأتي:

(١) يجب أن يُدَرّس في الأزهر مبادئ تخطيط البلدان.

(٢) سير مشاهير الرجال مقتصرًا فيها على علوّ الهمم والسعادة في الحياة، وأن ينبذ كل ما شجر بين الصحابة بتاتًا، ولا يذكر إلا فضائلهم وشجاعاتهم.

(٣) السيرة النبوية، واستخلاص صورة منها تؤدي بالناشئين إلى حبّ النبيّ ﷺ وإعظامه ومعرفة شجاعته وسياسته.

(٤) جمع الأحاديث الصحيحة التي لها مساس بالاجتماع والحياة والرّقيّ، وكل ما له شأن في سعادة الحياة والآخرة، وتُجعل كتابًا واحدًا تؤلفه لجنة مُشَكَّلَة، يرأسها شيخ الجامع الأزهر، وتقرّه المشيخة، ويُنشر للملأ، وأرباح ثمنه تصرف لمنافع الأزهر والعلماء والمجاورين.

(٥) استبدال بعض كتب المتقدّمين بكتب المتأخرين، وتُؤلَّف كتب جديدة بعد تحسين العبارات بممارسة كلام العرب.

(٦) جعل الأصول؛ بحيث تجعل في الطالب قدرة على الاستنباط.

(٧) مبادئ التاريخ الطبيعي وشرح الآيات به، وليس هذا تطبيقًا، بل هو شرح وتوضيح، وهو يدرس في أربعين درسًا.

(٨) مبادئ الهيئة، وهي تدرس في ١٠ دروس.

(٩) إن علم الهيئة القديمة المختلطة بعلم التوحيد يضرّ بالعقائد، وينافي الدين، فيجب أن تنتقى كتب خالية من هذا التعقيد والتشويش.

(١٠) معرفة مبادئ قانون الصحة، وإبراز ما تأمر به الشريعة المُطَهَّرَة من النظافة والاستحمام والتعطر من القوّة إلى الفعل، فإن الطالب يقرأ هذه، ولكن ضيق ذات يده لا تمكّنه من غسل ثيابه إلا في ترعة أو نهر بنفسه.

(١١) إظهار كتاب السبق والرمي، وهو في الحقيقة أخو فنّ تمرين الأعضاء وترويضها[١]، فإن هذا الفن يدرس في الأزهر وضيق المكان، والفقر المحيط بالسكان يمنعهم من إجرائه، فقد ذكر العلماء: المسابقة على الخيل والمناضلة بالسهام وإعطاء الجوائز، وأن هذه سنن إسلامية، وترى المجاور يقرؤها من أول سنة يدخل فيها الأزهر، ولا يعمل بها، أفلا ندرس منه على الأقلّ الاخشيشاب «الجميز: الجمباظ»، وتمرين الأعضاء علمًا وعملاً، وهو مهمٌّ جدًّا. وقد وضع العلماء له كتابًا مخصوصًا، سموه «كتاب السبق والرمي» كما ذكروا كتاب الصيد. كل هذا في الأزهر وأهله يقرءونه وهم ساهون، والذين في الخارج به لا يعلمون.

(١٢) النظر في الكتب، وتشكيل لجنة يحضرها جمع من ذوي الآراء والعقول الكبيرة من الأمّة، وينظرون في المعاملات والأحكام، واستخلاص قانون مسنون من المذاهب الأربعة، يلائم هذا العصر كما فعلت الدولة العليّة. وفي فتاوى علمائنا في ألف وثلثمائة سنة ما يكفي كلّ متشرّع، ويستبدل به القانون الأوربي.

(١٣) طلب مال من الحكومة، والأوقاف، وأغنياء الأمة يعين على هذه الأعمال العظيمة.

(١٤) الامتحان يجب أن يكون تحريريًّا وشفهيًّا في كل سنة من سِنِي التدريس لاسيما امتحان العلماء، ويكون بدرجات سرِّيَّة.

---

(١) ترويضها: إخضاعها وتهيئتها للعمل .(م).

(١٥) عرض هذه الآراء على أولياء الأمور، ومشيخة الأزهر، ورجال الأمة وعقلائها، وخديونا المعظَّم، فإنما هذا رأي اثنين، وهو يقبل التمحيص[١] والتنقيح[٢] والنقص والزيادة، وما قلنا إلا بما علمنا، وفوق كل ذي علم عليم.

(١) التمحيص: التخليص من كل عيب. (م).
(٢) التنقيح: التهذيب والتصحيح. (م).



الفصل الرابع عشر
بشائر الإصلاح في الأزهر

وإذا كان لنا أن نغتبط(١) بشيء، فإن من أوّل ما نُسَرّ له أن نرى المريض الذي نَهَكَه(٢) الداء وأَعْوَزَه(٣) الشفاء، وبرحت به العلة حتى يئس منه الأولياء والنصراء، نرى هذا المريض يتماثل(٤) للشفاء، وتسري إليه العافية سريان الكهرباء في الأجسام، فإذا هو بعد ذلك صحيح الجسم، بارئ من العلل والأَوْصَاب(٥)، قادر على أن ينهض بما اعتاد أن يحمل من أعباء.

نقول هذا بعد أن مضى نحو ثلاثين عامًا على مقالاتنا العشر التي وصفنا فيها أدواء الأزهر، وعلله المُزْمِنَة، والتي وصفنا فيها طريق العلاج؛ ليعود الأزهر سيرته الأولى، يحمل ما حمل، ويؤدي للعالم الإسلامي والعربي ما ينبغي أن تؤديه أعظم جامعة إسلامية عربية في الشرق. واغتباطنا اليوم شديد بما نراه من آثار الحياة والصحة تدبّ في جسم هذه الجامعة الأزهرية ذات التاريخ المجيد،

---

(١) نغتبط: نُسَرّ ونفرح. (م).
(٢) نَهَكَه: أتعبه أشد التعب. (م).
(٣) أَعْوَزَه: لم يجده مع احتياجه إليه. (م).
(٤) يتماثل: يقارب. (م).
(٥) الأَوْصَاب: الأمراض والأوجاع. (م).

فقد عرف لها الغرّ[١] الميامين[٢] من (آل محمد علي الكرام) عظيم أثرها في خدمة مصر والعالم الإسلامي، فمنحوها من عنايتهم وبرّهم ما يكفل إعادة الحياة إليها قوية، وقام مِنْ أبناء هذه الجامعة مَنْ يشدّ أزرها؛ لأنه أعرف بمواطن الداء منها، وساعدهم كل أَلْمَعِي[٣] برّ بدينه ولغته وقومه، فوُضعت للأزهر نظم جديدة، وأُدْخِلَت فيه علوم كثيرة غير العلوم الدينية واللغوية، وأنشئت له فروع في بعض حواضر المديريات: كمعهد أسيوط، ومعهد الزقازيق، ومعهد طنطا، ومعهد دمياط، ومعهد الإسكندرية. وقُسِّم التعليم إلى مراحل: مرحلة للتعليم الابتدائي، ومرحلة للتعليم الثانوي، ومرحلة للتعليم العالي، وأقسام للتخصص، وكَثُرَ طلاب الأزهر وفروعه حتى أَرْبَوْا[٤] على عشرين ألفًا.

وآخر ما وُضع للأزهر من النظم الحديثة تقسيم الدراسة العالية فيه إلى ثلاث كليات هي: كلية أصول الدين؛ لتخريج الوُعَّاظ والخطباء، وكلية الشريعة؛ لتخريج القضاة الشرعيين، ومدرسي الشريعة بالأزهر وفروعه، وكلية اللغة العربية؛ لتخريج علماء يدرسون العلوم العربية في الأزهر، وفي مدارس الحكومة وغيرها، وقسم للتخصص يتخرَّج فيه العلماء المبرّزون في العلوم والفنون.

(١) الغُرّ: السادة الشرفاء. (م).
(٢) الميامين: المبارك عليهم. (م).
(٣) ألمعي: ذكي مفرط الذكاء. (م).
(٤) أَرْبَوْا: زادوا. (م).

ولا نزال نرى في كل يوم من عناية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم (فؤاد الأول)، ورجال حكومته بالأزهر، ورجاله ما يملأ النفس غبطة وأملاً بانتعاشه.

ونحن إذ نكتب هذا الفصل نرى بأعيننا ما تبذله الحكومة من النشاط وعالي الهمة في بناء الكليات الجديدة حول الأزهر، وإعداد المساكن للطلبة، حتى تباري[١] هذه الجامعة القديمة أحدث الجامعات الراقية في نُظُمِهَا وآثارها.

---

(١) تُبَارِي: تسابق. (م).

تَذْكِرَة

ما جاء بصدد الإصلاح الجديد في الأزهر... إلخ

ونرى أن نَذْكُر هنا ما جاء بصدد الإصلاح الجديد في الأزهر بالصفحة ١٦١، من الجزء العاشر، من كتابنا تفسير الجواهر:

إن ظهور هذا التفسير اليوم في بلاد الإسلام موافق لحركة الإصلاح فيها، فقد أَلْهَم الله رجال الإصلاح أن يضعوا بذوره؛ ليتخرج رجال في المعاهد الدينية على مشرب هذا التفسير. فانظر إلى ما قدَّمه صاحبنا فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغَي شيخ الجامع الأزهر سابقًا في ١٩ صفر سنة ١٣٤٧، الموافق ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨ لحكومتنا المصرية، وهذا نَصُّه:

إصلاح الأزهر الشريف

مذكرة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر سابقًا

«أوجب الدين الإسلامي على أهله أن تختصّ طائفة منهم بحمله وتبليغه الناس ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة/ ١٢٢]، وأوجب الله على نبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى السبيل الموصلة إليه ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل / ١٢٥]، وقواعد العلماء كلها مُتَّفِقَة على وجوب السعي إلى نشر الدين، وإقناع العباد بصحَّته، وعلى وجوب حمايته من نزغات[١] الإلحاد وشُبَه المُضِلِّين. وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة تحثّ على النظر في الكون، وعلى فَهْم ما فيه من جمال ودقَّة صنع. وقد لفت النظر إلى ما في العالم الشمسي من جمال باهر وصنع مُحْكَم، ولفت النظر إلى ما في الحيوانات من غرائز تدفعها إلى الصنع الدقيق والأعمال التي لها غايات محدودة، وأشار إلى سير الأولين، وحثّ القرآن على العلم، وفاضل بين العلماء والجُهَّال، وأعمال السلف الصالح، وسير العلماء لا تدع شبهة في أن الدين الإسلامي يطلب من أهله السعي إلى معرفة كل شيء في الحياة، وقد تولى سلف علماء الأمة القيام بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله؛ فخَلَّفُوا تلك الثروة العظيمة من المؤلفات في جميع فروع العلم، ودرسوا أصول المذاهب في العالم، ودرسوا الديانات، ودرسوا الفلسفة على ما كان معروفًا في زمنهم، وكتبوا المقالات في الردِّ على جميع الفرق، وكانت للعقل عندهم حرمته، وله حرِّيَّته التامّة في البحث، وكان الاجتهاد غايةً يسعى إليها كل مشتغل بالعلم متفرّغ له، ولكن العلماء في القرون الأخيرة

(١) نزغات: مفاسد. (م).

استكانوا[1] إلى الراحة، وظنُّوا أنه لا مطمع لهم في الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس، فجهلوا الحياة وجَهِلَهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة، وطرق البحث الحديث، وجهلوا ما جدّ في الحياة من علم، وما جدّ فيها من مذاهب وآراء، فأعرض الناس عنهم، ونقموا هم على الناس، فلم يؤدّوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حَمَلة وبلا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين. في الدين الإسلامي عبادات، وعقائد، وأخلاق، وفقه في نظام الأسرة، وفقه في المعاملات مثل البيع والرهن، وفقه في الجنايات، وقد عرض الدين الإسلامي لغيره من الأديان، وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان (كذا)، وأشار إلى بعض الأمور الكونية في النظام الشمسي، والمواليد الثلاثة من جماد ونبات وحيوان.

وقد هُوجِم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة، هوجم من أَتْباع الأديان السابقة، وهوجم من ناحية العلم، وهوجم من أهل القانون؛ لهذا كانت مهمة العلماء شاقةً جدًّا، تتطلب معلومات كثيرة، تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها، ومعرفة ما في الأديان السابقة، ومعرفة ما يَجِدّ في الحياة من معارف وآراء، ومعرفة طرق البحث النظري وطرق الإقناع، وتتطلب فَهْم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فَهْمًا صحيحًا، وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها، وتتطلب معرفة التاريخ العام، وتاريخ الأديان والمذاهب، وتاريخ التشريع وأطواره، وتتطلب

(١) استكانوا: خضعوا، ذلُّوا. (م).

العلم بقواعد الاجتماع. والأمّة المصرية أمّة دينها الإسلام، فيجب عليها وهي تجاهر بذلك أن ترقي تعليمه؛ ليرقى حَمَلَتُه، ويكونوا حُفّاظًا ومرشدين يدعون الناس إليه.

ولا يوجد دواء أنجع[١] من الدين لإصلاح أخلاق الجماهير، فإن العامة تتلقى أحكام الدين والأخلاق الدينية بسهولة لا تحتاج إلى أكثر من واعظٍ هادٍ، حسن الأسلوب، جذّاب إلى الفضيلة بعمله، وبحسن بصره في تصريف القول في مواضعه، ولذلك كان الدعاة إلى الفضيلة قديمًا وحديثًا يلجئون إلى الأديان يتخذونها وسائل للإصلاح، بل إن كل دعاة المذاهب السياسية، وحملة السيوف لم يجدوا بُدًّا[٢] من الرجوع إلى الأديان، وصبغ دعواتهم بها؛ كل ذلك لأن حياة المجتمعات لا تدين لنوع من أنواع الإصلاح إلا إذا صُبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان، والأمّة المصرية بل والأمم الشرقية جمعاء تدهورت أخلاقها، فضعفت فيها ملكات الصدق والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر والإقدام والحزم، وضبط النفس عن الشهوات، وضعفت الروابط بين الجماعات، فلم يعد الفرد يشعر بآلام الآخرين ومصائبهم، وقد أثرت الحياة الفردية في حياة الجماعة أثرها الضار، فانحطّت منزلة الأمم، ورضيت من المكانة بأصغر المنازل».

---

(١) أنجع: أنفع.(م).
(٢) بدًّا: مفرًّا. (م).

إلى أن قال: «يجب أن يُدْرَس القرآن دراسة جيدة، وأن تدرس السُّنَّة الشريفة دراسة جيدة، وأن يُفهَما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعاني، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يُبْتَعَد في تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه، وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية».

يجب أن تُهَذَّب العقائد والعبادات، وتُنَقَّى مما جَدّ فيها وابْتُدِع، وتُهذّب العادات الإسلامية؛ بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة.

يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة، خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عنها في الكتاب والسنة، والأحكام المجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية؛ لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء.

يجب أن تدرس الأديان؛ ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات، وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي؛ ليظهر للناس يسره وقدسه، وامتيازه عن غيره في مواطن الاختلاف، ويجب أن يدرس تاريخ الأديان، وفِرَقها، وأسباب التفرّق، وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص، وأسباب حدوثها.

يجب أن تدرس أصول المذاهب في العالم قديمها وحديثها، وكل المسائل العلمية في النظام الشمسي والمواليد الثلاثة، مما يتوقف عليه فَهْم القرآن في الآيات التي أشارت إلى ذلك.

يجب أن تُدْرَس اللغة العربية دراسةً جيدة كما دَرَسَهَا الأسلاف، وأن يُضَاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث في بحث اللغات وآدابها.

يجب أن توجد كتب قَيِّمَة في جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة في عصور الإسلام الزاهرة، والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية. وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعي(١) فيه محافظةً تامّةً، وأن تهذَّب الأساليب، ويهذّب كل ما حدث بالاجتهاد؛ بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل، وكل ما هو موافق لمصلحة العباد.

يجب أن يفعل هذا؛ لإعداد رجال الدين؛ لأن رسالة النبي ﷺ عامّة ودينه عام، ويجب أن يطبق؛ بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة، وإن لم يفعل هذا فإنه يكون عُرْضَةً للنفور منه، والابتعاد عنه، كما فعلت بعض الأمم الإسلامية، وكما حصل في الأمة المصرية نفسها، إذ تركت الفقه الإسلامي؛

(١) قطعي: لاشك فيه. (م).

لأنها وجدته بحالته التي أوصله إليها العلماء غير ملائم، ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان، وتبدّل العرف والعادة، وراعى الضرورات والحرج لما تركته إلى غيره؛ لأنه يرتكن إلى الدين الذي هو عزيز عليها»، ثمّ قال بعد كلام:

«وقد بَدَّل الله هذه الأحوال، وأصبح قانون الأزهر مشتملاً على ضِعْفَي العلوم التي كانت تدرس من قبل، وأصبح يدرس في الأزهر التاريخ الطبيعي، وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء، ويدرّس فيه الجبر والهندسة، وقَبِلَ الأزهر في قسم تخصص القضاء الشرعي دروسًا في وظائف الأعضاء، ودروسًا في التشريح، قَبِلَ الأزهريون كلَّ جديد، وأعدّوا أنفسهم له، وزالت كلّ العقبات التي كانت من قبل، ولم يبقَ إلا إصلاح طرق التعليم، وإيجاد المعلمين الأَكْفَاء، وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعًا صحيحًا، وإذا كانت هناك بقية تعترض الجديد، فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة في طريق الإصلاح». انتهى.

الباب الثاني



الفصل الأول
أنواع السعادات

إذا قنعَ الفتَى بلذيذِ عَيْشٍ وكان وراءَ سَجْفٍ[1] كالبَنَاتِ
ولمْ يُقْرِ[2] الضُّيوفَ إذا أَتَوْهُ ولم يَكُ مُطعمًا في النائباتِ[3]
فقلْ للنادِبَاتِ إذا بَكَتْهُ ألا فاقْصِرْنَ نَدْبَ[4] النادباتِ

سعادة المرء ما يُوَاتيه[5] من موافق لإدراكه، ومناسب لحاله من ضروب اللذات الملائمة لذوقه، والمناسبة لمشربه.

ولست أحفل بتلك التي توافق حاسَّة اللمس مما يواتيها من ضروب الشفوق: كالديباج، والسندس، أو الذائقة من طعم لذيذ، أو ما يلائم القوة الشامة: من العطر والريحان، أو الأذن من النفحات المطربات، أو محاسن الصور والجمال الملائمة لحاسة البصر. فليس قولي في هذه؛ إذ هي سعادات موضعية

(١) سَجْف: حجاب، ستر. (م).
(٢) يُقري: يكرم، يضيف. (م).
(٣) النائبات: المصائب الشديدة. (م).
(٤) نَدْب: تعداد محاسن الميت. (م).
(٥) يُوَاتيه: يطاوعه. (م).

وقتية يشترك فيها أسفل الطبقات من الأمم وأعلاها، وأرفع القوم وأدناها، بل تتعدى الإنسان للحيوان الأعجم[١]، ولست أعني بالسعادة ما يلهو به الصبيان في ناديهم من اللهو واللعب والكرة، وذلك في سن مناسب له، وقد جعل ذريعة[٢] لسواه مقدمة لأعلى منه للعمل والجدّ، ولست أعني بالسعادة تلك التي عند الفتيان والشبان من حب الزينة والجمال والبهاء فذلك غير خاص بالإنسان، فالطاووس يشركه، والديك يزاحمه. وما أردت بقولي سعادة المال وادخاره واجتماع العروسين وزفاف الزوجين، فالادّخار والاقتران في شرائع النمل وقوانين النحل وسنن القرود وكلاب البحر، ولم أُرِد الفخر بالمال والبنين والذهب والفضة، والخيل المُسَوَّمة[٣]، والأنعام والحرث، فذلك الفخر ظلّ زائل وأمر طائح[٤].

وهؤلاء الذين ذكرتهم وإن أَحَسُّوا بسعادات، فهي وقتية موضعية، تزول مع كرور الدقائق، وتمر مَرَّ السحاب، كأن لم تَغْنَ بالأمس، وهل السعادة إلا ما تتجدد بذكراه بهجة الضمير، وإحساس القلب، وشعور العقل؟ وذلك خصلتان: مال تنفقه، وعلم تنشره.

أولئك الذين ينفقون أموالهم وينشرون حكمهم، يرون في نفوسهم من سعادة القلب ما لا يدركه صبيان الرجال وأطفال الأموال، فلو كشف لك عن

---

(١) الأعجم: الذي لا ينطق. (م).
(٢) ذريعة: وسيلة وسبب إلى الشيء. (م).
(٣) المُسَوَّمة: المتروكة للرعي، والمعلمة بعلامة حتى لا تختلط بغيرها. (م).
(٤) طائح: مضطرب، ساقط. (م).

قلوب أولئك الباذلين، وقرأت ألواح بصائرهم، لرأيت سطورًا من النور مكتوبة، يكاد سَنَا بَرْقِهَا يذهب بالأبصار، وهي كما قال أرسطاطاليس: «أمّ رَءُوم[١] تُغَنِّي لهم إذا ناموا، وتوحي إليهم إذا استيقظوا، ترضعهم لبن الأفراح، والمسرّات مسرّات الأرواح، لا غذاء الأشباح. منفق المال، وناشر الحكمة، رضيعا لبان»، وهما أخوان جاء ذكرهما في الحكمة النبوية.

وفي البخاري: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلَّطه على هَلَكَتِهِ[٢] في الخير، فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يعمل بها، ويعلمها الناس».

لا يَغُرَّنَّكُم أيها القوم، ما ترون من ذوي غنى ويسار، فلن يتمتعوا بما أوتوا في هذه الحياة الحقيرة. ألا ترون أن سعادة أطفال الرجال حقيرة، بل معدومة؟ إذ الالتذاذ الماديّ يتناقص كلما تزايد العمر، ويحلّ محله السرور العقلي، والفرح الرّوحي، فترى المرء بعد ذهاب شبابه، يبحث عن نجاح ابنه، وعن قصص ليسلي به روحه، وعن ماضي تاريخ حياته، فتحيا إذ ذاك ذاكرته وتضعف مُخَيِّلَتُه، وقد ركزت هذه في المرء؛ ليعلم أن السعادة قد انتقلت من حال إلى حال، وأنه انتقل لدور الرجال.

---

(١) رءوم: عطوف حنون. (م).
(٢) هَلَكَتِهِ: إنفاقه. (م).

وإذا أدرك البخيل أن له فرحًا بنجاح ولده في مدرسة، فليتذكر أن باذل الأموال الكريم إذا افتتحت المدارس باسمه وعُمِّرَت الدور بماله، فدعت له الأرملة في جَوْفِ الليل البَهيم[١]، ونجح اليتيم في امتحان الشهادة، وصرفت الجائزة باسمه، ثم يمرّ فيسمع ثناءه عطرًا في المجالس والأندية والمحافل، أَفَلَيْسَ ما يلقاه من المَسَرَّة بكل تلميذ نجح، وبكل أرملة غنيت يعادل فرحه بابنه، فيكون سروره مقدار هذا ألف مرة أو آلافًا؟

ولَعَمْرُك لن يفقه مثل هذه السعادة إلا ذائقوها، ولن يفهمها إلا مُجَرِّبُوها، وهل يعرف الشَّوْقَ إلا من يكابدونه، أو الفضلَ إلا ذووه؟

فما أسعد ذلك الجواد في حياته! إذ يرى ثمرات أعماله باديةً رأي العين، فيظل في ظلٍّ ظليل من مقدّمات الجنات، ثمراتها دائمة كشجرة أصلها ثابت وفرعها في سماء القلوب، تؤتي أُكُلها كل حين، فأينما حلَّ أو ارتحل، عظّمته القلوب، وشكرته الألسنة، وبجّلته الجموع، أذلك خير أم هذا الذي هو مَهِينٌ[٢] ولا يكاد يُبِين؟ فلو أن عليه أَسْوِرَة من ذهب، وحوله العسكر المطيعون، واحتفَل به الخادعونَ، وأحاطت به الخيول المُطَهَّمَة[٣] الحسان، وسَاوَرَته[٤] الشهوات من النساء والبنين والقناطير المُقَنْطَرَة من الذهب والفضة والأنعام والحرث، والعربات

---

(١) البَهِيم: الأسود الحالك. (م).
(٢) مَهِين: ضعيف. (م).
(٣) المُطَهَّمَة: تامَّة الحسن. (م).
(٤) سَاوَرَته: صارعته. (م).

الجارية، والحدائق الغَنَّاء والكبرياء والجبروت، فاعلم أن ذلك محروم لذاته، ليس له نصيب من ثروته، وهل له منها إلا ما ملأ الجراب ووارى الجسم من الثياب؟ وما زاد فينظر له نظر الأعمى إلى الآداب، ويراها كأنما هي ظُلُمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها. جَالِسْه وحَادِثْه تَجِدْه يَتَأَفَّف من الزمان والمكان والأيام وأهلها، ومن الخدم والحشم، وبذكر الأيام الماضية في القرون الخالية، وقد يسرّ بالمال غير جامعه، فلا تغرنك تلك الزخارف، والقصور المشيدة، وهَوِّن على نفسك، فلن يحس مالكها بها متى مرّ عليه شهر أو شهران، بل تصير معتادة له، كأنما كان يملكها من صباه، فهو في غَمْرَة من الساهين، والناس يظُنُّونه في نعيم.

مَثَلُ الفريقين إذا ماتا كمثل الأعمى والأصمّ والبصير والسميع، هل يستويان مثلاً؟ راقب رجلين من الأغنياء، تر ذلك الذي أنفق ماله إذا اضطجع على فراش الموت، وأحضرت ذاكرته ما صنع في حياته أحضرت فيها تلك المدارس المشيدة، والصبيان الذين صاروا رجالاً عالمين عاملين، ثم يتذكر أنهم اصْطَفُّوا صفًّا، وقد أحضرتهم ملائكة البشرى بين يديه في عالم العقل وطافوا به، ثم يعلم أن هذه أول سلسلة ستدوم وتتضاعف أبدًا، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾[البقرة/ ٢٦١]، وكل حبة أنبتت مائة سنبلة، وكل صَبِيٍّ تعلَّم فربما تعدّى أثره إلى مئات من غيره، وهكذا، وربما ظهر فيهم الحكماء والمصلحون والسياسيون، فهل يقدر أحد أن يحصي هذه السعادة عند موت مُسْدِيها؟ وماذا نريد من الحياة الدنيا إذا خرجنا بمثل هذه النتيجة الظاهرة الواضحة؟ فبُشْرَاكَ

أيها الجواد، فما عشت فإنك السعيد، وإذا متّ بكتك الباكيات في جوف الليل، ونَدَبَتْك النادبات اللاتي لم يَرَيْنَك قَطُّ، وتقطعت أفئدة الفتيات عليك حسرات، وذُرِفَت لمفجعك الدموع، وضَجَّت لِمَنْعَاك الجموع، وتقفل المدارس حِدَادًا عليك، وتكتب الصحف بدماء العبرات مدادًا، وتغني النسمات بثنائك، وتتعطر الأندية بشكرك ومحاسنك، وتدخل الملائكة عليك من كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد/ ٢٤].

أما أنت أيها البخيل بماله، الشَّحِيح لولده، فانظر من أين جمعت؟ وفيم أنفقت؟ ستذهب النفس حسرات، ويأكل التراث من لا خَلاَق لهم، تعيش ولا ذكر لك.

ذهب الزمان الذي يُعَظَّم فيه المثري لماله وإن كان بخيلاً، ويُكَرّم لجاهه وإن كان جهولاً.

أتدري لِمَ كانوا يُعَظَّمُون، ولماذا كانوا يُهابون؟ كانت الصَّوْلَة والقوة في أيديهم والحكام مطيعون لما يرضيهم، فيخشى الناس سطواتهم، ويخضعون لوشايتهم، فكان تعظيم رهبة لا رغبة، وخوف سَطْوة لا رجاء نعمة.

أمّا الآن فلم يبق إلا المعروف والإحسان ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن/ ٦٠]، فلن يعظمك يا هذا إلا المُتَمَلِّقُون، ولن يعبدك إلا الجاهلون الطامعون.

انظر في قلبك وتأمل في نفسك! ألست تراك في أغلب الأيام في هَمٍّ وضيق؟ أَوَلَسْت تحسّ بغمٍّ في النفس، ومرض يَعْتَوِر الجسم، وضيق في الصدر؟ فاعلم أن الرّوح والرَّيحان في الإنفاق والإحسان.

فيا حسرةً عليك إذا بُسطت الأكفّ لاستلام روحك، وجلس حولك خدمك والحشم وأهلك وأولادك، فلعمرك إنهم يبكونك جهارًا، ويفرحون سرًّا خفيًّا، ينظرون بعضهم إلى بعض بنظر الشرر، ويتعادون بالملاحظ، ويتباغضون بالمقال، يوجس بعضهم إلى بعض ما سيُجْرُون من الأعمال في ميراثك.

يموت جارك الفقير، فتبكي عليه الباكية، وتندبه النائحة، ويتجرّع غُصَّة موته أولاده؛ لعزته عليهم، فهو أسعد منك حالاً، وأنعم عند الموت منك بالاً، فهناك قلوب تحنّ إليه ونفوس تصبو إليه. أما أنت فانتبه من غفلتك، وتيقظ من رقدتك، واعلم أن تراثك ينسيهم ذكراك، وحلاوة مالك تدعوهم للمداراة، فقد يقولون: ما الذي ترك أبوك (المجحوم) أي الذي دخل الجحيم؟ وكلما قَلّ تراثك قَلَّت اللعنة منهم عليك، والعكس بالعكس.

ما أشقاك إذا الموت يغشاك! وينشد الكفن، والنعش يعنيك بهذا البيت:

ترى فيْئَهُم[١] في غَيْرِهِم متَقَسِّمًا وأَيْدِيهِم عن فَيْئِهِم صَفِرَات

(١) فيئهم: غنيمتهم. (م).

فلا يسمع بصوت أرملة يشجى فؤادها عليك، ولا لسان شاكر لأيديك، ولا نادي علم يذكرك، وإنما يستعاض ذلك بذمّ موجع ورشقك بألسنة حِدَاد – الحقّ أحقّ أن يُتَّبع – ألسنة الخلق أقلام الحق، ترى تارك المال لوارثه لا شكر له، بل إنهم به يكفرون وبموته يفرحون، وتارك المال لمن يَتَرَبَّوْنَ به علمًا وجسمًا أو هما معًا يثني عليه الدهر كله وأهله، ولا يحرم رضى ورثته من بعده، على أن اختصاص الوارث بالمال قد يفضي به إلى الخمول والكسل والبلادة والجهل، ومثل هذا المورّث من خسر الدنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج/ ١١]، وهذا هو السر في قول النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة/٧–٨].



الفصل الثاني
التَّمَدُين والمَدنِيَّة

تَسَتَّرْتُ مِنْ دَهْرِي بظِلِّ جَنَاحِهِ   بحَيْثُ أَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

سنشرح في هذا المقال حال الدنيا ونظامها وزخرفها، وكيف كان حال المدن، وتمصير الأمصار، وسيصل القارئ في العلم بها إلى ما جهله كثير من المغترّين بظواهر الألفاظ، وهم عن معانيها غافلون: اختبئ تحت جناح الزمان وهو طائر في فلكه، واقرأ هذا العالم سطرًا سطرًا، فلتفرحن بحِكَم نافعة هي خير مما يجمعون. نسمع الناس يقولون فلان متمدين، ويطلقونها على معانٍ متقاربة، فيريد قوم أنه حسن الثياب والهيئة جميل السَّمْت، ويقول آخرون إنه من يأكل أطايب الطعام وأشهاه، ويلبس أحسن الملابس وأبهاها، ويرى آخرون أنه المترَف المُتَنَعِّم فيزيد في غُلَوَائه[١]، ويمرح في لذيذ العيش من طعام وشراب، ولَذَّاتٍ أخرى.

إذا كانت هذه المعاني دائرة على الألسنة، مذكورة في المحاورات وجب تمحيص الحقيقة فيها؛ ليزيل اللبس، ثم نرد هذه المعاني إلى أصولها وما الحقّ منها،

(١) الغُلَوَاء: الغلو والمبالغة. (م).

فنقول: أصل التمدين إنما هو تمصير الأمصار، وتنظيم المدن، وإعداد مرافق الحياة فيها؛ لتنال حَظَّها من أصول حياة دهرها، ولها فعلٌ هَجَرَه العرب، وهو لفظ مَدَنَ: أي أقام، ومنه مدينة جمعها مدائن، ويقال مدن: أتى المدينة، ويقولون: الإنسان مدني بالطبع أي جعل بطبعه اجتماعيًّا، ففَقْدُ جمعيته ذَهَابُ بحياته، فالجمعية طبعه من مبدأ خلقه، وكلما قَلّت الجمعية قَلّت الحاجة، وإن كثرت كثرت، وأول جمعياته أهل الرجل فالمحلة فالقرية فالمدينة فالقصبة فالأمة، وتتداخل الجمعيات وتتكاثر بحسب الحاجة والعمران لما جُبِلَ عليه الإنسان من الافتقار إلى ما لا يتناهى من الضروري والحاجي والكمالي والزينة كالغذاء وطهوه وأدمه وحلواه، وتنحصر حاجاته في سدّ جوعته، وحفظ جسده، فتأمل تر الإنسان محتاجًا لتقوية جسمه بأن ينسج بدل ما تحلل بالحرارات الغريزية، ولما كان بعض الأخلاط يزيد على الحاجة وجب علاجه، فكان علم الطب، ولابد من ثوب يقيه الحرّ والبرد، ومسكن يؤويه، وسلاح يدفع به عدّوه من أبناء جنسه، فهذه خمس مراتب: الغذاء، الدواء، الثوب، المسكن، السلاح.

فالأول: لصلاح الجسد، والثاني: لإتمامه، والثالث: لوقايته مما يحيط به من الجوّ، والرابع: يقيه عاديات الوحوش واللصوص، والخامس: من عدوّ من جنسه يفاجئه، وما أسهل النطق بهذه الخمس، وما أصعب تفصيلها، وما أكثر علومها، من لي برسَّام حاذق يرسم الإنسان، وما يحتاج إليه في خمسة صفوف ثم يرسم دوائر تحيط به عددها ٥، وتكون هكذا:

الأولى: لأركان المدنية الأربعة: الإمارة والزراعة والتجارة والصناعة، والثانية: للرياضيات من فلك وحساب وهندسة وجبر، والثالثة: للطبيعيات من المولدات وهي:

(١) المعدن والنبات والحيوان والإنسان.

(٢) القوانين العامة والكيمياء.

(٣) الضوء ونواميسه.

(٤) الحرارة وقوانينها.

والرابعة: للبخار، ونقله الأجسام، وإدارته الآلات، وإحداثه الضوء، ونقله البريد، والخامسة: للكهرباء وتلغرافها وإدارتها آلات أعمال الغذاء والملبس والمسكن وإضاءتها وحرارتها، فهذه الدوائر الخمس التي تخدم الإنسان في حاجاته الخمس التي ذكرناها، وقد دخل تحتها أكثر علوم المادة.

ولْنُفَصِّل الدائرة الأولى وفيها الأركان الأربعة

فالإمارة أعلاها، وهي: إما أن نحكم على الأجسام والعقول والخاصة والعامة، فهي النبوّة، أو على عقول الخاصة فهي الحكمة، أو العامة فهي الوعظ، أو على الأجسام وحدها فهم الأمراء، وركنا الزراعة والصناعة متآخيان مع التجارة، ولا زراعة إلا ببضاعة كما لا صناعة إلا بزراعة، وهكذا التجارة، وكل منها محتاج لأخويه، والإمارة من الثلاث بمنزلة الرأس من الجسد، بل هي روح

المدنية وقوامها، فإذا فهمت ما في الدائرة الأولى فلتنظر الشخص الذي في وسطها، فترى له عقلاً ولسانًا، والعقل مركزه الدماغ وسلطته في القلب وترجمانه اللسان، وعلوم اللسان جميع اللغات، ومنها علوم اللسان العربي ١٢ علمًا، وما علومه ولغاته إلا تعبير عن الدوائر السابقة الخمس ومطالبه الخمسة، وترى للعقل مناطق ثلاثًا: الذاكرة والمفكرة والمخيلة. فالأولى لعلم التاريخ، والثانية لعلم الحكمة، وهي نوعان: علمية وعملية؛ فالعلمية الرياضية والطبيعية والإلهية، والعملية سياسة الشخص في نفسه بعلم الأخلاق، وفي منزله، وفي مدينته، فهذه أقسام الحكمة، ويدخلها فن السياسة جميعه، والقوة المخيلة التي في مقدّم الدماغ محل الفنون الشعرية والنقش والتصوير والتشخيص.

الدائرة الثانية: الرياضيات

قد علمت أن من لوازم الحياة نظام الجند وعلوم العسكر، وهي ألصق بالرياضة، وهكذا علوم الزرع والحصاد والأخذ والعطاء لا تتم إلا بأوقات تحدد، والهندسة من مستلزمات الزراعة، وهل تتم الهندسة إلا بالجبر وبقية علوم الرياضيات، ولابدّ من الفلك؛ لتحديد الزمن فلا غنى عن سفر التاجر والأمير والمهندس والطبيب في قطار أو كهرباء أو على دابة، وإذًا لابد من هذا الفن، وهو الفلك، ومن علوم الرياضة الموسيقى.

الدائرة الثالثة: الطبيعيات

وكل هذا لا يُستغنى فيه عن علوم الطبيعيات من دراسة المعدن والنبات والحيوان والإنسان؛ للاستعانة على الزراعة، وتربية الماشية والطبّ، ودراسة القوانين العامة كالجذب والثقل والموازين، وقضية أرشيميدس لضرورتها في سير السفن والحياة، وهكذا مراكز الأثقال، ثم قسم الضوء والحرارة، وهنا امتزاج علوم الطبيعيات بالرياضيات فلا يتسنّى للقارئ فصل بين الرياضي والطبيعي في هذا الفن، وهكذا سير الضوء الذي يحل مرموزه حساب المثلثات، وهنا تكون دائرة الطبيعيات، ولتجعل أربعة أقسام: التاريخ الطبيعي، القوانين العامة، الضوء والحرارة، الكيمياء. وترى أن هذه كلها تحتاج لآلات في أعمالها ونقل لأجسامها وأخبار واستخبار عنها، فكم للزراعة من آلات لحرثها وطحنها وعجنها، وهكذا فنون الطب، وأعمال النسج، والخياطة، والمباني، والحصون، والقلاع، ونظام الجيش من الكُراع والسلاح!

فلهذا كله لزم البخار، وهي الدائرة الرابعة، ولها أربعة أعمال: نقل الأشياء، وإدارة الآلات، وإحداث الأضواء، والبريد.

وهذه الحركة الحيوية عظيمة جدًّا، فكان من آثارها أن تسرع أخبارها فكان الكهرباء، وهي الدائرة الخامسة، ولها سرعة الأخبار، وإدارة الآلات، وإحداث الضوء، وإبداع الحرارة، فهذه أربعة أخرى. هذه هي المدنية فَبَلِّغْها لأولئك الذين

عنها يسألون، يسألونك عن المدنية قل هي خمسة مطالب، تحوطها خمس دوائر، ذوات أربع شعب، تحتها علوم شتى، فإذا تخيلت ما تَلَوْنَاه عليك، عرفت بناء هذه المدنية، وحفظها لجسم الإنسان، وما أحاط بجسمه، وإذن تنشد:

تَسَتَّرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ بحَيْثُ أَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي



الفصل الثالث
فَذْلَكَة التمدين، ومنافع المدنية ومضارُّها

قد علمت مما مضى معنى التمدين، وهو مصدر تمدين مَدَنَ، ورأيت فيه كيف أصبح هذا النظام أمامك كأنه دوائر خمس أحاطت بالإنسان، وخدمت غذاءه ودواءه وثوبه وداره وحصنه، فرجعت الحياة وإن تعاظم شأنها، وكبر شكلها، واتسع نطاقها إلى كسرة خبز وثوب وأمن، ولعلك تعرف ما ورد إذا أصبحت مُعافًى في بدنك، آمنًا في سِرْبِك[1]، عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء، ورُبَّ قارئٍ يسمع هذا، فيخال أن التمدين إشباع البطن، وستر الجسم، والأمن على النفس، وما أحاط بها. كَلاَّ، فهناك بهجة للنفس، وسرور للقوى المفكرة تتعقل مثل هذه العلوم، وكأن هناك تسابقًا بين شهوات الأجسام وقوى العقول، فكما يتسابق ذوو الشهوات إلى نارها يسبق الحكماء إلى نورها، وكأن الحزبين فرسا رهان، ولئن كان للأجسام غذاؤها، فللعقول بهاؤها ورُوحها، ولئن بقي بها الجسم، ودُووِيَت بها علله، فللأرواح فرح بمعرفتها وبهجة بإدراكها، وهذه الأجسام إذ خلقت عاجزة دبَّرتها العقول، وجعل احتياجها سبيلاً لاستنباط الحِيَل والدقائق،

(١) سِرْبك: السِّرْب: الجماعة، الأهل. (م).

والنظر في الكثائف واللطائف، واستخراج الدقائق حتى تعرج الأرواح إلى عالمها، وتدرك أسرار ما أحاط بها حتى سارع الإنسان اليوم إلى درس الطائر في حركاته وسكناته، فيسكن معه في جنته العالية التي لا تسمع فيها لاَغِيَة(١)، وما أشبه العلوم وتداخلها وتشعبها بالأمم وتزاحمها.

هذا، وبقي علينا الآن أن نُلِمَّ بموضوع المدنية من حيث نفعها وضرّها فنقول:

من التفصيل الذي أدرجناه، ترى أن الشهوات المركوزة في طباع الإنسان دعته إلى البحث حتى أدرك ما فصلناه تفصيلاً، ولولا هذه الطباع المركوزة في النفوس ما ظهر سرور ولا استعمل علم، ولم تك حكمة، فباتِّسَاع دوائر الشهوات اتسعت دوائر العلوم، فتسابقت معها شهوات العقول، فطلب النفس للغذاء ومحاربة العدو والغلبة عليه، أوجبت هذه العلوم، فهي من هذا الوجه نافعة غير أن النفع يشوبه الضرر، والنور ممتزج بالنار، فيتغالى المرء في استغوائه(٢) ويزيد في لذّاته، فجاء الفساد مع الصلاح والضلال مع الهدى، فكانت السُّمُوم المهلكة، والأخلاق المنحرفة، والأهواء المختلفة، بل التحقيق: أن المدنية ترفع الأخلاق بنسبة واحدة، ترفع الخير والشر معًا، فإن غلب شرها خيرها آلت بهم إلى الدمار كدولة الرومان، وإن غلب الخير الشر بقيت إلى أجل معلوم ما دام القلب موجودًا.

---

(١) لاغية: لغوًا وباطلاً. (م).

(٢) استغوائه: ضلاله. (م).

إذا عظم بناء صرح المدنية وتمّ نظامه لم تؤثر فيه زعازع[1] المفاسد وإنما يبقى ثابتًا إلى أجله، فلا يَهُولَنّك ما تسمع من فساد الأخلاق والغش والخيانة، وعموم السُّكْر في أمم عظمت مدنيتها. فاعلم أن ذلك قليل في جانب شامخ عزها ورفيع مجدها، فالبحر لا يُنَجِّسه شيء، وإياك أن يفوتك أن بناء مدنيتك يؤوده أقلّ حمل عليه ويُقَوِّض بنيانه أقلّ سيل يساوِره، فلئن سمعت عن مُوبِقَاتِهم[2]، فلتقرأ آدابهم وعلومهم تجد أن ما علموه وما عملوا أكثر من الإفساد، ومتى زاد الضرر، فغلب المنافع آلت الأمّة للخراب.

وعلى هذا فلتفهم ما قاله هنري الفرنساوي في كتاب «خواطر وسوانح في الإسلام» من القاعدة العامّة للمستعمرين في أوربا، وهي: اصحب الخمر معك لتبيد الجنس الشرقي؛ ذلك لأن القوم علموا أن الشرقي غرّ ساذج يغتر بالزخارف، وليس لديه من العلوم والمعارف ما يقاوم هذه المخازي.

ومثل هذا ما يحكى أن في الممالك المتحدة منارًا على جزيرة صغيرة قرب الشاطئ، فبينما هو يدور إذا طيور اختلفت أشكالها وتنوّعت ألوانها تراه ليلاً فتعدو نحوه طيرانًا، فتصطك به، فتحترق بحرارته، فتتردى صريعة لوقتها، فهي كالشرقي يرى المدنية الغربية فيبهره نورها، فيحترق بنارها كالفراش يفترسه نور

(١) زعازع: شدائد. (م).
(٢) موبقاتهم: مهالكهم. (م).

السراج لضعف قوّته المدركة عن تمييز الخبيث من الطيب فيحترق ويَهْلِك، وترى الشرقي يؤكل هنيئًا مريئًا لأهل أوربا كما كانت تلك الطيور الساقطات حول المنار باب ثروة عظيمة لشركة المنار.



الفصل الرابع
لماذا لم يكثر في مصرنا النابغون؟

يسألونك عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، عن ذلك العقل الشرقي، والذكاء المصري، والدم العربي، ألم يك من سلالة أولئك الفاتحين؟ ألست تراهم لا يزالون على البداوة والفطرة في الجبال المصرية، وإن منهم لَفريقًا في الفلاحة، وقلّ من تحضر في الأمصار، والجمهور الأكبر لم يزل على فطرته الأولى يقبل أعظم الرقيّ، لم يُمت ذكاءه الترف، ولم يستعبده السرف، ألم يكن هذا الجليل من نسل الفاطميين والعرب الحجازيين، ومن ذا يظلمهم، فيقول هم أبناء قدماء المصريين الذين تعاقبت عليهم اليونان والرومان والآشوريون وأهل النوبة والهكسوس الملوك الرعاة، على أن النسل القبطي أظهر نهضة ترفع رأسه بما أُودع فيه من الشهامة التي ولدها فيه الخلق العربي، الذي خالطه ثلاثة عشر قرنًا، فسعى سعيًا متواصلاً لم يصل إليه سواه في الرقيّ والتعليم.

وبالجملة، فليس المانع من نبوغ النابغين موت الشهامة والذكاء، فإن ستمائة السنة التي حكمها المماليك لا تسجل على الأمّة المصرية الانحطاط والضعف، فهذه حجة يَلُوكُها[1] بلسانه الفاتح الظلوم، أو الجاهل الغشوم.

المصري: هو العربي، أو المتعرّب من الأجناس المتباينة التي ضمها تحت جناحه أحقابًا وعصورًا. من يَقُل المصري ضاعت منه النخوة، وماتت النجدة، فهو الجهول بالتاريخ، يتبجّح قوم بأن هؤلاء مات آباؤهم تحت السيف والسلاح، وضرسوا بأنياب اليونان، وفتك بهم الرومان، وأصلاهم نارًا حامية الآشوريون، وقهرهم الرعاة، وضُربت عليهم الذِّلَّة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، مع أن ذلك جيل ماضٍ في الغابرين له تاريخ مقدّر، وزمن محدّد مضى وانقضى. تلك أمّة قد خلت وانقضت وجاء بعدهم قوم آخرون، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما كانوا يظلمون.

خلفتها الأمة الفاتحة العربية، ومن يقرب معها، فصارت البلاد كلها عربًا إما دماء وإما أخلاقًا. فما أغفل أولئك الذين يمدّون تاريخ هذا الجيل إلى أربعة آلاف سنة في الأعصر الغابرة، ويتبجّحون بقولهم: وحكامها جلب وهي لمن غلب، مَثَلٌ قرءوه مضروبًا في الأمثال القديمة أطلقه المصريون لما توالى عليهم من فتوح الفاتحين، وذلّ الظالمين، ولكن الآن تاريخهم تغير وأصبحوا في هذه الألف والتي قبلها شعبًا آخر وجيلاً غير الجيل ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ .فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

(١) يَلُوكُها: يمضغها. (م).

ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان/ ٢٨ - ٢٩]. وإلى هنا أثبتنا بالدليل العقلي أن النقص ليس في ذكاء المصري واستعداده وعقله، إذًا فلنبحث عن سبب آخر.

يقول قوم: إن السبب في قلة النابغين أن الحكومة لا تعيّن الجوائز لمن نبغوا في فن أو علم، ولم ترغب أحدًا في عمل ما، ولن يسود إلا من لهم صفات مخصوصة غير صفات العلم، نقول: هذا وإن كان يصلح سببًا، لكنه ليس كافيًا، بل هو ضعيف، وإلا فكم من نابغ في الأزهر وهو لا يجد قوت يومه، النبوغ في كل شيء بحسبه.

ويقول آخرون: إن موادّ العلوم في البلاد قليلة، فلا يجد الأذكياء ما يُقَوِّم مداركهم، ويسعدهم ويرفع من شأن قواهم. وهذا أيضًا وإن كان يصلح سببًا، لكنه ضعيف، فإن أوربا إذ رُزِئَت[١] بمحاكم التفتيش كانت تقرأ الفلسفة والحكمة، وخرج من تحت الصخر ماء نابع، واشتعلت جَذْوَة نار العلوم في أقطارها من تحت سبع أَرَضِين، وليس على المصري غطاء ولا حجاب، والأبواب له مُفَتَّحَة، وأرض الله واسعة.

يقول قوم: إن المصريين كسالى يحبون الراحة والحياة على الفراش الوطيء[٢]، ويستحِبُّون الزينة، ويحبون المال حبًّا جمًّا، ويعبدون أصنام الذهب

(١) رُزئت: أصيبت. (م).
(٢) الوطيء: المهيَّأ، السهل. (م).

والفضة، ولا يخضعون إلا للمظاهر. تراهم لا يهابون العالم لعلمه ولا يحبون إلا ذا السطوة، ولئن رأوا عالمًا بلا جاه، أو قوّة، أو حَوْل، أو طَوْل ليس بيده خزائن الحكومة لم يعظِّموه إلا قليلاً، وربما استهزءوا به وحَقَّرُوا علمه، حتى إذا اعتلى منصبًا قَدَّسوه وسألوه، واستمعوا له وأَنْصَتُوا لعلهم في تَمَلُّقهم يفلحون، فكأنهم لا يحبون العلم لذاته، بل هذه الخصلة، يقال إنها في نفوس المتعلمين أنفسهم لا يعظمون إلا أصنام المال وأزلام[1] الجاه، وأما العلم فطلاء مصقول، أو علم منصوب.

أقول: هذا وإن كان له وجود في بعض الأفراد - إذ أغلب المتعلمين أسمى فكرًا وأعرف بالعلم قدرًا - فهو لا يصلح سببًا أصلاً؛ إذ هو مصادرة لأصل الموضوع، وكأننا جعلنا الشيء سببًا لنفسه، فتعظيم الجاهل لماله، واختصاصهم احترام ذوي السلطة سبب راجع للجهل، وإذًا لا معنى لجعله سببًا لنفسه.

والسبب الحقيقي أنه إلى الآن لم تعلم الأمة أصولاً تشوّقها إلى العلم من حيث هو.

جَالِسْ طبقات القوم (سوى الراقين) ترهم في مجالسهم لا يذكرون العلم إلا قليلاً، ولئن ذكروه إنما يلوك أحدهم مسألة يحضرها قبل هذه الجلسة يستعلي

(١) أزلام: سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية. (م).

بها على أقرانه وعامة الجلساء، والمجالس غاصَّة بالنّكَات المضحكة، فهم إلا قليلاً عاميون متكبرون.

قوم لم تخالط بشاشة العلوم قلوبهم، ولقد تفكرت في دواء ذلك فوجدته يرجع إلى ثلاثة أشياء مرتبطة متماسكة: كتب الدراسة وموادها، والأغنياء، والحكومة.

ولَكَم كتب الكاتبون وندّد اللائمون بالكتب، ولكلٍّ سبيل اتخذه وطريق انتهجه.

أما أنا فأقول: كتب الدراسة الابتدائية إن لم تكن ملائمة للفطرة التي وضعت عليها هذه الدنيا، مشوّقة للتلاميذ، معشقة لهم، باعثة على عشق العلوم المختلفة، فهي كتب لا ثمرة لها. كتب الناشئين تبحث عن محاسن الحيوان وعجائب النبات وغرائب التاريخ الذي يتصل بالأمة، ووصف جمال المخلوقات التي يراها التلاميذ في غدوّهم ورواحهم، وحكايات تناسب ما يلابسهم كل آن، كما ترى في كتب الأمم الإفرنجية على تباين مشاربها، وكما أوصى به حكماء الإسلام قبل سقوط الدولة العباسية. كتب صغار الطلبة إن لم تذكرهم وقائع مختلفة من الرجال الفاتحين، ونُبَذًا من تاريخ النبات، وجُمَلاً جميلة من الحيوان، ولطائف من حكم النجوم والفلك كما فعل الإفرنج، فمن أين يعشق التلميذ الفلك؟ أو كيف يشتاق إلى الطب؟ وما الذي يحمله على الهندسة؟ اللهم إلا

مسابقة أقرانه، وتقدّمه في الفرق، وخوف العار، ومقارعة أبناء الحارة، والتعالي على أهل البلدة، وحَوْز الشهادة، وعلوّ المنصب، وعبادة أصنام الذهب والفضة. أمِثْل هؤلاء ينالون إلا حظَّهم، ثم لا يدخل العلم أعماق قلوبهم، ولا ينالون إلا ما تُكِنّه الأفئدة ويطلبه القلب، فيقفون عند حدّ محدود وأمد معدود فيعيشون ويموتون ولا حَظَّ لهم إلا ما يأكلون ويشربون؟

هذا هو السبب الحقيقي الأصلي في قلة الحكمة والنابغين في بلادنا، فهو الداء وهو الدواء ويلحق به تعيين الجوائز للنابغين من الأغنياء والحكومة. ثم الحضّ على تأليف كتب بهذا الوضع للناشئين. وإني بعد هذا أنا الكفيل بنبوغ أناس من أفضل العاملين في بضع سنين، ويومئذ يفرح المصريون.



الفصل الخامس
متى ينبغ في مصر النابغون؟

اقرءوا الكتاب الأخضر قبل الأسود

نسائل أنفسنا أنحن متعلمون؟ وهل المدارس والمساجد ودروس الدين وحدها جرداء خالية من نور العالم واللغة فتحت الأبصار والبصائر؟ هل البلاد فيها حركة فكرية وعلم شامل يدخل مع القوم في دورهم، والفلاحين في حقولهم، والتجار في أسفارهم، والشعراء في قريضهم، والمؤلفين في فصولهم؟ وهل ولج الناس العلم من بابه ودخلوه من مسالكه وفجاجه؟ لا، سل العالم منا والحكيم. هل يعرف أسماء النبات المحيط بداره؟ هل يُلِمّ بما أُودِعَ فيه من الفوائد الطبية والحِكَم الخفيّة حتى يمتاز عن العامة؟ أم من ذا الذي أخذ بيد طفله فأراه نباتًا فسماه له باسمه الخاص ثم شرح له فوائده ومنافعه الضرورية لحياة الإنسان الطبية؟ أليست هذه هي المعارف الأوّلية في الأمم جمعاء متمدينين ومتوحشين؟ جالس عثمان بك غالب وسائله عن منافع النباتات الطبية وأسمائها، وقل له ماذا رأيت في سياحتك في صحاري مصر، وماذا حدثت به العرب الجبليين الذين نعدُّهم في عُرفِنَا متوحشين؟ يُجِبْكَ أنه وجد القوم على جانب من الذكاء وحدّة الذهن،

وعلم بالعقاقير الطبية النباتية، وأسماء النباتات العربية، كما وردت في كتب ابن البيطار وغيره من النظار وعلماء الطب. فماذا تعلمنا؟ أليس من المخجل المعيب أن يتمشى الإنسان مع ابنه الصغير في حقل أو بستان، فيتلعثم لسانه[1] إذا سأله هذا الغلام عن اسم نبات ومنفعته فيقول: يا بنيّ ما المسئول عنها بأعلم من السائل، فواخجلتاه أمام الأطفال! واسوأتاه أمام الأمم جمعاء! أضحت الأعرابية في بيت تخفق الأرواح فيه أعلم منا بالمنافع الطبية، وأصبحنا أجهل الأمم فيما لا يجوز الجهل به. أينبغ طفل ينشأ في أمّة هذا مبلغ علمها؟ ويا ليت شعري كم من غادٍ في أوربا ورائح يشاهد بعينيه ويسمع بأذنيه شغف القوم وولوعهم بما يشاهد في المزارع والحقول. ثم لم ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، ليس ذلك من شأن الطبيب وحده وإنما هو ملحق بقانون الصحة، وهو عام من ضروريات الحياة، وليس للأطباء إلا ما اعْتَاص على العامة تَلاَفِيه من داءٍ عُضَال أو مرض كبار، وهو مع ذلك حياة الروح وسعادة الحياة.

قال العَلاَّمَة هكسلي إذ قام خطيبًا في جمعية العمال في جنوب لندره: الدنيا كَرُقْعَة الشِّطْرَنْج، وما عليها من المواد كَقِطَعِه، والنواميس والطّبائع والحكم المودَعة فيها هي قوانين اللاعبين، ونحن اللاعبون، وخَصْمُنا في اللعب غريب عن الأرض مغيب عنا لا تراه العيون تعرفه العقول، علمنا أنه حكيم في فعله حاذق في عمله، يعطي الحاذق منا في اللعب ويقصي الجاهل، وليس يغفل لحظة عن أولئك

(١) يتلعثم لسانه: يضطرب في الكلام. (م).

اللاعبين، فالويل ثم الويل للجاهلين، وطُوبَى[١] ثم طوبى للبارعين النابهين. هذه حال الأرض، وهذه أحوالنا مع العقاقير.

إني أسائلك أيها القارئ لَفْتَةً لكتب أطفال الأجانب، تأمّل فيها. ألست تجد القول فيها موجَّهًا للشبيبة ليريهم ما شاهدوه في حقولهم، ويمكن لهم صفات رأوها بأعينهم؟ أليس من ألزم ما يجب أن يتعلم الأصاغر فضلاً عن الأكابر ما أحاط بالناس من المزارع والثمرات ومعرفة أسمائها؟ كم من نبات مات اسمه؟ وكم من شجر وثمر عرف العامة والسوقة اسمه وبعض خواصِّه؟ ولكن المتعلم لا يصغي لأقوالهم لاختلاط صادقها بكاذبها، فاشْتَبَه جَيِّدُها برديئها، فمُسح من لوح فؤاده، وزيح من سويداء صحيفة قلبه كل ما سمعه من عامة القوم، وأخذ يقرأ في الكتب وقَلَّما عثر على اسم نبات في ديارنا، وإن قرأه فإنما يكون بلسان أعجمي. يا قوم يضيق صدري ولا ينطلق لساني، اللغة العربية مستعملة إلى وقتنا هذا بِرُمَّتِها بين الفلاحين. تيقظوا وانظروا ألفاظهم تروا محاوراتهم عربية إلا إعرابها. أحيوا ما أَمَتُّمُوه، وابحثوا عما كنزه لكم الآباء والأمّهات بالتوارث جيلاً بعد جيل. اللغة حياة الأمّة، فموتها موتها وحياتها حياتها.

موضوعنا الآن قراءة الكتاب الأخضر، وهو المزارع، فكان داعيًا حثيثًا إلى اللغة؛ إذ لا كتاب بلا عبارة، وما لم تكن لغة فلا قراءة، فنحن مضطرون لاتساع دائرة النظر الأولى في العالم المشاهد أمامنا، وللعبارة عن ذلك باللغة، فإذ لم يكن

(١) طوبى: غبطة وسعادة. (م).

نظر ولا لغة، فبَشِّر القوم بألاّ رجال ولا نابغين. ثم إن ذلك أمر يسير على الحكومة غير عسير. ألا فلتتخذ لها محلاً تزرع فيه النباتات مرتبة في أماكنها كما رتبت في فصائلها، مكتوب على كلٍّ نبات ورقة فيها أوصافه العامة ومنافعه الطبية. ثم يُؤلَّف كتاب واضح العبارة يفهمه الناس عامة وتبيح الدخول للعموم، وتجعل يومًا لتلاميذ المدارس بساعات معينة. أَوَليس نبذ هذا غفلة من اللاهين وتغافلاً من التاركين؟ وليستعن في مثل هذا بالعارفين، فهكذا فلتكن حديقة الحيوانات، وإنه ليسهل ترتيبها على سنن فصائلها والنباتات على أسلوب ترتيبها.

يا قوم، كم من داخل حديقة النبات وجنينة الحيوانات، وهو لا يدرس إلا خضرة وماء ووجهًا حسنًا، وما زاد على ذلك مما امتاز به العلماء، فهو عنه من الغافلين. أَمِثْلُ هؤلاء ينبغون؟

هذا النظر تدريب للناشئين على تمييز الجمال، ودقة المحاسن، وحسن الاختيار، واتساع لدائرة المعلومات، وتشويق للعلوم، وجلاء للنظر، تفتح للأطباء باب الحكمة، وللمهندسين طرق العلم، وللفلاحين حب الزرع، وللعلماء باب الإنشاء.

تلك سطور يقرؤها ذوو البصائر، فيفضلون معانيها على رواية فيكتور هوجو، وأشعار المتنبي، وفلسفة أرسطاطاليس.

هذه هي الحكمة الأصلية بل أصل الحكم، وما الكتب السود إلا حُثَالة[١] الكتب الخضر، وُضعت لضِعَاف البصائر لعلها تحيي نفوسهم، فتذكرهم ما يوحى إليهم في الحقول والبساتين من كتاب أبدعته يد العناية، فكانت الأشجار كلمات، والزروع حروفها، والأزهار نقطًا، والأثمار شكلاً، فتوحي إلى الناظرين ما توحي من حكم بالغة وآيات ناطقة.

حدائق الحيوانات والنبات كتب مسطورة، وآيات منظورة، وعلوم مصفوفة، وحكم مبثوثة، ولقد عجبت عند زيارتها، وألمت لمشاهدتها؛ إذ لم أر إلا تشييد مبانيها، وتزويق قصورها، وتنميق نقوشها.

أما ترتيب وضع الحيوانات كترتيب فصائلها، وتنظيم أوضاع النبات كترتيب أنواعها فليس له فيها أثر، فقلت: إذًا لا يستفيد طالب العلم من هذه إلا استفادة الجاهل من حقله، ولقد قرأت ما كُتب عليها فلم أر إلا أسماء إفرنجية، وأعلامًا أمريكية فبكيت على العلم وأهله، والشرق وساكنيه، وقلت: إذا لم تكن هذه الحدائق صُحُفًا مطهّرة، فيها كتب قَيِّمَة، رتبت أوضاعها، ونظمت صفوفها، نجعة الواردين وهداية القارئين فما نَفْعُها إذًا للطالبين؟ بَكَيْتُ على العلم وضياعه، وقلت هذا البشنين كان يعبده قدماء المصريين، لحِكَم فيه مُودَعَة طبية ورائحة ذكية، هل عُرِفَت اليوم إلا في ثنايا كتب، وهذا الصفصاف قشوره تنوب عن

(١) حثالة: رديء كل شيء، وما لا خير فيه. (م).

الكيناء في خواصها، وهذا الكبر والسريس ذو منافع طبية للمعدة وقوّتها أفضل من كلٍّ ما حَوَتْه المخازن المشحونة أدوية غريبة عن بلادنا، وعليه أقترح ثلاثة أمور:

(١) تنظيم حدائق الحيوانات والنباتات تنظيمًا علميًّا مع الاستعانة بعلمائها الخاصين بها لينظموها على مقتضى العلم، وتكتب خواص كل نبات وحيوان على لوحة بجانبه، وتذكر صلته بما قبله وما بعده في الوضع بألفاظ عربية صحيحة.

(٢) توجيه أنظار منشئي الكليات والمدارس الأهلية إلى هذا الأمر، حتى يروا التلاميذ في كل أسبوع ساعة هذه المناظر بطريق علمي، وأن ينشئوا أمكنة لذلك الغرض، على المُوسع قَدَرُه، وعلى المُقْترِ قَدَرُه.

(٣) النظر في ألفاظ العامة في سائر أنحاء القُطْر المصري، ووضعها في قواميس، ونشرها بين المتعلمين ليعلم القوم أن أكثر ما في القواميس العربية علمه آباؤهم، فلا يستنكفون[1] أن يكتبوه ويقرءوه بعد تمحيصه، وهذا علمته بنفسي، ثم نبذ الدخيل في الألفاظ، ولعمري إنه لقليل، ومعظم ألفاظ الأمة المصرية، أو ٩٥ في المائة عربية فصيحة يسجد لها صاحب الصِّحَاح.

(١) يستنكفون: يستكبرون. (م).

الفصل السادس
الوطن والدين

يتحدّث الناس اليوم في الوطن والدين، واستبدال الأوّل بالثاني حديثًا نقل عن (الاجبت). ونرى للقوم حُكْمًا عليهما منظورًا فيه لبعض الوجوه، وذلك سرى لأوربا وللشرق مما أذاعته فرنسا في أقطار المعمورة: بألا دين لها، وأن الشرف كل الشرف في حلّ ربقته والتفصّي عن دعوته[1].

الحكم عليهما يستدعي تمحيص معنييهما حتى يَتَّضِحَا، ثم نحكم حكمًا ثابتًا، إذ الحكم على المجهول دَأْبُ العامة، فنقول:

الوطن (بكسر الطاء وسكونها في اللغة): منزل الإقامة ومربط الغنم، وجمعه مواطن، ويقال: وطن الرجل به يطن وأوطن به وأوطنه ووطنه واستوطنه: أي اتخذه موطنًا، هذا ما يقوله علماء اللغة العربية.

والقارئ اللبيب يعلم أن الذين يستبدلون الوطن بالدين، ويمجدونه لم يريدوا المعنى اللغوي، وإن أردنا ما في الوطن من منازل ومساكن ومناظر وأودية

---

(١) التفصّي عن دعوته: التخلص منها. (م).

وحقول، فليس في ذلك ما تخرّ له الأعناق سُجَّدًا، وتخشع له القلوب، وتعنو[١] له الوجوه، وهذا الشاعر يقول:

فَإِنَّكَ وَاجِدٌ أَرْضًا بِأَرْضٍ وَنَفْسُكَ لَمْ تَجِدْ نَفْسًا سِوَاهَا

ويقول الآخر:

وإذا رَأَيْتَ الرِّزْقَ عَزَّ ببَلْدَةٍ وخَشِيتَ فيها أن يَضِيقَ المَطْلَبُ
فارحلْ فأرضُ اللهِ واسعةُ الفضا طولاً وعرضًا شرقُها والمغربُ

فلن يطأطئ النوع الإنساني رأسه ويتنزل من سماء عظمته فيمجد حجارة أو حديدًا أو طينًا أو مَدَرًا[٢]. لا، ولئن ذكرها إنما ينصبها رموزًا لذوي نفوس عزيزة عنده، وإنّ لهم من الصفات والجمال والعلم والحكمة والشجاعة ما هو حقيق بتقليدهم وحفظ آثارهم، وصنع صورهم، والسير على مِنْوَالِهِم[٣]، ومزج حبهم بشعوره ووجدانه أينما حلّ أو ارتحل حتى يصبح نسخة جديدة لكتاب نفس ذاهبة من نفوس آبائه الذين تربى في حجرهم، ونشأ في ديارهم، واستمطر بسمائهم، وشرب من أنهارهم، ودرج في طرقهم، ألا إن الوطنية هذا المعنى لا سواه، وهو الذي يعنيه أولئك القائلون من الفرنسيين وغيرهم. فهو على التجوّز من إطلاق اسم المحلّ على مَن حَلُّوا فيه.

---

(١) تعنو له: تخضع له. (م).
(٢) المَدَر: قطع الطين اليابس. (م).
(٣) مِنْوَالِهم: نسقهم. (م).

أما الديانات: فإنها إذ تنزلت على قلوب بعض العباد رأت أن كلَّ طائفة من الناس أوطنت مكانًا عظمت جدودها، وقدّست آثارها، وأضحوا نسخًا جديدة لنفوس آبائهم بالتقليد والأعمال بين الإعظام والإجلال، فتقاطعت الأمم بالتعصب الأعمى، ورأوا أن كل فريق يحتقر الآخر؛ إذ يرى الناس كلهم عبيد قومه، وخدم عشيرته التي يعرف من صفاتها أكملها، ومن مزاياها أشرفها، وهو محجوب عن مزايا من عداها، فدعت الديانات الناس إلى حصر صفات الجمال والعزّة والكمال والشجاعة والقوة والكبرياء والفضيلة والرحمة والانتقام والعلم.

وبالجملة، كل صفة لها على القلوب سَطْوَة، وفي النفوس هَيْبَة في واحد خارج عن المادّة حتى يرجع الناس عن هذه السفاسف والصور والتماثيل إلى واحد خارج عن المادّة، مقدّس عن الصور، ولئن كان في بعض الديانات صور أنها رمز له، وعنوان عليه، وتلميح لصفاته، وإيقاظ لجماله ليغضّ الناس النظر عن تلك الميزة التي اتخذوها، ويرجعوا عن عبادة الآباء إلى عبادة من يرجعون إليه بعد الموت. يتعالى عن هذه المادة، ويتقدّس عن الصور، وإنما هي له رموز، لا للأرواح الغابرة.

ثم أخذت الديانات تعلم الناس محاسن الأخلاق والآداب، فللعامة بإخافتهم من النار وترغيبهم في الجنة. وللخاصة بتشويقهم إلى جمال ذلك الذي فوق المادة، وملء قلوبهم بحبّه بإحضار صفاته الكمالية فيه، ودرس هذا العالم درسًا مدققًا حتى يتسنى له معرفة كثير من شمائله، وكلما زاد علمًا زاد حبًّا،

وأصبح الناس كلهم إخوانه لا عبيده وعبيد آبائه. هذا مجمل ما عليه الديانات بحسب أصل وضعها، ولست في مقام تعداد محاسن الإسلام ولا غيره من الأديان، وليس لنا همّ الآن بما يفعله بعض من قاموا بما ينافي هذا الأصل في كل دين؛ إذ غرضنا معنى الوطن والدين.

فلنبحث الآن عن حالنا نحن المصريين ووطنيتنا وديننا.

يريد قوم أن نستبدل الوطنية بالدين، فنقول: إن الوطنية ثلاثة أنواع: وطنية ممزوجة بالدين، وأخرى ممزوجة باللغة، وأخرى ممزوجة بالعلم. فالأولى: هي الوطنية الصينية واليابانية والمصرية القديمة، وهكذا وطنية الفاطمية في القرن الرابع والخامس والسادس، التي لا تزال آثارها مأثورة في أناشيد الصوفية وأعلامهم، وبرازخهم وحفلاتهم وشمائلهم وحِلَق ذِكْرِهم، وهي جميعها من آثار الفاطميين وطرق استعمارهم وفتوحهم، ولقد أشبهت وطنية اليابان. ألم تر إلى قائدهم في حرب الرّوس، إذ أرسل إلى الميكادو، يقول: «حَيًّا الله الملك إن جندنا هم الغالبون، وإن أعداءنا هم المهزومون، وإن أرواح آبائنا لهم لناصرون». ولأذكر القارئ بمعنى الوطنية، وهي ذكرى أرواح الآباء، وهي بعينها نداء الناس لأرواح من في القبور للاستغاثة والاستعانة.

ولعمري إن هذه المظاهر تحدث في النفوس حَدْسًا وتخمينًا، إن ديانات الأمم القديمة كانت واحدة، فهذه اليابان والصين وقدماء المصريين يُمَجِّدُون الآباء تمجيدًا دينيًّا، ولهم اتصال بالشمس.

ففرعون معناه: ابن الشمس، واليابان: أبناء الشمس، وأهل أمريكا الأصليون: كانوا يعبدونها ويسجدون لها، وأهل سبأ: كانوا يعبدون الشمس والكواكب، وهكذا. فليعلم أن للفاطميين أسرارًا سُرقت من ديانات البراهمة والبوذيين عبادتها بالسر والتوجه القلبي، ومزجها بأرواح الآباء والأجداد. والثانية: الوطنية العربية للجاهليين قبل الإسلام. والثالثة: وطنية أوربا، وخصوصًا فرنسا.

أما وطنية العرب: فهم كما قال (سديو) كانوا يجتمعون في سوق عُكَاظ والمَجَنَّة وذي المجاز (ثلاثة أسواق قرب مكة وعرفات)؛ للمفاخرة بالشعر في محافل خالية من التحكم على النفوس، يقوم أمامها شجاع يمشي مشية المتكبرين، والأبصار له خاشعة حتى يقف على مرتفع من الأرض، فينشد وهم منصتون قصيدةً ترفع قبيلته إلى حين، وكان البيت الواحد ربما رفع قبيلة وخفض أخرى كما في حكاية لبني أنف الناقة وبني نُمَيْر، وهذا الأعشى بكلمات قالها في المحلق العربيّ: الصعلوق في القفر زُوِّجَت بناته كلهن بعد بضعة أيام بأبناء الأشراف، وذلك بقوله:

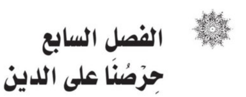
لَعَمْرِي لَقَدْ لاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ ... إلى ضوءِ نـارٍ في يَـفَـاع[1] تحـرّقُ
تشبّ لمقرورين[2] يصْطَلِيانها[3] ... وباتَ على النار الندى والمحلّقُ

(١) يَفَاع: ما ارتفع من الأرض والجبال والرمل وغيرها. (م).
(٢) مَقْرورين: شاعرين بالبرد. (م).
(٣) يصطليانها: يستدفئان بها. (م).

فكانت تلك الأسواق، والمفاخرة، والشعر، وذكر الآباء والأجداد، والأحساب والأنساب، والكرم، تخليدًا لتاريخهم، وجمعًا للغاتهم التي تفرّقت، حتى لم تكد تفهم قبيلة لغة أخرى، ثم أي قصيدة أعجبتهم كتبوها بالذهب على نفيس الستور، ثم علقوها على الكعبة ليطّلع الأبناء على آثار الآباء، كمعلّقة امرئ القيس والحرث بن حِلِّزَة، وعنترة، وطَرَفَة، وعمرو بن كلثوم المتوفى سنة ٦٢٢م وهي سنة الهجرة فاستبدل الإسلام تلك الأسواق والمفاخرة بالحج، ونزل في القرآن: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة/ ٢٠٠]، فهذه هي الوطنية الممزوجة باللغة.

أما وطنية أوربا وفرنسا خاصة، فهي وإن كانت مُزجت باللغة، فقد دخلتها العلوم والاختراعات والاكتشافات مع الشجاعة والإقدام والحروب، فسميناها ذات العلوم.

وهنا وقف اليراع خوف الإطالة وسآمة القارئ، وقد أرجأنا الفصل في الحكم إلى غد، وهو قريب.



الفصل السابع
حِرْصُنَا على الدين

ذكرنا الدين والوطن وتعريفهما، وقلنا إن الوطنية ثلاثة أنواع: الممزوجة بالدين، والممزوجة باللغة، والممزوجة بالعلوم، وهذه هي أقسام الوطنية فيما وصل لهذا الجيل: من علوم الأوائل والأواخر، ونحن الآن في مقام الاختيار، فأيّ هذه نتخذ؟

الوطنية الأولى: منبوذةٌ لمزجها بالدين، وهو الذي نَفرُّ منه فرارنا من الأسد. والثانية: وهي وطنية اللغة. فلا ندري أي الآباء نتخذ، وبأي اللغات نتكلم؟ فهل نتخذ قدماء المصريين آباء، ونتناسخ أرواحهم، ونُعَبِّر بلغتهم، وهم الذين درست معالمهم، وجهلت لغتهم، أم آباء بعض الفرنساويين المقيمين بين ظهرانَيْنا، أم الإنكليز، أم الألمان، أم الترك؟ وما نسبة سكان هذه الأمم جمعاء في ديارنا ببالغة عدّ أصابع اليدين من الألف. وأبناء المصريين القدماء صاروا من العرب أخلاقًا، وآدابًا، ولغة وآراء، وعقولاً.

وإن اصطلحنا على أسلافنا العرب، فبأيّ لغة يكون؟ لا ريب أنها العربية، فمن لنا بأسواق عكاظ، وذي المجاز، ومجنة، وامرئ القيس، وعنترة، والمعارض العلمية، والمؤتمرات كما كان العرب يفعلون؟ وأين تلك التماثيل الجميلة، والصور البديعة التي تقام كما تفعل فرنسا حتى تتمثل بها أخلاقهم؟ وإبراهيم باشا ولازوغلي غير كافِيَيْن. وديلسبس ليس له حفلات تقام في (بورت سعيد). ولئن أقيمت فللفرنسيين.

ولئن سَلّمْنَا أننا سَنُتِمّ ذلك كله في ربع قرن، ونعاهد الدول جمعاء على أن ينسلخ من دينه ووطنه ومفاخر آبائه كُلٌّ من دخل ديارنا، ويتكلم بلغتنا على شريطة ألا دين لنا، ونكسح الإسلام إلى العجم والهند والمغول، فسترى في سنة ١٩٣٠ الفرنسي المصري يفخر بقول عنترة:

لِيَ النُّفُوسُ وللطَّيْرِ اللُّحُومُ وللـ ... ـوَحْشِ العِظَامُ وللخيَّالة السلَبُ

فيقف الإنكليزي المصري مفتخرًا معجبًا بقول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومنزلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[1]

فيقوم الألماني المصري وينشد مفتخرًا بقول حاتم الطائي:

أمــاوِيُّ إنَّ المــالَ غــادٍ ورَائِــحُ ... ويَبْقَى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

---

(١) الدَّخُول، وحَوْمَل: موضعان شرقي اليمامة زمن الشاعر الجاهلي امرئ القيس. (م).

فيقوم الإيطالي المصري مفتخرًا بالنابغة الذُّبياني إذ يقول:

المَـرْءُ يَـأْمُـلُ أن يعيـ ـشَ وطُـولُ عَيْشٍ ما يَضُرُّهْ
تَـفْـنَـى بَـشَـاشَـتُـهُ ويَـبْـ ـقى بَـعْـدَ حُـلـوِ العَيشِ مُـرُّه
كَـمْ شـامِـتٍ بـيَ إنْ هَـلَـكْـ ـتُ وقـائـلٍ للهِ دَرُّه

فيقف المجري المصري يقول مفتخرًا بقول الأضبط بن قُرَيْع السعدي:

واقْـنَـعْ مِـنَ العَيْشِ ما أَتَـاكَ بِهِ مَـنْ قَـرَّ عَـيْـنًـا بعَيْشِهِ نَفَعَهْ
قـد يـجـمـعُ المـالَ غَـير آكِـلِـهِ ويـأكـلُ المـالَ غَـيْرُ مَـنْ جَمَعَهْ
ولا تُـهـينَ الـفـقـيرَ عَـلَّـكَ أن تَـرْكَـعَ يَـوْمًـا والـدَّهْـرُ قَـدْ رَفَعَهْ

ولئن سلّمنا أن ذلك كله كائن، وأن الديانات قد مُحيت من ديارنا ووطنيات القوم ومفاخرهم وشعر شعرائهم، وحكمة حكمائهم مُحِيَتْ من ألواح ضمائرهم وحلّت محلها الصبغة العربية في سنة ١٩٣٠، فهل نعجل بنبذ الإسلام من الآن؟ أوليس هذا الجيل يأخذ في الدمار والانقراض والأخلاق الفاسدة في تلك المدّة.

يا قوم: إن أوربا إلى اليوم تعدّ شعوبها بالآداب، وذكر الأوطان؛ لتملأ الأفئدة جمالاً وحكمة، ولم تصل بعد إلى درجة الاستغناء عن الدين، فهذه إنكلترا وألمانيا والروسيا لا تزال تعدّ نفسها قاصرة عن الكمال تحت حياطة الدين.

ولئن رفعنا نفوسنا، واستكبرنا عن الإنكليز الذين هم تحت وصاية الدين وقلنا إننا أسمى منهم نظرًا وأحدّ فكرًا، وساوينا الفرنساويين، فهل وقف القوم

عند هذا الحد؟ أليس فيهم جمعيات تبحث الآن عن دين لهم: إما النصرانية كما يقول الشيؤسوفيون منهم، أو العقلية كما يقول الفلاسفة، وعميدهم في ذلك رئيس الجمهورية الحالي لعلمه بأنها ستنقرض إذا لم تعمد بدين.

ولئن سلمنا أن فرنسا غلبت حكماءها ومسحت الأديان، أفليست الصور والتماثيل المعشوقة لنفوس أبنائهم المذكورة في أناشيدهم المقامة لها الحفلات هي عبادة من أنواع العبادات.

ولئن سارت قرنًا أو قرنين لتصبحنّ تلك الصور معبودات أشدّ من الآن. ولا يستغربنّ القارئ قولي عبادة، فلا يعتبر أرباب الأديان العبادة الظاهرة إلا متى توجه القلب إلى صفات المعبود، وهو الله، والسير على أخلاقه، وما سرّ عبادة الإسلام إلا عشق الإله وحبه والعمل بأخلاقه التي فوق صفات البشر، فرجع الأمر الآن إلى أن الوطنية على أي شكل: استبدال العبادة بعبادة، ونسخ دين بدين، ولذلك ترى كثيرًا من الأمم اختلط عليها الأمر فقالت بوحدة الوجود ولم تفرق بين المخلوق وخالقه لاشتباه الصفات التي يلقنونها، فما أضعف البشر، فكلهم خاضعون ساجدون عابدون إن لم يكن لإله مقدّس عن المادة فللوثنية، ولن ينفك بشر عن عبادة إما ربّ، وإما وَثَن.

فإذا تركنا الإسلام نَصَبْنَا الأوثان فصبرًا حتى ننصبها، ثم نتركه، وإلا أصبحنا كالغراب قلد الحجلة فأصبح أعرج ممقوتًا.

فيا أمة ضحكت من جهلها الأمم، لا تتبعوا كلَّ ناعق[١]، ها هو الكاتب الياباني يقول عند الكلام على مؤتمر اليابان: «إن اليابان مسكينة فقيرة، لِمَ لَمْ تتهذب؟ فحق لنا أن نختار دينًا». ثم جامل فرنسا، فقال: «وإن فرنسا حازت الأدب وتهذبت فاستغنت عن الدين، فهل نحن أرقى من الجميع (استَنَّتِ الفِصال حتى القَرْعَى)[٢]، أم ندع الدين للآباء والعجائز، فتمتلئ الأدمغة بالخرافات والتعصب الأعمى؟ أوليس الأجدر بنا أن نقرأ الدين على وجهه حتى يتحابّ الناس، أم تريدون خلع الدين مجاملة للأجانب، وهم لا يزالون تحت وصايته؟ أم تقولون الإسلام دين تعصب فلماذا لا تُعِيرونَه التفاتةً حتى تخلصوه إن كان ذلك؟ ألا يعلمون أن الأمة التي لا دين لها ولا آداب تصبح خائنة، وتنتزع الثقة من بين أفرادها. أنتشبه بفرنسا ونحن ليس فينا عشرة في المائة يكتبون ويقرءون، وليس عندهم اثنان في المائة مجرّدين من الكتابة؟

فاتَّقُوا الله في أُمَّتِكم المسكينة الضعيفة، واعلموا أن ذلك ضحكٌ على العقول وجهل بأحوال العمران، وخَوَرٌ[٣] في السياسة، وضلال في الفكر، ألا إن عاقبة الأمر أن نصبح ولا دين لنا ويتمسك القوم بلغاتهم، وأديانهم، ووطنياتهم، وأخلاقهم، ويترفعون عليكم في دياركم، ووطنكم في نظرهم أحقر من أن ينتسبوا

---

(١) ناعق: صائح، أو متحدِّث. (م).
(٢) استنَّت الفِصَال حتى القَرْعى: يضرب مثلاً لمن تعدى طوره وادعى ما ليس له. (م).
(٣) خَوَر: ضعف. (م).

إليه، وأنتم أنتم، وهُمْ هُمْ، وكلٌّ حزب بما لديهم فرحون، فأنتم تخلعون لباسكم وهم يلبسون، وأنتم تكفرون وهم يؤمنون.

فاعتبروا يا قوم، فلن ينسلخ الإنجليزي والأوربي عن وطنيته، ولو أشركنا ألف شرك، وحُرِمْنَا مكة، وكفرنا بالأنبياء أجمعين.



الفصل الثامن
مخاطبة الحكمة للإنسان: في الوطنية والدين

هذا مقال يوضح أحوال الإنسان وتديّنه ووثنيّته، جعلناه على لسان الحكمة تقول: أيها الإنسان، خُلقت فسُوّيت في أحسن تقويم، ثم اجتمعت جماعات يسكنون أماكن منفصلة من الأرض، وكلٌّ بهدل (أسرع) في حبّ وطنه، وعشق غدرانه، ومسالكه، وطرقه، وموارده فتَغَزَّل بالأطلال والديار، بل تغالى فذكر الوحوش والوعر، والشبح مما يدبّ أو ينبت فيها، وهذا مذكور في أشعارك، مأثور في أخبارك ثم رفعتك عن هذه الطبقة إلى ما هو أرقّ وأجمل، وهو تقليد الآباء والتمثل بأخلاقهم وعلومهم وآثارهم، فنصبت لهم الأصنام والصور والتماثيل، أو لا يذكر الإنسان أنه إذا رقّت طباعه، وجملت أخلاقه، وتعالى عن المادة والأحجار، رفع رأسه فارتقى إلى كامل الصفات والجمال في أشرف نوع وهم آباؤه، فرمز لها بصور تمثلها حتى كان لليونان آلهة كثيرة كآلهة الجمال، وإله البحر، وإله البرّ والحبّ والحسد، وما ذلك إلا ما وَرِثُوه عن الآباء في الأعصر الغابرة.

تذكروا مزاياهم، فمثلوهم، فنسوا حظًّا مما ذكروا به فعبدوهم، وهكذا للعرب وُدّ وسُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، والصفا والمروة وغيرهم، وهم كانوا أقوامًا صالحين

فاتخذوا لهم الأَنْصَاب[١] تَزَلُّفًا[٢] إليهم، وهذه أرقى ما وصلت إليه أيها الإنسان. ثم قالت الحكمة: وكم لك من آلهة عبدتهم جيلاً بعد جيل، وأرقاهم أولئك المذكورون تبعًا لرقيك عن المادة وتَجَرُّدِك من الرذائل، ألم تر كيف عبدت النجم والشمس والقمر والملائكة، ثم رمزت لهم بالأصنام وبنيت الهياكل السبعة للكواكب السبعة السيارة التي ظهر اليوم أنها تقرب من خمسمائة اكتشفت في هذا العصر، ثم تنزلت بعبادة الأصنام النائبة عن الملائكة والكواكب؟ فقل لي أيها الإنسان: ألست بعد ذلك رفعتك إلى الآباء، وآرائهم، وأرواحهم، فذكرتك بخلالهم، وصرت أقارن لك بين نوع الإنسان والملك؟ ولعلك قرأت المقارنة المذكورة في كتاب الشهرستاني بين الملك والإنسان، ومزاياهما، والمفاضلة بينهما، ولعلك تعرف أن الصابئين عبدوا الكواكب والملائكة، وزعموا أن الكوكب رمز للملك، وتنزل قوم فقالوا: الصنم رمز للكوكب، ألم أخرجك من هذا كله إلى تَمَثُّل آبائك وأجدادك وهم أقرب إليك من كوكب لا تفقهه، وملك لم تعرفه ولم تقرأ عنه شيئًا؟ وأنت مع هذا كله تتشامخ بآبائك وصُوَرِك وتماثيلك ووطنك، وتعدّ نفسك أرقى الناس مقامًا، وأسماهم منزلة وأرفعهم مكانة، فتارة تحشر أهل وطنك فترسل نارًا حامية على أمم ممن جاوروك، وآونة تأخذ العهد والميثاق على جيرانك، وتحاربون غيركم، وتسمى هذه (جمعية التناصر بالمعاهدة)، ولك جمعية أخرى تسمى (بالمصاهرة) يَتَصَاهر رؤساء القبائل وملوك الدول ويَتَّحِدُون،

(١) الأَنْصاب: جمع «نَصْب» وهو ما كان يُنصب ليُعبد من دون الله. (م).
(٢) تزلفًا: تقرُّبًا. (م).

ويقاتلون سواهم ظلمًا وعدوانًا، لاعتقادهم ألاّ حشر ولا حساب، وقد تحاربون قومًا فتتخذونهم عبيدًا أو تقاتلون بهم سواكم، وهذه جمعية (الاستعباد)، وآونة تَتَّحدون باللغة، وتقاتلون من لا يتكلمون بلغتكم، وهذه تسمى جمعية (اللغة)، وطورًا تتعاضدون لأنكم أبناء رجل واحد، فلما رأيت ظلمك تجاوز الحدّ فأصبح الناس فِرقًا يلعن بعضهم بعضًا، دعوت ربي أن يهديك صراطًا سويًّا، فأنزل لك الرسالة والوحي على قلوب خواصّ من عباده فجاءوك وقالوا: إن المعبود فوق الأصنام والكواكب والآباء، وكل هؤلاء مَرْبُوبُون[١] مقهورون، أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعملون، فتعارف إذ ذاك أبناء الأمم المتقاطعة وتعاونوا وتحاربوا، ثم جاء رسل متناسقون، وأنبياء متتابعون فاختلف الناس فرجعوا إلى التقاطع والتدابر، واهتدوا بهديهم، ووصلوا إخوانهم، وآمنوا بربهم، وتدبروا ما أوحي إليهم، وكانوا إخوانًا على سرر متقابلين، فحسنت أخلاقهم، وعظمت أعمالهم، ثم أعرضوا واستكبروا استكبارًا فصاروا أحزابًا وتميّزوا طرائق، وتدابروا حزائق[٢]، وأُلبسوا شيعًا، وذاق بعضهم بأس بعض فأشبه يومهم أمسهم، فهم في دياناتهم متفرّقون تفرّقهم في أوطانهم، ثم رأيتك أيها الإنسان بعد ذلك رأيت أن ترتدّ إلى الوطنية فها أنا شرحتها لك.

واعلم أنك مسكين جهول مقهور، لابد لك من دليل تقلده، وهادٍ يهديك، إن لم تجد لك مثالاً تحذو حذوه فلا حياة لك ولا علم.

---

(١) مَرْبُوبُون: مملوكون. (م).
(٢) حزائق: جمع «حَزِيقة» وهي الجماعة من كل شيء. (م).

أراك تُهَيِّئ التماثيل والصور لترمز لك رمز الآباء والشجعان والشعراء، بتماثيل جميلة، وصور بديعة، سوف يعيدها بعد حين، على أنك تقف عند هذه التماثيل وتتذكر أوصاف أصحابها. أَمَا تعرف يا إنسان أن هذه هي العبادة بعينها، وكم من فتى يتمثل خيال الشاعر في يقظته تارة، وفي منامه أخرى، وليتدرّجنّ مع الأجيال كأنه من جبريل أو ميكائيل، وليعبدنه عبادة الجاهلين، ثم لتشكونّ من التدابر والتقاطع فترجع إلى الرسل كَرَّة أخرى، وهكذا لتعيش بين ذهاب وإياب، وأخذ وعطاء ما بين ربك والوثن، والغيب والشهادة، فبينما تهرب من مقدَّس عن المادة مسيطر على العالم، إذا أنت انتزعت من خيالك صورة حكمائك وشهدائك وشجعانك فتذكرتهم كأنك تراهم، ويا حسرة عليك، إنهم لا يرونك تتمثل هذه الصور، وتهندس شكلها وتروّق رقشها بما تراه مواتيًا لأخلاق المصوّرين — بفتح الراء — فتهيم بخيالك، وتَصْبُو بتمثالك، وتَذَرك الأيام لتُفْتَن بالأصنام، ثم تنسى أولئك الأرواح فتعبد الأشباح، أَوَلاَ تذكر يا إنسان بني الفرس، عبدوا الله ورمزوا لجماله بالنور، ولسطوته بالنار، فلطف وجدانهم بما اقتبسوا نارًا ونورًا من عبادة الصابئين العاشقين لجمال الكواكب، ثم جاء آخر حكمائهم فابتدع بدعة وقال: «لا إله، ولا حياة بعد الموت»، فأحاطت بهم خطيئتهم وذنوبهم فهَوَوْا إلى مكان سحيق، واضطرب الملك ففتح الإسلام ديارهم واستبدلوا الكفر بالإيمان، فانظر كيف كانوا متمدينين ثم كفروا فتدينوا، وعلى ذلك جرت دولة اليونان، وكانت لهم آلهة متعددة فخرق سقراط خَرْقًا في الدين؛ إذ أمرهم بالتوحيد فأردوه صريعًا، ثم اعتنقوا مذهبه بعد موته، فساروا شوطًا في الحكمة، ثم قام آخر حكمائهم فقال:

«لا فضيلة إلا في الدنيا، ولا آخرة للإنسان»، فسقط اليونان إلى حضيض المدنية ثم اعتنقوا دينًا بعد. إنك يا إنسان شأنك الخروج من دين فتتردى صريعًا فتدخل دينًا آخر، وقِسْ على هذا هذه الدول لئن عملت أعمال السالفين لتعلمن هذا النبأ بهم بعد حين، وفي كلّ حالة أنت عبد مربوب ذليل منقاد. يقولون: الإنسان حيوان ناطق، وأنا أقول حيوان عابد، لم تتركه العبادة لحظة من عمره، فإن كنت في شك فاجلس مع فرنسي وذم له نابليون فلسوف يناصبك العداء، ويثير عليك حربًا عَوَانًا[١]. الإنسان لابد له من تمثل ما هو كامل في معانيه، وذلك هو الله عند المتدينين وأرواح آباء كرام من صالحي العشيرة عند غيرهم.

ألا هل أدلك أيها الإنسان على الطريقة المثلى: أصلح دينك واقرأه نقيًّا من الشوائب، يتحابّ الناس ولا يتقاطعوا، ثم وقفت الحكمة وقالت:

حذّر المصريين من كلام الذين هم أرقى منهم مَدَنِيَّة وقل لهم: اعلموا أن الكلام في الديانات، والوطنيات، والتناصر، وجمعيتي الاستعباد والمصاهرة، وغيرها من جمعيات البشر، لها كلام آخر في علم الاجتماع. ألم تروا أن في العالم قومًا يريدون حلَّ كلِّ جمعية على ظهر الكرة الأرضية، ويجعلون الناس جميعًا إخوانًا وتَتَّحد القوى وتنحلّ العصبيات، وهذه قد شُكّلت لها نوادٍ في أوربا، ولقد قالها الذين من قبلهم من حكماء العرب وفلاسفة اليونان، ولم يتم ذلك إلى الآن، وهل يتم؟ وإذا تم فسيكون للأموال شأن آخر فتوزع الأعمال والأموال

(١) حرب عَوَان: هي التي قوتل فيها مرة بعد أخرى، وهي أشد الحروب. (م).

على الناس على حسب استعدادهم، ويكون للدنيا شكل غير هذا، وإذ ذاك لا ترى حربًا ولا ضربًا، ولا يتفاخر الفرنسي ولا الإنكليزي ولا الروسي بعظمتهم ولا كبريائهم، وإنما يقف أحدهم بجانب السوداني فيصافحه ويزوّجه ابنته، ومثل هذه المدنية كتبها الخيال على صفحات الأوهام بمداد المصورة وقلم المفكرة، والعقل ينظر إليها ضاحكًا مستغرقًا، وهو يقول: سيغترّ بمثل هذه التُّرَّهَات[١] ضعفاء العقول الذين يسمعون القول فيتَّبعون ظاهره ويجهلون باطنه فيسمعون قول أولئك الأقوام فيصدّقون ولا ينظرون تفانيهم في الحرص على الديانات أو الوطنيات، والمعاهدات، والمصاهرات مما يدل على المدنية الفاسقة، وهذه كانت تسمى المدنية الفاضلة عند اليونان وعلماء العرب، وهي الآن تسمى اشتراكية أو غيرها فلها في كل دولة اسم.

ثم قالت: ألا حَذِّر المصريين وقل لهم: إذا تحققت تلك الأماني وهُدمَت المعاقل والحصون، وكُسِرت المدافع والسيوف، ونُسي الديناميت والبارود، وتصافح الفرنسيون والألمانيون، وتحابّ الشرق والغرب، وقُسمت الأموال بالسَّوِيَّة، وصارت الأرض كلها جمعية أخوية وصرتم معهم إخوانًا وأخدانًا فافعلوا ما تؤمرون، وإلا فإياكم أن تكونوا ضحكة الأمم وألعوبة السياسيين الخادعين.

(١) التُّرَّهات: الأقوال التي لا طائل منها. (م).



الفصل التاسع
خطاب الحكمة للإنسان: في الدين والوطن

نصح الإنسان

أيها الإنسان إني لك ناصح أمين، أُشْفِق عليك من ليل الضلال إذا عسعس[1]، وأزجّ لك صبح الهداية يتنفس، تخلد إلى المادة فأنتشلك إلى المجردات والمعالي القدسيّة فأهديك إلى أن تحملق في الكواكب، والشموس، والأنوار، فتقتحف (تستأصل) قلبك غشاوات الجهل، وتستضيء ببوارق الحكمة، وكم هديتك إلى صفات الكمال في نفوس قضت، وعبر مضت، فأوعزت إليك أن صوّرْها في قوالب الجمال وزَوِّقْها بالبهاء، واجعلها تماثيل الحكمة ورموز العلوم فاتخذت التماثيل وعشقت صورها حتى تقودك إلى حكمها وما استتر تحت حجابها، فصغارك ببهائها دبقون (مغرمون) وكبارك لحكمها عاشقون، ولَكَمْ نسيت الذكرى وعكفت على الصور والتماثيل والكواكب فجاءك الرسل والحكماء وزحزحوك عن هذه الأباطيل. فقال إبراهيم للعبرانيين: أتتَّخذون أصنامًا آلهة أم تظنُّون الزهرة ربًّا أم القمر أم الشمس؟ أَمَّا أنا فوجهت وجهي

(١) عسعس: أظلم. (م).

لمبدعها ومصوّرها. جاءت الديانات لتجمع القلوب وتربط النفوس فأتبعتها هواك فأخذت تميل بها ذات اليمين وذات الشمال، وفرقت الناس فِرَقًا في الديانات والأوطان، فجاءك آخر الأديان فمسح الأصنام، وخفف حدّة الأوطان، واستصغر المادة، وجمع القلوب على فكر واحد واحد، وهو الرجوع إلى ذلك المقدّس عن المادة، وإذ علمت أنك سريع التقليد قريب التصوير والنقش حرمت عليك نَصبها ليبقى الدين مُسَاعِدًا للفطرة إلى يوم يبعثون.

خطاب أوربا في رقي الشرق

ومجاملته وأن الإسلام مسالم

ثم قالت الحكمة: أيها الإنسان، الدنيا أخذت شكلاً آخر من أشكال أفلاكها، ودارت دورة سريعة للترقي، فها هي ذي الأمم الشرقية جمعاء رفعت رؤوسها واشْرَأَبَّت[1] للعلوم، ولا مناص من تقدّمها وإسراعها الحثيث، وها هو الشرق الأقصى قام من سُباته العميق ينفض الغبار عن ثوبه المُتَلَبِّد آلافًا من السنين، ولقد رأيت أبناء الإسلام وسطًا بين الشرق الأقصى والغرب، وهو مُهَرْوِل للسبق في طريق الرقيّ، ولقد رأيتهم ذوي سماحة ورزانة وسكون ووقار، ونظرت في تعاليمهم فوجدت أمرًا عجبًا، وجدت أوّل كتاب في الأزهر يُقرأ لصغار

(١) اشْرَأَبَّت: مدَّت عنقها لتنظر. (م).

الطلبة، ويحفظونه عن ظهر قلب هو السنوسية، فتأمَّلت فيها لعلِّي آتيكم منها بخبر التعصب أو جَذْوَة من نار العداوة للأوربيين، فإذا فيها أن كُلَّ مسلم بالغ عاقل مأمور بالإيمان بجميع الأنبياء إجمالاً، وبالأنبياء الذين ذُكروا في القرآن تفصيلاً، وهم ٢٥؛ كإبراهيم وإسحق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل وموسى وعيسى، ويقولون: إن هناك أنبياء لا نعرفهم، ففكرت في هذا وقلت: هذه عقيدة القوم ومن حاد عنها كفر، وحكم عليه العلماء بدخول جهنم والتباعد عن الجنة. إن هؤلاء يريدون جمع القلوب واتحاد الكلمة، وكأن الشرائع السماوية المنزَّلة من قبلهم أنوار طالعة ترضاها شريعتهم وتألفها طريقتهم، وآية ذلك واضحة في كتبهم، فإني لما قرأت كتاب الإحياء رأيت ما نقله عن عيسى عليه السلام يبلغ أكثر مما في الأناجيل، وتراهم ولاسيما الصوفية منهم يحبون عيسى عليه السلام حُبًّا جَمًّا، ويعشقون حِكَمَه ويعملون بها، ويحلون رموز القرآن بحكمه، ويقولون باطن القرآن كشريعته من حيث تعلق العبد بربه. نظرت في سلوكهم مع المسيحيين أمرًا عجبًا، رأيت ذلك المُكَاتِب لبعض الجرائد الإنكليزية أقلع من إنكلترا ووصل مصر وخالط الزرّاعين في قرية بقرب الزقازيق، فرأى من الإكرام وحسن البشر واللقاء والكرم العربي والسماحة الإسلامية والفرح بلقائه وهو لا صولة بيده ولا حول ولا طَوْل[١]، رأى من ذلك ما جعله يثني على الأقوام ثناءً عطرًا، ويصف الحصر المفروشة والأغنام المذبوحة والخدم والحشم، ويقول إنهم في جهلهم أذكى وأكرم من نظرائهم أبناء التأميز مع تباعد ما بين المدنيتين. ثم قالت الحكمة: فأنا فخور

(١) طَوْل: قدرة. (م).

بهم فَرِحَة بآدابهم الناجمة من النفوس العربية والتعاليم الإسلامية، فهذه شهادة من ذلك المكاتب أيام أن حَمِيَ وَطِيسُ الشقاق في هذا العام في حادثة دنشواي المشئومة، فما بالك بهم أيام سلمهم؟

موقف أوربا بإزاء المسلمين

ثم قالت الحكمة: أنا أوصيكم يا بني أوربا أن تنتهزوا هذه فرصة، ولست أقول دعوا أديانكم واتبعوا الإسلام، ولكني أقول كلمة حق للوفاق والسلام في العالم. قدّمنا أن ساعة الرّقي آتية لا ريب فيها، وأن الأمم المنزوية عن العالم المكذبة بما لا تعلم عما قليل ستبيد، وسيصطدم الشرق والغرب في جهاد الحياة، فهذه نصيحتي إليكم، ساعدوا هؤلاء الأقوام بالإرشاد والإخلاص.

وليعلموا منكم ذلك، وامنعوا عنهم الضغط، وقولوا لهم: أحيوا هذه العقائد الكامنة في كتبكم ولا تكتفوا بحفظها عن ظهر قلب، فإنها أنوار تشع من قلوبكم إلى جيرانكم البوذيين والبراهمة والأوربيين والأمريكان، ولتكونوا أمّة وسطًا كما جاء في كتابكم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة/ ١٤٣]؛ أي عدولاً تصدّقون بالأنبياء، وتأخذون الحكمة أنَّى وجدتموها. ولتعلموا يا بني أوربا أن أي أمّة منكم ساعدت برجالها وجاهها على رقي هذا الجنس من البشر، فإنهم سيحفظون لها الجميل في الجيل المقبل يوم يقف أبناؤهم وأبناؤكم في صعيد واحد وتتساوى الرؤوس وتقسم العلوم بينهم بالسوية. هذه مصر فكونوا أوّل سابق

لإنعاشها وإنقاذها من وهدة الجهل. ثم قالت: يا بني أوربا، إن أغلب آسيا وأفريقيا سيكونون برزخًا حاجزًا بين الشرق الأقصى وأوربا متى علمتموهم وهذبتموهم وساعدتموهم على نشر تعاليمهم الحقيقية، وسيكونون كالأفغانستان بين الإنكليز والروس، وكالدولة العلية بين دول أوربا، والممالك الصغيرة المتخللة دول أوربا كبلجيكا وهولاندا وسويسره. ثم قالت: يا بني، نظرت بالمنظار المقرّب فاكتشفت هذه الحقائق من وراء حجاب، فلا تغرَّنكم ظواهر الأمور، ولا تخدعنكم زينة الظواهر والغلبة الوقتية، وأشفقوا على مستقبل الدنيا. ثم قالت مخاطبة بني الإسلام: انظروا في هذا الوجود كله واقرءوا سطور ما بهر من جماله، ولتعلموا أن نقوش السموات وإبداع الأرض فهقت (امتلأت) بالحكمة، ولئن اتخذ أقوام تماثيل عن جمال الأخلاق، فها هي ذي السماء وبروجها والأرض وفجَاجها[١] أمَارَات وحِكَم وعلوم ونِعَم، فلا تَدّعُوا علمًا إلا قرأتموه، ولا تَذَرُوا فنًّا إلا درستموه. واعلموا أن الخمول والضعف كانا حبالةً عتيقةً فوهنت، فاستمسكوا بعروة العلوم الوثقى، وقوموا للأمر قانتين، ولتعلموا أن الديانات (حبل يربط به) الأمم وزمامها.

أروني أمّة بقيت بعد ذهاب دينها، ولم تسقط في مهاوي شهواتها، والعلوم الكونية صلة نسب بينكم وبين جيرانكم، فحبكم للأنبياء وعلمكم بما يعلم الناس وشيجة نسب وصلة سبب.

(١) الفِجَاج: جمع «الفج» وهو الطريق الواسع بين جبلين. (م).

خطاب النوع الإنساني

يا إنسان، همومك متشعِّبة وغمومك محدقة، ولن تسلم يومًا ما من نكبة تُصْمِيك أو وَصْمَة تشينك أو ترديك، فإلى من تلجأ بقلبك إلا لبَخْع نفسك (للانتحار)؟ إن سقط جسمك فالأرض مأواه، ولئن أزعجت روحك فعلى من تعتمد حتى تخفف الأشجان؟ كم من رجل قُلبت أتراحه أفراحًا بالفكرة في ربه، أو تشكلت أفراحه أتراحًا إذ يرى سرعة التقلب، وذهاب الدنيا، ولا حياة إلا الخيال، ولا وجود إلا الوبال، وإلى ماذا توجه روحك عند هرمك ومرضك؟ ثم ودّعَت الحكمةُ السامعين وتَبَرْقَعَت[1] بالجمال واحتجبت بالجلال، فقام الجمع وودّعها وانصرفت والقلوب معها.

(١) تبرقعت: لبست البُرقُع، وهو ما تستر المرأة به وجهها. (م).

الفصل العاشر
عجائب الرِّشْوَة

ومِنْ عَجَبٍ أن يُدْلِيَ المَرْءُ بالرِّشَا إلى نَابِهٍ في الشَّرْقِ وَهْوَ ذَلِيلُ
وأَنْتَ تَرَاهَا في المَغَارِبِ أُسْدِيت إلى خاملٍ يُدلي بهنّ جليلُ

الرشوة: هي حُمَّى الربع، وداء المفاصل في جسوم الأمم جمعاء، لم يتجنبها المتوحشون، ولم يتخلص منها المتمدينون، ريح صَرْصَرٌ[1] عاتية، تقتلع الجذور وتذرّ الرماد في العيون. توقد نيران الشهوة في أفئدة المسلط الغشوم، وتُقِفه موقف السائل المحروم على أبواب الفقراء والمساكين ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة/ ٧]، لا يعي الحاكم العدل، ولا ينال المحكوم الحق، يُحشر بها الرّعَاة إلى صعيد الظالمين، ويُساق بها الرّعَايَا إلى هَاوِيَة الهالكين. الرشوة مَطِيَّة الدَّجَّالين في أحكامهم الماسخين لشرائعهم، أولئك نوّاب المسيخ الدَّجَّال في الأرض، شَبُّوا مع الإنسان في أطواره، وتقلّبوا معه في أدواره، ولبسوا لبسةً تَخَالفَ شكلها واتحد عملها ونتائجها، فتارة تراهم بهيئة خَزَنَةِ الجنان ومنقذي الأشرار من النيران، وآونة تراهم يَتَزَيَّوْنَ بزي المرشدين وما هم بمرشدين،

(١) ريح صَرْصَر: ريح شديدة الصوت والهبوب والبرد. (م).

إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل من الأنعام، وطَوْرًا تخالهم حُكَّامًا عادلين وبررة مُتَّقِين، وقد تنزلوا من سماء عظمتهم وجلال كبريائهم ومدوا أيديهم إلى أسافل القوم وأصاغر الصعاليك، فاستنزلوا بعد عز من مراتبهم، فأودعوا حُفَرًا من جهنم شهواتهم، فخسروا حرية الحاكمين، وباعوا جلال العادلين بثمن بخس دراهم معدودة وقد كانوا فيها طامعين.

المرتشي ذليل في طمعه أسير لجَشَعِه، يتناول اللُّقمة من الأرامل والأيتام، ويتقبل الهدية من أصاغر اللئام؛ فيصبح لهم ذليلاً مهينًا. المرتشي يتواضع لمن يجب الكبر عليه، ويستذل لمن يجب التعزز عليه، يبيت والهواجس تملأ قلبه رعبًا، ويصبح والطرق سدّت دونه مسالكها، فيرى رسوم الصور الإنسانية وهياكل أشخاص الرعية كأنها عليه عيون، وهو في وسطها لها غريم[1] محسور مُلِيم. أو لا يعلمون ما حكي عن سَرِيٍّ[2] من سراة العرب إذ شرّفه ملك من بني العباس، فأجلسه في مجلسه مكرمًا معظمًا، فأقبل رجل يشكوه إلى الملك يقول: «قد اغتصب ضيعتي وأجاع صبيتي»، فقال له الملك: «لتقف معه موقف المتقاضين بجانب غَرِيمك»، فقال ذلك السري: «أيها الملك ما كان لي أن أضيع مجلسًا شرفني به الملك بضيعة، فإن كانت له رددتها عليه، وإن كانت لنا فهي له هبة»، فحمد التاريخ سراه وعظم قدره وعلاه. أذلك خير أم من أُلْقِيَت إليه مقاليد الرياسة ومفاتيح السياسة؟ فاشترى الذلة بالعز، واستحب أرذل المواقف

(١) غريم: مَدِين. (م).
(٢) سريّ: سيد، شريف، سخي. (م).

على أشرف المناصب، فباع حياته الطيبة بشبع بطنه وجشع نفسه، فمَثَلُه كمثل الكلب إذا أجلسته مجلس الوزراء واصطفيته مع الشرفاء وألبسته التاج والوسام في مجالس الملوك الفخام، ثم لمح عرقًا مسلوتًا أو عظمًا مجرورًا، فلا وربك لا يلبث بعض ثانية، أو يُبَصْبص بِذَنَبِه، ويقفز برجليه، ويذر الشرف لذويه والعز لأهليه. وينقضُّ على الفريسة المنبوذة والعظمة المعروضة، ويلتقم لفاظات الطعام ولا يبالي بالأنام، لا يفرق بين الإنعام والانتقام، ولا بين الضَّعَة والإنعام، يتمثل بالكلاب مع الأذناب، ويتربص الوثوب على العُرْقوب[١] المثقوب، ذلك مثل المرتشين من الشرقيين.

شكل عجيب للرشوة في الشرق

كانت الزكاة طهارة للقلب، وصلة للرب في الأعصر الأولى للمسلمين، تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم تعطى للفقراء، والمساكين، والمؤلَّفَة قلوبهم، والمدينين الذين اجتاحتهم السنون، وخربتهم الديون، والمسافرين الذين لا مال لهم، فأمر الأغنياء بمواساة أولئك البائسين، ومواصلة الأرحام والأقارب تحببًا لهم وجبرًا لكسرهم وإعظامًا لحَقِّهم واقترابًا للأغنياء من الفقراء. بذلُ المالِ ظاهره رحمة الفقراء، وجبر الضعفاء، وباطنه تحرير النفس من رذيلة البخل وإثم الشحّ، والتملُّص من أسر المال والتنصُّل من ربقة استعباده حتى يسهل على النفس

(١) العُرْقوب: وَتَر أو عَصَب غليظ فوق عَقِب الإنسان أو الحيوان. (م).

ما ينتابها به الدهر من الجوائح[١]، وما يجتاحها من النوائب، فهي للفقير صدقة وإحسان، وإزاحة داء الحقد من قلبه والدَّغَل[٢] والنفل من ضميره على أخيه الغني، وهي للأغنياء راحة من حقد الحاقدين وحسد الحاسدين، وفك للقلوب من عقالها، وتخليصها من أقفاصها فلا تطير شعاعًا[٣] لمرزأة[٤] فاجعة ولا تبخع نفسها[٥] لمرزأة تصيبها، ذلك إنفاق المال وسر بذله وجمال وضعه مع ما يتبعه من ثناء وجلال ومدح وجمال، أليس من العجيب أن عُكِس الوضع وقُلِب الأمر، فأدلى الفقراء بأموالهم إلى الأغنياء والحكام لينصفوهم إذا حكموا ولا يظلموهم في مواقف المتقاضين فزادت الغني حرصًا والفقير ذلاً، وتباعد الطرفان، فلا سلام ولا أمان.

شكل الرشوة في الغرب

المرتشون في كل جيل حكامه، ولقد علمت الشرق وحكامه ونظامه وأحكامه، ولا أخالك إلا عالمًا بما في الغرب من حرية ودستور ونظام الجمهور، فترى الأمر معكوسًا إلى الأحسن والوضع مقلوبًا إلى الأجمل، وإنا وإيَّاهم في الشر إخوان، ولكن في الشر خيار، وبعض الشر أهون من بعض، فرشوتنا شر

(١) الجوائح: جمع «الجائحة»، وهي المصيبة. (م).
(٢) الدَّغَل: الحقد. (م).
(٣) تطير القلوب شعاعًا: تفرقت همومها. (م).
(٤) مرزأة: مصيبة. (م).
(٥) تَبْخَع نفسها: تقتلها غيظًا أو غَمًّا. (م).

من رشوتهم وفعلتنا أقبح من فعلتهم؛ ذلك أنهم رأوا أن الحاكم الأصلي هي الأمة، غنيها وفقيرها، أميرها وصعلوكها، فتنزَّل الأشراف إلى الأصاغر، والباعة والحمَّارين والجزارين والعطارين وما شاكل ذلك في مواسم الانتخاب، فترى ذلك الذي يسارع إلى أن ينتخب يتنزل من سماء عظمته وكبريائه وجلاله وقد اصطحب زوجته وأبناءه، وأقبل على أولئك الصعاليك فصافحهم ومدّ يده بالمال فواساهم ليكونوا له أصواتًا، ويضمُّوا أصواتهم لينال منصبه، فكان هذا شكلاً من أشكال الإحسان (مُكْرَهٌ أخاك لا بطل)، فهم على هذا مكرهون وهم في رشوتهم محسنون. عجب للمال وأشكاله، وضروب الإحسان وأحواله يلبس لكل حالة لبوسًا، فضرب منه لإغاثة اللهفان، وطهارة الأفئدة، وشرف النفوس كالصِّلاَت والعطايا، وضرب هو ذلة للمعطَى [بالفتح] وهلاك المعطي [بالكسر].

والضرب الثالث كالأول في أشكاله، فهو صلة بين المحسنين والفقراء وإن كان مقصده أنزل، وشرفه أقل.

ألا فليتنبه المرتشون المصريون، وليعلموا أنهم مضغة الأفواه، أذلّة الجاه لَفَظَتْهُم[١] رعيتهم ومَقَتَهم رؤساؤهم. نحن لا نذكّركم بحرج الموقف في وسط حلقة الطامعين المحدقين والشامتين المتربصين، فربما لا يهم أكثركم أمر العموم. ولا نذكركم بما قست قلوب كثير منكم على الأرامل والأيتام والنساء البائسات، تمدّون أيديكم لمن شرق حقلها، أو حرقت ابنتها، فتمتارون من لفاظات موائد

(١) لَفَظَتْهم: رمتهم. (م).

الأُولى، وتسألون من فضلات عيش الثانية حتى تَسْقُوا الزرع وتدفنوا الجثث في القبور. نحن لا نُذَكِّركم بذلك ولَذعِه في القلوب الرحيمة، فربما انتُزعت الشفقة والرحمة من القلوب، ولكنا نذكركم بشرفكم ودروسكم ومدارسكم، وإن العالم يترفع عن الجاهل، وإنما أنتم في مواقف الهُدَاة. أَوَليس من العار أن يكون الهُدَاة هم الجُنَاة، أو يتساوى ابن المدارس والعلوم بالسائل والمحروم؟



الفصل الحادي عشر
الجمال مساءً في الهَرَم

هل للقارئ صديقي أن يروّض نفسه خارج القاهرة حتى نشاهد جلال الخليقة وجمال الطبيعة وبهجة النور، وهذا الفضاء الذي قصر العقل أن يحدّ مداه، وتقاعس الفكر أن ينال أقصاه؟ أشير عليك بذلك كي تشاركني في الراحة كما شاركتني في العمل طلبًا للأحماض: مأخوذ من الحَمض بفتح الحاء: نبت ترعاه الإبل إذا سئمت مراعيها، فيكون كالتوابل لاشتهاء الطعام. والقصد هنا ترويح الفكر وترويض الجسم بالمناظر واللطائف.

خرجت وللأصيل ذهب يترقرق حسنه في الفضاء ويتماوج في البَطْحَاء[1]، وقد كسا البسيطة حُلّته البهجة يكاد سناها يذهب بالأبصار، وملأ كأسًا من العقار لذوي الأنظار لا لغو فيها ولا تأثيم.

طـــالَ عَلَيْـــهَا القِـــدَمْ ... فَهْـــي وُجـــودٌ لا عَـــدَمْ

(١) البَطْحَاء: الأرض المنبسطة الفسيحة الأرجاء. (م).

جمال هذا الفضاء وما يمازجه من النور والحسن، مغناطيس القلوب، وجاذب العقول لاكْتِنَاه[١] عجائبه والنظر في لطائفه، عسى أن تتناسى الهموم والأحزان، وما يداهمنا به الدهر من خطوبه، فلنفرّ من سجن الأجسام إلى فسيح جنات العقول ونعيم الأرواح، ولنُوَدِّع عذاب الهموم ونصافح رحمة النظر والفكر فيما يحيط بنا من الجلال والجمال. تَأَمَّل معي، ألست ترى فضاء لن يتناهى حدُّه، ملك على لطائف العالم وكثائفه، المجموعة الشمسية في قبضته، وشمسها، وسياراتها، وأراضيها، وأقمارها، وتوابعها، وذوات أذنابها، وهكذا كل مجموعة من ذوات الشموس التي لا يعرف لها منتهى، بل جميع هذا العالم مما تبصرون وما لا تبصرون في حكم هذا الفضاء. عجبًا لعقولنا وإدراكنا وأجسامنا. نرى الجسوم حُبست في هواء الكرة الأرضية، بل في جزء صغير، فضاقت عليها الأرض بما رَحُبَت وضاقت عليها أنفسها، فأخذت تتملص من أقفاصها، وتخلع من ردائها وترجع إلى عالمها، وتقول: أبعد هذي الأرض عالم؟ فترى الأفلاك وأفلاك الأفلاك والمحيطات بها، ويقف علم الخلائق وراء المحيط الأعلى، والفلك الأطلس: الذي فوق جميع الأفلاك على رأي اليونان، وترى وراء ذلك فضاء تتخيله الظنون، وقد حاول علماء اليونان أن يبرهنوا ببراهين هندسية أن للأجسام نهاية فأوقفوا مجال العقول عند حدود محصورة، وصور مقصورة، حتى إذا جاء العلماء العصريون، فقالوا الموجودات مع الفضاء كلاهما لا نهاية لمداه، والعقل يقصر أن يمدّ للنهاية يَدًا. رويدك أيها العقل، أنت لا تدري أأنت أوسع أم الفضاء؟

(١) اكْتِناه: معرفة الحقيقة والجوهر. (م).

أراك تارة تحكم عليه فتعين له نهاية، وطورًا ترسله وتطلقه من عقاله وتصرح بألا نهاية له، وأنك مهما سرت في مسراك معه فلن تجد له آخرًا، وأن وراء كل شمس شمسًا وبعد كلٍّ نجم نجمًا. أجل أيها العقل، فإن قيل: أنت أكبر من هذا العالم وأجلى، وكأنك تتلمس في أثناء تجسسك موجودًا يحيط بهذه العوالم، حتى إذا وصلت إليه أنبأك بمكنونها، ولعل هذا الموجود لا شبح له، ولا جسم محيط بالعوالم أوسع من إحاطتك، ولا ظلّ له كما أنك تسبح فيها ولا مكان لك ولا زمان، تخالط العوالم ولا يراك راءٍ ولا يسمع بك سامع، فقد يقال الأجسام تدَّعي عليك الغلبة، وتستكبر عليك فلا تعلم منها أقرب ما لديك وأوصاف جسمك، فأنت طورًا يكبر شأنك وآونةً يخبو زندك: من خبا زنده لم ينجح في مسعاه.

لتسر معي أيها القارئ، ولندع العقل ينازع العالم والعالم ينازعه، وهما يتصارعان ويتضاربان، وكلٌّ يدَّعي السلطة والقهر والغلبة، ولتنظر معي ما يخالج الضمير فترى سرور النفس، وبهجة القلب بالمناظر البهجة، والأصوات المُشْجِيَة، والنغمات المطربة يمازجها ذكرى من لهم بنا علاقة، فيشوب الفرح الألم بما يصيب الأهل والأصحاب والبلد، وتذكر معي ما خَطَّه يراع الكاتب الإنكليزي اللورد أيفبري يصف الأمة الإنجليزية أنهم إذا فرحوا يحزنون، وإذا طربوا يتذكرون أهلهم وأشجانهم وأبناءهم وعشيرتهم، فيمازج السرور همّ، ويخالج الفرح ترح، ثم رجع عليهم باللائمة، فقال: ألا تتذكرون ما قيل قديمًا في المثل (إنكلترا الفرحة الطروب)، ثم تمنى أن يخالط الفرح بشاشة قلوبهم، وطرب الغناء وسماع

الموسيقى، وألا يُشَاب بحزن وأشجان. هذا ما أردت أن تعرفه أيها الصديق من كلام هذا الكاتب، ولعلك ترى معي هذه الأرواح تناطح الجوزاء وتطاول السماء وتتخطى الحدود وتطير على أجنحة براق الخيال، وتمتطي المجموعة الشمسية وتحكم على الوجود، ومن كانت هذه بعض أوصافها فلن يهنأ لها سماع، أو يتم لها طرب، أو يواتيها فرح إلا إذا شاركها الأهل والولد والجار والبلد والوطن، وكيف يسوغ الطعام والشراب أو يحلو المذاق وقومك في عذاب وَاصِبٍ أو بلدك غير آمن، فنحن نرى رأيًا خلاف ما رآه، كيف لا وهذه المسرَّات جُعلت سُلَّمًا لذكرى عظائم الأمور؟ فهذه المناظر الجميلة والأصوات البديعة المنعشة للأفئدة تفتح لها الذكرى وتوسعها بعد الضيق، فتكاد تبتلع العالم علمًا وتوسع الأصدقاء عطاءً، فليس هذا السرور مقصودًا لذاته مقصودًا على نفسه، وإنما يتخذ العقل من الأثير (هو شيء يملأ الفضاء ألطف من النور لا يخلو منه شيء) قوة فيستجد نشاطه ويتسع كالفضاء ويخرج من سجن قفصه، كم من محب تذكر محبوبه في هذا الفضاء الطلق من حَفِيف الأشجار، وكم من حكمة وعاها الفؤاد من تغريد الأطيار، وكم من كاتب أغلق عليه فكانت الأنهار مفاتيح أسراره وقادة أفكاره فتوحي إليه كل نابتة وتعلمه كل رطبة ويابسة، أجل أيها الأخ، فإن للمُعَاشر غلبة على فؤاد من معه، وهذه العجائب البديعة متى خَامَرَها[١] الفؤاد أعطته من صفائها وبهائها فيعطيه الفضاء اتساعه، والأنوار لألاءها، والأشجار حسنها، والأزهار حبها وأنسها، والأثمار كرمها، والطيور فرحها وطربها.

---

(١) خَامَرَها: خالطها، دَاخَلَها. (م).

ولعمرك ما علمنا من نبي أو حكيم إلا والعزلة مبدأ أمره، والهواء الطلق خازن أسراره ومنبع أنواره، وإذا قرأت ما كان من عُزلة النبي ﷺ في غار حراء ونظره في هذا الوجود بفطرته فقابله بروحه فاضمحلت دونه الأجسام والأوهام كسائر الأنبياء، فكان ما كان من وحي خاص بهم، وترى الحكماء يَهِيمُون في أودية العقول ليكتَنِهُوا الحقائق، فالأنبياء بوحيهم، والحكماء بنظرهم. أيها الصديق نحن في الفضاء فلا نتقيد بموضوع، بل نقرأ سطرًا آخر على لوح الضمير، قف معي هنا قبل هذا الهرم ولأقصّ عليك ما خالج الضمير. هذا المكان طالما فكرت فيه واجتليت فيه الحكم، ولعلك تذكر الفصل الذي ذكرنا فيه الحكمة تخاطب الإنسان، فلقد كانت ذكراه في هذا المكان في الأسبوع الماضي، فها أنا الآَن أذكر الحكمة التي سطرتها بنفحة من هذه البساتين، ولمحة في هذا الفضاء، فأراني سعيدًا بهذه الذكرى ولن تزال تتجدد كلما تقادم عهدها، فهي التي إن طال عليها القدم تكون وجودًا لا عدمًا، يجدر بي أن أذكرك أنواع الذكرى، وهي ثلاثة: ذكرى سعادة للمفكرين والعاملين، وذكرى حسرة لمن عملوا سوءًا وهم عائشون لا يعقلون، وذكرى ندامة لمن يعقلون ولكنهم لا يعملون.

أَعِرْنِي أُذُنًا صاغية وقلبًا واعيًا ونفسًا صادقة. وادرس معي أخلاق هذه النفوس الإنسانية وأنواع ذكراها ولا تسل إلا ضميرك، فلنشرح ذكرى السعادة. ذلك أن التجربة قضت أن ما صرفناه من وقت في العمل النافع بلا بطالة ولا كسل ولا لغو وإن كان فيه نَصَب وتعب، ثم أنتج ثمرة بعلم عرفناه أو مجد بنيناه

مثل ما أذكر الآن في هذا المكان، فإن ذلك يزيد القلوب فرحًا والنفوس طربًا كلما تجددت الذكرى والمسرَّات الداخلة على العقول من كل باب من أبواب الحواس الظاهرة والباطنة، وكأن كل شجرة، وورقة، وزهرة، وخَرِير ماء، وتمايل غصن، وتلألؤ نجم، وتألق برق، كلمات سرور بذكرى تلك الأيام الخالية العامرة بأحاسن الأعمال والجمال، فهذه هي ذكرى السعادة. أما الثانية: وهي ذكرى الحَسَرَات، فما من أحد يحملها إلا أولئك الذين مضى شبابهم في شهواتهم العاجلة، ولا علم لديهم استفادوه ولا مجد بنوه فيتذكرون الأيام الخالية ويتحسرون، ويقولون يا ليتنا نُرَدّ إلى هذا النعيم؛ وذلك لأنهم لضيق عقولهم سُجنوا في دائرة من اللذات ضيقة النطاق شاركتهم الأنبياء والحكماء، وجاوزوهم إلى ما يقصر دونه متناولهم، وهؤلاء حسراتهم تتزايد كلما تناقص العمر، ومن هذه الطائفة من يقول:

لَيْتَ وهَلْ يَنْفَعُ شَيْئًا لَيْتُ ... لَيْتَ شَبَابًا بُوعَ فَاشْتَرَيْتُ

ومن يقول:

إِنَّ الشَّبَابَ الذِي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ ... فيه نَلَذُّ ولا لَذَّاتِ للشَّيبِ

وهذا الفريق قوم ماتت ضمائرهم ولم يعلموا إلا دائرة الطعام والشراب والفاكهة، وأدخلوا مع البهائم في حياتها الدنيئة، ولا يندمون على ما فرَّطوا لأنهم لا إيمان لهم ولا زاجر ولا ضمير نقيًا يوبخهم، وهم الذين ورد فيهم ﴿وَأَنذِرْهُمْ

يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [مريم / ٣٩]. بدت الشهوات فاستهوتهم وزينت لهم ظواهرها، وأحرقت نيرانها بواطنهم ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر / ٨]، وإنما الذين يندمون هم القسم الثالث، وهم ذوو نفوس ذكية فيذكرون مخازيهم وعيوبهم فتجرح قلوبهم الذكرى، وتُدمى نفوسهم بالندم، ويذكرون ظلم من ظلموا، ويبتدئ الزمان يعاقبهم ويقول: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ [الأحقاف / ٢٠]، أيها الصديق ها نحن أمام الهَرَم.



الفصل الثاني عشر
الجمال مساءً أمام الهرم (تابع ما قبله)

تأمَّل عظمته وجلاله وتقادم عهده. أنا لا أدعك تعطف على هندسته وإتقانه، ولا حساب ضلع قاعدته المقدر بألف شبر، حتى تستخرج منه الموازين والمكاييل المصرية، وإلا حسبتك خارجًا من مدرسة إلى مدرسة.

ولكن انظر الشمس ترفرف عليه بأجنحة النور، وقد آذنت بالغروب وهي تنظر إليه شَزَرًا، وتلمحه كِبْرًا وعجبًا، وتعجب من دوامه وبقائه، وقد دمّرت كل شيء مرَّت عليه بتعاقبها، وهذا مضت عليه الدهور والحقب وهو يهزأ بطلعتها ويسخر من دورتها ويلبس خلعتها، مدّ عينيك إلى هذه الصحراء صَوْب مغرب الشمس، فلترين أميالاً وأميالاً من الرمال والصحاري والقفار يطويها السائحون طَيَّ السِّجِلِّ للكتاب، حتى بحر الظلمات (الأطلانطي) فتصل أمواج الرمال بأمواج البحار، تجري عليها أمواج من نضار الشمس، يكسوها بهجة وجمالاً. تأمل معي كم خلت من قبلنا من أمم وذهبت قرون كانوا يمشون في هذه الأماكن تصطفّ عساكرهم وتنشر أعلامهم، قد طوتهم السنون وأكلتهم الدهور كما يطوي السائح الفلاة في هذه البطحاء. كم حج هذا المكان من عابد تقرُّبًا إلى عظمة أبي

الهَوْل، فيركع للشمس ويسجد للآلهة، ومن الحافِّين بهذا الهرم العظيم آل فرعون موسى الذين طَغَوْا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وذلك الملك الظلوم والفاتك الغشوم قمبيز الفارسي؛ إذ جاس خلال الديار بقوة السيف والسنان، وأعانه على فتح البلاد غلوّ القوم في دينهم؛ عبدوا الحيوانات، واتخذوها نموذجًا للربّ، ثم عكفوا عليها فأوقفها قمبيز بين الفريقين ووسطها بين الصفين فتحرّج من حربها المصريون تأدُّبًا، ورماها الفارسيون فصبُّوا عليهم العذاب صَبًّا، واذكر في الكتاب إسكندر اليوناني؛ إذ عدل في الرَّعِيَّة وبنى الإسكندرية، وتذكر ذات الجمال والحسن والدلال الفاتكة بالجارحين لحظها والنبال، الفاتكة بالقوتين ملكها والجمال، الملكة كيلوبترا من سلالة خلفاء الإسكندر على ملك مصر وواسطة عقد ملوك البطالسة، كم صَفّت جيوشهم وعزفت طبولهم وغنت أعوادهم في حمى هذا الهرم ثم طواهم دهر الدهارير:

بالأَمْسِ كانوا مُلُوكًا فَوْقَ عَرْشِهِم ... واليومَ أَضْحَوْا وهم في الترب آثارُ
أَيْـنَ الملوكُ التي كانت محجّبةً ... من دونها تُضْرَبُ الأسيافُ والنارُ
لم يَبْقَ إلا طُلُولٌ بعدَهم شَخَصَتْ ... يبدو بهنَّ مـن الآيـات تذكارُ

وتذكر الرومان وظلمهم، كانوا إذا بطشوا بطشوا جبَّارين، وإذا ظلموا ظلموا فاتكين، وإذ مسخ عمرو بن العاص ظلمهم ونسخه بالعدل، واذكر الأمويين وما وسع ملكهم، والعباسيين وعلومهم، والطولونيين، وبني الإخشيد، والفاطميين، وبني أيوب، والمماليك. طحنهم الدهر بطوله وأناخ عليهم بكَلْكَلِه فتلك بيوتهم

خالية. ارفع قدمك عن الثَّرَى حتى لا تطأ تلك الوجوه الباسمة، والخدود الناضرة، والقدود المائسة، والعيون الناعسة، واذكر ما قاله أبو العلاء:

خَفِّفِ الـوَطْءَ مَا أَظُـنُّ أَدِيمَ الـ أَرْضِ إلاَّ مِـنْ هـذهِ الأَجْسَادِ
فَـقَـبِـيـحٌ بنا وإنْ قَـدُمَ العَهْـ دُ هَـوَانُ الآبَـاءِ والأَجْـدَادِ

دعنا الآن من تخطيط البلدان وتاريخ القرون الخالية، وانظر جمال هذا النجم الطالع، وقد ولت الشمس ولبس العالم أثواب الحِدَاد، وكأنها غانية مَثَّلت دورًا في رواية هذه الدنيا، ثم أَرْخَت الستار، فطلعت من بعدها نجومها والأقمار، وأخذت تبتدئ فصلاً. تأمَّل كيف وَلّت هذه الأمم والقرون، وتمثلت أجسامهم بالتراب، وطاحت أيامهم، وذهب عِزُّهم، وهذا الهرم أصابه داء النقرس في رجليه فتحطمت أحجاره، ووهنت قواه، وذهب جماله، وانقضى شبابه، وأنت ترى هذا النجم المتلألئ يضحك على الأمم وفنائها والأجيال وذهابها والمحاسن وبلائها، ينظر النجم ويضحك ويشعّ نورًا في الأثير يخترق السبع الطباق، ويجاوز الأفلاك، ويخامر العيون، ويخالط القلوب، ويوحي إلى العقول آياته، وينزل على الأفئدة بيناته، هذا هو الجمال المحبوب والمنظر المرغوب. مضت القرون، وخلت الأجيال، وذهب الجمال وفني الفتيان والفتيات والملوك والملكات:

واستُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ من مَرَاتِبِهِمْ وأُودعُوا حُفَرًا يا بِئْسَ ما نزلوا

وأنت أيها النجم الصغير ضاحك باسم، شبابك زاهر، وحسنك باهر، وإن شأنك في غرابته عظيم، تكحّلت بالظلم وهزئت بالعدم، وكم أغرى جمالك تلك الأمم بالحكم فنقشوها في نفوسهم، وودعوا هذا العالم ولحقوا بأفقك الجميل، فهم في سياحاتهم بَهِجُون وبحبك لَهِجُون، أنت قلم خطّ على ألواح البصائر حكمًا، وكلما محتها قلوب وعتها قلوب.

أيها الصديق، إن في الجمال لأمرًا عجبًا فيه للجهال نقائص وللعقلاء كمال. انظر في هياكل الصور الإنسانية ونقش إبداعها وترقيش محاسنها، جعل كذلك ليكون داعيًا للنسل والولد لجهل النوع الحيواني عامة، ومنه الإنسان بمصائر الأمور وأعقاب الدهور فغرست هذه في فطرته ليلد، وأحيط بالحكمة والدين والعلم لئلاّ يضلّ عن القصد، ويظنّ نفسه أحقر من البهيم وأخسّ من الجراد، فيضع نسله في السِّبَاخ[1]، أو يذره عند جاهلة بغيّ أو خائنة فيترك نسله عندها، وربما ربّته في أخسّ الأسرات وهو يظن نفسه إنسانًا. وما درى أن الجراد يحفظ نسله بحكمة عجيبة، ويقدر له بُعْدًا مخصوصًا وحرارة ثم يدفنه؛ حيث يجوز الإفراخ، أو لا يعلم أن ذكران الحمام وإناثه تتعاون على تربية أولادها. فالحمام أشرف منهم، والجراد أرفع قَدْرًا وأعلى منزلة، وقد قال الحكماء: «إنّ ما يربي أولاده من الحيوان كذوات البيض واللبن أرفع مما لا تعلم لأولادها مكانًا كالبعوض، وبعض الأسماك تذر بيوضها في الماء ولا تدري بما تجريه عليها المقادير،

(١) السِّبَاخ: الأرض غير المعمورة لملوحتها، وقد يقصد السماد المجفف من الروث بلغة أهل مصر. (م).

فهذا الصنف من الناس أشبه بالذباب، والبعوض يترك نسله في أرحام الباغيات الفاسقات يربينه في أحضان من لا يعرفهم، أولئك أخسّ من الأنعام». كلامنا الآن في الجمال، وأنه وسيلة إلى حكمة في القلوب فدام وجوده كجمال النجوم وبهائها، ولما كان الجمال الإنساني سُلَّمًا للتناسل فَحَسْب مسخه الليل والنهار من الفتيان والفتيات، متى مضى زمن الشباب، ويستبدل عشق نقش الصور بحبّ أجلّ وأعلى وأَدْوَم، وهو تبادل المنفعة بين الزوجين بتدبير المنزل وتربية الأطفال وهذا أمر عجب، نرى ملكة النمل إذا حملت حملها كسرت جناحها، ورمت بها، وعكفت على تدبير أمر الملك، وترى الشابة يذبل جمالها متى ألقت حملها لأول مرة. هكذا دُبرت النواميس على هذا النسق، أن جمال صور الناس ليس نهاية ما تَرُومه[١] الحكمة، الجمال قبة نور من الله طلعت على وجوه السماوات وعيون النجوم فزوّقت الدنيا ونقشت الجو والسحائب ورقشت الصور وهندست الأشكال، وكان من آثارها حساب المهندسين ومسائل الحاسبين، تنزلت تلك اللطائف في الصور الإنسانية فنقشتها ولونت العيون وكتبت النون أمدًا قليلاً أيام الشباب، ثم استردّ الجميل ودائعه، واسترجع ضائعه، وذبل الجمال، وانكمشت الجلود، ثم تفرّ الروح إلى جمال لا يزول فهذا كل ما يكون ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات/ ٢٢ - ٢٣].

ها هو القطار كَرّ راجعًا فهلمّ بنا نمتطيه.

---

(١) تَرُومه: تطلبه. (م).

وانظر هذا السائق والقائد يغمض عين نور الكهرباء، وقد أضاءت الحجرة وأنعشت القلوب، فها هي أظلمت والنجوم أسفرت، وكأننا إذ ذهبت شمسنا وأظلم نورنا كحال الأرواح بعد صعودها تطلع نجوم أفقها وأقمار سمائها في صفاء وسكون وأنس وحبور، اهـ.

الفصل الثالث عشر
القرعة، وعلم الأخلاق

سـأخـرجُ لـلـبِـرازِ[1] خَـلِـيَّ بـالٍ ... بـقَـلْـبٍ قُـدَّ مـن زُبَــرِ الحَـدِيـدِ
وأطـعــنُ بالقنا حـتـى يـراني ... عــدوِّي كـالـشَّـرَارةِ مـن بعيدِ
إذا ما الحـربُ دارتْ لي رَحَاها ... وطـابَ المـوتُ للرَّجلِ الشَّدِيد
تـرى بيضًا تَشَعْشَع في لَظاها ... قد التصقَتْ بأعْضادِ الـزّنـودِ
لأقْـحَـمُـهـا ولـكـن مـع رجـالٍ ... كـأن قُلُوبَهَا حجرُ الصعيدِ[2]

لهج قدماؤنا بالافتخار بالحروب وطعانها والخيل وكرورها والأقران ونزالها، وتمادحوا بالتفاني في القتال والموت في الميدان حتى قال شاعرهم:

وإنَّــا أُنَـاسٌ لا تَـوَسُّـط بَيْنَنَا ... لنا الصَّدْرُ دُونَ العَالَمِينَ أو القَبْرُ

---

(١) البِرَاز: المبارزة بالسيف. (م).
(٢) ينسب الشعر لعنترة: الزُّبَر: القِطَع. والبِيض: السيوف. والأعضاد: جمع عضد ما بين المرفق والكتف من اليد. وأقحمها: أي الحرب، أي أتوسطها بقوة.

وقال السموءل:

وإنَّا أُنَاسٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً إذا ما رَأَتْهُ عَامِرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنَا لنا وتكرهُهُ آجالُهُم فتطولُ
وما مات مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ[1] ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

وهنا يتساءل من ذا الذي يستبدل الموت بالحياة، والقبر بالقصر، والعدم بالوجود؟ والجواب عن هذا السؤال يستدعي تحليل الأخلاق وأطوارها في الإنسان وكمالها فيه.

الإنسان لن تكمل حاله إلا بأربعة أمور، هي أمهات الأخلاق وجنات السعادات ورضوان الحياة تحت أقدام هذه الأمهات، وهي العفة، والشجاعة، والعلم، والعدل.

العِفّة: اعتدال المرء في مأكله ومشربه ونومه ويقظته وملبسه ومسكنه وملكه وأعماله وأوقاته. والشجاعة: اعتدال في القتال والغضب والانتقام، ويتولد عنه الكرم والحِلْم، وما أشبههما. والعلم: يشمل الحكمة العلمية والعملية بأقسامهما، وهي ستة. أما العدل: فهو نظام هذه الأمور جميعها، والاعتدال فيما بينها، وتقسيم قوى الإنسان عليها. هذا جماع أخلاق الأمم التي عليها يدور حكم العلماء قديمًا وحديثًا، ولن يشذّ عن هذه الأربعة خُلُق من أخلاق الإنسان، وهي

(١) مات حَتْف أنفه: مات على فراشه من غير قتل ولا ضرب. (م).

الأساطين التي عليها بُنيَت الاستقامة، والكمال، والمدنية، والذي يعنينا تطبيق أحوال الأمة علَيها الآن، فنقول:

العفة: يتخلل ذكرها كتب العلم والدين وأماكن التعليم جمعاء، والعلم تكفله وزارة المعارف العمومية، ولها شأن يخصّها، والعدل تحمل أعلامه الحقانية، فلها الغنم وعليها الغرم. وأما الشجاعة: فأُمُّها مدرسة الحربية، وأبوها وزارتها، وأبناء الأمة أجمعون منها يألمون، وعنها يتباعدون، وعند سماع ذكرها يضعون أصابعهم في آذانهم من صواعق مدافعها حذر الموت، والموت الأدبيّ محيط بالقوم الذين يجبنون.

افتتحت الأمة العربية هذه البلاد بحدّ السيف والسنان والسِّلْم والصلح، فتربعوا في دستها أيام الدولة الأموية والعباسية والفاطمية، ولما أن اجتاح التتار دولة العباسيين واستأصل صلاح الدين الفاطميين من مصر في القرن السادس، ثم دارت الدائرة على بني أيوب بانقراض آخر ملوكهم، وهي شجرة الدرّ، ضرب المماليك مصر ضربات، وبطشوا بَطْشَتَهم فيها جبارين، وتحكّموا في النفوس، وكادوا يمثلون حكم الرومان، وبقيت بقيتهم من المماليك والسناجق وكانوا يسمّون الصناجق، فأكلوا اللحم، وأذابوا الشحم، وهشّموا العظام، وأهلكوا الحرث والنسل، وجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولاً، ودمًا مَطْلُولاً[1]، وموتًا زؤامًا، فاختصوا بأشرف سمة وأعلى هبة، وهي حماية الديار والأخذ بالثأر، فبقي

(١) مَطْلُول: مُهْدَر. (م).

المصريون في ديارهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم إلا بقية باقية، عُزّلاً (لا سلاح معهم) كالنساء، فنسوا حظهم من الجندية وظنوها إحدى الكُبَر، وعبرة العبر، حتى إذا جاء محمد علي باشا الكبير فعلّمهم العلم المفقود ودرّبهم على الحرب والضرب، فضربوا بالمدافع والسيف، وأَلِفُوا رحلة الشتاء والصيف. فيومًا تراهم في الحجاز يقاتلون الوهابيين، وآخر للروس مهاجمين، وآونة باليونان وكريد، وطَوْرًا على الشام يزحفون، وفي بلاد الروم يقاتلون، وإنما ذلك كله إكراه وقهر قهروا عليه، فتراهم يقطعون أصابعهم، ويشوّهون صورهم، ويغيرون خلق الله فرارًا من أشرف الخلال وأعلاها، وهي الشجاعة، واشتهر بين العامّة أنهم يؤخذون ظُلْمًا وزورًا، وكأنهم يُسَاقُون إلى السجون، ويُدْعَوْنَ إلى الموت، وهم له ينظرون.

أو لم يكن من العجب أن يتساوى في تلك الأيام تلميذ يساق إلى الدرس والمدرسة، وجندي لساحات الوَغَى، فكانت إذ ذاك تنصب المناحات، وتندب النادبات على التلاميذ والأجناد وتسخم الوجوه، وتلطم الخدود على التحلي بالحليتين؛ حلية الشجاعة، وحلية العرفان، فمرّ الزمان، وامتاز الأمران، فلم يبقيا سواء، مضى قرن فيه أبرق العلم بنوره، وسطع بإشراقه على الوجوه، فقذف الناس بأكبادهم إلى المدارس، وأتبعوهم بأموالهم، وازدادوا طلبًا كلما ازدادت المدارس هربًا، وعليه فقد عرف الناس قاطبةً ثمرات المعارف، وتخلفت أختها الشجاعة في أخريات الأخلاق.

فيا ليت شعري ما الذي أبطأ بهم حتى جهلوا فنّ الشجاعة والمرانة والتدريب على النشاط والقوة، وهو النظام العسكري.

أكتب هذا ولا أدري ما السبب في هذا الجهل والتجاهل والانعكاس وقلب الوضع؟ نرى الأغنياء إلا قليلاً منهم يجودون بما ملكوا لملء أدمغة أبنائهم بالعلوم وَيضِنُّون عليهم بالتمرين العسكري، لا، بل ينقدونهم الفداء كما فدى إبراهيم ابنه بكبش أملح، كأنهم يحذرون أن يتكمل الأبناء بفن الشجاعة.

عجبًا لك أيها المال: أعطيت الخصلتين، وأنتجت الضدّين: فضيلة العلم، ونقيصة الجبن، وهكذا عدوّك الفقر أدّى إلى نقيضين معكوسين: الجهل، والشجاعة ذلك أن الأغنياء يعلّمون بالأموال، وبالأموال يفدون من الاقتراع.

الفقراء لا يُعَلِّمون أبناءهم لَمَتْرَبَتِهِم[1] وفقرهم، وبالمرتبة عينها يضطرون للنظام الجندي، وترى المرأة تولول وتعول صارخة إذا أُدخل ابنها في الجيش.

أليس من العدل وحسن النظام وتعميم المعرفة أن يعرف الناس قاطبةً ما القصد من نظام الجندية، ثم لا يُصطفى قوم لفقرهم، ويُنبذ آخرون لدفعهم البدل؟ كَلاَّ، فإن المسألة تهذيب وتدريب، لا تعذيب وتغريب وإبعاد وتخريب، وإنما هو درس وتعليم، إذا كان ذلك هو القصد كما سنذكره.

---

(١) لمتربتهم: لشدة مسكنتهم وفقرهم. (م).

فالأجدر: أن يُحشر الناس في صعيد واحد، ويتبين الصغير والكبير والعظيم والحقير، أن ذلك خير وأحسن تأويلاً.

سيقول كثير من الناس: ما لنا ولهذا الخط المنكسر، أنفارق أبناءنا ونعيش في أشجان وأحزان، وربما مات أعزّاؤنا، أو متنا وهم في مكان سحيق؟ فنقول: على رِسْلِكُم، نحن نتكلم في المسألة من حيث هي علمية وعملية، وإن هي إلا نظام يُعَلِّم أبناءنا كيف يصيرون شجعانًا ماهرين، وكيف يحافظون على نظافة أجسامهم واحترام كبرائهم مع الأدب والنظام، وليكن ذلك في مديريته بالقرب من بلاده أو قصبة تقرب منها، فإذا رجع إلى أبويه رجع رجلاً شهمًا، عالمًا كيف يقوم بأعباء الحياة، ولو قدّر لذلك سنتان لكفى، فأنا ما أردت إلا تكميل الرجال وتقليل الزمان واقتراب المكان إن أمكن كل ذلك أو ما يقرب منه، وإلا فلها شأن آخر، وحكم سواه، الجندية مدرسة الشجاعة كما أن المدارس للعلوم.

وقد قال علماء الأخلاق في الموازنة بين الظاهر والباطن: إن محاسن الوجه في أربعة: الخدّين، والعينين، والأنف، والفم. ومحاسن الأخلاق في أربعة: المعارف، والشجاعة، والعفة، والعدل. فالشجاعة ركن مهم من أركانها، فكيف نهمله ونحن أحوج إليه؟ ولا قيمة للعلم بلا قوة تنفذه، بل الشجاعة هي القوام الأكبر للحياة.

كان العلماء الأقدمون يأمرون تلاميذهم بتعلم هذا الفن، فكان أحدهم يقصد البحر، وقد هاجت أمواجه فيركب السفينة فتتقاذفها الأمواج لتكمل نفسه بالشجاعة، وبعضهم كان يقف في المواضع المظلمة المخيفة حتى يتعوّدَها.

أفلا يمكن القائمين بالأمور أن يحوِّلوا المدّة إلى سنتين أو ثلاث، ويسامح الجندي في أثنائها أشهرًا وأيامًا يرى أهله وأقاربه، وإن أمكن أن يعلم كل أبناء مديرية في قصبتها كان حسنًا، ثم يتساوى في ذلك الغنيّ والفقير، والقويّ والضعيف، وإلا فما معنى الفدية؟ وأي وجه لها إلا الدلالة على الجهل المُطْبِق وعدم إدراك الفضيلة، وما الميزة بين الصنفين؟ وكيف الفرار من الفضيلة على أنها إن كانت فضيلة أفلا تعمّ القسمين؟ وإن كانت رذيلة أفلا تعمّ الطائفتين حتى يكون العدل شاملاً؟ وأنا ما أدري أيّ الأمور شرّ، أَجَهْلُ الناس بقيمة هذا الفن من الحياة والأخلاق، أم فرارهم من الفضيلة بمالهم وتباعدهم عنها بجاههم، أم دفعهم الفدية، وقبول الحكومة أعجب؟

كما أني أعجب من رَجُلَيْن، فقير حزن لفضيلة سيق إليها ابنه، وغني فرح لصرف الكمال عن ولده، فعسى أن تنظر في هذا الأمر مجالس شورانا، وتعدّ للأمر عدّته وتنظر في قوانين الأمم، هل تفعل كفعلنا وتفدي فديتنا، أم تلك خاصة بنا؟ وعسى أن تعدّ للأمر عدَّته، وتسأل الحكومة فيه نظرة، وتقلب النظام، وتصلح الدستور، وتقصر المدة وتسهل النقلة، واللقاء، وتوضح الأمر للعموم، ويعمل الأمر، وتحسن الأخلاق، ويتمّ العدل.



الفصل الرابع عشر
الرحمة في القلوب سر الشرائع

الراحمون يرحمهم الرحمن

الرحمة غريزة في نوع الإنسان مازجته في جميع أطواره، ولابسته في شئونه، فكانت من ضرورياته اللازمة كالمطعم والمشرب والملبس، بها يعطف على ولده ويشفق عليه ويخضع لأبويه، ويقول: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء/ ٢٤]. الشفقة في الإنسان توحي إليه أن يبر أقاربه، وأرحامه، وأهل بلده من الجيران والأصحاب وأكثر من ذلك، وأعمّ حنوّه على بني آدم أجمعين.

الرأفة في القلوب تتناول الحيوانات العُجْم، فتراها سارية بين الزوجين من جميع الأصناف، وترى الظبية ترضع ولدها برأفة وحنان جليّ مبين، وترى الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

رحمة الحيوان بعضه لبعض واضحة ظاهرة نشاهدها في كل حين، ومنها ما يفتت الأكباد، ويجرح القلوب، ويذيب النفوس، مما نرى من المناحات التي تقيمها الأمهات وأبناؤها عند افتراقها، والتضرع للملاك أن يشفقوا على تلك

الأفئدة من الاحتراق، وعلى تلك القلوب من الانفطار، حتى حَرّمَت الشريعة الإسلامية بيع الأمهات بدون بيع الرواضع لها اللاتي لا يأكلن.

الإنسان أرقى الحيوان، فكان أكثره شفقة وأَعَمَّه رحمة وأوسعه دائرة في العطف والرفق، فترى رأفته تتناول الأهلين والأباعد وسائر نوع بني آدم، ثم تشمل الحيوانات كافة.

سل فؤادك بماذا تحسّ فيه إذا أُصيب الأهلون بمرض أو فاجعة؟ سل قلبك إذا رأيت من تحنّى عوده، وتقوّس ظهره، وانكمش جلده، واشتعل رأسه شيبًا، وهو يدبّ على العصا في برد قارس، قد لبس أَطْمَارًا[(١)] بالية أَوْهَن من بيت العنكبوت لا تقيه الزَّمْهَرِير[(٢)] ولا تحميه من حرّ الهَجِير[(٣)]، أو عجوزًا أخنى عليها الدهر فركعت لسطوته، وذلت لبطشته وهي تسألك مما أوتيت وتستجديك فضل ما أعطيت، ألست ترى فؤادًا يتشقق وقلبًا يتفطر وتتمنى لو يتاح لهما الغنى أو يلجأ المعوزون إلى حماك؟ واذكر ما تحسه من الآلام الناجمة عن الرحمة إذا اقتتلت طائفتان أو اصطدم قطاران ثم أنبأك الرواة بظلم الظالمين وجرحى المقهورين وأرامل القتلى وأيتام الصرعى.

(١) أطمار: جمع «طِمْر» وهو الثوب البالي القديم. (م).
(٢) الزَّمْهَرير: شدة البرد. (م).
(٣) الهَجِير: شدة الحر.(م).

ها هي ذي أخبار القحط في بلاد الروسيا قد آلمت النفوس وأذابت القلوب، وكم ترى من رجل جبار قاسي القلب يضرب الحيوان أو يُحَمِّله ما لا يطيق. وإني لأذكر من ذلك ما شاهدته في صبح يوم عرفة رجلاً يسوق جاموسة عرجاء عرجًا بَيِّنًا بحيث لا تقدر أن تمسّ برجلها الأرض، وكلما قزحت (قفزت) خَرَّت لوجهها صريعة وهو يكاوحها (يكافحها) فوجدتُ في قلبي ألمًا لهذا العمل الوحشي الفظيع.

فالرحمة طبيعة في الإنسان غُرست في جِبِلَّتِه. ثم تراه ينساها أو يتناساها إذا غلبته الشهوات أو الانتقام وغطاه الطمع، فترى الرجل يربي الدابة، والصبي يربي الشاة، وكلاهما يحبّ دابته ويألف ما ربّاه. ثم يذبحها ويأكلها فَرِحًا مستبشرًا.

وترى اللصّ يشتري القسوة بالرحمة إذا طمع في مال، فينقضّ على ربه ويذيقه كأس المَنُون ويجدها في نفسه لذة ونعمة ويحمد الله عليها! وترى الأمّة الفاتحة تستمرئ طعام المقهورين وتستحلّ قتلاهم، وتنسى الغريزة المغروسة في قلوبها، وما أنساهم إلا الطمع والشره والشهوات، والحرص على ما يشتهون، والتلهي بما يلتحون (ينهبون).

لما قتل السفاح سراة بني أمية، ووضع المائدة على النُّطُوع[١] فوق القتلى وهم يَئِنُّون تحتها قال: ما أطيب هذا الطعام، فما ذاق إلا لذة الانتقام، ولم يجد

(١) النُّطُوع: جمع «نِطْع» وهو ما يُفرش من البُسُط. (م).

في قلبه إلا فرح الملك، ولذة الغلب بعد أن ذكره شاعره الدماء المهراقة(١) والنفوس المقتولة إذ قال:

واذْكُـرُوا مَقْتَلَ الحُسَيْنِ وَزَيْـدٍ وقَتِيـــلاً بِجَانـــبِ المِهْرَاسِ

(والقتيل هو حمزة، والمهراس ماء)

ولما جاء قوّاد بني العباس إلى بعض قرى مصر في طلب مروان بن محمد الحمار آخر ملوك بني أمية، ووجدوا الطعام على المائدة، قتلوا الآكلين، وجدلوا الملك وأخذوا أمكنتهم، وجلسوا في مقاعدهم، وهم بذلك فرحون مستبشرون يأكلون طعامهم ويشربون والقتلى من حولهم مُجْدَلُون(٢).

ولتذكر قمبيز إذ قهر فرعون الأسرة السادسة والعشرين، وجَرَّد بناته من الحلي والحلل، ثم شغلهن بحمل الجِرَار على رؤوسهن ومعهنّ في هذا العذاب رجال دولته وفرعون بجانب قمبيز، فما كفّ عن تعذيب أولئك المظلومين إلا بعد أن بكى فرعون لما أصاب وزيره من الذلة بعد العز والسرور والمجد والفخار.

وإجمال القول أن الشفقة سارية في نوع الإنسان جميعه، ولن يحجب أنوار شمسها عن بصيرته إلا سحائب الشهوات التي تغشيها وحجب الأطماع وداء الشراهات، ولما قتل زوج بنت تموجين جنكيز خان، وهو أكبر قوّاد أبيها في

---

(١) المهراقة: المُرَاقة. (م).
(٢) مُجْدَلُون: صَرْعى. (م).

حروب التركستان إذ أغاروا على الإسلام، لم يشف صدرها إلا أن يُقتل أهل المدينة أجمعون رجال ونساء وأطفال وحيوانات. ثم صنعوا لها أَكَمَة[1] من رؤوس القتلى، فوقفت فوقها وقالت «هل من مزيد؟».

رأى الحكماء ذلك، وشاهدوا هذا الإنسان طغى وبغى وتجاوز حدّه ونسي الرحمة، فقالت طائفة: إنه لا يُرجى صلاحه فلابدّ أن يزال من الوجود، ولا يبقى إلا الرحماء، وهؤلاء لو قدّروا لقتلوا الناس أجمعين وهم من علماء العصر الحاضر.

وقالت طائفة: لا نقتل إلا الملوك والأغنياء وندع بقية العالمين؛ لأن هؤلاء أشرّ الطوائف وهم بذلك الآن يعملون.

وقالت طائفة ومنهم القطب الشيرازي في «الأسفار» - أكبر كتب الحكمة في الإسلام: «إن العتاة الطغاة في الأرض جُعِلُوا لحكمة، وهي رَدْع الباغين». وقال ابن خلدون: «إن نفعهم أكثر من ضرهم كالنار والماء، فهم وإن ظلموا فقد يدفعون بعض الناس عن بعض، وجاء في القرآن الشريف: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة/ ٢٥١]». وقال صاحب كتاب حيّ بن يقظان: «إن الحكمة تقتضي أن تذبح الحيوانات وإلا كان وجودها بلا فائدة». وقال بنتام في أصول القوانين: «إن الرحمة بالحيوان

(١) أَكَمَة: موضع أشد ارتفاعًا مما حوله. (م).

جعلت تمهيدًا لرحمة الناس الذين وضع القانون لهم، وهذا منه قصور، هنالك تنزلت الشرائع السماوية، فأمرت الناس بالرحمة وبالغت في ذلك اليهودية لبني إسرائيل وعممت النصرانية حتى حرمت الانتقام، وأمرت الناس برحمة الأحِبَّاء والأعداء، وجاء القرآن فذَكَّر الناس بالرحمة التي في قلوبهم، وجاء فيه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ [يس/ ٦٩]، وجاء: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ [طه/ ٣] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[البقرة/ ١٩٥]، [المائدة/ ١٣]، وبدأ كل سورة باسم الله الرحمن الرحيم، ويئست الأديان من الرحمة العامة، فأمرت العيسوية بالصيام في بعض الأيام عن كلّ ذي روح تذكرة بالرحمة، وجاء في الإسلام الأمر بالإحسان في الذبح، وورد فيه «إذا قَتَلتُم فأحْسِنوا القِتْلَة، وإذا ذَبَحْتُم فأحْسِنُوا الذِّبْحَة»، وحرّمت على الناس أن يُحَمِّلُوا الحيوان ما لا يطيق، وأمرت أن ينفق عليه، وحَثَّت على عتق الأرِقّاء مما تفتخر به الأمم الأوربية الآن علينا. فالشرائع السماوية جاءت موقظة لما في نفوسنا من الرحمة، وهذا معنى ما قاله أفلاطون: «إن العلوم كامنة في القلوب كُمُون ماء الورد في الورد، وإنما يستخرجها التعليم والشرائع، فهي مراهم للداء لتُذَكِّر الناس الرحمة المُودَعة في نفوسهم المغطاة بأطماعهم كي يتذكروا، فيحسنوا إلى الفقراء والمساكين ويعطفوا على الذين كَتَحَهم[1] الدهر، ويتأمّلوا في أنفسهم كيف يحسُّون بآلام وأحزان عندما يرون الحيوان الأعجم والإنسان الناطق يقاسيان أنواع العذاب، حتى كان العذاب المحيط بذوات الأرواح يمغطس قلوبنا، وينتقل في كهرباء الجوّ وأثير الفضاء، فيلامس الأفئدة الرحيمة.

(١) كَتَحَهم: أصابهم، وأثّر فيهم. (م).

كلما كان الإنسان أجمل شعورًا وأوسع علمًا وأكثر أدبًا، كان أكثر إحساسًا بذلك العذاب الواقع على ذوات الأرواح بالجوع أو الضرب أو المرض».

فيا عجبًا! كأن هذا الأثير ماء والأجسام مغمورة فيه، حتى إذا أصاب أحدها عذاب احترق فيه، فغلى فاحترقت فيه أفئدة الرُّحَمَاء، أو كهرباء سارية تنقل ذلك الأثر من المعذبين إلى ما قاربهم، أو القلوب الأليمة أزرار كهربائية يضغط عليها الضاغطون، أو تؤثر عليها الجوائح فتضطرب لها أفئدة الناظرين أو السامعين.

كل محسن يشفق، وكل ذي روح أهل لأن يرحم، فهاهم المشفقون يألمون لما يشاهدون من السائلين والشحاذين والحيوان المعذب، ويتمنون رحمة عامة تشمل العالمين.

لكن اختلط الصادقون بالكاذبين والأغنياء بالفقراء والأقوياء بالضعفاء، فما يدري المحسنون إلى من يحسنون، وضاع المستعفون بين السائلين، فأصبح محسننا في حيرة وألم، وأكثر المحتاجين في بؤس وشقاء.

والذي أراه أن يقوم ذو نفوذ كبير ويستعين بالحكومة ويؤلف جمعية لها في كل قصبة (عاصمة) فرع، ويعرضوا على الطبيب في القصبة أو المحافظة كل سائل وشحاذ ليميزوا الصحيح من المريض، ويجعلوا المرضى بعضهم على بعض، فيركموهم جميعًا ويُجروا عليهم الصدقات، ويحشروا الأصِحَّاء في الأعمال

النافعة، ويحرموا عليهم السؤال، كما هو مقتضى الشريعة الإسلامية التي حرّمت السؤال على القادرين.

إن امتزاج الصادق بالكاذب من الفقراء والسائلين مَعَرَّة لا ترضاها الشرائع السماوية ولا الوضعية.

ولو أن جمعية الرفق بالحيوان اتسع نطاقها وضمت إليها هذا العمل، فمازت الصحيح من المريض، وساعدتها الحكومة بجندها وعرف الأمر لكان ذلك عملاً جميلاً، وعرف المحسنون أين ينفقون، وليكن في كل قصبة طائفة تتولى هذه الإدارة وتشرف على الفلاحين وضربهم للبهائم في حقولهم مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب، فإن الرفق بالحيوان لم يزل ضعيفًا، وقد خسرت البلاد أقوامًا من الناس لا عمل لهم هي بهم أحقّ، فلا يكونون عِيالاً على الأمة هم والنساء والدجّالون والبطّالون ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران/ ١٠٤].



الفصل الخامس عشر
علماء الشرق وعلماء الغرب

العلمُ يشقى في العقول ويسعدُ   والــدَّهْــرُ في تَمْـثيـلِـهِ يَـتَـجَـدَّدُ
وتـرى المَـذَاهِـبَ كالقَبَائِلِ تَـارَةً   تبدو وطَـوْرًا في البَلاَقِعِ[1] تَخْمدُ

الدنيا رواية تُمثل في ملاعب الأيام أدوارًا يقوم بتشكيلها الدهر، فيتلعَّب بالعناصر والمذاهب والآراء والشرائع. عَجِبْت لهذا الدهر وما يُحْدثه من الغرائب وما يفيد من العبر، وكيف يعبث بالعناصر ويلعب بالآراء!

قف في مزرعة، وانظر ما زرع فيها وصوّرها، ثم هب الآلة المصورة الشمسية قد رسمت صورها المتعاقبة أجيالاً في أزمان من عصر أن كانت الأرض رطبة فيبست ومرّ عليها قرون ودهور، فتتابعت عليها صور متلاحقة. لو تصوّرت ذلك لقضيت العجب، ولحسبت أنه مرّ عليها من الصور والأشكال ما لو جمع وحصر أمامك ووزع على سطح الكرة الأرضية لمثل لك كل صورة وشكل مما تقلّه الأرض من صور المعدن والنبات والحيوان لعلك تذكر ما ضربه الأقدمون من

(١) البَلاقع: جمع «البَلْقَع» وهو الأرض القفر التي لا شيء بها، الخالية. (م).

مثل ذكروه. ذلك أنهم قالوا من باب الاستعارة التمثيلية: «مَرَّ الخِضْر عليه السلام على صحراء جرداء خلت من الزروع والماء والطير. ثم مضت خمسمائة عام فمَرّ عليها، فإذا هي مدينة زاهية زاهرة خضراء نضرة، فسأل شيخًا كبيرًا متى بُنِيَتْ مدينتكم؟ فنظر إليه شَزِرًا مُتَعَجِّبًا وقال: «يا هذا، مدينة قديمة العهد، بُنِيَت من عهد نوح، مرّت عليها الدهور والحقب». ثم مضت خمسمائة أخرى فمرّ بها، فإذا هي نهر عظيم فيه صياد بشبكته، فسأله متى حُفر؟ فأجابه باستغراب عن سؤاله، وقال مثل ما قال الذي قبله في المدينة. ثم مضت خمسمائة أخرى فوجدها مدينة زاهرة مثل الأُولَى، فسأل فأُجِيب كالسؤال والجواب السابقين».

ضرب الأقدمون هذا مثلاً لتداول الأيام، وتعاقب الأحوال، وتتابع الصلاح والفساد في العمران والأمور المحسوسة.

تداول حكم الخير والشرّ المحسوسات، ولم تفلت منه الآراء ولا المذاهب. ألم تر إلى أمم الشرق ورجالهم وعقولهم الصالحة ونفوسهم الشريفة وكتبهم النافعة، كيف لعب بها الزمان وكَوَّعَها (ضربها فوقعت) الدهر؟ كانت أرضهم مخضرّة عامرة وعقولهم عالمة عاملة، ومعادنهم مستخرجة، وكتبهم مقروءة وآراؤهم مسموعة، فها هي ذي أرضهم غامرة، وعقولهم الخصبة أجْدَبَت، ولم تنبت حبة علم ولا ثمرة حكمة، ومعادنهم مقبورة في صحاريهم، وقَلَّ من قرأ من أبنائهم كتبهم، وأصبح أبناؤهم يعجبون بآراء العلماء من الأجانب، ولا يعلمون أنها مسطورة في كتبهم مذكورة في أسفارهم. والذي دعانا لتسطير هذه الجمل

ما قرأناه آنفًا مما سطره الكاتب الأمريكي ينصح بني أمريكا بالتفكر والتعقل ليعتادوه كما اعتاد إسحق نيوتن الإنكليزي إذ جلس والقمر، وقد حلا له في خلوته النظر، فرأى التفاحة سقطت على الأرض، فقال: يا ليت شعري، ألم يكن القمر مثلها فيسقط، أَوَلَيْس الأثقل أولى بالوقوع من الأخف؟ ثم تجلت له الفكرة عن الجاذبية، فأبرزها من خياله إلى عالم الظهور، وانتشر مذهبه في سائر الأقطار، وأن الشمس تدور كما قال (كوبر نيكوس) حول نفسها، والأجرام العُلْوية تدور حولها والأرض منها، وكلها مجذوبة إلى الشمس، وكل ما على الأرض منجذب إليها؛ لأن الأقل دائمًا يتبع الأكثر ويميل إليه طبيعة. هذا ملخَّص ما يراد من عبارة ذلك الكاتب، وإن لم يوضحها اتكالاً على فهم قرّائه في بلادهم.

قرأت هذا وعجبت من أضاحيك الزمان وأعاجيبه، وعلمت أن الآباء تسعد وتشقى بالأبناء، وأن للآراء والمذاهب دُوَلاً كالرجال والأمم. مَهْلاً يا زمان فقد كنا نظن أن التلعب يحل بالأمم والقبائل بتغلّب القوي على الضعيف؛ إذ لا نرى الحق إلا مع القوة، وقلنا إن المذاهب والعلوم أعلى مكانة وأرفع مقامًا، فلن تتناولها المدافع ولا الديناميت ولا السيوف والبنادق؛ إذ هي في حصن حصين، ترفعت عن المادة، واحتجبت عن العيون، ولن تصل إليها الجنود، فيبقى رأي العالم محفوظًا على ممر الدهور في كل جيل وأمة، لا تعبث به يد الزمن. كنا نظن ذلك ولكن رأيناك أيها الدهر تشاكلت أعمالك، وتساوت أعاجيبك، تسطو على الجموع فتفرقها، وتحبس آراء علمائهم في سجون الكتب، وتُحَرِّم على الناس قراءتها ثم تمحو أسماءهم من دواوين الحكماء حينًا من الدهر، ويقوم بهذه

الألاعيب أبناء الغالبين، فينسبون كل جميل لآبائهم، ويغمطون[١] حقوق آباء الأمم الضعيفة في قبورهم استخفافًا ببنيهم، واستحقارًا لخلفائهم، وإماتة لنفوسهم لئلا يقولوا لنا: مجد قديم نطلبه أو ملك فات نرقبه، مهلاً أيها القارئ: أنا لا أنكر على القوم علومهم واجتهادهم، فإن لهم في العلم آثارًا جليلة. من أنكرها فقد كابر، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

وإنما أنا موقن كما قال «سديو» الفرنسي في كتابه: «إن أغلب الآراء والاختراعات والاكتشافات قد نسبت إلى قوم من أوربا، وكثير منها للعرب»، وقد برهن هذا العالم العظيم على ذلك في كتابه المترجَم إلى اللغة العربية ببراهين قوية، وافتخر بأنه أول من أظهر فضل العرب.

هذه المسألة التي نحن بصددها الآن نجدها مسطورة في شَرْحَي العلامة الخواجة (نصير الدين الطوسي)، والإمام (فخر الدين الرازي) على إشارات العلامة الرئيس ابن سينا من نحو ألف سنة مما تعدُّون، فقد أوضح الرئيس وشارحاه موضوع الجاذبية، وذكروا حجج الحكماء في ذلك. وملخصه كما في صفحة ١١٥ و١٥٥:

إن الأرض والماء والهواء طالبة للمركز، وكلما كان الجرم أثقل كان أقرب من المركز، وكلما كان أخف كان أعلى؛ لأن الأثقل كافحه فغلبه فأخذ المكان

---

(١) يَغْمِطُون: يُنكرون. (م).

الأسفل قبله فطرده إلى الأعلى، وعليه رتبت الأرض، فالماء فالهواء، فكل هذا المشاهد أمامنا مجذوب جهة المركز، هذا قول بعض الحكماء.

وقد ردّ على هذا الفريق الرئيسُ ابن سينا، واحتج بما يفيد أن الزقّ المنتفخ تحت الماء نراه يميل إلى الارتفاع إلى أعلى كلما كان أكبر، ويبطي في الطفو على وجه الماء كلما كان أصغر، ولو كان ذلك بالجاذبية لكان الأمر بالعكس، فإن ثِقَل الأوّل يدعوه للاستقرار بالجاذبية، وخفة الثاني تدعوه للارتفاع لضعف الجاذبية، وهذه المسألة لها اتصال بقضية «أرشيميدس» المشهورة التي على ناموسها تسير السفن في البحار، ويعوم السمك بالهواء الداخل في جوفه، فكلما كان حجم الشيء أخفّ كان أقرب إلى الطفو على وجه الماء ويعوم، وكلما كان هواؤه أقل قلّ طفوه.

فانظر كيف كانت مسألة الجاذبية مطروحة قبل الرئيس ابن سينا على أنظار العلماء وهم يبحثون فيها، وهو يعتمد أنها لا تُسَمَّى جاذبية؛ إذ ميل الزقّ المنفوخ لأعلى دليل أنه مجذوب للهواء الذي هو من جنسه في المكان المعدّ له، وليس مرادنا الآن تحقيق الجاذبية، فإن آخر ما وصل إليه العلماء ما قاله العلامة فيليكس لاميروس الفرنسي: «إن الجاذبية تعلم منها الفعل وتجهل السبب، وقد فرضها العلماء فرضًا تسير على منواله النواميس الطبيعية والقوانين الفلكية، وأما هو فحقيقة مجهولة على الناس»، اهـ.

وإنما نذكرها هنا استشهادًا على ألاعيب الزمان، وأن الأبناء يشيدون بذكر الآباء، ويجعلون حَبَّتَهم سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ويضاعفون كما يشاءون.

فانظر كيف كانت هذه المسألة مسطورة في الكتب، وقد نسيت أسماء المتكلمين فيها من العرب، ونُسبت بحذافيرها إلى الأوربيين كأن من قبلهم ليسوا شيئًا مذكورًا.

كما أن كتاب المواقف المدفون في خزانات الأزهر الشريف قد شرح دوران الأرض حول الشمس، واعتمد الشارح قول المتن في ذلك، وهذا الكتاب مؤلف قبل ظهور أوربا من العدم إلى الوجود، كما كان ابن سينا قبل خلق أجدادهم، ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم جاء «كوبر نيكوس» العلامة الإفرنجي وقام في أوربا وقال: «إن الأرض هي الدائرة حول الشمس، وكان ما كان، ومع ذلك نسب إليه هذا الاكتشاف، وكتاب المواقف يقرؤه طلبة العلم في بلاد الشرق قاطبة».

وترى علماء التربية من الإفرنج يبتدئون بذكر الصين والهند واليهود والرومان واليونان ويقولون: أدب الصين ظاهري فأسقطهم، والهنود جبرية إذ قالوا: لا عمل للعبيد، فهم كالريشة المعلقة في الهواء، واليهود مع ظهور أثر جميل لتعاليمهم فقد لانوا في التأديب، ففسدت الطباع، وغلبت الفلسفة العقلية، وأهمل الجسم عند أهل أثينا من اليونان، والعكس عند أهل إسبارطة، وقلد

الرومان مدارس أفلاطون وسقراط من أهل أثينا فلم يفلحوا في تعاليمهم، ثم يقزحون خطوة وينسون علماء الإسلام الذين هم أصل نعمتهم، ثم يقولون: وبعد ذلك أغمض الزمان أجفانه على الناس، فأظلمت الأرض من القرون الأولى للإسلام إلى القرن الثاني عشر المسيحي، ثم يذكرون من نبغوا في التربية مثل (إيراسموس الهولاندي) في القرن الخامس عشر المسيحي، وينسبون له أنه أول من قرر الفنون الجميلة في التعليم، وإسكام الإنكليزي في القرن السادس عشر، وكذلك (فولكاستر) من إنكلترا في القرن نفسه، ويقولون إنه أوّل من أوجب تعلم اللغة الوطنية في أول الأمر مع أن هذه هي طريقة العرب.

وهكذا يبلي الفرنسي ما بين القرن الخامس عشر والسادس عشر، ويقولون:

إنه أول من قال بلزوم تعلم العلوم الطبيعية مع أن الإمام الغزالي قررها، وابن سينا في التعليم، ولوثر الألماني في القرن السادس عشر، وينسبون إليه الحرية في فهم الكتاب المقدس، ويقولون: هو أول من قال بوجوب التعليم الإجباري، مع أن الحديث ورد «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». وهذه طريقة طائفة كبيرة من حكماء الإسلام: منهم الغزالي، وابن رشد، وأضرابهم، وكومنيوس النمساوي في القرن السابع عشر، وينسبون له تقليد الطبيعة، ولوك الإنجليزي، وينسبون له وجوب التشويق في التعليم، ويوحنا هنري بستا لوتزي التلياني في القرن الثامن عشر، وكان مربيًا تربية عملية، يذكرون هؤلاء، ولا ينسبون إلى علماء الإسلام شيئًا مذكورًا، وينسبون كل فضل لهم، وأكبر شيء يفتخرون به التربية

الجسمية مع أن السبق والرمي مشروحان في كتب الإسلام. نعم، العمل قليل وهم أكثروه، إنما الغريب أنهم لا يذكرون شيئًا عن ذلك، وكأنهم لما ورثوا أرضهم وديارهم أرادوا قتل آبائهم في برازخهم، ومحو أسمائهم من دواوين الفضلاء، وسنذكر بعد مقارنة في الآداب بين باكون الإنكليزي، والعلامة الغزالي.



الفصل السادس عشر
علماء المشرق والمغرب: العَلاَّمَة الغزالي، وباكون الإنكليزي

قرأنا مقالاً نقل عن باكون في الأدب، نقله هو عن عالم تلياني ينصح الأبناء ألا يَغْتَرُّوا بأصحابهم، وأن الصديق كم أغرى صديقه بما يوقعه في الهلاك، وكم تعاطى السكر بإغرائه، وكم اغتر بمدحه فأصبح عاطلاً من العلم، وكم نجع أناس قَلَّتْ أصدقاؤهم، وهكذا من الحقائق الرائقة، والحكم النافعة التي ذكرها الكاتب الأمريكي شرحًا لقول باكون في الاحتراس من الصديق وتغريره. وأما العدو فأمره أهون والاحتراس منه طبيعي، وأن نصائح العلماء موجهة إلى العفو عنه، ولم يكلفوا الناس حملاً أثقل منه، وهو احتمال مضارّ الصديق كالإطراء[1] القاصم للظهر الموقع في الغرور وكالبطالة والكسل واللهو، وأن العدوّ العاقل خير من هذا الصديق الجاهل. قرأت ذلك فتذكرت ما كتبه الإمام الغزالي عن الصديق، وعجبت من أبناء الشرق والغرب.

يقول العالم الغربي كلمة فتهتز لها الأَرَضُون، وتطرب لها الأفئدة، وتطوف المجالس، وتدور دوران الماء في المحيط والكهرباء في الأسلاك، وتطير فوق البحار،

---

(١) الإطراء: المدح، إحسان الثناء. (م).

وتنتقل من أوربا إلى أمريكا، ثم تصل إلى آذاننا في جرائدنا العربية: كالمؤيد، وأمثال هذه الحكمة في موضوعها بين ظهرانينا، ونحن عنها غافلون.

وانظر ما قاله العلامة الغزالي في هذا المعنى نفسه تراه كثيرًا جدًّا في مواضع من كتبه، وكم ندّد على الناس في الاغترار بالأصدقاء؟ ولقد رأيته مرة يقول: «لئن اغتررت بأصحابك ومدحهم إياك وَهَبْهُم خمسين، فكم من رجل جاهل في السوق له أصحاب أكثر منك وهم له أكثر تعظيمًا»، وقال مرة: «لا يسوق الناس إلى النار إلا أصحابهم والرياء والنفاق لهم، كل هذا وأبناء الشرق عنه غافلون».

قلنا إن الآباء تشقى بالأبناء وتسعد، وإن الأمة الغالبة تحيي علومها وآثارها، وإن الناس مولعون بالغالب، ويغلب على أوهام البسطاء أن آباءهم خير من آبائنا وعلماءهم خير من علمائنا، ولو كان علماؤنا يعلمون ما كان أبناؤهم (وهم نحن) خائبين، وأنه لولا أن آباءهم أعلم من آبائنا ما غلبونا.

كل هذه الأقيسة تخطر بالقلب، ولكن لا يُعبَّر عنها حياءً أو خجلاً أو عجزًا، هذه أقيسة منطقية نقص شكلها وسقطت نتائجها، وليس يعمل امرؤ عملاً أو يعتقد اعتقادًا إلا وفي نفسه أشكال منطقية صادقة أو كاذبة، فها أنت ذا سمعت ما قاله باكون وشرحه الشارح، وقال: «ليذكر كل امرئ تجربته»، والآن أُسْمِعُك ما قاله حجة الإسلام الغزالي في الكلام على الصديق والعدوّ. قال في الصديق ما ملخصه:

«إن للصديق على وجه الإجمال خمسة شروط: العقل، وحسن الخلق، وعدم الفسق، وعدم البدعة، وعدم الحرص على الدنيا. فالعقل رأس المال، فإن لم يكن ذا عقل رجعت الصحبة إلى القطيعة.

قال علي رضي الله عنه:

فلا تَصْحَبْ أخا الجَهْلِ ... وإيَّاكَ وإيَّاهُ
فكَمْ مِنْ جاهلٍ أَرْدَى ... حكيمًا حينَ آخاهُ
يُقَاسُ المرءُ بالمرءِ ... إذا ما المرءُ ماشاه
وللشيءِ على الشيءِ ... مقاييسٌ وأشباهُ
وللقلبِ على القلبِ ... دَليلٌ حينَ يَلْقَاه

كيف والأحمق قد يضرك، وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري؟

قال الشاعر:

إنِّي لآَمَنُ مِنْ عَدُوٍّ عاَقِلٍ ... وأَخَافُ خِلاًّ يَعْتريهِ جُنُونُ
فالعقلُ حقٌّ واحدٌ وطريقُهُ ... أردى فأرصدَ والجنونُ فنونُ

ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله.

وأما حسن الخلق فإنه رُبّ عاقل يفهم الأمور، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن، أطاع هواه، وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته.

وأما الفاسق المُصِرّ على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من لا يخاف الله لا تُؤمَن غائلته[١].

وأما الشَّره على الدنيا فإنه يعديك ويبعدك عن الفضائل، والمبتدع قد يَجُرُّك إلى بدعته، وقد ذكر للعزلة فوائد وثمرات، وحصرها في ست مسائل:

الأولى: أن العزلة أدعى إلى استجماع القوى في طلب العلم والفكر واستنتاج النتائج والحقائق المجهولة من الأمور المعلومة، ولذلك قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا من الخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة، وتثبيت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة، ويذوقوا حلاوة المعرفة، وقال بعض الحكماء: «إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخُلُوِّ ذاته من الفضيلة، فيكثر حينئذ من ملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالسكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة».

الثانية: التخلص بالعُزْلة من المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبًا بالمخالطة، ويسلم منها في الخلوة، وهي الغِيبَة، والنميمة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخطيئة.

---

(١) غائلته: عاقبة شرِّه. (م).

الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس من الخوض فيها، والتعرض لأخطارها، وقَلَّما تخلو البلاد عن نقصان وفتن وخصومات، فالعزلة عنهم سلامة منها.

الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتُّهمة، ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعييه الوفاء بها، وتارة بالنميمة والكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كُنْهَه، فيتَّخذون ذلك ذخيرة عندهم يدَّخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر.

الخامسة: أن يقل طمع الناس فيك، ويقلّ طمعك فيهم.

السادسة: الخلاص من مشاهدة الثُّقَلاء والحمقى، فإن رؤية الثَّقِيل هي العمى الأصغر. قيل للأعمش: مِمَّ عَمِشَت عيناك؟ فقال: من النظر إلى الثقلاء.

وقال ابن سيرين: «سمعت رجلاً يقول: نظرت إلى ثقيل مرة فغشي عليّ». وقال جالينوس: «لكل شيء حُمّى، وحمى الروح النظر إلى الثقلاء». وقال الشافعي: «ما جالست ثقيلاً إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل عليّ من الجانب الآخر».

هذا ملخص ما ذكره في فوائد العزلة، ثم ذكر ثمرات المخالطة، وهي سبع: التعلم والتعليم، النفع والانتفاع، التأدب والتأديب، الاستئناس والإيناس، نيل

الثواب وإنالته، تعلم التواضع بالمخالطة؛ لأن العزلة قد تكون عن كبر، ثم التجارب وهي الخصلة السابعة، فربما كان القلب مشحونًا بنقائص ومعايب لا تظهر للإنسان إلا بالمخالطة، هذه فوائد العزلة وفوائد المخالطة، والحكم العدل في ذلك قياس المنافع بالمضار، ثم قال بعد كلام ما نصه:

«إذا عرضت فوائد العزلة وغوائلها، تحققت أن الحكم عليها بالتفضيل مطلقًا نفيًا وإثباتًا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل، وكلام الشافعي - رحمه الله - فصل الخطاب؛ إذ قال: يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة العداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط؛ فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك بالأحوال، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل، هذا هو الحق الصُّرَاح، وكل ما ذكر سوى هذا قاصر، وإنما هو إخبار كل واحد عن حادثة خاصة، ولا يجوز تعميمها».

هذا ما قاله العلاَّمة الغزالي في الصديق والعزلة عنه ومخالطته، وذكر العدوّ عند الكلام على الطريق الذي به يعرف الإنسان عيوب نفسه، وهي أربعة:

الأول: الأستاذ المرشد الذي يعرف عيوب النفوس، وهذا قد عزّ في هذا الزمن.

والثاني: أن يجعل له صديقًا يسأله عن عيوب نفسه، فيتجنب كل ما يسمع من ذلك.

الثالث: وهو مقصودنا الآن، أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساوي، ولعل انتفاع الإنسان بعدوٍّ مُشَاحنٍ يذكّره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مُدَاهِن[١] يثني عليه ويمدحه، ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مَجْبُول[٢] على تكذيب العدوّ وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو من الانتفاع بقول أعدائه، فإن مساويه لابد أن تنتشر على ألسنتهم.

الرابع: أن يترك كل ما يكرهه من الناس. انتهى ملخصًا.

ويذكرني هذا ما قاله بعض القدماء في منفعة العدو:

عِـدايَ لَـهُـمْ فَضْلٌ عليّ ومِنَّةٌ فلا أبعدَ الرحمنُ عني الأعادِيَا
هُمُ بحثُوا عن زَلَّتِي[٣] فاجتنبتُها وهُم نَافَسُوني فاجَتَنيتُ المَعَاليا
فلست بَهيَّابٍ لمن لا يَهَابُنِي ولستُ أرى للمرءِ ما لا يرى ليَا
كلانا غنيّ عـن أخـيـهِ حياتَه ونحن إذا مِـتْـنَـا أشَـدُّ تَغَانِيا

وقد خمستُها فقلت:

(١) مُداهن: منافق. (م).
(٢) مَجْبُول على الشيء: صار من طبيعته. (م).
(٣) زلّة: خطأ. (م).

إذا ما اعْتَرَتْنِي في الحوادثِ مِحْنَةٌ تَبَدَّتْ لِنَفْسِي في المَعَارِف سنةٌ
وإن يحسدِ الأعدا بَدَتْ لي فطنةٌ عِـــدَايَ لهم فضلٌ عليَّ ومنةٌ

فلا أَبْعَدَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الأَعَادِيا

لقد عَلِمُوا آدابَ نفسٍ سبرتُها[1] وهذَّبتُها حتى استقامتْ وصُنْتُها
ولَمْ أَلُمِ الأعداءَ لا بل شكرتُها هم بَحَثُوا عن زَلَّتِي فاجتنبْتُها

وهم نافسوني فاجْتَنَيْتُ المَعَاليا

ولي هِمَّةٌ فوقَ الثُّرَيَّا[2] تُقِلُّنِي فأُثْني عِناني للفتَى حين يَنْثَني
وأضربُ عنه الذِّكْرَ صفحًا ولا أَني[3] فلستُ بهَيَّابٍ لمن لا يَهَابُنِي

ولستُ أرى للمرء ما لا يرى لِيَا

وإني امرؤٌ بالعِزِّ أكْمَلَ ذَاتَهُ فلا طمعٌ في الصَّحْبِ إلا أماتَهُ
ولستُ أدَارِي المرءَ إلا تقاته كلانا غَنِيٌّ عن أخيهِ حياتَهُ

ونحنُ إذا مِتْنَا أَشَدُّ تغَانِيَا

---

(١) سبرتها: اختبرتها. (م).
(٢) الثريا: مجموعة من النجوم في صورة الثور. (م).
(٣) أَنِي: أتعب. (م).



الفصل السابع عشر
العقول والأوهام

هذا موضوع يبرزه العقل ويُنَمِّيه علم المنطق (قوانين المعقولات) صورته العلوم، غايته الأعمال، المنطق طبيعة في الإنسان، غريزة في الحيوان، يلازمه لزوم الغذاء وغرائز الشهوات، وحب اللذات، ودفع المكروهات.

العقل وأحكامه قبسة من نور الله، أشرقت في هياكل الحيوان وسيده الإنسان حلت بفنائه، ودارت في أعصابه، وحركت أعضاءه، مركزها دماغه، شعاعها في قلبه، تفرَّعت في حواسِّه ودورة دمه، ثم حزنت فيها الصور والأشباح والأشكال، وجهل الحكماء قاطبةً مستقرَّها ومستودعها. قالوا: هذا الدماغ مقدَّر موزون في جمجمة الرأس، وكيف نرى صورًا لا تتناهى قد رسمت في عقولنا أكبر من السماء وما حوت، والأرض وما وعت، والفضاء وما طوى؟

إذا كان هذا الذهن المخزون في الرأس لوح زجاج المصورة الشمسية (الآلة الفتوغرافية) فكيف قبلت ملايين من الصور والمعاني؟ إن هذا لشيءٌ عجاب،

خارج عن التراب، مُعَلَّق برب الأرباب، وما هذا الدماغ إلا مكان استعداده كاشتعال النار فيما توقدون.

هذا النور المفاض على الهياكل الإنسانية والحيوانية يصرف الأجسام بقوانين منطقية، لا يتجافى عنها الإنسان، ولا يتنزل عنها الحيوان في جلب النافع ودفع الضار، وذلك بقضيتين تتبعهما نتيجة، فإن كانت الإصابة فالعقل هو الدليل، وإن كان الخطأ فالوهم هو المضلّ المبين، لابد لي أن أوضح لك هذا القول إيضاحًا تامًّا مبينًا، حتى ترى جمال المنطق وحسنه في قول جميل، ثم تعجب من عقل الإنسان المشرق بأنواره، وكيف يخدعه الخادعون، وكيف تضله الأوهام والظنون!

أنت تعلم في المشاهدات المحسوسات أن كل نبات يصدر عن أبوين مذكر ومؤنث، وهكذا كل من له أبوان، والنبات أمه التراب وأبوه لطائف من الهواء والماء والحرارة، والعلم ليس ينجم إلا عن مُعَلِّم ومُتَعَلِّم، والجملة فكل عمل من أعمال الحياة فإنما يصدر عن مقدمتين، وكما سرى هذا في المحسوسات سرى في المعقولات، فحاصل الضرب من مضروبين وباقي الطرح لعددين، وخارج القسمة لمقسوم ومقسوم عليه.

فهكذا علم المنطق، كل نتيجة فإنما تصدر من مقدمتين.

أنت تعلم أن كل حيوان أو إنسان أصابه جوع يسعى للغذاء، فلو كشف لك عما انطوى عليه إدراكه لقرأت فيه قياسًا منظمًا هكذا (أنا جائع، وكل جائع يجب عليه التغذي، فأنا يجب عليَّ التغذي)، فهاتان جملتان كالأبوين: أنا جائع، إحداهما، وكل جائع يجب عليه التغذي، الثانية، فإذا حذفت المكرر منهما كانت النتيجة هكذا: أنا يجب عليَّ التغذي، هذا في جلب النافع لكل حيّ، وهكذا في دفع الضار تقول: الحية مؤذية، وكل مؤذٍ يجب اجتنابه، فالحية يجب اجتنابها، على قياس ما قدَّمناه في المقدمتين والنتيجة، ولولا هذه البراهين قائمة بغرائز الحيوان وعقل الإنسان المشرف على الأدمغة والأجسام ما طلبنا غذاء، ولا تحامينا تهلكة ولفني نوع الحيوان في يوم أو بعض يوم، ولا تظن أن هذا أمر عسير، فأنت تسمع الصبيّ وقد نهيته عن اللعب يقول لك: «كلّ الصبيان يلعبون»، فأتى بإحدى المقدمتين، وترك لك النتيجة المفهومة كأنه يقول: «أنا صبيّ منهم فلابد أن ألعب»، ها أنت عرفت البرهان الصادق الذي مصدره العقل، وتأمل الوهم، كيف يضل الإنسان فترى الرجل الملدوغ مرة يفرق (يفزع) من الحبل إذا أمرّ عليه بقياس كاذب موهوم، كأنه يقول: هذا طويل ليّن، وكل طويل ليّن فهو حية، فهذه حية مع أن الجملة الثانية غلط أدخلها عليه الوهم من الأثر المطبوع في نفسه من لدغ الحية، وإلا فليس كل طويل حية فقد يكون حَبْلاً، وهل تظن أني أذكر هذا القول إلا تمهيدًا لما ستراه من الأغلاط الوهمية في أعمال الحياة في هذه الدنيا، فَقِسْ على هذا ما ستسمعه بلا قياس منطقيّ، ففطنتك أحرى بالعناية بعد ما قدّمنا. يرى الرجل الميت فيفرق منه ويضطرب، وإذا مرّ بالمقبرة شعر

بخوف مصدره الوهم، كأنه يقول: «هذا ميت»، وكل ميت يخاف منه والغلط نشأ من الاشتقاق؛ لأن الموت هو المخيف، وأما الميت فكيف يخاف منه وهو صريع ذلك البطل العظيم، وهو الموت، ثم انظر كيف يرى صبيّ أن كلّ صبي له أبوان حيان، وإخوة، وبستان، وعربة كما في منزل أبويه، ثم ينسخ ذلك الوهم التجارب والتمييز، وترى العامِّيَّ يظن أن الدنيا سطح مستوٍ، ولن يزيل هذا الوهم إلا العلم، والعقل وحده غير كاف، وإذا أمطرت سماؤه ظن كل سماء ممطرة، ولن يزول هذا الوهم إلا السفر مع البصيرة والتعليم، ومن ذلك ما يُحْكَى عن علماء بني إسرائيل في رواياتهم؛ إذ قالوا: «إن نبي الله سليمان عليه السلام أرسل عفريتًا عَالِمًا بالآلات التي تنحت الأحجار، ولا يسمع لها صوت محافظة على نبي الله أن يسمع الصوت؛ لئلا يشغله عن الصلاة، وكان ذلك في بناء بيت المقدس، فلما أن رجع ذلك العِفْريت العَالم قال: إنه رأى سقَّاءً ربط بَغْلَتَه بجرّة على شاطئ البحر، وتدلَّى إلى الماء فملأ القربة، فما رجع حتى أثارت البغلة الجرّة فكسرتها، ثم مرّ على رجل أكل البصل مرة فشفي من مرضه، فصار يصف البصل لكلّ مريض بالعين أو الرجل أو الرأس».

هذه الحكاية ذكرها علماؤهم من باب ضرب الأمثال، لدلالة الناس على مكان إضلال الوهم للعقل؛ إذ الجرّة في المثال الأول، والبصل في الثاني لا يغنيان شيئًا، وإنما أعطاهما الشيطان وهم الجاهلين، ومن غلط الوهم أن يتعاطى الأصِحَّاء الدواء قياسًا على نفعه المرضى ويقولون أكثر من الخير، وهكذا من

يكثر الكلام أو الطعام ويقول أكثر من الخير فهو خير، ومن الوهم أن يحتمي الأَصِحّاء: أي يقللون الطعام والشراب جدًّا مع أن الأمرين كما ينفعان المرضى يَضُرَّان الأصحاء، وإنما الملبس الوهم، ومن تلبيس الوهم على الإنسان أن يقول: «إن القليل كالمعدوم في المُسْكِرَات»، ويتغافل عن قضية حقيقية، وهي الكثير ناتج من القليل فيشرب القليل مراعاة للقضية الأولى، ويغفل عن القضية الحق، وهي الكثير مجتمع من القليل وأن الدنيا كلها من ذرات والذرّات أصل الوجود، والعدد كله ركنه الواحد، فإذا قلنا الواحد معدوم، فكل عدد فهو معدوم، فالقطرة من المُسْكِر أصل للكثير، فالوهم يعتمد التشبيه ويغفل عن التحقيق، فإن قولك كالعدم غير قولك هو معدوم، وهكذا يزين الوهم للإنسان على هذه القاعدة زيادة لُقْمَة أو شربة تساهلاً وإلحاقًا له بالعدم، وكم زين الوهم للإنسان ممازحة الجهال قياسًا لهم على الفضلاء خطأ، أو أن يمدحهم فيغترُّوا، أو يشتم الناس ضحكًا فيصير عادة، أو يكشف ما لا يليق في الخلوة فيفتضح في الجهر. كلّ هذا على قاعدة أن القليل في حكم المعدوم مع أنه أصل الكثير.

وكم عجل الوهم في الحكم غلطًا، وقد ضرب بيدبا الفيلسوف لذلك مثلاً بابن عِرْس والناسك؛ إذ خرجت زوجه للحمام، وهو خرج للملك، ووكل بابنهما ابن عرس أليف، فانبرى[1] ثعبان من الحائط فقتله ابن عرس وقطعه إِرْبًا إربًا، فلما أن جاء الناسك قابله ابن عرس بفم مُلَطَّخ بالدم إشعارًا بفخار حماية الغلام،

(١) انبرى: ظهر. (م).

فعجل الناسك واهمًا أنه قتل ابنه فأذاقه الحتف، فلما تبيَّن له الخطأ سُقِطَ في يده (نَدِم). ذلك ضربه الحكيم مثلاً للوهم الذي زين له أن الذي على فمه إنما هو دم ابنه فتبيَّن له الخطأ. ومن الوهم أن يترك بعض الناس العبادة قائلاً إن كثيرًا ممن انهمكوا فيها من الضعفاء والفقراء أو الفاسقين أو الجهلاء، وهذا وهم، ومثل هذا يلزمه ألا يأكل؛ لأن هؤلاء كلهم يأكلون ولا يلبس لأنهم يلبسون، ولا يتزوّج، ولا يلبس الطربوش الذي هم فيه له يشاركون. ومن الوهم السائد على الخاصة فضلاً عن العامة خلط القوة بالأدب فتقلد الأمة المغلوبة الغالبة في آدابها، وهي إنما قهرتها بقوة السيف أو الخداع أو هما معًا، مع أن الأدب أمر غيرهما، وقد يجرّ الوهم إلى احترام كلّ من كان بزي الغالب ولباسه، وترى الأمم المغلوبة تصغي إلى كل كلمة يسمعونها من الغالبين، وإن سمعوا أرقى منها عن الأمم المغلوبة لم يحفظوها ولم يَعُوها، وذلك للخلط بالوهم بين قوة الحرب وقوَّة العلم، ومن هذا الانتخاب في مجالس الشورى، فإنه عند الأمم المُنْحَطَّة مبناه قوة المال أو الجاه من باب اشتباه قوة المال أو الجاه بالعقل والعلم وعدم التمييز بينهما، ولعمرك إن ما ضربه علماء بني إسرائيل مثلاً بالجرّة والبغلة، وربطها في الجرة منطبق على هذه. ألا ترى أن الرجل بلا علم كالجرة فهو طين مطبوخ بحرارة النار، والفارق بينهما حسن الرَّوِيَّة والتدبير، ويقول في الكتاب: إن الإنسان من صلصال كالفخار، وهذا ظاهر ولا يفرقه عن الفخار إلا العقل والروية، فمن وَهِمَ وانتخب عضوًا جاهلاً يمثل الأمة كان كذلك السقاء ربط البغلة في جرة فلم تُغنِ عنه شيئًا، والخطأ في هذا ناشئ من تحكيم حاسَّة البصر، فقد شاهدت شيئًا ظاهرًا على

الأرض ولا ريب أن الحكم يستدعي شاهدين، ولو أنه مدّ يده فأمسكها لحكم بأنها لا تصلح للربط ولا الثبات، فلا مَنَاصَ في الأحكام الحق من حاستين، وهما هنا البصر واللمس الذي به معرفة الأثقال، وهنا في مسألة النوّاب ينظر الجهال لظواهر الأجسام والمال والجاه المشبهة لجرم الجرّة ويغفلون عن العقل والاستعداد. الموازنة هناك للثقل والخفة ولها مشابهة للطبيب الآمر لكلّ مريض بأكل البصل، فأولئك الجهَّال المنتخبون من ذوي الثروة قد يغنون في مواطن المال، ولكنهم لا يغنون في مواطن العلوم والآراء كالبصل في يد ذلك المتطبب إفادة في اشتهاء الطعام وإصلاح المعدة، فقاده الوهم إلى فائدته في جميع الأمراض، وهذا كله من الأوهام.



الفصل الثامن عشر
العقول والأوهام (تابع ما قبله)

ومن الأوهام الداخلة على الناس خاصة وعامة الاغترار بأدب ساعة، أو حسن الزي فيختلج[١] في العقول أن هذه الهيئة الظاهرة لن يحملها إلا من كملت صفاته، فيتبعها المصاحبة أو المصاهرة فيكون الوَيْل والثُّبُور[٢].

ومن الغلط في القياس أن يقرأ الناس في الجرائد والمجلات أن سُوَّاس[٣] الأمم الراقية لا يرعون العهود، ويَنْقُضُون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسد كثير من الملوك في الأرض قديمًا وحديثًا، وينزلون الصواعق على كل من طمعوا في ماله، لا يبالون أعَلَى دينهم كان أم على غيره، فترى الشرقي يسمع هذا فيقول: هكذا الذين لا يرعون العهود وهم أشراف الأمم، وأنا لا أرعى العهود ولا الصدق فَلأَكُنْ منهم، وهذا قياس قبيح موهوم. ألا ترى أنهم يرعون العهود مع أبناء وطنهم، ويخلفونها مع غيرهم لحاجة؟ وهم

(١) يختلج الفكر في العقول: أي دار في شكٍّ. (م).
(٢) الثبور: الهلاك والويل. (م).
(٣) سُوَّاس: قادة وأمراء. (م).

يخافون من اشتهارهم بصفة عار تلحقهم، وها هو سيسيل رودس الإنكليزي وقف حياته على أن تسود إنكلترا على بلاد أفريقية ولم يخلف ولدًا ووقف ماله كله على محبوبته إنكلترا، فمثل هذا إن خادع العبيد السود في بلاد الكفر، فهو مع بني التأميز أصدق صادق، أشِدَّاء على غيرهم رحماء بينهم، فترى هذا القياس خطأه من وجهين ظاهرين؛ إذ هو مقيد بمن وفوا مع بني جنسهم، ولن يخلفوا مع غيرهم إلا لضرورة شديدة، وربما اغترَّ بهذا فريق فكذبوا مع مواطنيهم فعرفوهم ففرّوا منهم.

على أن الساسة عند علماء الأمم كالحُرَّاس على الممالك، فإذا ساءت أخلاقهم وقبحت فعالهم فليكونوا فداء الشعب الصادق، فإذا قبحت أخلاق الساسة فليكونوا سياجًا[1] وحصنًا لعلماء الأمة الذين ابتعدوا عن الرذائل، وبرهان ذلك ما تسمعه منهم إذا صفا الوقت وطاب الزمن وجلست تحادث كبيرًا من أكابرهم فتراه صادقًا في القول حسن الكلام موفيًا بالعهد، حتى إذا ذكرت له المطامع المتَّجهة منهم إلى بلادك يقول: أما أنا فبصفتي غربيًّا وأنت شرقي فلا أساعدك، كأنه يقول: أنا حسن الخلق إلا معكم ولي ذِمَّة في بلادي ولا ذمة لي معكم. فهذه تصريحات أولئك، ولن تسمع هذا القول من هداتهم؛ علمائهم وفلاسفتهم، ولعلك تذكر اسبنسر العلاَّمة الفيلسوف الإنكليزي؛ إذ أَسَرَّ إلى الفيلسوف الياباني بسرّ السياسة، وقال له: احذروا الغربيين، واذكروا الهند

(١) سياجًا: مانعًا. (م).

وخرابه وذهابه، واحذروا التزوج من الأوربين، ولما خاف من رعاع بني جنسه وساستهم، قال له: أُكْتُمْ قولي حتى أموت، فكان ذلك. فلله دَرُّ العلم، وما أجمل الحكمة وتَعِسَت السياسة وأفّ لها، وبعدًا لقوم لا يُفَرِّقون بين الفضيلة وضدّها. واتل عليهم نبأ نابليون إذ قال لقومه ألا تسلمون مع المسلمين المصريين، فأسلم هو وجنوده في الأرض طمعًا في ملك مصر، وهذه الأنهار التي تجري من تحتها، فداس على الدين، واتَّخذه أُحْبُولة[1] وشبكة يصطاد بها الخبز والقميص والجلال والملك كالعنكبوت اتخذت بيتًا تصيد به الذباب؛ إذ هذا الفريق كل قواه تتجه إلى مركز الثقل، وهو السلطان والقوة. فإن وصلوا لها بالسلاح فبها، وإلا احتالوا بدين أو خداع أو لغة أو وطن، ولذلك رجع إلى النصرانية نابليون إذ خرج من مصر، وتراهم يعدلون ويوفون بالعهود مع الأمم التي لها قوة كقوَّتهم، فإذا ضعفت بعدُ القوة قالوا لا عدل وليكن القهر الواجب. فمتى تكون هذه الدنيا صدقًا؟ ومتى يسود العلم والعدل وتنال الأمم الضعيفة حقوقها؟ ولعلَّ هذه الدنيا دار الفسوق والعصيان، فإنَّا لم نرها صَفَتْ وعدلت إلا قليلاً.

ومن الأوهام تصديق ما أوجبته قرانات الكواكب والمنامات وصَوَّرَتْهُ الأحلام في عالم الخيال أو الكهانة، فإن قرانات الكواكب إن صدقت في صورة فقد تخطئ في أخرى؛ إذ ليس يحيط الحاسب بجميع ما في العالم العلوي والسفلي، ولو أحاط لكان الحكم صادقًا فإنه لا ريب أن هذا العالم مزاج واحد

(١) أُحْبُولة: مصيدة. (م).

يدلّ بعض أجزائه على بعض كحال المريض تجسّ نبضه فتعرف عِلّته، وقد تتشابه الأمراض: فالطب وإن كان ظنيًّا فهو أقرب من علم أحكام النجوم لبُعدِه وصعوبته وغَوْرِ مسائله، فقد يصدق بفراسة الحاسب وهيهات أن يحيط به علمًا، ولعمرك لم تتفلَّت تلك الحوادث من وراء الحجب فيسترق المنجِّمون السمع وأكثرهم كاذبون. ألا ليجدّ العلماء في البحث وليعلموا أن عالمنا فيه خبايا وأسرار كما تفجَّرت ينابيع الغيب في بعض الأحلام، لتوقظ الناس إلى أن لهم عَالَمًا أجمل وأبهى من هذا العالم الذي كله ظلم وغدر وخيانة، فليَجِدّوا في العلم، عسى أن يشتاقوا إليه وله يصعدون، ولم يرد أن تكون تلك كعيون (جواسيس) على الغيب. نعم لها دلالة على استعداد صاحبها لما يغلب على خياله وأحلامه، إذ هي من جنس ما له استعداد.

وإنما كانت الرؤى والكهانة والأخبار الصادرة من بعض الصالحين الصادقين أو من الذين جُنّوا جنونًا سوداويًّا كما قاله ابن خلدون، فذلك أن لنفوس الناس إشرافًا على عالم غَيْر عالمنا شريف رفيع، فكانت الحكمة تقضي بإيقاظ الناس له كل آن. إما بالطبع كالكهانة، أو بالحساب كالتنجيم، أو بانصراف النفوس عن عالم الحس والمحسوس في المنام أو العبادة، أو أمراض سوداوية.

فإياك أن يتخطى بك حكم الوهم المطلق فتقع في الخطأ، ففي الرؤيا صادق وكاذب، وهكذا الكهانة كما ورد في خطاب النبي ﷺ لابن صياد إذ قال له

النبي ﷺ: «كيف يأتيك؟ فقال يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي خُلِّطَ عليك» يعني والأنبياء لا خلط عندهم.

وكم اغترَّ قوم بمن أخبر بغيب مرة أو مرارًا فحكموه في رقابهم وأموالهم وأعراضهم من الوهم.

واتل عليهم نبأ الذي جاءه مغربي مراكشي فلفق حكايات، وزخرف كلمات، وقرأ لهم (برهتيه برهتيه)، وابتدأ يقول:

أحاطَتْ بنا الأنوارُ مِنْ كُلِّ جانبٍ وحِكْمَةُ مولانا العظيمِ بنا عَلَتْ

وأمر الجن وأحضر البخور وقال سأفتح الكنوز والمطالب. أو ذاك الذي ادعى علم الكيمياء فخبأ قطعة من الذهب بعد رَطَانة[1] ألقاها، وصنعة أجراها، وغشى على عيونهم فهم لا يبصرون، فسلب ثلثمائة من الذهب الخالص، وفرّ سَحَرًا وقت التجلي ونزول الرحمات. واذكر مدرّسًا طبيعيًّا يلقي على تلاميذه أنه شاكٍّ وأن الإلحاد نور والكفر شرف وحرية، وأنه يعرف كل شيء إلا الله فيصدّقونه، وفاتهم أن علوم الطبيعة إن هي إلا معرفة بخواصّ بعض المواد المشاهدة، ولعل هذا لم يعرف منها شيئًا، وإن اشترك مع الفلاح وزاد عليه معلومات. فالفلاح طبيعي بمعرفته أوقات الزراعة وفصولها وقواعد سقيها، وهو كيمياوي بعملية وضع الحَبّ

(١) رَطَانة: كلام غير مفهوم. (م).

في الأرض وسقيه فيحدث جسم جديد هو النبات فهو طبيعي كيمياوي، وزاد ذلك عليه بعض مسائل، فهذا الوهم ممن يسمعه خطأ في القياس.

أوهام صبيان الناس وصبيان العلوم والمغرورين

الصبيّ في أول أمره يمرّ في الطرق والشوارع المنظمة المغروسة شجرًا، ويرى الأجناد المنظمة في ساحة عابدين في حركاتها وسكناتها وغُدُوِّها ورواحها وملابسها، فلا يخطر بباله أن ذلك بقوانين وإنما هو شيء اتفاقي، فإذا كبر وتعلم عرف أن كل حركة وسكون وغدوّ ورواح مقدَّر في كتاب مبين عند قوَّادهم ورؤسائهم.

فأوَّل فكر في هذا وهم، وآخره عقل، وترى الإنسان يبتدئ في العلوم فيقرأ مبادئ الفلك والطبيعة، فيرى نفسه قد نزل منزلاً جديدًا، وأخذ يتفرّج على طرقه ومسالكه ونواصفه (طرقه الزراعية أو غيرها)، فيخيل له الوهم أن ذلك اتفاقي، وترى مسألة (أرخيميدس) الشهيرة يقرؤها الشاب فيبتدئ بمعرفة أن الجسم كلما كان أخفّ من مقدار حجمه من الماء علا فوقه، وكلما ساواه وزنًا ساوى سطحه الماء، وكلما ثقل عنه في الوزن غطس فيه وغرق في قاعه، ويشاهد هذا في البيض إذا فسد فخفّ علا على الماء، وإن كان صالحًا نزل أسفله، ويشاهد هذا في السمك، فكل سمكة فيها زقّ منفوخ مملوء هواءً تشاهده إذا فتحتها، فهذا الزق

إذا أرادت كبر حجمها ضمرته وضمته، وإن أرادت العوم على سطح الماء نفخته فكبرت فخفت فعامت، وهكذا تفعل ذلك بقدر معلوم كحال الحيّ في فتح عينه للنور يقبضها إذا كثر النور، ويفتح أجفانه إذا قلّ.

كلّ ذلك بمقدار معلوم، والإنسان لا يشعر بما يصنع، والسمك لا يدري مسألة أرخيميدس، ولا الإنسان الناظر له وهو يسبح، وإنما يقول هو شيء بنفسه، ولا زقّ منفوخ، ولا نظام موضوع. ثم ينظر المتعلم فيرى السفن الصغرى في الأنهار، والزوارق بجانبها ليست تعوم وتسبح إلا على هذه القاعدة السمكية البيضية الأرخميدسية، ويتعالى عن ذلك إلى السفن الكبار، والأساطيل الضخام، والمُدَرَّعات العظام، وكيف تسطو على المدن فتخربها، والأمم فتقصمها وتذلّها وهو في أثناء ذلك ينتقل من درس إلى درس في قوانينها، وهي سابحة في الأنهار والبحار الملحة، فربما يقضي علماء هذا الفن أعمارهم وهم فيه سائحون، ولعلهم يموتون وهم تائهون كدودة القزّ نسجته فماتت فيه، وكان النفع لسواها.

فهذه المسألة من ردّد فيها نظره كرّة وكرّتين يراها مُتَشَعِّبَة مُتَكَثِّرَة، ويرى نظامًا عجيبًا، وملكًا كبيرًا فيحصل له الوهم على أحد وجهين، فتارة يقول: أنا أعلم العلماء، فقد أدركت من سرّ الدنيا ما جهله العالمون، أرني رجلاً يُفَصِّل لي هذا القول تفصيلاً، وإذا كان مثلي لا يرى الله، فمن ذا الذي يراه؟ أهؤلاء الجهلاء؟ مع أنك تعلم أن المرأة تعلم ذلك في البيض، والسمك يفعله وإن لم

يدره، وتارة يقول: هذه قوانين ونظام جميل، ثم لا يخطر في باله الفكر في منظمه، فهذا كالطفل؛ إذ مرَّ في الطرق المنظمة ورأى الجند ولم يدرك سرّها فيما قدّمنا.

فهذه أوهام صبيان الناس والمبتدئين في العلوم، وللقول بقية نبدؤها بأوهام المغرورين، اهـ.



الفصل التاسع عشر
العقول والأوهام (تابع ما قبله أيضًا)

وهناك فريق يسمعون القول، وليس لهم شيء في العِير ولا في النَّفِير[1]. يقولون لك نحن طبيعيون، ولئن سألتهم عنها عجزوا؛ إذ ليسوا من أولئك المتفرّجين في خبايا المسائل حتى نقول: لعلهم يفهمون، وإنما قلّدوا تقليدًا، ومن هؤلاء فريق يخيّل له الوهم أن إظهار مثل هذا يجعل الناس يظنون أنه من البارعين في العلم والكبار في الفهم، وإنما جعلنا هذا الفريق مغرورًا لدعواه ما ليس له، وليس له عذر في ذلك، فلماذا لا يضرب بسهم مع المتعلمين؟ على أن أولئك الشاكين من المتعلمين لهم عذر، فإن النفوس الطيبة لا تقف دون الغايات.

ومن عرضت له الشكوك فليعلم أن له نفسًا تأبى الوقوف دون معالي الأمور، فليحذر الوقوف وليتخذ العلوم سُلَّمًا حتى تزول أوهامه، ولئن سار على الدرب وصل إلى سعادة الدارين، ومثل هذا ممدوح، إلا أنما المذموم هو المتشبه إظهارًا للفضل، ولا فضل.

---

(١) لا في العير ولا في النفير: صغار القدر لا رأي لهم. (م).

الوهم في الأمثال

ومن الوهم الغلط في الأمثال وتعميم أحكامها، يقال في الأمثال: القليل العاجل خير من الكثير الآجل، ويقولون: بُرّة (قمحة) عاجلة خير من دُرَّة آجلة، ويقولون: عصفور في يدك ولا ثلاثة على الشجرة، ويقولون: المُحَقَّق خير من المظنون.

وتحقيق هذا القول: أن القليل العاجل خير من الكبير الآجل إذا كان ذلك الآجل موهومًا، فأما إذا كان مظنونًا فلا ريب أن ذلك المظنون الآجل أفضل من هذا العاجل، ألا ترى التلميذ يضحي لذَّة الصبا لنيل لذة أرقى منها في الشباب والكبر، والأولى حاضرة، والثانية مستقبلة، وربما اختطفته المنون، وربما عاش ولم ينل ما رجاه، وهكذا التاجر ينفق ماله المحقق، ويخاطر بحياته رجاء نفع أعظم في المستقبل، وربما ابتلعه البحر أو خانه الدهر، وترى الدول تخاطر بجيوشها وتدفع بأبنائها، وتلقي بأموالها إلى التَّهْلُكَة عسى أن تربح كثيرًا من قليل، وقد يخيب سعيها ويموت جيشها وتذلّ دولتها، فهذا قليل محقق بُذل في كثير مستقبل مظنون لا محقق، فهذه الأمثال يجب الحذر والانتباه في فهمها.

ومن هذا الصنف حياة الناس بعد الموت، فالفكر العام بين طوائف البشر أنها غير محققة بل مظنونة، ولكنها حياة الأبد، وقد علمت حياتنا الدنيا، وأنها لن تبلغ دقيقة أو ثانية بالنسبة لحياة لا تتناهى.

فعلينا أن نَجِدَّ في الأعمال الكبيرة في الصدق والإخلاص لأمتنا ولله، وإذا متنا فما الذي ضرّنا؟ ولذلك قيل:

زَعَمَ المُنَجِّمُ[1] والطَّبِيبُ كِلاَهُما لا تُحْشَرُ الأَجْسَادُ قُلْتُ إليْكُما
إنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فلَسْتُ بِخَاسِرٍ أو صَحَّ قولي فالدَّمَارُ عَلَيْكُمُا

وبالجملة، فالعلماء شأنهم اتخاذ الأَحْوَط في الأمور العقلية والظنية، وقد علمت التاجر والزارع والتلميذ كل هؤلاء يبذلون القليل لنيل الكثير المظنون.

ومن الخطأ في الوهم خلط الولاية بأمور الشَّعْوَذَة والإخبار بالغيب مع أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتَّقون، فهي راجعة إلى الإيمان والتقوى والعمل الصالح، كما كان كبار رجال الإسلام، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - والصحابة والتابعين أولئك هم أولياء لله قد عمّ نفعهم الأمم، ولا ريب أن ولاية المرء وصلاحه يُقَدَّرَان بمقدار امتداد نوره على الأمم، فمن كان نفعه أكثر فهو لله أقرب، وعليه يكون الأمير والسلطان أفضل من العالم بامتداد عدله، واتساع نطاق نظامه، وتعميره للأرض إذا لم يناظره في امتداد نوره بمقداره، وهكذا يفضل العالم الملك والأمير إذا عكس الأمر، وفضل الأنبياء على هذه النسبة بعضهم على بعض، فالولاية ترجع إلى علم وعمل ونفع

(١) المُنَجِّم: العَرَّاف. (م).

للناس، فأما ولاية الجهال فشيء آخر يفهمونه على مقدار عقولهم، وما تصل إليه أوهامهم.

وإن من أشنع المسائل في الإسلام هذا الوهم السائد في الناس، فيا ليت شعري متى يزول؟ ولقد تأصل في العامة وكثير من الخاصة، وكأن الناس إذ تركوا المعقولات تنزلت أفئدتهم إلى خلط صادق القول بكاذبه، وربما كان الرجل كاهنًا بطبعه فظن أن هذا هو المُتّبَع الصالح، مع أن الكهانة كما قلنا شائعة في نوع الإنسان، وخُلقت العقول لتسير على الصراط السّويّ، ولولا هذا لتمزق الناس شَذَرَ مَذَرَ[1] في العقائد والأفكار والآراء، كالعامَّة الذين لا يسمعون لرسول الله، ولا للعلماء كما يسمعون لبعض الدجَّالين أو الكُهَّان، فيقال هم مسلمون وما هم بمسلمين.

ومن الوهمِ الغلطُ في التوكُّل، ترى قومًا يظنُّون أن التوكل موت القلب والسكوت عن الأعمال، مع أن حقيقته عمل بالجوارح، وإفراغ الجهد في الأعمال، واطمئنان القلب لما ينتجه ذلك العمل ونبذ القلق، وهكذا توكل القادرين، فإنْ ضَعُفَ المرء عن الأعمال، وعَجَزَ عن كل حيلة، فلا مال لديه، ولا قوة له، ولا يد يبطش بها، ولا رجل يمشي بها، ولا لسان ينطق به، فليكن التوكل بالقلب فحسب، ولا بُدَّ أن يُعطي كل من الصنفين ما هو أهل له. وهذه مواطن الأوهام أوردناها تذكرة لنا وللناس لعلنا جميعًا نكون فيها مفكرين.

(١) شَذَر مَذَر: متفرقين. (م).

ومن الوهم تصديق كل ما يسمع من خرافات مُلَفَّقَة وحكايات كاذبة، كما كان سَدَنَة[١] الأصنام يلفقونها، فعبد الناس تلك الأصنام كما عبد الناس اليوم رجالاً عظامًا وما هم بعظام، ولكن الوهم أعظمهم في العيون.

ونرى الناس في بلادنا انقسموا طائفتين: عامة الشعب لا يرون من الحكمة إلا ما أحاط بهم، فإن سمعوها عن غير أهل دينهم أنكروها، وطائفة المسلمين الذين أخذوا عن الأوربيين ينبذون الحكمة صوابها وخطأها عن الشرقيين ويَحنُّون إليها عن الغربيين، كأن غروب الشمس سر الوجود، وشروقها عدم للحياة.

وسبب ذلك الوهم السائد على الفريقين: أنهم يعرفون الحق بالرجال، ولا يعرفون الرجال بالحق، ونسوا أن الحكمة تؤخذ من حيث نفعها، لا من حيث مصدرها، فالورد يجنى ولا يزدرى[٢] لشوك شجره، والعسل يُشتار (يجنى) ولا يُعَاف لكونه من مُجَاج[٣] النحل، والنرجس يُشمّ ولا ينبذ لازدهاره في البصل.

ولعمري إن عُبَّاد الأصنام ما أضلَّهم إلا وهمهم في الظواهر، وكل حزب بما لديهم فرحون، مع أن الكتاب يقول في هذا الفريق: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس/ ٣٩]، ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

(١) سدنة: خَدَم. (م).
(٢) يُزدرى: يُحتقر ويُعاب. (م).
(٣) مُجاج: رِيق. (م).

ﱡﭐ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﱠ [الحج/ ٤٦]. أمر بالنظر مع الفكر لا تقليد فريق دون فريق، وكأنه يقول في الآية الأولى: هؤلاء كذبوا بما غمض عليهم فهمه ولم يتضح لهم، فهَلاَّ استجلوا المعاني ونَقَّبُوا[(١)] عنها لأنفسها وجواهرها لا لعوارضها وظواهرها، وهكذا هلكت الأمم قبلهم؛ إذ كذبوا بما سمعوا ولم ينظروا حتى ذهبوا ضحايا الجهالات.

نحن الآن في حاجة إلى أخذ العلم من كل طريق وتنقيحه[(٢)] بالفهم، فالعاقل من أخذ الحكمة حيث وجدها، وها هو ذا عمر وخطبته على المنبر مشهورة؛ إذ خطب في الناس يقول: «لا تُغالوا في المهور يا عباد الله»، فقالت عجوز وقاطعت كلامه: يا عمر يقول الله: ﱡﭐ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﱠ [النساء/ ٢٠]، فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر، ولم يحتقر الأخذ عن عجوز في جمع من الصحابة.

ولولا أخذ الحكمة من حيث هي ما رأيت علماء الإنجليز يجلُّون رجلاً نسَّاخًا يسمى (ويليم كوكستون) نشأ في إنكلترا في القرن الخامس عشر اجتلب لهم المطبعة، وطبع أول كتاب في بلادهم سنة ١٤٧٤.

فهذا العامل مع بساطته يجلُّونه ويعلون شأنه ويرفعون ذكره جيلاً بعد جيل لعمله لا لحاله، وهذا تقدير للرجال بالأعمال والحكمة.

---

(١) نقَّبوا: فحصوا فحصًا دقيقًا. (م).
(٢) تنقيحه: تهذيبه وإصلاحه. (م).

ومن الوهم بظواهر الأحوال ما شاهدت يومًا أن فلاحًا غادر الماء قُطنه في حقله في شهر بشنس وبؤونه ونصف شهر أبيب، فلما أن جاءه النيل سقاه، فأورق وأزهر، واستوى على سُوقِهِ يعجب الزُّرَّاع، فقال الفلاح لابنه: «يا بنيّ، إني لفرح بزرعنا إذ اخضرّ وأزهر»، فقال الولد: «يا أبتِ، أَلِمثل هذا يفرح العقلاء؟ أنا لست بفرح فإن إثماره قد فات أوانه وليس لنا منه إلا الوقود، وماء النيل ليس يعطيه اليوم إلا قوة في هيئته وظاهره. أما الثمرات فلا، إنا لمغرمون بل نحن محرومون»، فكان الأب واهمًا، والابن مفكرًا، وهل الأمم التي سقى ماء العلم بلادها فنمت أجسامها واتسع عمرانها ثم لم تجد ثمرات الحكمة تُجنى من عقول أبنائها، هل هذه يفرح بها المفكرون؟ نعم يغترّ بها الواهمون، وهل أعواد القطن وأوراقه إلا كالخصب المنتشر في البلاد؟ وهل القطن المجنيّ إلا كالعلم الحقيقي المرقي للأمم؟ وإنما أطلنا في هذا المقام تذكرة وتبصرة واعتبارًا لنا وللمتعلمين والمفكرين.



الفصل العشرون
سعادات الأفراد والأمّة

بينما أنا في روضة ناضرة فَيْحَاء[١] زاهرة، حليت بأزهارها، وتحلت بأثمارها أقضي لُبَانَة (حاجة) الفراغ في الهواء السَّجْسَج[٢]:

والرِّيحُ تَعْبَثُ بالغُصونِ وقَدْ جَرَى ... ماءٌ تَدَحْرَجَ حيَّةً رَقْطَاء[٣]
والجَوُّ طَلْقٌ والزُّهورُ بَوَاسِم ... والشمسُ تنسجُ حولَها لألاء[٤]

في روضة أُنُف[٥]: جاد عليها النيل بتسكابه، وآنسها السحاب بوَدَقه[٦] وجوده، فذكرت قول عنترة في معلقته يصف أنفاس محبوبته ويشبهها برائحة الروض قال:

أَوْ رَوْضَــةً أُنُـفًا تَضَمَّنَ نَبْتَهَا ... غَيْثٌ قَلِيلُ الدِّمنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ
جَــادَتْ عَـلَيْـهِ كُـلُّ بكرٍ حـرَّةٍ ... فَـتَرَكْـنَ كُـلَّ قَــرَارَةٍ كالدِّرهمِ

(١) فيحاء: خصبة. (م).
(٢) السَّجْسَج: ليس فيه حَرٌّ مؤذٍ ولا برد. (م).
(٣) رَقْطَاء: سوداء مشوبة بنقط بيضاء. (م)
(٤) لألاء: ضوء. (م).
(٥) روضة أُنُف: لم يرعها أحد. (م).
(٦) وَدَقه: مطره. (م).

سحًّا وتسكابًا فكلَّ عَشِيَّةٍ ... يجري عليها الماءُ لم يَتَصَرَّم[١]

يصف الروضة بأنها أنف: أي لم ترع، ونبتها مفعول.

والدِّمَن جمع دمنة (السِّرْجِين[٢])، والبُكْر من السحاب هي التي تمطر مبكرة، والحرة الخالصة من البرد والريح، والسحّ: الصبّ، والتسكاب: السكب.

يقول: هذه الروضة بهجة غَنَّاء، زكا نبتها فازدهى وازدهر إذ سقاه ماء ما خالطه سِرْجِين فيفسد رائحتها العطرية الذكية، وليست الروضة بمعلم تطؤه الدوابّ والناس، وقد أمطرت هذه الروضة كل سحابة مبكرة، فغادرت كل حفرة فيها كأنها درهم لاستدارتها بالماء وبياض مائها وصفائه، وترى المطر يجري في فنائها وينزل في روضاتها لا ينصرم: أي لا ينقطع، فهو أبدًا دائم التسكاب كثير الماء غامر الأرض ينمي زرعها وتزكو به أشجارها، فتجود لواقح عطرها بما أودع فيها من البهجة والنماء وحسن الرواء، فإذا رأيت ثَمَّ رأيت بهجة أرضها تلألأ بالماء المنسكب اللامع مستديرًا في أماكن متلاصقة، كالدراهم المنثورة تحت الأشجار في حفر صغيرة مستديرة، ويقول آخر:

يا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وُجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تصوَّرُ

تَرَيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ زَانَهُ ... زَهْرُ الرُّبَا فكأَنَّمَا هو مُقْمِرُ

(١) يَتَصَرَّم: ينقطع. (م).

(٢) السِّرْجِين: مخلفات البهائم، والتي يُصنع منها السَّمَاد. (م).

دُنْيَا مَعَاشٌ لِلوَرَى حتى إذا ... حَلَّ الرَّبِيعُ فإنَّمَا هي مَنْظَرُ
أضحتْ تصوغُ بطونُها لظهورِها ... نَوْرًا[1] تَكَادُ له القلوبُ تنوّرُ

يقول: أيها الصاحبان أنعما النظر فيما تريان في الدنيا كيف اهتزَّت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج، وكيف جمال هذه الصور والأشكال وبهاؤها، وانظرا لوامع الشمس وأنوارها تترقرق حسنًا وبهجة تسطع على وجوه الأزهار وتتخلل الأوراق، منعكسة على محاسن تلك الأوراق النضرات الباسمة في الأزهار، فيتولَّد لون رائق أبيض جميل كأنه نور القمر، يطلع على تلك الرُّبا (جمع ربوة) وهي: المكان المرتفع؛ إذ تحسن أشجاره وتنمو زروعه لتوفر ماء المطر في أرجائه، وما هذه الدنيا إلا معاش للورى، فإذا حلّ فصل الربيع أضحت معرضًا للزينة والمناظر البهجة، وترى باطنها يصوغ ألوان الحلي والحلل وينشرها على الأغصان، فتكاد القلوب تشرق نورًا وبهجة بهذه المناظر الجميلة الحسناء وبتلك الحلي والحلل.

راقني هذا المنظر، وحلا السمر ومعي جليس أنيس نديم أديب، فأخذنا نتجاذب أطراف الأحاديث ونتقاسم طرائف المُلح[1] وأزاهر المعاني، وبينما نحن كذلك إذ فاجأني بقوله: ألست تسمع من بعيد أصوات الغناء والطرب بقرب الحديقة؟ ولعل أولئك مغنيات يزففن العروس إلى عرسها (بعلها)، ولعمري إن هذا ليذكرني سعادة الأفراد وسعادة الأمم.

---

(١) المُلَح: جمع «مُلْحَة» ما حسن من الأحاديث واستملح. (م).

ما أدري أهذه الأفراح القائمة والزينات الظاهرة والملابس الباهرة والحدائق الناضرة هي السعادات أم السعادات أمر وراءها؟ ولئن قلنا هي السعادات، ما لنا نراها تتغير وتتبدل، وما تُغْنِي السعادة العمياء الخرساء الرَّعْناء[١] التي لا تلبث، ولئن كانت السعادات أمرًا وراءها فما ذلك الأمر؟ ولئن كانت تلك المظاهر سعادات أو سواها، فما لي أرى في فؤادي إشفاقًا ورحمة ورأفة على أولئك الفرحات المغنيات؟ ألا يدوم لهنّ صفاء العيش الوارف إذا لم يكن لهن سياج من حكومة منتظمة، فيرتَعْن[٢] في بُحْبُوحتها[٣] ويخطرن في ساحتها ويغنين في حظيرتها ويترنمن تحت حياطتها؟ ما لي أراني مشفقًا على الأفراد وعلى الأمة؟ أواه أواه فؤادي يكاد يتفطر، وكبدي الحَرَّاء[٤] تنشق ومُهْجَتي تذوب على أبناء هذه الأمة وبناتها. هذا الغناء كهرباء أثرت في فؤادي تأثير الشفقة والرحمة، وأودّ صفاء الوقت لهؤلاء بنظام عام وحكومة ثابتة دائمة حتى يأمن الحاضر والبادي والرائح والغادي، ويهنأ كل امرئ بسعادته المُوَاتية لمزاجه على مقدار درجته في الفكر، ما لي أرى فؤادي تختلج فيه هذه المعاني المتباعدة المتقاربة المفرحة المؤلمة؟

أراني شفيقًا على الفتيان والفتيات، وعلى مسرَّاتهم ولذَّاتهم ورَغَدِ عيشهم وأفراحهم، وأودّ صفاءها لهم ودوامها، وأتمنى لهم نظامًا ودستورًا وقانونًا مسنونًا وأمرًا ثابتًا، ثم أكرّ راجعًا إلى تلك اللذات والمسرَّات، فأراها سريعة الزوال فأودّ

---

(١) الرعناء: الهوجاء، الحمقاء. (م).
(٢) يرتعن: يتنعمن. (م).
(٣) بُحْبُوحتها: خيارها، أحسن ما فيها. (م).
(٤) الحرَّاء: اليابسة من عطش أو حزن. (م).

أعلى منها، فكأني أودّ بقاءها لهم وأودّ ما هو أعلى وأدوم، فيا ليت شعري ما لهذه المعاني تجول بضميري، وما لقلبي يذوب لذكرها، وما المناسبة بين الحديقة وجمالها والأفراح وغنائها والحكومات ونظامها والناس وسعادتها؟ وما لي أرى نفسي كأن سعادتها مَنُوطَة[١] بسعادتهم وشقائي منوط بشقائهم، وكأن قلبي وقلوبهم مزاج واحد تتخلله كهرباء وأنوار تتعاقب وتتداخل، بل أشعر كأن القلوب جوهر واحد أثيري متصل ببحر عظيم مجهول عندي؟ ولعل هذه القلوب الإنسانية والأرواح المتحابَّة يَنْبُوع تَفَجَّر، ففار كأن نافورة نضَّاخة[٢] تقذف فوق البسيطة ماء أشرق عليه نور الشمس، فتلألأ بأنوار كوّنته وزوّقته بالألوان الباهية من أصفر وأحمر وأخضر وأزرق وأبيض على ناموس تحليل ضوء الشمس إلى عناصره، وذلك الينبوع من بحر الحكمة الإلهية، والأرواح كتلك الألوان المشرقة ببهجة الشمس، وإلا فلماذا يشعر فؤادي بفرح لفرحهم وحزن لحزنهم؟ ولماذا تتجلى تلك النفوس مع نفسي؟ فالأجسام متباعدة والقلوب مُتَّحِدة:

كأَنَّ فُؤادي ليس يَشْفِي غَلِيلَهُ   سوى أَنْ يَرَى الرُّوحَانِ تَتَّحِدَانِ

فهل لك أن تشفي غليلي ببيان ما أنا سائلك اليوم عنه؟

بِمَ يسعد الإنسان؟ أبالمال والجاه والصيت والإمارة؟ أم بالحكمة، أم بالأدب؟ وما الفرق بين هذه، أم السعادة درجات؟ وما السعادة الحمقاء، وما السعادة الثابتة الدائمة؟ وهل توجد السعادة الحقيقية وهذا كله في الأفراد؟ وهل

---

(١) مَنُوطَة: متعلقة. (م).
(٢) نضَّاخة: كثيرة النَّضْخ، وهو الرَّشّ. (م).

تسعد الأمم؟ وكيف تؤلف مجالسها ونوّابها؟ وما الذي قاله الحكماء من ضرب الأمثال؟ وهل للأمم سعادة حقيقية أم هي نسبية؟ وما صفات نوّاب الأمة؟ وهل بين هؤلاء وبين أعضاء الإنسان في علم التشريح مناسبة؟ ومتى كان الانتخاب في الإسلام؟

وإذا لم يكن للأمة حكومة مُنَظَّمَة فما صفة حكامها؟ وكيف حال الأمراء الجُهَّال والأمراء الطامعين؟ وما الذي ضربه الحكماء مثلاً لهم؟ وكيف تؤلف الكتب لأطفالهم؟ وهل بين الكتب وأعضاء النواب مناسبة، وكذا الجسم في التشريح؟ وهل تكون الزروع واختلافها مثلاً للكتب؟ وما الذي جاء به القرآن في ذلك؟ وما الذي صنع الغربيون؟ وما منزلة شعر الشعراء في رقي الأمم؟ وما الذي ننبذه من الشعر؟ وما الذي نصطفيه؟ إني لَوَلُوعٌ بالإجابة عن هذه الأسئلة بالتفصيل في مقالات متناسقة متتابعة، فإن ما قلته من قبل كالتمهيد لهذا، وإنما هذا هو المقصود.

أَنْعِمْ بِرَدِّ جوابِ ما أنا سائلٌ   عنهُ فنارُ العلمِ ذاتُ تشعشعِ

فلما فرغ صاحبي أجبته عما سأل بإسهاب، وسنجعلها مقالات متتابعات يتلو بعضُها بعضًا بإيضاح تام.

وسنبدأ بالكلام على سعادة الإنسان في حياته إن شاء الله تعالى.



الفصل الحادي والعشرون
٢ - سعادات الأمم والأفراد

وَعَدْنا في الفصل السابق أَنْ سنبحث في سعادة الإنسان، والآن نقول: قال لي صاحبي وهو يحادثني: لماذا أجد في قلبي وجدان الشفقة على الناس وسعادتهم... إلخ؟ فقلت: إن الوجدان يخامر فؤاد الإنسان على مقدار ما أُوتي من علم، وما أعطي من أدب وذوق وما غلب على نفسه، وما هذه المعاني والنفحات العطرية إلا ذكرى للذاكرين وعبرة للناظرين وبهجة للسامعين، وأنت امرؤ أيقنت (ولك الحق) أن لا سعادة للمرء إلا بسعادة أُمَّته ولا بقاء له إلا ببقائها، فاعلم أن السعادة قسمان: سعادة مؤقتة، وسعادة حقيقية دائمة، وكلاهما في الأمم والأفراد، فكل ما دار بخَلَدِك ليس يعدو هذه الأربعة، وسأقول الآن قولاً موجزًا إجماليًّا لنحيط بالموضوع، ثم نفصله تفصيلاً.

السعادة المؤقتة هي ما ساقتها المصادفات العمياء وأعطاها البخت: كالأموال والمناصب وبُعْد الصيت، وهل المصادفة إلا امرأة عمياء رَعْنَاء تعطي هذا وتمنع ذاك ثم تكرّ راجعة عليهما، فيتناولان ويتناوبان الهناء والشقاء، يرى

الجنازة والعروس يلتقيان، ثم يكرّ الحدثان ويمضي المَلَوان[١] وتُستبدل المناحات بالأفراح والأعراس بالمناحات. سِرْ في الطريق: أَلَسْتَ تجد مناحة وولولة أمامها جنازة، وخلف هؤلاء عروس جليت وموسيقى ومزامير وضجَّة وفرح والدهر بالناس قُلَّب. يقول زهير:

رَأَيْتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ[٢] مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ ومَنْ تُخْطِئْ يُعمَّرْ فيَهْرَمِ

ونرى طفلين يولدان في لحظة؛ هذا في قصر مَنِيف[٣] تصنع له الزينات وتقام له الحفلات وتنصب له الأعلام وتطلق المدافع والبارود، ويطير البرق خبره في الشرق والغرب، يتحلى بأشرف الألقاب وأوسمة الشرف. وترى آخر لَفَظَتْه أمه لفظ النواة في بيت كأنه جُحْر ضَبٍّ خَرِب، فيه ماء آَسِن[٤]، ليس يبسم الدهر له ابتسامة، ينصب (يتعب) لميلاده أبواه، فهما الأشقيان كما فرح لذلك الثقلان، وكم أبدى الزمان من عجب، فتبادل الولدان فاعتلى الوضيع واتَّضع الرفيع، وكل ذلك ليس له عند الإنسان قانون محدود ولا أجل معدود، وإنما مبناه بحسب الظاهر تلك المصادفة العمياء كالرياح الذاريات تذرو[٥] التراب إلى الجو، ثم تحطّه تبع الهواء في هبوبه بلا قانون مسنون (نعم لها عند الله قانون ليس يعلمه أحد)، فهذه هي السعادة المؤقتة للأشخاص لم يغترّ بها الحكماء؛ فلجئوا

(١) المَلَوَان: الليل والنهار. (م).
(٢) خَبْط عَشْوَاء: تتصرف على غير هدى، لا يحكمها قانون. (م).
(٣) مَنِيف: عالٍ تامّ. (م).
(٤) آسِن: متغير اللون والطعم والرائحة فلا يُشرب. (م).
(٥) تذرو: تفرق وتُطِير. (م).

إلى سعادة تدوم للمرء في غناه وفقره وصحته ومرضه وإمارته وعزه وذله، وهي الحكمة والفهم والعدل والأخلاق الفاضلة كالوقار، والصبر، والاحتمال، وتناول العلوم، والتحقق من حقائق العالم وما فيه من الجمال، وقراءة ما سطرت يد الله في الخليقة من حكمة، فتشرق نفوسهم، فهذه سعادة لها قانون مسنون ثابت، وهي المعبَّر عنها بهذه الآية ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس / ٥٨]، هذه الأخلاق الفاضلة والحكمة الحسنة يخدمهما المال والجاه والجمال والإمارة والصناعة والصِّيت والاشتهار حتى تصير سعادة تابعة لها.

هذه سعادات الأفراد وتقسيمها، وما الأمم إلا أفراد مكررة لهم اجتماع وصناعات وتبادل ورؤساء يحكمونهم ولكن ليسوا سواءً.

ولعمري لئن سلَّموا زمامهم إلى سادة مستبدِّين أضحوا ككرة تلقفها أولئك السادة رجلاً رجلاً، فيصيرون ونحوسهم وسعاداتهم مصادفات عمياء رعناء ليس لها قانون معلوم ولا نظام محدود، فإن رحمهم أمراؤهم فأولئك هم المنعمون، وإن عذبهم الأمير، فهم في جهنم الخسران خالدون تَلْفَح[1] وجوههم نار الجبروت وهم فيها كالحون (كاشرون عن حزن)، سعاداتهم صبيانية ومؤقتة تتبع مهابّ الرياح والأهواء في قلوب الأمراء كالصبي بين يدي مربيه، ألا إن السعادة ما كانت ثابتة الدعائم قوية الأركان ما بقي الملوان، وذلك أن يكون لهم نوّاب قائمون ينصفونهم

(١) تلفح: تحرق. (م).

من أنفسهم كلما غرب واحد أشرق الآخر واتخذ مكانه، فتكون سعادة الأمة إذ ذاك أدوم وأجلى وأحكم.

إذا كان للأمة دستور كانت سعادتها من نفسها كسعادة الحكيم بحكمته، تشرق أنوارها عليه مهما عَسَفَتْها[١] الحوادث[٢]، وأبادتها الجوائح، وتقلب الحدثان، ليس يبطرها[٣] ملك رحيم ولا يستذلُّها ظالم غشوم، ومثل هؤلاء إن أعطاهم الدهر كان العطاء جمًّا وإن قلب لهم المِجَنّ[٤] لم يجحف ولم يستقص، بل يكون رفيقًا رحيمًا؛ إذ الدستور والنظام لا يسمحان، وأما الأمة المدبرة بيد مستقلَّة مستبدَّة فإعطاؤها تبذير ومنعها إهلاك وتدمير، سُنَّتُها الجور وشريعتها العسف، لا يأمن الصبي على لعبته، ولا المثري على ثروته، ولا الداعي على وليمته.

إيضاح

وإذ فرغت من هذا القول وكان السائل مصغيًا قال: عرفت أن بين الأمم والأفراد تشابهًا وأن السعادة فيهما متشابهة، وإني لأودّ شرح سعادة الأفراد شرحًا أجلى من هذا وأوفى، فخبرني: أأنت تنكر فضل المال والإمارة والصناعة والجاه والجمال والصيت؟ وكيف تسميها سعادات حمقاء والعيان يشهد بخلافه؟

---

(١) عَسَفَتْها: ظَلَمَتْها، جارت عليها. (م).
(٢) الحوادث: المصائب. (م).
(٣) يَبْطَر: يطغى بالنعمة. (م).
(٤) قلب لهم المِجَنّ: انقلب ضدهم وعاداهم بعد مودة. (م).

ولسنا نرى الناس يطلقون السعادة إلا على هذه، بالمال كل شيء، بالمال تقتنى العلوم، بالمال يحصل المرغوب ويُنال المطلوب. فقلت: لقد اعترفت في قولك الآن بالجواب وكفيتني مؤونة[1] الرد؛ إذ سمعتك تقول بالمال يحصل المطلوب وينال المرغوب، فإذا هو واسطة ومقدمة، فمن أظلم ممن رضي بالمقدّمات ونبذ الوسائل، ورضي برسول المحبوب عن المحبوب، واستبدل الأدنى بالذي هو خير، المال وما عطف عليه آلات في أيدينا تصلح للخير والشر تقع في يد البارّ والفاجر والسعيد والشقيّ.

ألست ترى كثيرًا من الفقراء فرحين، وكثيرًا من الأغنياء والأمراء مهمومين مُتْعَبين؟ قال نعم. فقلت: إذًا ليس المال وأشباهه كافيات، بل إنما هي مقدّمات.

كم اغترّ قوم بالمال فاعتبروه سعادة فقصروا همَّهم عليه، فإن حصَّلوه اكتفوا من الحياة به، ثم خدعهم الخادعون ومدحهم المُطْرُون، وأحاطت بهم غاشية من المدائح وجلَّلتهم سحائب من الإطراء فأصبحوا معجبين بأنفسهم مغرورين، فإذا أدبر المال وتولى انتابتهم الأحزان والأوصاب والحسرات والآلام ثم ينصبون في طلابه بالنصب والخداع والخيانة والكذب والنفاق.

(١) مؤونة: شدة، ثقل. (م).

فلو كشف لك عن سرائرهم وصُوِّرت بصورة محسوسة لرأيتهنّ نساء بائسات، أَهْدَامها[١] قالصة[٢]، أضناهنّ[٣] الجهد ومَسَّهُنَّ الضرّ، يلطمن الخدود ويَخْمِشْنَ[٤] الوجوه، منظر تقشعرّ منه الجلود، هَبِ المال دائم الوجود، أفيَقِينَا فاجعات الدهر ونوائب الحدثان من موت صديق ورزء حبيب وكارثات الليالي وحادثات الأيام؟ فقال صاحبي: إذن السعادة أمر آخر وراء المال، وهو كالمقدّمة والسلم، فقلت نعم، فقال: وما هو؟ فقلت: ليكن الحديث غدًا فإني أخاف الملل، فإيجاز في القول أجمل.

---

(١) أَهْدَام: أثواب بالية أو مرقَّعة. (م).
(٢) قالصة: قصيرة فقرًا. (م).
(٣) أضناهن: أثقلهن. (م).
(٤) يَخْمِشْنَ: يلطمن. (م).



الفصل الثاني والعشرون
الإنسان في الحياة كسفينة في البحر

ابتدرني صديقي بالحديث في السعادة أبالمال هي، أم بالعلم، أم بقوّة في النفس وكمال وثبات وحكمة؟ فقال: لعلك تريد أن السعادة بالعلوم العامَّة في المدارس من رياضة وطبيعة وأدب ولغة وشعر ونثر وتاريخ، ولعلك تريد أن يكون المال سُلَّمًا لها معينًا عليها حتى يتسنّى للمرء تخفيف الآلام والأشجان، ولذلك نرى النوع الإنساني ارتقى في هذا العصر بالاكتشاف والاختراع مما نشاهد من البخار والكهرباء، حتى إنه اخترع أمس آلة للتصوير الشمسي على بعد فتستقبل الآلة صورة وإن تناءت دارها وابتعدت أقطارها، فالسعادة إذن هي العلوم العامة والأموال خُدَّامها، فقلت: هذه العلوم أجمعها تعاليم للصبيان في المكاتب، ونحن في تعاليم الرجال، هذه العلوم إخوان المال، فإن شئنا كانت لنا سعادة، وإن شئنا كانت لنا شقاء، وكم متعلم عَضّه الدهر بنابه[1]، فقال: ليت ما حلّ بنا به، وندب حظه وكره الحياة جبنًا أن يقابل بشجاعة هذه الأيام والحوادث.

---

(١) عَضّه الدهر بنابه: أصابه بشرِّه. (م).

يقول قابس اليوناني الفيلسوف: هذه العلوم مبادئ ومقدمات، وهذا قول مرّ عليه ٢٣٠٠سنة تقريبًا، وهو لم يتغير ولم يتبدل، تبدلت الدول وتغيرت الممالك وهو ثابت كناموس طبيعي، يقول اللورد افبري المعاصر لنا: «الحياة ممزوجة بالأتراح، وهي كثيرة متنوعة، وبعض أحزان الحياة حقيقي لا ريب فيه، ومعظمه نجرّه على أنفسنا والبعض الآخر موهوم، فإذا قابلناه بصدر رحب تبدد كالضباب إذا طلعت الشمس عليه».

يريد بذلك شمس الحكمة المشرقة على النفس، الموازنة للشمس المشرقة على الضباب، قال ابيكتوشي: «مدينة أتينا جميلة وأجمل منها السعادة»، ثم فسَّرها فقال: بأن نكون مجردين عن الشهوات، خالين من القلق والاضطراب، وهو ما سنوضحه من الحكمة، ثم قال: «ومن الحقائق التي لا جدال فيها أن السعادة تتوقف على ما دخلنا لا على ما يحيط بنا من الأحوال، قال هملت: ليست الجودة والرداءة من طبيعة الأمور، لكن الأفكار تجعلها كذلك، قال الإمبراطور مرقس أوريليوس: «إن الأمور التي لا تؤثر في المرء لا يمكن أن تؤثر في حياته، فالموت والحياة والعز والذل والألم والسرور، وجميع هذه تصيب الصالح والطالح، فهي لا تؤثر فينا في زيادة صلاحنا أو نزع طلاحنا».

وهذا القول بعينه هو الذي ذكره قابس اليوناني في لغزه، وبين القولين ألفان ونحو مائتي سنة أو أكثر، فما أجمل العلم والحكمة، ومن توافرت له الأخلاق الفاضلة، ونال حظًّا وافرًا مما يحيط به كان في سعادته كسفينة شراعية

أسرع بها الريح وأسعدها البخار، فالآلة البخارية تسيّرها، والريح تقوّيها، والأول ذاتي والثاني خارجي.

فقال صاحبي: أوضح لي هذا المثل فإنه جميل، فقلت:

مهما حاول العلماء في اكتشاف أسرار العالم، وارتفعت العلوم وتوفرت الصناعات فما خرجنا من المضيق الذي نحن فيه، وهب قومًا بعدنا زادوا على هذه العلوم أضعافها فلن يتعدوا علوم ملاَّحي السفن (الملاحون مديرو السفن)، فما المواد العنصرية ولا الظواهر الطبيعية إلا كالرياح المسخَّرات، وهؤلاء العلماء ملاحون في سفن الحياة المجراة في بحر الدنيا المظلم العميق، فهم بهذه الحيل العلمية يحتالون حتى يسخروا هذه الرياح الحمقاء في مصالحنا، فقال:

وهل ملاَّحو السفن إذا أتقنوا صناعتهم وأجادوا حكمتهم قاصرون عما تستعدّ له السفن من الكمال؟ وإذا قام ملاح السفينة بضبطها وتسييرها وتذليلها، فذلك غاية ما تصل إليه يد الإمكان لنوع الإنسان. أما ما فوق ذلك، فالقول فيه عبث عابث وخيال موهوم.

فقلت: إن في الإمكان ما هو أحسن للسفن وأسعد للملاحين والنُّوتية[1]، وذلك شيء يثبت في السفينة، هَبَّت الرياح أو ركدت، اضطرب البحر أو سكن، هاجت العواصف أو هدأت، ذلك كمال يكون لها من نفسها مهما اختلفت

(١) النُّوتية: الملاحون الذين يديرون السفن في البحر. (م).

الأحوال الخارجة وأَلَمَّت المُلِمَّات[١]، وأجحفت الكارثات، وأضنت المزعجات من الليالي، فقال: وما هو؟ فقلت: الآلات البخارية المصنوعة بها تُسَيِّر السفن بقانون لا يتغير ولا يتبدّل في أوقات معينة لا تبديل لها، وهل يحدس في خَلَدِك أن يكون ذلك المزاج المخلوق من خشب ينال نظامًا وقانونًا مسنونًا، ويحظى بإدارة داخلة في هيكله، مسيرة له في كل بحر لُجِّيّ مهما يغشه موج يعلوه موج يلحقه سحاب، في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرجت يدك فيها لم تكد تراها، ثم لا يكون مثله للإنسان المصنوع من أعجب العناصر وألطفها، المسيطر على السفن وما حوت والبحار وما وعت، والأرض وما أقلّت، والعلوم وما أكَنّت[٢]، فقال: نعم، لا غَرْوَ أن يكون للإنسان سعادة في نفسه ثابتة في قلبه وكل ما يحيط به من مال أو جاه أو صيت، وما يعلم من شعر وتاريخ وطبيعيات ورياضيات إنما هي سعادات خارجية تشد أزر سعادته النفسية وتلك السعادة التي أردتها إنما هي الحكمة والأخلاق الفاضلة من العفَّة والصبر والاحتمال والفكر والعقل، فقلت: حَقًّا كما قدَّمنا، فقال: وهل يمكن تفصيلها اليوم؟ فقلت: لا، وإذا قرأت كتاب العلاَّمة ابن مسكويه المُسَمَّى (تهذيب الأخلاق) فتحت لك أبواب الحكمة وعشقت العلوم على اختلاف أجناسها.

---

(١) المُلِمَّات: نوائب الدهر. (م).
(٢) أكَنَّت: سترت. (م).

فقال صاحبي: لقد علمت الآن أن السعادة التي لها قانون محدود ثابت هي النهاية، وأن للإنسان في نفسه سعادة يمكنه استخراجها حتى تخفف عنه الآلام والأشجان عند حوادث الدهر وفاجعاته، كالصبر عند فَقْد المال والحكمة في طلبه، وتصبير النفس عند المُلِمَّات والحوادث الفاجعة، وأن علماء الأمم الماديين كملاحي السفن، فأولئك في بحر الحياة المظلم، وهؤلاء في البحور المشاهدة، ولعل بخار الماء المتطاير من المَرَاجِل[1] المرفوعة على النار في تلك السفن الجارية في البخار يشابه إثارة الحكمة من العلوم المخزونة في الدماغ، حتى تسير بها في بحر الحياة اللُّجِّي، وكم شَبَّه العلماء العلم بالماء، ويقول في الكتاب: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد/ ١٧]، وفسروه بالعلم. أما الحكمة فهي تبخيره وإثارته لننظم حياتنا الداخلية، ولكني أرى بعد ذلك للسفن رزايا ومصائب، وللحكماء في الحياة نوائب ومحنًا، فكم من سفن بخارية اصطكَّت بصخرة فانفلقت فغرقت، أَوَلَسْت تذكر السفن الحربية كل عام أهلكتها الصواعق وأبادتها المدافع، أو لا تذكر سقراط الحكيم اليوناني مات قتلاً، أو لا نرى أن الأنبياء أكثر الناس نَصَبًا وتعبًا؟ فقلت: إن البخار في السفن وحكمة الأنبياء والحكماء أَدْوَم وأثبت، ولن يصل أحد إلى منتهى السعادة، فإن ذلك ليس بعالمنا، على أن الأنبياء والحكماء يرون أن هذه المحن وإن أزعجتهم فلا تؤثر في جوهر سعادتهم، والموت بالقتل

---

(١) المَرَاجل: جمع «مِرْجَل» وهو قِدْر يُغْلَى فيه الماء. (م).

كالموت على الفراش، فالسعادة إذا كانت داخلة فهي مبدأ النفس أينما حَلّت أو ارتحلت:

وإذا امرُؤٌ لم يَرْضَ حادثَ دَهْرِهِ كانتْ خَلاَئِقُهُ عليهِ نَوَائِبًا

قال بعض حكماء الغرب: «لماذا يحزن الإنسان؟ كيف يألم وقد علمنا أن هذا العالم يجري بنظام يتبع الأحسن والأجمل، فهو مستقر في الرقي؟ فمن آمن بالله فلا ريب أنه يعتقد حكمته ورحمته، وأن ما يصيبنا من المحن والرزايا باطنها رحمة وظاهرها عذاب، كأنها تهدينا إلى العلم بمعرفة ما يحيط بنا، حتى إنك لترى الإحساس في أعضائنا الظاهرة وبشرة جلودنا، ولن تحس المعدة والأمعاء كإحساس الجلود، فهذه هداية إلى القصد من تعذيبنا في الدنيا لنعلم ما يحيط بنا، ومن لم يؤمن باله فهذا الناموس يسرُّه ويريح فؤاده؛ لأنه يتبع الأجمل الأكمل، فليكن الرضا مطلبه والعلم هدايته»، فقال صاحبي: أنا الآن اكتفيت بهذا البيان في سعادة الأفراد، وأيقنت أن حياة الإنسان الفاضل ذات حكومة عادلة تدير أعمالها في هذه الحياة، وما عندنا من الأموال والجاه والصيت والإمارة والعلوم، فهي سعادات إن أدارتها تلك الحكومة الجمهورية النفسية، وهي كلها شقاء إن بادت حكومتها، وفسدت جمهوريتها، وأضحى نظامها فوضى، فيحصل الجزع والهلع، وتندب نادبات الجهل، وعلمت أن أكبر مصائب الإنسان الجهل وسوء الأخلاق، وأن أرفع مناصبه الحكمة وحسن الأخلاق، والأول كحكومة لا

دستور لها. والثانية حكومة لها دستور وقانون، فهل لك أن توضح لي الحكومات ونُوَّابها ونظامها ونسبتها إلى جسم الإنسان التشريحي، وكيف يؤلف مجلس النواب وما تمثيله؟ وكيف تؤلف كتب تلك الأمة حتى ينبغ منها رجال، أو يكون نوابها فوضى وكتبها؟ أم لها قانون طبيعي؟ وما رأيك في التاريخ والشعر والأدب؟ أنا لفي حاجة لإيضاح هذا إيضاحًا شافيًا، فلا سعادة للمرء مهما كان فاضلاً إلا في حكومة منظمة سعيدة، فقلت: ليكن القول فيه غدًا.



الفصل الثالث والعشرون
أخلاق الجمعيات الإنسانية

شرحنا فيما مرّ أخلاق الإنسان، وبَيَّنّا سعاداته الرَّعْنَاء، وسعاداته الثابتة المستقرة، ونريد اليوم شرح غرائز المجموع الإنساني وأطواره وأحواله.

جسم الفرد من نوع الإنسان تركب من أعضاء ضرورية لحياته لا يعيش بعدمها كالقلب والدماغ، أو حاجيَّة دعت إليها الحاجة، وإن عاش بدونها كاليد والرجل، أو مكملة تكمل أعمال حياته كالحاجبين والثديين، أو مزينة لتزينه وتزوّقه وترقشه وتحسن خلقه كدَعَج العيون[1] والحَوَر[2] والغَيَد[3]، تتركب الجمعيات من أفراد هم أعضاؤها، وجمعية الأسرة من أعضاء هي ضرورية لقوامها، وحياتها لا تكون بدونها كالأبوين، وحاجية كالأبناء، وكمالية كالخدم والحشم، وزينة كالأصدقاء وجمعية البلدة من أسرات، والكورة (المديرية) من بلدان، والمملكة من قصبات والقارّات من ممالك، وقد تهذب كثير من أفراد هذا الجنس البشري، وصل كثير منهم إلى منتهى الكمال، كبارهم الأنبياء،

---

(١) دَعَج العيون: سواد العيون مع سعتها. (م).
(٢) الحَوَر: شدة سواد المقلة مع شدة في بياضها في شدة بياض الجسد. (م).
(٣) الغَيَد: التمايل والتثني في لين ونعومة. (م).

أبناؤهم الحكماء. نعم، تهذب كثير من الأفراد ارتقوا إلى صفّ الملائكة، نصبوا أنفسهم آباء للناس والناس أبناؤهم، فاضل أتباعهم بينهم وبين الملائكة كما فصَّله الشهرستاني في (المِلَل والنِّحَل) هكذا كان لماذا؟ لأن الفرد بسيط بالنسبة للمجموع، الفرد كذَرَّة، المجموع كالطَّوْد (الجبل العظيم) يقطع في أمد التهذيب أجيالاً وأجيالاً، ويواصل المسير دهورًا ودهورًا إلى أي حد وصل المجموع؟ إلى أي مقام ارتقى؟ ما أخلاقه؟ الجنس البشري من حيث مجموعه وأخلاقه في سن البلوغ لم يصل إلى مرتبة الكمال، رأت الجمعيات الإنسانية أن الفرد عاجز عن إشباع بطنه وستر جسمه، فتعاونوا بالضرورة والحاجة الداعية بما أُودِع فيهم من غرائز مختلفات، فهم في الغرائز مختلفون، وفي الحاجة مُتَّفقون، ثم تبادلوا ثمرات أعمالهم ونتائج قرائحهم[1]، فنشأ التنازع والتخاصم، فكان التقاضي والمحاكمة، فلجئوا إلى رئيس وقاضٍ وسلطان، فجار هؤلاء فقيَّدوهم بالقانون وسيطروا عليهم بالنواب، هذه قصتهم وهذا حديثهم، سار هذا النوع في حياته على ما غلب على مجموعة صلاحًا وفسادًا، عدلاً وظلمًا، فكان منهم فئات وجماعات فاختلفوا طرائق وتميَّزوا خرائق وتباينوا مشارب، فكان فيهم المدنيات الآتية:

المَدَنيَّة الضرورية: اقتصروا على الضروري من الحياة الدنيا لا يذكرون إلا الغذاء والرداء.

(١) قرائحهم: طباعهم. (م).

المدنية الحسية أو مدنية الخِسَّة: يرون السعادة في اللذائذ الحسية والشهوات المحسوسات بالحواس الخمس.

مدنية اليسار: يقولون لا سعادة إلا باكتناز الأموال، فأما اللذات فذاك ما لا طاقة لنا به.

مدنية المفاخرة: قالوا الحياة هي الكرامة والتبجيل والتعظيم والتفاخر.

المدنية الجماعية: قالوا لا حياة إلا بجمع هذه الخصال.

هذه المدن الخمس تُسَمَّى في عرف الحكماء بالمدن الجاهلة.

هناك فِرَق أخرى ثلاث؛

أولاها: المنحرفة التي نبذت الدنيا ظِهْرِيًّا[1] كأنها لم تكن شيئًا مذكورًا.

ثانيتها: الفاسقة، وهي التي طال عليها الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون، ولم يقم فيهم نابغون يرشدونهم إلى سواء السبيل، ولا حكماء هادون، ولا أنبياء مرسلون.

ثالثها: الضالَّة، وهي التي قادها رجل يقول: إنه أوحي إليه، ولم يوح إليه شيء كأتباع المهدي السوداني.

---

(١) ظِهْرِيًّا: ما يجعله المرء وراء ظهره وينساه. (م).

هذه الجمعيات الثلاث ملحقات بالخمس قبلها.

هذه أحوال الأمم الجاهلة والفاسقة والضالة والمنحرفة.

قصدت الجمعيات أن تصل إلى المدنية الفاضلة ولم تصل بعد إلى درجة الأنبياء، لا، ولا درجة الحكماء، ولا صفات الشيوخ الجاهلين، ولا الشُّبَّان العاقلين، بل هذا النوع في سن البلوغ فيه مبادئ التعقل لم ترهم آباء للأمم الضعيفة ولا أوصياء أمناء اللهم إلا قليلاً خلفاء الأنبياء.

بماذا تعامل الجمعيات غيرها وإخوانها يسومونهم[1] سوء العذاب يرغمونهم، يعلونهم بالغلبة والقهر، يسلبونهم أموالهم، يسيطرون عليهم، يستعبدونهم بماذا؟ بالاتحاد فيما يشتركون فيه من هواء وغذا وجوّ، وهي الوطنية بالمصاهرة يتصاهرون ويتناسلون بالازدواج بوحدة التناصر، وبأنهم كانوا أتباع ملك فيتخذون ذلك ذريعة للسيطرة والقوة أو بما به يتكلمون، وهي وحدة اللغة أو يتخذون لهم عبيدًا ثم يتخذونهم مقاتلة لغيرهم، وهي وحدة الاستعباد، ووحدة الجنسية، أي أنهم أبناء رجل واحد فأنواع القوة سبعة: الاستعباد، المصاهرة، الوطن، اللغة، المحالفة، اتباع ملك جامع لهم، النسب، هذه قوى الأمم وذرائعها على اختلاف طرقها وتباين مشاربها، ما كانوا إلا جهلاء أو فاسقين أو ضالِّين، هذه الصفات السبع غرائز الأمم الثماني اللاتي رسمناهن اليوم، فتدبرهن تَرَ المجموع يصل إلى ست وخمسين بتكرار تلك الثماني

(١) يسومونهم سوء العذاب: يعذبونهم ويذلونهم. (م).

على مقتضى أحوالهن السبع، انظر نظرة أخرى، ترهم يعاملون الجمعيات الأخرى على ما رسمه حكماؤهم وخَطَّه فلاسفتهم.

يقول فريق: الدنيا دار ليس بعدها دار، ومن طبيعة الموجودات حب الانفراد، نرى هذا الخُلق في الحيوان الأعجم يفترس غيره لا لمنفعة فيه، وإنما يروم الانفراد بالوجود، وهذا الخلق ظاهر في النمر يقضي على الفريسة بإعدامها وإن لم يُرِدْها لإشباعه.

ويقول آخرون: طبع المخلوقات الاستئثار بالمنافع واقتفاء الثمرات أينما حلت، هذا الخلق ظاهر في الزروع والأشجار والسباع، تمتص جذور الأشجار ما يحيط بها من الأرض والماء والهواء والنور والفحم في الهواء، فنحن نستولي على غيرنا لحظ أنفسنا، ولا نقضي عليه لغرض إعدامه، فنحن أرقى من ذوي الأخلاق النمرية.

يقول هؤلاء: إنْ عدلنا مع غيرنا كان العدل اضطرارًا ما دامت لهم قوّة وشوكة، فإن أصاب جسمَهم مرضٌ غدرنا بهم، ونقضنا المواثيق، وخُنّا العهود.

القانون والعدل: إذا تساوت القوَّتان، فإن خفَّ ميزانهم انقضضنا عليهم فاقتنصناهم، وازدردناهم[1]، وفريق يقول: الحرب مع الإنسان عيب وعار وجهل وظلم وتنزل عن الإنسانية، بل نرى في أخلاق العجماوات ما يرفع بأنفسها أن تحارب أو تأكل أبناء جنسها، فمن الحماقة وسوء الخلق قتال الإنسان واغتياله، وإنما يحاربون الحيوان ويقتنصونه ويتسلَّطون على الجماد ويأكلون نباته.

(١) ازدردناهم: ابتلعناهم. (م).

وقالت طائفة رابعة: عار علينا قهر الإنسان وقتل الحيوان، وإنما يتعاون كل حي على استنبات الأرض وأكل ثمرها، وهؤلاء هم البراهمة (مجموع الإنسان ظَلوم جَهول، جمعياته لم تكمل، نظامه مضطرب) إن الإنسان لظلوم كَفَّار، أدنى درجاته مُشَاكَلَة(١) النمر، وهي الوحشية القصوى، يقتل الرجلُ الرجلَ لمشاركته له في مُطلَق الوجود، ولتبقى له الحياة منفردًا، وهي درجة صبا نوع الإنسان يتلوها إعدامه للمنفعة، وأعلاها وأفضلها السلام العام في العالم الإنساني حين تكون الأمم العظيمة آباء الضعيفة، يرشدونهم ويُرَبُّونهم حتى يبلغوا الحُلُم ثم يكونوا أمثالاً لهم وأشكالاً.

ذلك الوقت هو الذي أشار له الأنبياء ورمز له بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس/ ٢٥] هو فك طلسم المهدي ورمز نزول عيسى عليه السلام، هو ما يخبر عنه حكماء الأمم والفلاسفة.

العالم سائر إلى تلك المدنية، ها هو يسرع في خطاه ولكن لن نصل إليه في حياتنا وإنما هي اليوم خيال، وكل أمة تركت نفسها للمصادفات العمياء فسُحْقًا لها وبُعْدًا، تطحنها الأمم، وتضرسها بأنيابها، وتدوسها بأرجلها، وتكون في اللقاء لها طَحِينًا، ولا مناص الآن من وضع الأمة على قانون نظام الجسم البشري وتشريحه كما سنشرحه.

---

(١) مشاكلة: موافقة ومماثلة. (م).



الفصل الرابع والعشرون
نظام الأمة كنظام الجسم البشري

قلنا إن العالم الإنساني جميعه جسم واحد أعضاؤه الأمم، وهل يصلح المجموع إلا بصلاح أعضائه؟ الإصلاح سريع اليوم في الأمم، جمعيات ثلث النوع البشري لهم نُوَّاب هم في داخل بلادهم متحابُّون متضامنون متآلفون، الثلث الثاني كالصين والفرس موشكة جمعياتهم أن يتم نظامها، يبقى الثلث الأخير من الهيكل الإنساني، فإن قصَّروا وتوانَوْا فعَمَّا قليل يصبحون فريسة المفترسين وجزر القانصين وطحن رَحِيّات الباغين، يكونون غذاءهم يفترسونهم يأكلونهم، كيف لا والإنسان العام لم تكمل فيه درجة الإنسانية. هم جميعًا دروينية (على مذهب دروين)، وإياك أن يخطر ببالك مذاهب البراهمة أو مذاهب الرحماء القائلين برحمة نوع الإنسان، فتلك أقوال تكتب على صفحات الهواء، والمتمسكون بها أذلَّتْهُم الأمم وسَامَتْهُم الخسف، فالغالب اليوم من الأمم كلهم دروينية يبتلع قويُّهم ضعيفَهم. نعم، الإنسانية ملأت الفراغ ولكن باللسان. آخر ما وصلوا له تظاهر باللسان وملق من ورائه جشع وظلم، يرمز له بأبي الهول أقبل بوجه امرأة ذات جمال ومن تحته جسم جسم سبع، ونسمع في الأقاويل السماوية (إن لله مُلكًا

نصفه من ثلج والنصف من نار) إشارة لجمع المتناقضات، وهذه الأمم تناقض أقوالها أفعالها.

أخذت الجمعيات تتظاهر بالإصلاح، تعد بالخير ترشد للمعروف، كأن الإنسان علم أنه يومًا ما سيكون أبًا رحيمًا فتظاهر به وإن أضمر الطمع والشَّرَه، هذه حال الدنيا، هذه هي السبيل، الأمة النائمة الغافلة ستكون فريسة، تكون غذاء طعمة لغيرها، ذهبت أمريكا، فني جيلهم، هكذا سيصير الغافلون.

صلاح الأمم ونظامها لأنفسها، وكثير منها بلغ الكمال، وسيبلغ الأكمل ولا يصلحون من عداهم إلا بسياج ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب، هم على مذهب دروين، إلى الآن لم يعمل قوم بتعاليم المسيح من رحمة الإنسان ولا برحمة من رحمة الحيوان والإنسان ما عرفت الإنسانية ما وصل إليها المجموع قد وصلها الأنبياء والحكماء فهدوا غيرهم، وإلى أدناها الصالحون الذين يذرون المعاصي ولا ينفعون، والناس بين هؤلاء درجات بعضها فوق بعض، الجمعيات البشرية غادرت أخلاق النمر، وها هي الآن أخلاقها أَسَدِيّة نباتية تستأصل غيرها لأنفسها.

كمل نظام السماوات، سارت الكواكب في أوقاتها المحددة، أشرقت الشمس، وأَفَلَت بحساب، دارت الأرض كل أربع وعشرين ساعة دورة بحساب

مُنَظَّم تتهادى كالعروس حول الشمس حملت حملها، وفت وعدها، أرضعت أبناءها الحيوان والإنسان.

قامت الجبال بما خلقت له، خزنت الثلج والماء وصَبَّتهما في الأنهار بقسطاس مستقيم كما أوحت إليها الحرارة الشمسية، والإنسان لا يزال يخبط في جمعياته وهو جهول ظلوم يقول خالقه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ [الأحزاب/ ٧٢] وهي قائمة بما فرض عليها ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب/ ٧٢]؛ لأن العقل والحكمة والنبوة تتنزل لضعاف العمل الناقصين، وهؤلاء هن الكاملات فيما استعددن له ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب/ ٧٢]، مشى على مذهب دروين ولم يصل بعد للإنسانية الحق والأخوة حتى ينعم باله كأخيه الحيوان الذي يَعُدُّه أدنى منه.

الإنسان ظلومٌ جهول، يرى القَذَاة[1] في عين غيره ولا يرى الخشبة في عينه، نظر الطاحونة الهوائية الشعيرة تدور على ناموس الهواء المتغير، فاستبدل بالنار حتى يطحن أَنَّى يشاء لا ما تشاء الرياح التي لا قانون لها، جعل للسفن إدارة ثابتة في أنفسها حتى تُضَارِع[2] السمكة الجارية في الماء، ترسو وتطفو كالسمكة، كل هذا صنعة الإنسان وكثير منهم يجهلون هذه الحقيقة في أنفسهم ولا ينشئون لهم قوة من أنفسهم تدير أعمالهم كنوَّاب ينوبون عنهم.

---

(١) القَذَاة: ما يتجمع في العين من إفرازات. (م).
(٢) تُضَارِع: تشابه. (م).

ولمَّا فرغت من هذا الفصل وصاحبي مصغٍ إليّ قال: أرجو إنجاز الوعد بالبيان الشافي عن الأمم ونظامها، وكيف تؤلف كما يؤلف الجسم، فقلت: نظام نواب الأمة ناموس كناموس نظام الجسم.

لا بد لنا أن نقدم مقالاً في التشريح حتى نقيس عليه نواب الأمة التي هي عضو من الجسم العام الإنساني، فقال صاحبي:

وما لنا وللتشريح؟ التشريح فَنٌّ الأطباءُ يدرسونه ليميزوا العلل والأمراض وسيرها، فأما نظام الأمة فما لها وله؟

فقلت: علم التشريح علم عام لا ينبغي أن يجهله الأطفال فضلاً عن الرجال، علم التشريح أَلْزَمُ في المعرفة من علم تخطيط البلدان، ومن علم غرفات المنزل أنفسها.

علم التشريح يجب تعليمه للأطفال عامة، بنصب هيكل إنساني لهم فيرونه ويدرسونه إجمالاً في يوم ويدرسه الحكيم أفضل دراسة ليسمو نظره ويُمْعِن[١] الطبيب في دراسته أَيَّما إمعان، ويتعلمه عالم الدين ليكون برهانًا على حكمة الصانع وجلاله، ويقرأه علماء العمران فينظمون المدن ويؤلِّفون مجالس النوَّاب كتأليفه وليسوا يمعنون فيه إمعان الطبيب، فتراهم يقولون:

(١) يُمْعِن: يجدّ ويبالغ في الاستقصاء، ويطيل الفكر. (م).

الإنسان مركَّب من رأس وقلب ورئة وكبد ومرارة وطحال وكُلْيَة وأمعاء ومعدة وصدر وبطن وأعضاء أخرى وحواس وأعصاب، فمن سمع هذه الأسماء وهم أنها فوضى لا نظام لها ولا ترتيب، ويظنها مصادفة حمقاء وأوضاعًا خرقاء[١]، والمتأمل يعلم أن القلب مركز الدورة الدموية تدور في الجسم كأن القلب مَضَخّة تجتذب الدم وتعطيه ماصّة كابسة، والدم يجول ليلاً ونهارًا لا ينام ولا يفتر، والقلب يمتصه، ويُمجّه[٢]، فهو القنطرة الدائمة الحركة بلا مُحَرِّك، تراه يحمل الدم حرارة لطيفة تسمى الروح الحيوانية تصل للدماغ فتلطفه فيعتدل، وهناك تسري تلك الروح في الأعصاب سريان الكهرباء، ثم إن الحواس الخمس تميز ما يرد عليها من خارج فتكون إذ ذاك حركتان؛ إحداهما من الخارج إلى الداخل، فتصل للدماغ، والأخرى من الداخل إلى الخارج، فتحرك الأعضاء من اليدين والرجلين للطلب والهرب، والأولى أعصاب الحس، والثانية أعصاب الحركة، وكلتاهما مغروس في الدماغ أو في النُّخَاع الشوكي الممتد في فقرات الظهر، وهي ٢٨، وأكثر أعصاب الحواس في الدماغ للطفه ودقتها، وأكثر أعصاب الحركة تنبت في فقرات الظهر من أعلاه وأسفله ترى متميزة بألوانها قوية متينة ذات مادة فحمية.

الأعصاب المتفرّعة من الدماغ والنخاع الشوكي كشجرة أصلها ثابت في سماء الدماغ، وفروعها كثيرة في أرض الجسم، وتلك الفروع قُسِّمَت على الإحساس والحركات.

---

(١) خرقاء: حمقاء. (م).

(٢) يمجُّه: يرمي به. (م).

لعل الإنسان شجرة مقلوبة في الأعلى، جذورها في الأسفل، أغصانها تبصر شيئًا أو تسمعه فيحمله البريد، وهو من أعصاب الإحساس اللطيفة، فيصل الخبر إلى الدماغ في لمح البصر أو هو أقرب، فيأمر الملك المدبر هناك في قصر (يلدز) الدماغ، فيصل بريد آخر في أعصاب الحركة آمرًا لها بالعمل كما قرره مجلس الأعيان، وهم الملأ الأعلى الذين يتشاورون في الدماغ، وهي قوى العقل من المخيِّلة والمصوِّرة والعاقلة.

قلنا: القلب منشأ الدم والحرارة الغريزية، ونقول: إن القوة العاقلة شيء وراءهما جهلها الطبيب، وما يخصُّه إلا الرُّوح الحيواني الساري في الأعضاء، ثم الرأس له وزيران القلب والقوة المولدة في الشخص، ويخدم القلب الكبد والرئة، والكبد يجذب خلاصة الطعام والشراب من الأمعاء، فيطبخ فيه، وكل مطبوخ فله أربعة أشياء: عكر أو دردي وهو أسفله، ورغوة أعلاه، وماء يتخلله، ومطبوخ خالص، فهكذا الكبد يطبخ الدم وعكره هي السوداء المُتَّجهة للطحال على قول القدماء، وماؤه هو المُنْصَبّ في الكُلْيَتَيْنِ، وخالص المطبوخ هو الدم الجاري إلى القلب، والرغوة هي الصفراء المتجمعة في المرارة، ثم الأمعاء كما قدّمنا خادمة للكبد، وهي مخدومة بالمعدة وهي بالمريء والفم واليدين لإدخال الطعام، هؤلاء يخدمن القلب من جهة إدخال الدم إليه، وللرئتين (الفشتين) وهما في الصدر عمل آخر للدم، فيقبلان الهواء ليصلحه في أثناء جريه.

ثم إن القوة المولدة جعلت في جسم الإنسان ليخلف الشخص آخر مثله إذا مات ليبقى النوع الإنساني حيًّا معمرًا للأرض.

وملخص هذا: أن القلب يمتص الدم من الكبد المخدوم بالمرارة والكلية والطحال على رأي، وكذا الأمعاء، ثم الرئة تُنَقِّي الدم بهوائها والإنسان فيه قوة مولدة ليكون النوع باقيًا.

هذا إجمال ما أردنا، وسنشرح فيما بعد بالتفصيل معنى قولنا: نظام الأمة كجسم الإنسان، فَأَمْعِن في هذا ليتضح لك المقام.



الفصل الخامس والعشرون
نظام الأمة كجسم الإنسان ودرس في علم اليابان

اجتمع زارع وصانع ومهندس وربّ منزل وملك وتاجر وقائد جيش وطبيب وحكيم وعمراني، تلك عَشَرَة كاملة ضَمَّهم مجلس علم، فقال كلٌّ منهم: لنتخذ جسم الإنسان مثالاً يكون عبرة لمن بعدنا، فقال الزارع: هذه الإنسانية زارع، الجسم حقله وغيطه، والأعمال والأخلاق والعلوم والآراء زروعه وسروره، والذكر الحسن وتخليد عمله وحب الله له غَلاَّتها وثمراتها.

قال الصانع: جسم الإنسان دار صناعة واحدة، رُتِّبَت درجاتها، نُظِّمت قاعاتها، فيها تصنع أعمال عجيبة تحيل الأطعمة إلى مادة كقوام اللبن، فدم مسوَدّ فمحمر فلحم فعظم فعروق، فسمع وبصر وشم وذوق ولمس، تصنع هذه الأعاجيب بصُنَّاع ماهرين، وعَمَلَة قادرين، وحُرَّاس مسيطرين لا يعصون مدير دار الصناعة ويفعلون ما يؤمرون.

قال المهندس: بل هؤلاء العمال المهندسون ماهرون منظمون قادرون، هندسوا أعضاءه، وزيَّنوا أشكاله، وزوّقوا بنيانه، فترى قامة الإنسان ثمانية أشبار بشبره، وهي عشرة إذا مد يديه إلى أعلى، وإذا مد يديه إلى الجانبين كان عرضه

ثمانية أشبار كطوله. ثم إذا مدّ يديه إلى أعلى كانت السرة في منتصفه، وطول وجهه كطول قدمه، وهكذا تتبع علماء الهندسة جسم الإنسان فألفوه جمعية هندسة جميلة منظمة لحكمة عجيبة خَرَّت لها الأعناق سُجَّدًا، وفهموا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين / ٤].

فقال ربّ المنزل: الجسم دار، والصدر والبطن والرأس وبقية التجاويف قاعاته وغرفه، وقوى الجسم خدمه وحشمه، والروح رب المنزل، فقال الملك: العقل ملك والنفس وزير والجسم مملكة، العقل يأمر النفس والنفس تربي الجسم فلا تزال تُرَبِّيه ويرقى بمزاولة الأعمال، وكلما زاد عملها كملت أخلاقه وقربت من ربها حتى تسير مطمئنة كالعقل، وتفارق الجسم، وتستقل بالأمر، والوزراء يقلِّدون الملوك حتى ينالوا مراتبهم.

فقال التاجر: جسم الإنسان سفينة، والنفس ملاَّحها، والبحر مصائب الدهر وحدثان الزمان ووَيْلاَتُه، والأمتعة والبضاعة المحمولة إنما هو عمل النفس والساحل الموت، والمدينة المرادة للتجارة وراءه فيها حكم عدل يقسط للنفوس بميزان عدل لا يخسّ شعيرة، قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم فأحبوه وأحبهم.

فقال قائد الجيش: الهيكل الإنساني فرس، والحياة الميدان، والناس المتسابقون، وقصب السبق هي المعالي.

وقال الطبيب: الجسم مريض، والعقل طبيب، والمعاصي أمراضنا، والطاعات دواؤنا، أو الاستبداد داؤنا، والحرية دواؤنا، فقال الحكيم: عجبًا لهذا الهيكل

الجسماني المنصوب والجوهر المكنون المنير، أراه مبنيًا من النور، مصوّرًا من الحكمة، مزدهرًا بالجمال، مملوءًا من العرفان، هيكل الإنسان وروحه كمِشْكَاة (فتيلة) فيها مصباح، المصباح داخل زجاجة، تلك الزجاجة مصنوعة من كواكب دُرِّيَّة[١] لا رَمْلِيَّة، وما هذه الروح المشتعلة في الجسم إلا نور على نور، نور العقل والعرفان، على نور نظام الإبداع والإحكام، إني أرى في الدنيا عجبًا، أرى الأرض أسفل المخلوقات والماء يعلوها والهواء يتلوهما والنور يشرف عليهما، ومن ورائها قوة لا ترى تحيط بالجميع، فتعجبت إذ أَلْفَيْت الهيكل المنصوب فيه غرف من فوقها غرف مَبْنِيَّة، نظمت على هذا النظام البديع العجيب، ألست ترى الطعام والشراب وهما من الأرض والماء في أسفل الطبقات كما هما في طبعهما؟ فهكذا في وضعهما في طبقة البطن، وتعجب من الهواء تراه في الغرفة الوسطى (الصدر) جلس في الرئة لنقاوة الدم، ثم ترقى إلى سفير ورسول في الخياشيم، ومخبر ومعلم وأستاذ ومرشد في الآذان، ثم تولى النور أمر العلم فواصل العينين، وكانتا في المقدم أعلى الجسم كما هو وضع النور من أعلى، ثم تأملت فوجدت كلَّ حاسة لها ما تستمد منه من الخارج، هذه من الأرض، وهذه من الماء، وأخرى من الهواء، وأخرى من النور مُرَتَّبات عجيبات، ورأيت الدماغ فيه أشرف الحواسّ، وهو العقل، فحكمت حكمًا عادلاً أن استمداده من عالم أعلى من الهواء والنور، وهو العالم الإلهي، وكأن هذا شعاع منه كما أن للشمس شعاعها، وناسب كل ما يحس محسوسه.

---

(١) دُرِّيَّة: مضيئة، متلألئة، صافية. (م).

رأيت العقل في القبة العليا في أشرف مكان، وهو الرأس، ولم أر حاسة مما تحته إلا ولها عالم تستمدّ منه يشابهها ويضارعها، فقلت إنه لشعاع من نور الله ﷻ دَبَّر هذا البناء الإنساني.

فقال العالم العمراني: جسم الإنسان حكومة منظمة، والدماغ حكومتها، في الرأس معاطف وتجاويف مُفَصَّلة مُقَسَّمة، لكل قسم من العلوم جزء مقسوم مفصلة تفصيلاً عجيبًا، قسمت العلوم والعواطف والأخلاق والأحوال والإدراكات على تلك المراكز الدماغية تقسيمًا عجيبًا، حتى لو أُتلِف أحدها لضاع ما اختصَّ به من العلم والخلق، وما هذه القوى في الدماغ إلا صدى صوت الجسم صحة وفسادًا غالبًا.

نوَّاب الأمم كأعضاء الجسم، لكُلٍّ خاصة لا يشركه فيها سواه، فلن يَصْلُح القلب لهضم الطعام كالمعدة، ولا المعدة للتصور والعقل كالدماغ، ولا أعصاب الحس والحركة للمشي كالرجل، ولا الكبد لتوزيع الدم كالقلب، ولن تصلح المرارة لغير الصفراء، ولا الكُلْيَة لغير الماء الواصل إليها، لو كانت أعضاء الجسم نوعًا واحدًا لم يكن إنسانًا ولا حيوانًا، بل كان عضوًا واحدًا لم تكن فيه روح، لم تكن فيه حياة.

هكذا الأمة إذا كان نوَّابها منتخبين بالمصادفة العمياء، بالبخت أو بالغنى فَكَبِّر عليها أربعًا لوفاتها، فقد ماتت من الوجود، كل منهم ينبغي أن يكون مُخْتصًّا

بعلم ينفرد به، فيكون منهم الطبيب والمهندس والمالي وعالم الزراعة والفيلسوف وقائد الجيش، وهكذا وليكونوا مطّلعين على أحوال أوربا.

مجالس النواب إذا خلت من الاختصاصيين كانت كتلة لحم على وَضَم[١]، إذا فقد الطبيب النطاسي[٢] أو المهندس... إلخ، أضحت كجسم بلا كبد، بلا عين، بلا أذن، جسم ناقص مريض نقص العلوم، اصطفوهم من ذوي العلوم والقوة ليكن الأعلم هو النائب، وإلا فلا معنى لأشباح بلا أرواح ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال / ٧٣]، احذروا الخُشُب المُسَنَّدة، إذًا ستضحكون القوم منكم، يزدرونكم، يقولون: لا يعقلون، وإنهم إذًا لصادقون، فلا تلوموهم ولوموا أنفسكم لعلكم تعلمون فتهتدوا.

ها أنت ذا قرأت جسم الإنسان وتركيبه وفهمت وضعه وإحكامه، فليكن نواب الأمة كالقلب والرئتين والكبد والطحال: كل له مرتبة لا يشركه فيها سواه.

علمت أن للإنسان شعورًا وعقلاً وفكرًا ومصورة وذاكرة في أماكن معلومة محدودة في الدماغ، وديوانًا عظيمًا وحكومة مسيطرة، تلك هي صدى صوت الأعضاء، إن صلح البناء وقوي واشتدّ ساعده انتظمت حركاته وسكناته، وإن ضعف البناء أو مرض ضعف الشعور ومرضت قوى الدماغ، فكأن المعقولات صدى صوت المحسوسات هكذا الأمة متى اتصف نوابها بالعلم والحكمة

(١) وَضَم: كل شيء يُوضَع عليه اللحم من خشب أو حَجَر أو خلافه. (م).
(٢) النطاسي: العالم بالأمور، الحاذق بالطب وغيره. (م).

اعتدلت حكومتها؛ إذ هي صدى أصواتهم، وإن يكونوا جهلاء، أو من نوع واحد ظلمت الحكومة وجارت؛ إذ لا كابح لجِمَاحِها[١] إذا جَمَحَت[٢]، ولا مجري لها إن هي حَرَنَت[٣] ولا موقف لها عند حدِّها إن هي جاشت ورعنت[٤].

لا عبرة بالهياكل المنصوبة، وأصنامها المعبودة، أتدري لم انتخب الناس المظاهر وهم لا يميزون الخبيث من الطيب، ولا العلم من الجهل؟ ذلك أنه غرس في الفطر البشرية أن الغنى مناط القوة والعلم والعقل، وهذا حق، فالمال وسيلة للعلم والفهم في الأمم الراقية، وهو مناط النوم على الفراش الوطيء في الأمم الخامدة.

وكأن الناس إذا اصطفوهم فيها يقولون لهم: كونوا أهل كمال وعلم كما عكف الدجَّالون على الرمل، يقعدون في كل مرصد ينادون الناس: هلمُّوا لنخبركم الغيب، كأنما ركب في فطرهم أن سيصنع منه الزجاج وتصاغ منه المناظر المعظّمة والمقرّبة، فيرصد أبعد الكواكب، ويتميز أصغر الذّرّ، وكما بكت الباكيات، وناحت النائحات على الأجداث (القبور) كأن أولئك أدركن أن للأرواح وجودًا، وأنهم يومًا سَيُبْعَثُون ويَقُومُون، فهكذا أولئك المنتخبون (بالكسر) لمن لا يعلمون، لعلهم وَقَرَ في نفوسهم أن هؤلاء سينفخ فيهم الروح ويبعثون من مرقدهم ويقولون هذا ما وعد الكاتبون وأنذر الصادقون وصدق ظن المنتخبين.

---

(١) لا كابح لجماحها: لا جاذب للجامها لتقف. (م).
(٢) جمحت: ركبت هواها فلا يمكن ردها. (م).
(٣) حَرَنَت: تشبَّثت برأيها. (م).
(٤) جاشت: هاجت واضطربت، رَعُنت: صارت حمقاء في القول أو الفعل. (م).



الفصل السادس والعشرون
نظام الأمة كنظام جسم الإنسان

طَفِقْنا[1] اليوم نبحث عن فَلَاح الأمم ورقيِّها ونظامها بناموس أجلى، وتعبير أوضح؛ إذ قال محدّثي: قرب لي مثل جسم الإنسان المضروب للأمة، أوضح لي ما قد مضى ربما كان عَسِرَ الفهم، فقلت:

تَصوّر صَرْحًا مبنيًّا مشيدًا مرفوعًا على عمودين صاعدًا في الجو، فوق العمودين طبقتان مبنيتان متلاصقتان كأنهما غرفتان يفصلهما سقف مرفوع، ويعلو الغرفة الثانية مجاز متجه لأعلى، بداخله سُلَّم يظهر للناظرين كأنه عمود تعلوه قبة عجيبة تحفّ بها المزارع النَّضِرات المدهامَّات[2]، في الغرفة السفلى من تَيْنِك الغرفتين عَمَلَة وصُنَّاع وشغالون ومصانع ومعامل وأفران وعجَّانون وخبَّازون، وهم أجمعون يُحَضِّرُون أطايب الطعام من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ويجهزون ذلك ويرفعونه إلى الطبقة العليا فوق السقف، فيتناوله قوم أشراف عادلون، ويوزعونه على سكان الصّرْح كله، وفي القبة العليا الملك وجنوده

(١) طَفِقْنا: بدأنا. (م).
(٢) المُدْهَامَّات: ادْهَامَّ الزَّرْعُ: اشتدت خضرته من الرِّيّ حتى مال إلى السواد. (م).

وأعوانه وعمّال البريد والكهرباء والتلغرافات، وهو مسيطر على أولئك العاملين والصانعين.

الطبقة السفلى: البطن وما فيه من القوى والآلات، يصنع الطعام فيلقيه للكبد ثم يرفعونه جميعًا إلى القلب في الطبقة الثانية وهي الصدر، فالكبد يوصله إليه، والرئة تنقيه وتخلصه، والقلب يُزْجيه[١] ويرسله ويوزِّعه في جميع الجسم بقَدَر معلوم، والطبقة العليا فيها العقل وقواه من الحس المشترك والخيال والمصورة والذاكرة والحافظة، وهم وزراؤه وأعوانه وجنوده.

وتحيط بتلك القبة – وهي الرأس – جنود وحُرَّاس، وهنَّ الحواسّ الأربع: السمع والبصر والشم والذوق، وترى تلك الأعصاب تحت إِمْرَة الملك يرسل كهرباءها من أماكن مختلفات من الرأس أو فقرات الظهر، فيأمر وينهى والأعضاء جميعًا له مطيعون.

هكذا فلتكن الأمم ونظامها، ليكن النواب حواسها، ليكونوا أعضاءها العاملة القوية، ليكونوا من ذوي الاختصاص بفنون وعلوم. العقل ووزراؤه في الرأس ناقصو المعارف، إذا نقصت حاسة في الجسم، إذا لم يكن سمع فهم جهلاء بعالم المسموعات، هكذا تكون الحكومة جاهلة بأحوال الأمة بمقدار جهل

(١) يُزْجيه: يدفعه برفق. (م).

نوابها كثرة وقلة، فقال صاحبي: أريد مثلاً أوضح من هذا، وليكن من الأعضاء الظاهرة، فقلت: إن الحواس الخمس مُرَتَّبة ترتيبًا طبيعيًّا، هكذا اللمس يعم الجسم، واختصاصه باليد أكثر، والذوق ومحله اللسان، الشم ومحله الأنف، السمع ومحله الأذن، البصر ومحله العينان، ثم بعدها العقل ومحله الدماغ. أتدري لِمَ رتبت على هذا النسق؟ لِمَ وضعت بهذا النَّظْم العجيب؟ ذلك أن اللمس يقابل المواد الغليظة من الأرض وما عملت، فكان عمله عامًّا للَّطيف والغليظ، فكانت مرتبته سفلى في اليدين وعمل القوة الذائقة في الطعام كالحلاوة والملوحة، وهي خلاصة المادة، فكانت حاسته أعلى مما قبلها العامة في سائرها، ثم الشم في الأنف يقابل الهواء المتخلل مواد من ذوات الروائح، فكان ألطف وفي مجلسه أعلى، ثم السمع في الأذن يقابل موجات في الهواء كأمواج الماء تحدث رنات تصل للعقل فيعرف، ثم البصر وأعماله في نور جميل خالص أرق من المادة وأبهج وأجمل، آَت لنا من كواكب بيننا وبينها ملايين الأميال، وكأن في المقدم زينة وجمالاً وبهجة وفي الرأس العقل، ولا ريب أن له اتصالاً بما فوق النور، وهو الله الذي يأمرنا بهذا العقل أن ننظم مدننا كما صنع هو مدينته، يأمرنا أن يكون أمرنا شورى بيننا، يأمرنا أن يكون نوابنا من كل طبقة: من التجار والصناع والفلاحين والمهندسين والأطباء والماليين، يأمرنا بذلك، يقول لنا بهذا الرمز المصنوع هذا الهيكل العجيب الإنساني، هذا السر المدهش يقول: ها هو هيكلي الذي صنعته ووكلت به الحواس المشرفة على كل عالم من شراب وماء وهواء ونور حتى وصلت إليّ،

يقول: هكذا فلتكن نوابكم، يقول في الكتاب: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران/ ١٠٤]، هكذا صنع ربكم أجسامكم، وهكذا يخاطبكم، إذا فَقَدْنَا حاسة الشم، فمن ذا يخبر العقل حتى يحترس من مادة ضارة بنا؟ إذا حُرِمْنَا البصر فما حال حياتنا؟

هكذا مجالس الأمم، تجهل الحكومة فيقلّ عرفانها بمقدار ما نقص من أعضائها، عجبًا! جاء النساء لرسول الله ﷺ وطلبن منه يومًا، وقلن قد غلبنا عليك الرجال يا رسول الله، فَخَصَّص لهن يومًا وعظهنّ، ورد في الكتاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب/ ٣٥]... إلخ، فَقَرن النساء بالرجال.

لو كان رسول الله حيًّا اليوم وسأله الغربيون عن حقوق النساء في مجالس النواب لمنحهن بعض سؤالهن كما منحن حقوقهن في التنزيل السماوي، ولكن فيما يخصهن من الشئون، فلن يتنزلن عن حاسة اللمس الملامسة لكل شيء، فإذا كان النساء يكاد يكون لهن حقوق، أفليس للخاصة من كل طائفة حق الإشراف على حكوماتها؟

قال صاحبي: قد فهمت هذا من الهيكل الإنساني، وإني أريد إيضاحًا أجلى من ذلك مما نشاهده فيما نراه كل يوم، وللناس قديمًا وحديثًا صور محسوسة

مشاهدة وتماثيل منصوبة يقيمونها للناس لتكون أجلى بيانًا، وأوضح مثالاً، وأبين قولاً وأثبت وصفًا، أرني هذا بمثال محسوس أراه بعيني، فإن جسم الإنسان والنظر فيه يحتاج لدقة وعناية، وإن كان ما أتيت به يفهمه الأذكياء وإن لم يكونوا من الدارسين، فقلت: خذ المثل الذي ضربه بيدبا الفيلسوف من نحو ألفين ومائتي سنة؛ إذ أَلَّف حكومة من فأرة وسلحفاة وغراب وظبية تعاهدن وتعاقدن على نظام جمهورية واحدة، وحكومة منظمة عادلة، وقام الغراب بإدارة البرق والبريد والقطر، والغزالة بالمهارة في السياسة، والفأرة بتنظيم الجند عند الحرب، والسلحفاة بإصلاح شئونهم العامة.

عاشوا على ذلك حِيْنًا من الدهر، حتى إذا فاجأهم الدهر بحوادثه، وأناخ عليهم بِكَلْكَلِه[١]، ساق لهم صيادًا فشدّ وَثَاق السلحفاة شدًّا وثيقًا، فجمع أخواتها الثلاث أمرهم بينهم وأَسَرُّوا النجوى، قالوا: ليجرينّ الغزال وليطمع الصياد في اقتناصه، وليرفرف الغراب ويُحَلِّق في الجو، فليكن رسولاً بين السائس وهو الظبي، وبين قائد الجند وهي الفأرة، هكذا صنعوا، وهكذا اغترّ الصياد، فأسرع يعدو وراء الظبي، وقرضت الفأرة بأسنانها حبال القانص، وأخبر الغراب الظبي فآَب الصياد بِخُفَّي حُنَين[٢].

(١) بِكَلْكَله: بصدره. (م).
(٢) آَب بِخُفَّي حُنين: مثل يضرب عند اليأس من الحاجة، والرجوع بالخيبة. (م).

هذا المثل ضربه الحكماء لهوًا للأطفال ومثلاً للعقلاء، إن نظام النواب من ذوي الخصائص المختلفة والآراء المتّقِدَة، ولابد من العلوم الراقية، وإلا كانوا هياكل المصوّرين، وزينة الجالسين، وضيعة المنتخبين.

قال صاحبي: إذا لم تُؤَلَّف الأمم على هذا المنوال، فماذا يصيبها؟ قلت: ترق العلائق بينها وبين الله.



الفصل السابع والعشرون
قطع العلائق بين الأمم الخاملة وبين ربها

سألني محدثي يقول: ها أنت ذا وَضَّحْت لنا جسم الإنسان ونظام الأمم على ناموسه وسير نوابها على منهاجه، وإن لكل منهم خاصة لا يشركه فيها سواه.

حَدِّثْنِي أسعدك الله، ما حال الأمم إذا نبذت هذه الحكم، وغادرت هذا النظام؟ إلى ماذا مصيرها؟ فقلت:

لتعلم أن الله جلَّ وعلا يكبر أن يسدي النَّعْمَاء لمن لا يديرها، أو يعطي الفضل غير أهله، فقال: هذا قول غامض، فَفَسِّرْه، فقلت:

ألم تر أنَّا ذكرنا أن هيكل الإنسان محاطٌ بمواد من جهاته الست، فكان للمواد الجامدة حاسة اللمس، وللمطعومات الذوق، ولفتات المادة المخالطة للهواء الشم، ولأمواج الهواء وهي الأصوات السمع، وللضوء وهو أدق الأشياء وأرق المخلوقات وأبدع الموجودات حاسة البصر، ولم يبق إلا العقل في الدماغ متصلاً بالقلب، شعاعه مدير الهيكل الجسماني بنوره متصلاً بالله مبدؤه، أودعه هذا

الشعاع ليدير أعماله بنفسه فيستمدّ منه قضايا الحكمة ومسائل الحساب وفروع الجبر وعجائب نواميس الطبيعة، ويسوس أمور الدولة، وتتجه العقول جمعاء إلى نظام المدينة، فيمدّهم بمعونته كلما عملوا عملاً.

إذا نبذوا الفكر ظِهْرِيًّا، وقالوا لرجل تقيّ أو فاجر أو وسط: انظر في أمورنا، ادع لنا ربك، دعنا في شهواتنا لنعكف على نسائنا وأولادنا وزروعنا، ونأكل كما تأكل الأنعام، وأنت أيها السيد العظيم والأب الكبير نَظِّم مدننا، انظر في شئوننا أمدَّك الله بمعونته وزادك نورًا وهداية، إنما نحن أطفالك وعيالك وحشمك وخدمك.

أيها السيد عليك الفكر وعلينا العمل، لنا عقول ولكن لا نفكر بها، لنا أسماع ولا نسمع بها، ولنا أبصار ولكن لا نبصر بها، الله أعطاك عقلاً غير عقولنا. أليس أمثال هؤلاء أجدر بقطع صلاتهم من ذلك النور الفائض، والكمال والجمال والبهجة، يقول الله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد/ ٨]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر/ ٢١]، هؤلاء غادروا الفكر، وفرّوا منه فرارهم من الأسد، فأولئك حقيقون[١] بقطع دابر عقولهم وإلحاقهم بالعَجْماوات، وأن يفيض الله ما نقص من مواهبهم على عقول ساداتهم جزاءً وِفَاقًا[٢]، إنهم كانوا لا يعرفون حسابًا وكذبوا مرشديهم كِذّابًا، وكل شيء أحصيناه كتابًا، فليذوقوا فلن يُزادوا إلا عذابًا، أولئك يسامون سوء العذاب

(١) حقيقون: جديرون. (م).
(٢) وِفَاقًا: موافقًا لعملهم. (م).

ومأواهم جهنم، الذل في الحياة الدنيا وندامة الخزي، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما يعمل الجاهلون.

فقال: كيف ينال ساداتهم ما فضل من عقولهم؟ فقلت:

الله لا يعطي شيئًا عبثًا، أترى للشجر سمعًا وبصرًا، أو للبهائم حسابًا وهندسة؟ قال: لا، فقلت: أليس من العبث أن يعطى الثور علم الهندسة والجبر؟ قال: نعم. قلت: هكذا من العبث أن تنال الأمم النائمة عقولاً واسعة مدبرة، وكلما دبر سادتهم كبرت عقولهم، فكلما أدبرت عقول العبيد أقبلت عقول السادات، فتنازل النسبة في الأولين كنسبة تصاعدها في الآخرين، ولذلك تسمع الناس يقولون: عقل الرئيس بمقدار المرءوسين، ولهذا نور من العلم وقبسة من الصحة، فقال: أرني مثالاً واضحًا من الطبيعة المشاهدة.

فقلت: أرأيت الحيوانات الوحشية، كالأسد والنمر والفهد والفيل والطيور الجارحة، وهكذا الغزلان الشاردة وحمام السماني المُسَمَّى بالسلوى، وبالجملة كل ما طار في الهواء وجرى في الخلاء وغدا وراح في العراء ولم يسيطر عليه بظلم الإنسان، كل أولئك لها من الغرائز والحيل والأعمال العجيبة ما لا يحصره كتاب العالمين.

كم روى الراوون حوادث من حيلها ودهائها ومكرها وعلومها ومعارفها وهندستها مما تخر له الحكماء سُجَّدًا، ولقد وصل العنكبوت لاكتشاف قانون

ضغط الهواء فغاص في البحار، وبنى له بيتًا لا يناله أكبر ملك في العالم، بنى بيته مثبتًا بعلاقة مثبتة في الأرض، مفتوح من أسفله، فامتلأ ماءً بالطبع إذ هو تحت الماء، ولكنه خلا أعلاه من الماء لامتلائه هواء، فهو كقبة وسط البحر، امتلأت ماء، وعند قمَّتها من داخلها موضع مفرغ من الماء امتلأ هواء، يعشش فيه ويبيض ويعيش قرير العين آمنًا في سعادة وقصر لم يحلم به ملك من ملوك الأرض، إذا علمت هذا فهل رأيت للغنم والبقر والحمير والدجاج والأوز من العجائب ما لتلك الحيوانات، أم لحمارنا ما للحمار الوحشي من الجمال وكبر النفس والعز، أم لعنزنا وشاتنا ما للغزالة من البهجة والجمال حتى تَغزَّل الشعراء وشبَّهوا بهنّ جمال الغانيات[1] في غِيدِهن ورشاقة قُدُودهن[2]؟

فقال صاحبي: وما سبب ذلك؟ فقلت: إن السبب أن الحيوانات الوحشية أدارت أمورها بأنفسها، فأعطاها الله قوة منه، وأمدَّها بالرأي جريًا على القاعدة.

فبِمُكْثِ المَاءِ يَبْقَى آسِنًا وسُرى البدر به البدرُ اكتملْ

طيور الماء طيور الصحاري والقفار والحيوانات الكاسرة، الحيوانات الوحشية كلهنّ متوكل على الله «تغدو خِماصًا: أي جائعة، وتروح بِطانًا» فأعطاها الله من فضله. فأما الدجاج والأوز والحمير فقد رقت صلتها مع ربها، وعكفت على سيدها الإنسان، ووكلت إليه تدبير أنفسها، فحرمت نور العرفان والذكاء

(١) الغَانِيَات: جمع «الغانية» وهي المستغنية بحسنها وجمالها عن الزينة. (م).
(٢) قُدُود: قامات. (م).

والحكمة، فهل نسجت نسج العنكبوت، أو رَاغَت[1] رَوَغَان الثعلب، أو حفرت السراديب كالفأرة؟ لقد عجزت عن ذلك كله، فأذلَّها الإنسان واستعبدها وزاد في عُتُوِّه، ولو أنها بقيت في خلواتها متمتعة بحريتها، لظلت كأخواتها السارحات في الخلاء موفورة الذكاء شديدة الباس.

احتال رجل إنجليزي فركب حمار الحبشة في مدينة لندن، فما أمسى المساء حتى قضى الحمار نَحْبَه[2] غَمًّا أن يذل، وكأنه أنشد:

لا تَسْقِنِي مـاءَ الحـيـاةِ بـذِلَّـةٍ ... بل فاسقِنِي بالعِزِّ طَعْمَ الحَنْظَلِ[3]
مـاءُ الحـيـاةِ بـذِلَّـةٍ كـجَـهَـنَّـمٍ ... وجَهَنَّمٌ في العِزِّ أطيبُ مَنْزِلِ

مَثَلُ الأم الخاملة المُدَبَّرة (بفتح الباء) بأيدي رؤساء لا نواب لهم كَمَثَل الحيوانات المنزلية: يُحْبَسون في أقفاصهم، يعلفون في مراقدهم تقودهم امرأة ويحبسهم طفل، يتخذ بيضهم، وتذبح أبناؤهم في منافع ساداتهم، لا يعرفون لله فضلاً، لا يذكرونه إلا قليلاً إذ لم يفوّضوا الأمر إليه، ولم يُعَوِّلوا عليه، بل حَالَ ساداتُهم بينهم وبين صلاتهم وعباداتهم وحجِّهم وصومهم من وراء حجاب، ولو اتصلوا به لأطلقوا عقولهم من عقَالِها ولاستناروا بنورها ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون/ ٤ – ٥].

---

(١) رَاغَت: مالت وحادت عن الشيء. (م).
(٢) قضى نحبه: مات. (م).
(٣) الحنظل: نبات شديد المرارة، يضرب به المثل في شدة المرارة.(م).

أمثال هذه الأمم يتناطحون كما يتناطح[1] الأعنز، يتحاسدون فيما بينهم ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر/ ١٤] عقولهم ضيِّقة، لم تسم بصائرهم، يودّ أحدهم لو يقتل رجلاً من أبناء جنسه حسدًا له وحقدًا، لِقصَر نظره فلم يمتدّ حتى يرى من فوقه فيتطلع إلى مركزه السامي.

تنزل الرجل فيهم إلى حضيض عقل المرأة، لا ترى امرأة تحسد رجلاً، ألا إنما تحسد المرأةُ المرأةَ في تلك الدائرة الضيقة دائرة اقتناص الرجال، فهكذا عبيد الأمم يتخاذلون، ويكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا لنقص العقول وقصور النظر، وتنزلاً عما بلغه الرجال الكاملون من سمو الحكمة وبعد النظر والحرية، ويشير لذلك قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ[2] وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ[3] أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف/ ١٧٦].

فقال محدثي: هذا القول حَسَنٌ يفهمه أذكياء العقول، وإن لم يكونوا من الدارسين، ولكني أرجو إيضاحًا شافيًا وتبيانًا كافيًا ليكون ذكرى للذاكرين وعبرة للمستبصرين. فقلت: ليكن الموعد غدًا

---

(١) يتناطح: يصيب بقرنه.(م).
(٢) أخلد إلى الأرض: سكن إليها، وركن إليها. (م).
(٣) يلهث: يخرج لسانه عطشًا أو إعياءً. (م).



الفصل الثامن والعشرون
وصف أحوال الأمم، العاملة والخاملة

مثل الأمم إذا اتَّحدت وتعاونت كَمَثَلٍ ذَكَرَه كبار الحكماء في شأن الحمامة المُطَوَّقة؛ إذ سارت في الهواء تروم الغذاء تقود أخواتها الحمامات، فبينما هن يستطلعن الحَبّ ويردن الأماكن، إذ بصرن بحب جلل الأرض فوقعن يلتقطنه، فكان لسوء الطالع حيلة محتال وشبكة قانص فوقعن فيها جميعًا، فأقبل الصياد فَرِحًا بغنيمته، فنادت الحمامة المطوَّقة أخواتها وقالت: لتعلقن الشبكة مرة واحدة وتقمن قومة هامة واحدة في لحظة واحدة، ولا يكن لإحداكنّ هَمّ في خلاص نفسها وحدها دون أخواتها، ثم صرخت فيهنّ فقمن أسرع من لمح البصر، ومازلن سائرات في الجو والصائد ينظرهن حتى يئس، فأقبلن إلى فأر صديق لها حميم يسمى زيرك، فنادته فقطع حبالتهن وتخلصن ونَجَوْن، فكان هذا سبب تأليف جمهورية الغراب والفأر والظبي والسلحفاة فيما ذكرنا آنفًا، فاتحدن وأَلَّفْنَ مملكة عظيمة.

هذه ضربها قدماء الحكماء أمثالاً للناس لعلهم يعقلون، يقرؤها صغارهم تسلية، وكبارهم حكمة وعلمًا؛ فينظمون دولاً من جنس مُتَّحِد كالحمامة المطوَّقة وأخواتها، ومن أناس متغايرين في العادات والمواطن تجمعهم جامعة الحاجة أو المسكن فيقيمون دولة، فعقل الإنسان لا حَدَّ لنوره ولا نهاية لَمَدِّه ولا قرار له، فقال صديقي: فاضرب لي مثل الأمم إذا فرطت في أمرها، وضعفت أن تسمو إلى درجة الحمامة المطوقة، وضاق خناقها أن تنال مَزِيَّة غراب وظبي وسلحفاة وفأرة، كيف يكون شأنها وما مثلها؟ فقلت: مثلها كمثلٍ ضربه قدماء الحكماء في باب الغربان والبُوم. يقال إن جماعة من الكراكي[١] أخذن يتداولن فيما بينهن أن يُنَصِّبْن عليهن مَلِكًا، وأخذن يبدين رأيهن في الطيور، ثم وقع اختيارهن على البُوم، وبينما هن يبدين ويعدن إذ أقبل إليهن غراب فدعونه أن يجلس إليهن، ويشير عليهن في هذا الأمر العظيم، وعُرِضَ عليه أمر البُوم، فقال وَيْحَكُنّ، أتتخذن أقبح الطيور شكلاً، وأردأهن خلقًا، وأفسدهن رأيًا تَعِيثُ[٢] نهارًا وتجوس خلال الديار للتلصص ليلاً، أين أنتن؟ ويحكن من الطواويس وجمالها، والنعام وجلالها، والبط وخطراتها[٣]، والحمام وهديرها، أو عدمت الطيور حتى تملكن عليكن هذه الطامعات الغادرات الجاهلات؟ ولن يخلو حالها في تدبير ملكها من خصلة من خصلتين: إما جهل بتدبير الرعيَّة أو سوء الطويَّة. أما جهلهن

(١) الكراكي: جمع «الكركي» طائر يقرب من الوز أبتر الذنب رمادي اللون. (م).
(٢) تَعِيثُ: تفسد. (م).
(٣) خطراتها: تبخترها. (م).

فإنهن لو صرن عليكن سادة لكان مثلكم ومثلهم كمثل القمر والأرانب والفيلة؛ ذلك أن الفيلة اعتادت أن تتهادى صباح مساء إلى عين ماء اسمها عين القمر حولها الأرانب سارحات راتعات بائتات قائلات، فكانت الفيلة تطأهن بأرجلهن إذا وردن الماء، فأغاظ ذلك الأرانب، فأجمعن لذلك أمرهن بينهن، وأَلَّفْنَ لجنة، وأخذن يتشاورن وبعد اللُّتَيَّا والتي[1] قامت إحداهن واسمها فيروز وقالت لملك الأرانب: كِلْ هذا الأمر إليّ، فصدع بأمره إلى علماء الأرانب وحكمائها أن يبلوها ويختبروا عقلها وذكاءها، فأعطوها إجازة فسافرت لوقتها ودعت كبير الفيلة، وأنذرته وحذَّرته صولة القمر وعذابه وغضبه وبطشه إذا شرب الفيلة من العين المُسَمّاة باسمه، وإنها لهم من لدنه نذير مبين، ثم سارت معه حتى وقفا على العين وشرب منها الفيل، فاضطرب الماء فاضطربت فيه صورة القمر فاتخذها الفيل دليلاً على صدق النذير المبين الأرنب فيروز، فرجع إلى قومه غضبان أَسِفًا فخوّف قومه عاقبة أمرهم، واسْتَخَفَّ الفيلة[2] فأطاعوه إنهم كانوا جاهلين.

ثم قال الغراب: إن أَنْتُنَّ مَلَّكْتُنّ عليكم البوم، وهي جاهلة كالقمر لا يشعر بما يجري في الأرض بين الأرانب والفِيَلَة، ولكن الأرانب دَبَّرَت أمرها، وجعلته مُلكًا زورًا وبهتانًا وحيلة محتال، فهذا مثل جهل البوم بتدبير الملك، ومن ذا الذي يرضى بسَيِّدٍ جاهل كالقمر جمل وجهه وغاب عقله

(١) بعد اللُّتَيَّا والتي: بعد الخصام والجدل. (م).

(٢) اسْتَخَفَّ الفيلة: استخف عقولهم. (م).

ولئن كان للبوم عقل فإنما هن يخترعن به الحِيَل لقضاء شهواتهن، ونيل مآربهن[١] يتظاهرن بالخشوع والتواضع لينلن شهوة وحطامًا من حطام الدنيا.

من ذا الذي يرضى بملك جاهل، أم من ذا الذي يرضى بطامع يُظهر الصلاح، وهو يضمر الخداع والغش وابتلاع ما تصل إليه يد إمكانه؟ وإن أنتن ملكتن عليكن البوم كان مثلكن مثل طير من الصفاردة[٢] وأرنب كانت عند شجرة بجانب وَكْرِه فتخاصما وتجادلا ثم اصطلحا على أن يتحاكما، فأتيا سِنَّورًا عظيمًا يصلي في المحراب على شاطئ نهر يسبح بكرة وأصيلاً ويصلي بكرة وعشيًّا، فأقبلا عليه وسَلَّما وقصّا عليه القصص. فقال: يا بَنِيّ، اسمعوا وعوا، إن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، وإن في الأرض لعبرًا، وإن في السماء لخبرًا، أين الآباء والأجداد؟ أين الملوك الشداد؟ أين الملوك الجبابرة؟ فتزوّدوا من مَقَرِّكم لِمَفَرِّكم، وتأهّبُوا لعرضكم على ربكم، وهكذا ما زال يخطب لهم خطبًا كما خطب قس بن ساعدة، ويعظهم وعظ الحسن البصري، ويستشهد بقول النبي، حتى أصغيا إليه ورقّا لما سمعا مما يقرع الأسماع بزواجر وَعْظِه، ويطبع الأسجاع بجواهر لفظه، فمالا إليه كل الميل، فلما آنس منهما الإصغاء انقضّ عليهما مفترسًا، فأمسيا له عشاء وأصبحا غداء.

(١) مآربهن: حاجاتهن.(م).
(٢) الصفاردة: جمع «الصِّفرد» طائر أكبر من العصفور، يضرب به المثل في الجبن. (م).

ثم قال الغراب: فهذه صفات السادة الجاهلين، والمسلطين الطامعين، إما أن يكونوا كالقمر الجاهل بالتدبير، أو السِّنَّور الذي نَصَّب نفسه حكمًا بين المتقاضيين طمعًا في مالهما وافتراسًا للحمهما، فلما قصصت هذا القصص على صديقي. قال: لا خفاء بعد هذا البيان.

وليس يَصِحُّ في الأَذْهَـانِ شَيْءٌ إذا احـتـاجَ الـنَّـهَـارُ إلى دَلِـيـلِ

فَبَيِّن لي الآن كيف تؤلف الكتب، وما المناسبة بينها وبين مجالس النواب؟ فقلت: ليكن القول بعد غد إن شاء الله تعالى.



الفصل التاسع والعشرون
هل لمصر برلمان في التوراة والقرآن؟
بحثنا اليوم في برلمان مصر في القرآن والتوراة

يقول صاحبي: ها أنت ذا قصصت علينا قصص الجسم الإنساني ونظامه، ونحن أَذْعَنَّا وأَيْقَنَّا أن نظام الأمة لن يقوم على السداد إلا متى شابه نظام الجسم، هذا أمر عقلناه وفهمناه، فهل في الكتاب ما يشير لذلك حتى تطمئن النفوس؟ ألا ترى أن من الأمور العقلية والنظريات الحكمية ما لا يتبعه إلا الأقلون، وما أكثر الناس ولو حَرَصْتَ بمُتَّبِعِين، إلا ما صَدَعَتْهم[1] به قارعة[2] من كتاب أو وعظتهم زاجرة من حكمة تسمعها آذانهم فتشربها قلوبهم. أما استماع حكم الدنيا ووزنها بموازين العقول، واستبانة ما ترمز إليه من الحكم والعجائب، والنسج على مِنْوَالِها، والاقتداء بحكمة الله في الطبيعة، فذلك لا يتسنّى إلا للحكماء كما تراه في تربية اسبنسر الفيلسوف العظيم.

أولئك هم الذين سمعوا بعض ما أَوْحَت به الطبائع الكائنة وعقلوها، وقالوا كما قال الذين من قبلهم من حكمائنا، فمقام الحكماء ليس عامًّا فأسمعنا من

---

(١) صدعتهم: جهرت لهم. (م).
(٢) قارعة: حجة قوية تقرع آذانهم. (م).

كتاب الله حتى نخضع لحكمه، ونستمع لوَعْظِه، فقلتُ: يقول الله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان/ ٢٨]. فهذا رمز غريب يجعل مجموع الأمة كالجسم الإنساني، فقال: دعنا من الرموز فأين التصريح؟ فقلت: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى/ ٣٨]، فقال: هذا مقال يتناوله المسلمون بالبِشْر، ولعلك تذكر فارس وعلماءها، فبهذا القول صالوا وبه نالوا، ولكني أريد منك إقنَاع المسلم والمسيحي واليهودي بمقال تسلمه الطوائف جمعاء، فقلت: أنت تعلم أن بني إسرائيل ذُكِروا في التوراة، والتوراة كتاب أنزل على موسى مصدقًا لما بين يديه هاديًا لبني إسرائيل، وهل أتتك حكاية موسى إذ جاء إلى فرعون فرأى البرلمان المصري تَخِرُّ له أعناق الأوربيين الأحرار سُجَّدًا، ويقولون ما ترك الأولون للآخرين شيئًا، نظام قدماء المصريين ثبت آمادًا طويلة وأحقابًا ودهورًا، مجهول تاريخه لم يُعْلَم حَدُّه، وهل أتاك نبأ بعض المؤرخين إذ زار مصر فمرَّ على الكُهَّان؟ فأروه صور الملوك المتعاقبة الذين حكموا مصر كَابِرًا عن كابر، من قبل أن يأتي الملك أميتا الذي بنى منفيس، وكانت نحو ٣٦٠ تابوتًا كلهم آباء وأبناؤهم متعاقبون. فكم يقدر لهؤلاء من السنين؟ ولو قدرت كل أربعة بمائة سنة ليبلغ المجموع ٩٠ قرنًا، إنما أهلك المصريين أن بَدّلُوا دينهم القويم القديم الذي جاء به إدريس ثم نزلت عليه هذه الآية: يا مصر يا مصر ستبدلين دينك القويم وتكفرين بالله فتُسحقين وتبقى أخبارك في أحجارك، سارت مصر أجيالاً متعاقبة مجهولة وآمادًا غير معدودة على الحق حتى غيرت وبدلت، فهاجمهم قوم غلاظ شداد من الحِمْيَرِيِّين المُسَمَّيْنَ الرّعاة، فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولاً، فأذلُّوا القوم واستعبدوهم، وكان

ذلك فيما بين الأسرة الثانية عشرة والثامنة عشرة، ومدة حكمهم ٥٠٠ سنة ثم أخرجوهم.

وورد عليهم إذ ذاك بنو إسرائيل في أيام يوسف وإخوته، فلما أخرج المصريون الحميريين من البلاد، بقي فيها بنو إسرائيل في جهة بلبيس الشرقية وفي القليوبية.

وقد أقطعوا البلد العظيم المسماة الآن: تل اليهودية، فاستعبدهم المصريون، فأُرسل موسى فجاء إلى فرعون فوجد الملأ (الأشراف) وهم نواب الأمة.

فحاورهم موسى، ولا ريب أنه جاءهم بدين جديد، ولو اطَّلَعت على محاورته مع هؤلاء الملأ وصبرهم عليه، وقد قبَّح لهم دينهم بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء/ ٢٤]. لعجبت من حِلْم المصريين وفضلهم وكيف فضلوا – وهم المنعوتون في الكتب السماوية بأنهم أظلم الأمم هم وفرعون – أعظم الأمم الغربية الآن في الحرية والدستور.

وترى الخطاب في القرآن من موسى للملأ، وهم الذين حكموا عليه، ولم يك فرعون إلا مُنَفِّذًا لقرارهم عاملاً بأمرهم كملك الإنكليز الحالي، وملك ألمانيا أبسط منه يدًا وأوسع سلطة، يقول في الكتاب: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ . قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس/ ٧٦ – ٧٧].

فخاف القوم على ملكهم أن يتسلط عليه الأجنبي العبراني بطريق النبوة والدين كما اغتصبه الحِمْيَرِيُّون من قبله بالسيف والنار فقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[يونس/ ٧٨] الخطاب لموسى وهرون.

هذه الكلمات تليق لرجال الأمم القابضين على زمامها والخائفين على ملكهم أن يزول، ولم نر في هذا القول ذكرًا لفرعون، ثم يقول: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ ﴾ - بعضهم لبعض وهم يتشاورون - ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾[الأعراف/ ١٠٩ - ١١٠]، وهذا التقرير رفعه بعض رجال الشورى في البرلمان المصري، فارتفعت الأصوات، وأقيمت الحجج، وخطب الخطباء، وقَرَّ قرارهم على التوقيع على صك يرفعونه لفرعون وهذا نصه ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ [الأعراف/ ١١١] أي انظر في أمرهما، وتربصهما، واجمع السحرة فكان ذلك، فحضر فرعون وقام فيهم خطيبًا وحرَّضهم على إقامة الحجة على موسى ثم وعدهم الزُّلْفَى لديه والحُظْوَة، فقال السحرة: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ . قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾[الأعراف/ ١١٣ - ١١٤]. فوعدهم الجوائز والقرب منه وألقاب الشرف، ولم يَتَسَنَّ له هذا كله إلا بعد أن أقر أعضاء البرلمان، وتعجب كيف كان القوم أخذوا يُقَدِّمون رِجْلاً ويؤخرون أخرى، ولم يحكموا بقتل موسى وقد أتى يُشَوِّش أمر السياسة ويضعف الملك وكيف

تحاجّوا[١]، وكيف ائتمر فرعون بأوامرهم، وكان منفذًا لقولهم وهو صدى صوتهم إذ قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ . يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ [الأعراف/ ١١١ – ١١٢]؟ ولم يكادوا يعملون عملاً حتى وعدهم الجزاء الأوفى كما تصنع الأمم اليوم؛ إذ يُعِدُّون الجوائز قبل صدور الأعمال تشويقًا لها وتحريضًا عليها، ولما جاء السحرة ولَقُوا موسى ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ [الأعراف/ ١١٥]، فراعَوْا الآداب مع عدوِّهم، كما جاهروا بالحرية مع ملكهم، فما باشروا العمل إلا بعد وعدهم.

هذا حال برلمان مصر في زمن أظلم ملوكها، وأشدهم عسفًا وجورًا[٢]. فرعون الذي صرخت التوراة من ظلمه، وفرّ بنو إسرائيل من جوره، وصرح القرآن بكفره، وجعل جسمه عبرة للزائرين وحكمة للأوربيين، إذ قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ [يونس/ ٩٢]، حتى يعلموا أنك إذ ظلمت بني إسرائيل ذممناك في كتبنا، فها نحن أبقينا جُثَّتَك في محلّ الآثار؛ لتكون عبرة للأمم. كيف أزلنا ملكك القديم بظلم شعب صغير؟ ويعلم الأوربيون حديثو الرشد بالمدنية، لم يمض عليهم نصف الألف فاغترُّوا وقالوا نحن أثبت الأمم مدنية وأعلى كَعْبًا[٣]، فليحذروا ظلم الأمم.

---

(١) تحاجُّوا: تخاصموا. (م).
(٢) عسفًا وجورًا: ظلمًا. (م).
(٣) أعلى كعبًا: أشرف. (م).

وأنت لهم آية، فهل لهم أن يشاهدوك وَيتَّعِظُوا بتاريخك وبرلمانك؟ وأنت مع اشتهارك بالظلم أعدل من كثير منهم، وقد وصفوا أنفسهم بالعدل ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس/ ٩٢]. ويا ليت شعري أتصبر دولة من دول الغرب الآن على ما صبر عليه الملأ من قوم فرعون، يقف بينهم موسى قائلاً: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء/ ٢٨]، يسمعهم الشك في عقولهم، ثم هم بعد ذلك يصمتون ولا يجرونه إلى مجالس التأديب أو القضاء، ظلم المصريون بني إسرائيل، وكانوا قومًا من العبرانيين استوطنوا أرض مصر فساموهم سوء العذاب؛ خيفة أن يكونوا جواسيس للأعداء من الحميريين، فربما يوجسون[1] منهم خيفة. فمصر مطمح أنظار الفاتحين ومرمى أفكار السياسيين، وإذا خاب سعي الحميريين، وأخرجوا من الديار بالسيف والنار كما دخلوا بهما، أفلا يقال إن موسى إنما جاء ليسلبنا ملكنا، وقد جرت عادة الصائد أن يعالج بقوته الضعيف، فإذا استصعب المطلوب كالأسد أرهقه بمكيدة، ودس له دسيسة[2]، وحفر له حفرة فدمره تدميرًا، فإذا خاب الملوك الرعاة بالقوة فهاهم أولاء بنو إسرائيل يساوموننا ملك مصر باللين والدين والدعوة والهداية، فترى أن سوء الظن والشكوك قد أحاط بالمصريين في الأجانب، فساموهم سوء العذاب فنزلت التوراة بذَمِّهم، والقرآن بلعنهم، فما بالك بأقوام يظلمون الناس في أرضهم، ويعذبونهم في ديارهم غير خائفين؟ أولئك سيلعنهم التاريخ لعنتين، ويسجل عليهم الخزي في الدارين إلا من تاب وآمن

(١) يوجسون: يحسّون ويضمرون. (م).
(٢) دسيسة: مَكِيدة. (م).

وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، فهذه حال الشورى والبرلمان في بلاد مصر من قصص يُذْعِن[١] لها سكان أوربا ومصر على اختلاف أديانهم.

فقال صاحبي: هذا قول حسن من حيث الديانات والوطن وتاريخ لأمم القبط، ولو أثبت البرلمان للعرب القدماء لكان أثبت حجة وأعظم وَقْعًا وأرفع مقامًا، وإني أشير عليك أن تقيم الحجة بالعرب الحميريين والحجازيين: أي بني قحطان وبني عدنان، فقلت: ليكن القول غدًا.

---

(١) يُذعن: يخضع. (م).

الفصل الثلاثون
هل للعرب برلمان؟

أثبتنا مجالس النواب للقبط بمصر على لسان الديانات الثلاث، وأن فرعون وملأه أرفع مدنية، وأشرف برلمانًا، وأوسع حرية، والآن نذكر مجالس نواب العرب اليمانيين، وهم بنو حمير والعرب الحجازيين من قريش، لما خرج بنو إسرائيل من مصر أنشئوا دولة وكَوَّنُوا أمة عظيمة، واتصل ملكهم جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن حتى نبي الله سليمان عليه السلام، وكان من أمره ما كان مع بلقيس؛ إذ أرسل لها كتابًا يقول فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل / ٣١]، فلما وصلها الكتاب جمعت أشراف قومها وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل / ٣٢]، وما كفاها ذلك حتى قالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل / ٣٢]، وهذا ولا ريب بعينه مجلس النواب، ولا يَعْزُبَن[1] عنك أن بلقيس ملكة من ملوك سبأ، وهم من نسل التبابعة الذين أوتوا الملك كابرًا عن كابر، وأراد

---

(١) يَعْزُب: يغيب، ويبعد. (م).

سليمان عليه السلام إبلاغها رسالته، فكان من أمرها ما ذكرنا، ولعمرك لم يكن مثل هذا القول جُزَافًا[١] في كتاب يقرأ والناس عنه غافلون.

هذه قصص أريد منها تلك الحكم والعبر والقوانين والنظام. أما الألفاظ مُجَرَّدَةً فإنها يتسلى بها أقوام خَلَوْا من العلم والحكمة، وأما قريش فكانت الشورى في قبائلهم متفرقة قبل الإسلام، فأما بعده فقد أخذت حظَّها، وهل لك أن تسمع قصص تولية عثمان رضي الله عنه.

ذلك أن المهاجرين دخلوا على عمر رضي الله عنه وهو في البيت متأثر من جراحه، فقالوا: «يا أمير المؤمنين، استخلف علينا». قال: «والله لا أحملكم حَيًّا وميتًا»، ثم قال: «إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني: يعني أبا بكر، وإن أدع فقد ودع من هو خير مني: يعني النبي عليه الصلاة والسلام»، ثم قال: «وددت أن أنجو منها لا لي ولا علي»، فلما أحسّ الموت بعث إلى عائشة - رضي الله عنها - يستأذن أن يُدْفَن في بيتها مع صاحبيه فأذنت، ثم قالت للرسول: «أبلغ عمر السلام، وقل له لا تدع أمة محمد بلا راعٍ؛ فإني أخشى عليهم الفتنة»، فلما جاءه الرسول جمع النفر الستة الذين تُوفي رسول الله وهو عنهم راضٍ، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عَفَّان، وطلحة بن عُبَيْد الله، والزُّبَيْر بن العَوَّام، وسعد بن أبي وَقَّاص، وعبد الرحمن بن عوف، وكان طلحة غائبًا، فقال:

(١) جُزَافًا: على غير رَوِيَّة، ومن غير تبصُّر أو قاعدة. (م).

«يا معشر المهاجرين الأولين، إني نظرت في أمر الناس؛ فلم أجد فيهم شقاقًا ولا نفاقًا، فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم، تشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة بعد ذلك، وإلا فأعزم عليكم بالله لا تتفرّقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل، وليُصَلِّ بكم صهيب ثلاثة الأيام التي تتشاورون فيها؛ فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم، وأحضروا معكم شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله ابن عباس فإن لهما قرابة، وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شيء»، ويحضر ابني عبد الله مستشارًا وليس له من الأمر شيء، قالوا: «يا أمير المؤمنين، إن فيه للخلافة موضعًا فاستخلفه فإنا راضون به»، فقال: «حَسْبُ آل الخطاب تَحَمُّلُ رجل منهم الخلافة، ليس له من الأمر شيء»، ثم قال: «يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها».

ثم قال: «إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه، وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما، وإن استقام ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابني عبد الله، فلأي الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم، فإن أبى الثلاثة الآخرون ذلك فاضربوا أعناقهم»، فقالوا: قُل فينا يا أمير المؤمنين مقالةً نستدلّ فيها برأيك ونقتدي به»، فقال: «والله ما يمنعني أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك مع أنك رجل

حرب، وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة، وما يمنعني منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب، وما يمنعني منك يا عثمان إلا عَصَبِيَّتُك وحبك لقومك وأهلك، وما يمنعني منك يا علي إلا حرصك عليها، وإنك أحرى القوم إن وُلِّيتَها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم». ثم قال: «أوصي الخليفة منكم بتقوى الله العظيم، وأُحَذِّرُه مثل مضجعي هذا... إلخ»، ثم غُشي عليه، فلما أفاق قال: «لقد قَوَّمت لكم الطريق فلا تعوجوه»، ثم التفت إلى علي بن أبي طالب فقال: «إن وُلِّيْت أمر هذه الأمة، فاتقِ الله يا علي، ولا تحمل أحدًا من بني هاشم على رقاب الناس».

ثم التفت إلى عثمان، فقال يا عثمان: «إن وُلِّيتَ أمر هذه الأمة، فلا تحمل أحدًا من بني أُمَيَّة على رقاب الناس»، ثم أمر صهيبًا أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، وأمرهم بالخروج، ثم قال: «اللهم أَلِّفْهُم واجمعهم على الحق ولا تردهم على أعقابهم، وولّ أمر أمة محمد خيرهم»، فخرجوا من عنده، وتوفي من يومه ذلك، ودفن وصلى عليه صهيب، وبعد موت عمر اجتمع القوم، فخلوا في بيت أحدهم، وأحضروا عبد الله بن عباس والحسن بن علي وعبد الله بن عمر، فتشاوروا ثلاثة أيام فلم يُبرموا[١] فتيلاً، فلما كان اليوم الثالث قال عبد الرحمن بن عوف: «ولّوني أمركم،

(١) يبرموا: يُحكموا. (م).

وأهب لكم نصيبي فيها، وأختار لكم من أنفسكم»، قالوا: «قد أعطيناك الذي سألت»، ثم حصروا العدد في ثلاثة: علي، وعثمان، وعبد الرحمن ابن عوف.

ولما كان عبد الرحمن قد أخرج نفسه حصر العدد في اثنين: علي وعثمان، فخرج عبد الرحمن ليتلقى الناس في أنقاب المدينة مُتَلَثِّمًا[١] لا يعرفه أحد، فما ترك أحدًا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم، فلم يلق أحدًا يستشيره ولا يسأله إلا قال عثمان، ثم أخذ العهد والميثاق على كل منهما يقول له: «لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك من قبلك، ولئن بايعت غيرك لترضيَنَّ ولتسلمن وليكونن سيفك معي على من أَبَى»، فأعطوه ذلك.

ثم أخذ بيد عثمان، فقال له: «عليك عهد الله وميثاقه، لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك، وشرط عمر أن لا تحمل أحدًا من بني أمية على رقاب الناس»، فقال عثمان: «نعم»، ثم أخذ بيد عليّ، فقال له: «أبايعك على شرط عمر: أن لا تجعل أحدًا من بني هاشم على رقاب الناس»، فقال عند ذلك: «مالك ولهذا؟ إذا قطعتها في عنقي فإن عليّ الاجتهاد لأمة محمد؛ حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها

(١) متلثمًا: واضعًا اللثام وهو ما يوضع على الأنف وما حوله للحماية من الغبار، أو للتستُّر. (م).

كان في بني هاشم أو غيرهم»، قال عبد الرحمن: «لا والله حتى تعطيني هذا الشرط»، قال علي: «والله لا أعطيكه أبدًا»، فقاموا من عنده، فخرج عبد الرحمن بن عوف إلى المسجد فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إني نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل يا علي سبيلاً إلى نفسك، فإنه السيف لا غير»، ثم أخذ بيد عثمان فبايعه، وبايع الناس جميعًا، هذا ملخص من ابن قُتَيْبَة.



الفصل الحادي والثلاثون
اقرءوا وانظروا واعلموا

هذا تأليف الدول، فكيف تُؤَلَّف الكتب؟

قال صاحبي: ها نحن أولاء علمنا أن الأمة لها نظام ودستور ونواب، فهل التعليم في ذلك شرط لازم، أم ذلك حق لكل أمة حيوانية أو إنسانية؟ فقلت: الأمم لا يتسنَّى لها الدستور إلا متى تسللت لِوَاذًا[1] من الحيوانية البحتة، وتسرّبت إلى الإنسانية إلى الحياة الحق لينبذوا سفساف الأمور ويرجوا أفاضلها، فلا يغلب على مجموعهم نفاق النعام، وجبن الأرانب، والخرفان، وبلادة الحمار، وحقد الجمل، وما أشبه ذلك، تنالهم صبغة عامة يعلمون بها وظيفتهم في الحياة، وأنهم مسئولون متناصرون، ولن يكون ذلك إلا بتعميم التعليم الذكر والأنثى، فيبادر بنشره وعمومه، وبين الصغير والكبير كما فعل الفارسيون.

ما أجمل الحياة السعيدة، حياة العلم!

---

(١) لِوَاذًا: هَرَبًا. (م).

ألا أضرب لك مثلاً يُستبان منه درجات الأمة في العلوم، ومقدار ما يجب على كل فرد فرد.

قم وانظر وتأمل في المزارع الخَضِرات، والحقول النَّضِرات والبساتين الغَنَّاء، والأشجار والغابات، والمياه الجاريات الساقيات، تأمَّل وانظر مُفكرًا، وقل لي ألست ترى أنها اختلفت طعومها وروائحها وأثمارها وأزهارها وأوراقها وأقدارها وهندامها ومحاسنها وألوانها، وقسمت على مناطق الأرض؟ فنبت النخل في بلاد الشرق وحاد عن أوربا، وما من نبات إلا وله مقامٌ معلوم، ومكان محدود، ألا تنظر إلى اختلافها وتباينها ومناسبتها للأرض التي زُرِعَت فيها، والمناطق والحرارات ودرجاتها؟

فالعقول الإنسانية مناطق وحقول، والعلوم نباتها وأشجارها، والمنافع المادية والثمرات المعنوية ونظام الدنيا ثمراتها.

هذه الثمرات والحبوب النواتج من المزارع لن ننال منها إلا ما طلبنا ولن نطلب إلا ما عرفنا بالحواس، هب نباتًا غاب عنك، فلم تره عيناك، ولم تَعِ وصفه أذناك، ولم تشمه، أفيخطر ببالك يومًا ما؟ لا، بل نرى الرجل يَعَاف ما لا يعلم من الأطعمة، وترى الرجل الصالح يبغض الخمر، وهي ألذّ ما يشرب شاربوها (وإن كان الجهل هنا حسنًا)، فإذا لم تر أعيننا إلا نوعًا واحدًا من النبات لم نعرف غيره ولم نطلبه، فلم نصل له إذا مهَّدنا هذا التمثيل، نقول: على رجال

العلم في الأمم أن يجعلوا كتب المطالعة شاملة زهرات من العلوم، حاوية نُبَذًا من كل فن من فنون العلم، حتى يضارع كتاب المطالعة معرض صور العلوم، أو حديقة النبات، أو بستان الحيوان، يغرس فيه أنواع العلوم من أجمل ما لَذّ وطاب من لطائفها حتى لا تمرّ على التلميذ سنة إلا وقد شاهد في درسه علم الفلك، ولطائف السحاب، وعجائب الكهرباء، وبدائع الهندسة، وجمال الشعر، ونباهة التاريخ، وسحر الكيمياء، ومجد الآباء، وفضيلة الشجعان، وشرف الميدان، وقصص الضرب والطّعَان.

وبالجملة، يكون كتاب المطالعة معرض العلوم، ومنظر صور متحركة تمرّ على الصبيّ صورة صورة من فنّ إلى فنّ في تلك المُلَح اللطيفة حتى يظهر باطن سرّه، ويبرز كامن ذوقه، فيصطفي عقله ما استعدّ له بفطرته، ويتخذ من المهن والصناعات ما يوافق طبعه، هكذا يجب أن تكون كتب المطالعة في الأمم، فإذا ضلوا هذه الطريق خاب سعيهم وضلُّوا ضلالاً مبينًا؛ إذ يقف أبناؤهم وقوف العير ويكون مثلهم كمثل الذي داوى المرضى كلهم بدواء واحد، وهو البصل لاستخراج قرائح التلاميذ، ولا تبرز أميالهم إلا إذا استخرجت بهذه السبيل.

تأليف كتب المطالعة: يجب أن يراعى فيه أنواع العلوم، فلا يترك الأمر للمصادفة التي توكل لذوق المؤلف فيضع كل ما استحسنه، فربما لم يعد استحسانه أربعة فنون: كالتاريخ والشعر والطبيعة والأخلاق. ولقد كتبنا في هذا الكتاب آنفًا أن المدنية تستدعي خمس دوائر في كل دائرة أربعة أقواس، فهي ٢٠

نوعًا من العلوم تكتنف[١] الحوائج الخمس للإنسان، وهي الغذاء والدواء والثوب والحائط والحصن، وقلنا إن حاجات الإنسان خمس يحيط بها خمس دوائر من الفلك والطبيعة والبخار والكهرباء، وأركان المدنية الأربعة، وفصّلنا القول هناك تفصيلاً في نحو المقالة السادسة عشرة فيما نظن، فليلاحظ هنا وجوب أن يحتوي على ذلك كتاب المطالعة، وأدنى التفاتة لكتب الإفرنج تُرِيكَ ذلك.

وما أدري أكانوا يرمون إلى هذه الغاية الشريفة، أم اتكلوا على المصادفة وذوق المؤلفين؟ ولعل الثاني أقرب إلى فكرهم، والأول الحق الذي لا مناص[٢] منه، ولقد ظهر مثل هذا العمل في العربية في كتب أهل الشام، فقد برعوا في التأليف بالعربية بحيث يصلح بعضه للدراسة وللمطالعة.

متى وضعت كتب المطالعة على هذا المنوال دعت فريق الشبان إلى ما استعدّت له فطرهم. ثم لا ريب أن العقول صنعها مبدعها متفاوتة الصفة، على مقدار الحاجة الداعية إليها، خلق الأعمّ الأغلب ضعيفًا ليبقى الجسم للعمل، والأقل وسطًا يصلح لإدارة الأمور العامة، وأقلّ منهم من هم أشدّ ذكاء، أولئك قَلَّ عديدهم لقلة الحاجة إليهم، لو لم تُرَتّب كتب المطالعة على هذا النموذج قَلَّ النابغون في الأمم.

---

(١) تكتنف: تحيط. (م).
(٢) لا مناص: لا ملجأ، لا مفرّ. (م).

فكم رجل يعيش ويموت في تلك الأمم، وهو يحمل كنزًا مخفيًّا وجوهرًا محدّدًا، لم تعرض عليه صور العلوم، تحرّك من كامن شعوره، وتبعث من لطيف جوهره، وتنشره من مرقده، فإذا ضمّ لهذا قصور كتب المطالعة ندر الأذكياء في الأمم، ومات الفيلسوف والمدبر والصانع بطباعهم، وهم لا يعلمون أنهم حقيقون بهذه الفضائل؛ إذ لم تعرض عليهم صور ما كَمُنَ عندهم، ويكون مَثَلُهم كَمَثَل من عاش ومات ولم ير الموز فيموت، وهو لا يدري أن في الدنيا هذه الفاكهة.

في الطبائع: غرس ما تحتاج إليه الأمم، وهل ينكر الناس فضلها في إبراز الذكورة والأنوثة وتساويهما تقريبًا؟ ولم يك للزوجين دخل في تنويعهما، ولو أتيح للناس التدخل فيهما لانقرض هذا النوع من الوجود؛ إذ يختارون الذكور ويأنفون من[١] الإناث.

وعلى هذا النمط نُوّعت الفطر، وغرست فيها العلوم والإدارات والأعمال بقدر حاجات الأمم كما غرست صفة الذكران والإناث، ولكن الناس غيَّروا خلق الله، فجاء قوم علموا أبناءهم أجمعين، وساقوهم لاستعباد غيرهم، وتركوا عبيدهم جهلاء، فعاشوا أَذِلاَّء كالممالك المتحدة، ظلموا السنة الطبيعية، وغيروا خلق الله، وأنزلوا السود إلى الحضيض، واختصوا هم بالعلم ذكيهم وغبيهم، ورموا أولئك السود

(١) يأنفون من: يستنكفون. (م).

بمجانيق[1] الجهل، فاستأصلوا من أرض نفوسهم بذور الحكمة والشعر والصناعات، فأحلُّوهم دار البوار: جهنم الذلّ والاستعباد.

الطريقة المُثْلَى لرقيّ الأمم صدقًا وعدلاً تعميم التعليم، واختيار طوائف من المتعلمين لما جبلت عليه نفوسهم لينال كل منهم ما خلق له طبعًا، فينبتون نباتًا حسنًا، ويشغل منهم أقوام بالصناعات، وآخرون بالإدارة وغيرهم بالحكمة والدستور، وإذ ذاك يكون مثلهم فيمن سواهم كمثل الأشجار تتخلل المزارع، ففي الأشجار تعشش الطيور، فتنزل حينًا فحينًا لتلتقط الحشرات المؤذية، ثم تقف مُغَرِّدَة طَرِبَة فَرِحَة، مُبْهِجة للسامعين.

هكذا فليكن أولئك النابهون النابغون وسط العمال والمديرين يطوفون بآرائهم في مناهج العلوم، وتطير حول رؤوسهم في جو سماء الحكمة طائرات الحكمة تلقط الأذى من بين تلك المزارع.

العظماء في الأمم حصن حصين لها ورحمة تنزلت لإغاثة الطبقات الضعيفة والطوائف الفقيرة يحوطونهم بآرائهم، ويدفعون عنهم بما أوتوا من حكمة وعلم.

فما أشدّ المناسبة بين النبات وصغار الطبقات، وما أقرب العلماء والحكماء والسوّاس للأشجار، وما أعجب التشابه بين الطيور على الأشجار وجمالها

(١) مجانيق: جمع «منجنيق» آلة تُرمى بها الحجارة على العدو. (م).

وتغريدها ودفعها الأذى عن الزروع، بما في العلوم العالية عند كبار الرجال وإسعادها وجمالها وتطريبها ودرئها[١] الإيذاء عن ضعاف الأمم.

ثم كيف يزداد الخطر على النبات؟ لقلة الأشجار، لقصور رجال الزراعة وعلمائها، كما يحيق العذاب بأمة قَلّ المفكرون فيها والعالمون.

وإجمال القول أن كتب المطالعة توضع لغرضين شريفين: لغة الأمة والتشويق للعلوم، ولن يتسنى الأمران إذا قصر الوضع على شَذَرَات[٢] من فن أو فَنَّيْن، فليست اللغة خاصة بشيء دون شيء، وإني أكرّر قولي بعد هذا البرهان وأطالب الأمة بإتقان كتب المطالعة وشمولها شذرات من جمال العلوم، فذلك خير وأحسن تأويلاً، وإنه لأشدّ وَطْئًا (موافقة) وأقوم قيلاً.

---

(١) درئها: إبعادها. (م).
(٢) شَذَرَات: متفرقات. (م).

الباب الثالث

وفيه فصول



الفصل الأول
قل سيروا في الأرض فانظروا

ذكرنا فيما مضى كتب المطالعة، وما يوحيه نظمها من تشويق النشء إلى العلوم، وقلت إنها لأشبه شيء بصور تعرض على الأنظار ومعالم علمية، واليوم نبحث في التجوال في الأرض شرقًا وغربًا، أتدري ما المناسبة بين الموضوعين؟ وما الشبه بين الفصلين؟ التشابه بينهما عظيم.

التلميذ يقرأ كتاب المطالعة، وينظر في إبداعه وعجائبه ونقوشه، فتشوّقه إلى العلوم والحكمة فينال حظًّا على مقدار شوقه كما أوضحنا، والأمة تلميذ للأمم التي أحاطت بها، وما دامت خاملة جالسة مع الخَوَالف[1] فإن الله يطبع على قلوب أهلها.

أتدري لماذا؟ لأنهم يظنون أنفسهم علماء، وما هم بعلماء. ما أعظم غرور المُغْتَرِّين وما أشدّ كبر الجاهلين! فإذا جالوا في الأرض وساحوا ونظروا الأمم علموا مقاديرهم ونسبتهم إليهم، عهدنا بالأمم الحية أن يرسلوا من لدنهم رجالاً ذوي علم

(١) الخَوَالف: جمع «خالفة» وهي من تقعد في دارها من النساء. (م).

وخبرة فيطوفون أنحاء المعمورة شرقًا وغربًا، ويُنَقِّبون عن الآثار والرقي الذي نالته الأمم العظيمة، فيتخذون من كلّ شيء أحسنه ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج / ٤٦].

يقول العلماء: «السِّيَر سيران: سير عامة وسير خاصة. فللعامة بالسياحات شرقًا وغربًا حتى ينظروا الآثار الظاهرة، وللخاصة بصَوْغ ما عرفوه وتصوير ما جمعوه بصورة واستثمار ما غرسوه»، رُبّ سائح في أوربا وقد شاهدها مرارًا ورسم في مخيلته قصورها، وكنائسها، ودور نزلها، وميادينها وأنهارها، وأشجارها وحدائقها ومزارعها، وقابل رجالها، ورجع وهو غير متميز عن العامة قيد شبر، فليس يفهم مما شاهد إلا على مقدار ما أوتي من العلم، وما أودع من الحكم، وتمثله له نفسه، ترى الرجل يقرأ الكتاب فيفهم ظاهره، وآخر يقرأه فينال حظًّا وافرًا وغاية ما يُكِنُّه، وما الأمم إلا كتب مطالعة للأمة المتعلمة، هل يتسنَّى لتلميذ فَهْم الكتب المنشورة للقراءة إلا بعد حروف الهجاء وجمع الكلمات والتمرين؟ فهكذا الوفود الطائفون في الأرض لن يفيدوا أممهم، وهم لم يقرءوا الحروف والكلمات والجمل ليستعينوا بها على فهم تلك الأمم ومطالعة أحوالها، أنت خبير أن حروف التلميذ (أب ت)، وحروف الوفود النائبات في الأمم العلوم جمعاء والإحاطة بها، فحروف القراءة للفرد بسائط وللأمم مُرَكَّبات، للفرد في المكاتب الصغيرة، وللأمم في المدارس العليا. الجاهل يقنع من المدنية بظواهرها، ونقوشها، والعالم يتجاوزها

إلى معانيها ومعقولاتها، وعليه فلتكن الوفود من ذوي القدرة والحكمة، قوم أقرب إلى العلم منهم إلى الظواهر والشهوات.

واضرب لهم مثلاً رجلين أحدهما مصري والآخر ياباني، جمعتهما عاصمة فرنسا، وصحبهما تلميذ روسي أيام صولتنا ودولتنا أيام إسماعيل باشا الخديو الأسبق فماذا جرى؟ وقع ذلك الروسي بين عاملين وجاذبين يتجاذبانه، هذا إلى الشهوات والطرب والغناء ومحاسن الصور، وذاك مغرم بالاختراع الجديد، والاكتشاف، وبدائع الهندسة، وغرائب اللوغارتم، وجمال الفلك، وعجائب النجوم، هذا رقيق البشرة، جميل الشكل، طويل القامة، قليل العمل، وذلك أصفر اللون، قصير القامة، كثير العمل، قليل الكلام، فمال ذلك الروسي بالطبع إلى أجملهما شكلاً وأقلهما عملاً، ثم وقعت الحرب بين الروس واليابان، فكتب في الجرائد قضي الأمر الذي فيه تستفتيان وبان الخبر للعيان، أَنَّى يستوي الرجلان؟ أنى يستويان؟ هؤلاء على ضلال مبين، وأولئك على هُدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون. هؤلاء سارعوا إلى الشهوات وهم لها سابقون، وأولئك سابقوا إلى العلا فسابقونا نحن الروس فهم لنا غالبون، وهؤلاء في سلاسل الاستعباد مُكَبَّلون[١]، وتحت الاحتلال خاضعون، وأولئك غلبونا معاشر الروس بما كانوا يعلمون، هذا مثل ضربناه حقًّا واقعًا، فويل للقوم الذين لا يقرءون ولا يسيرون، وويل ثم ويل للذين لا يعقلون، قُضي الأمر واستبان جليًّا أن الأمم على سطح البسيطة كالحواس

(١) مكبَّلون: مقيَّدون. (م).

في جسم الإنسان، إذا اقتنصت حاسة منها الروح وشغلت الجسم ركدت الحواس الأخرى، فإذا سمعت أيها الإنسان آلة ضرب، أو نظرت صورة محبوب شغلك ما سمعت وسحرك ما نظرت؛ حتى لا تعي ما يقول الحاضرون، ولا تنظر ما هو أقرب إليك من حبل الوريد، فهكذا الأمم، ترى العاملة منها القوية الفاتحة تكاد تبتلع الأمم جمعاء، فتغشي على عيونها وأسماعها وأبصارها، فلا يكاد المغلوبون يحسون ولا يشعرون، ويظنون أنهم خلقوا من الخَبَال[١] وعجينة الجهال، هذا سحر مستمر سحر العقول وأزاغ الأبصار، يا قوم ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل العلم اثَّاقَلْتُم[٢] إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الحيوانية من الحياة الإنسانية؟ فما متاع حياة الحيوان في جانب حياة الإنسان إلا قليل، تعذبكم الحوادث عذابًا أليمًا، يوم تُقَلَّب الوجوه في النار: نار الجهل والذلة، وتزوغ[٣] الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، وتتشعب فيكم الظنون، فعار على مصر والمصريين وألف عار.

يستكثر الغربيون عليكم كلية واحدة فكونوا عظامًا نَخِرَة[٤] وعبيدًا أَذِلاَّء إذا لم يكن لكلٍّ مليون مدرسة كلية، من كان في العار لا يحسّ به، فلا ريب أن الأمم تضحك الآن منا، تقول: لا كلية لدى المصريين، وأحقر الأمم وأصغرها لديها كليات، ألم يَأْنِ أن تكون لكم جمعية ثابتة، ووفود دائمون لا انقطاع لهم ولا بوار؟

(١) الخبال: فساد العقل والجنون. (م).
(٢) اثاقلتم: تباطأتم. (م).
(٣) تزوغ: تميل، تنحرف. (م).
(٤) نخرة: بالية، ومفتتة. (م).

قد ضربنا لكم مثلاً للأمم بالحواس، وأن العاملة منهنّ تكاد توقف شعور أخواتها، نعم يكون ذلك حتى إذا قويت المغلوبة وصدقت عزيمتها وازداد إحساسها، فناوأت [١] العاملة، واتخذت مكانها، واسترعت الأسماع، وأزاغت الأبصار.

واضرب لهم مثلاً رجلين ذوي حقلين متجاورين، زرع الأول أرضه نباتًا وشجرًا وحدائق غُلْبًا[٢]، فأثمر فاكهة وثَمَرًا، فوضع السيف في الرقاب، ورفع العصا على الظهور. وقال للآخر: «إياك أن تزرع أرضك وإلا فأين ترعى ماشيتي؟ أرضي للأشجار وأرضك للكلأ والبرسيم، أرضي مأكل الإنسان وفواكهه، وأرضك مراتع الحيوان ومسارحه ومشاربه»، فلو قال له هذا المسكين: أرضي وأرضك سِيَّان، قال: «كَلاَّ، فإن حقولي جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار، فيها من كل الثمرات، هذه خير أم حقولك التي لا تنبت إلا الكلأ والعشب؟ فإن قال له الضعيف: دعني أزرعها، فإن الأرض واحدة والاستعداد مُتَّحِد قابله الغالب بالازدراء والاحتقار. وقال: «ارفع رأسك، فها هو السحاب الأسود غاشية من عذاب المدافع ودخان البارود، وفيه شُوَاظ[٣] من نار، فلن تغرس شجرة إلا قطعتها وحرقتها، ولتقولن إنا لمغرمون، بل نحن محرومون».

(١) ناوأت: فاخرت، وعارضت. (م).
(٢) غُلْبًا: ذات أشجار كثيرة وملتفَّة. (م).
(٣) شواظ: لهب لا دخان فيه. (م).

فالحقول في هذا المثل كالعقول، والأشجار كبار الرجال، والنبات صغار الأمم، والرجلان القويّ والضعيف، الغالب والمغلوب. معرفة عامة الناس للأغذية بالحواس ودراية التلاميذ منهم للعلوم بالمبادئ الأولية في المكاتب، وعرفان الخاصة السائحين في الأرض بالعلوم، وإرسال الوفود قسمان؛ أحدهما: لاستفادة العلوم كالهندسة والطب، وهؤلاء شبان أذكياء يُصْطَفَوْنَ من خيارهم، والثاني: لاقتباس نظام المدارس وترتيب العلوم، وهؤلاء يكونون من كبار الرجال المشهورين كالأطباء والمحامين والمهندسين، فإذا فرغنا من كتب القراءة ووضعها والكليات ونظمها والوفود وإرسالها، وقارنّا بين طلاب الأمم وتلاميذ المدارس وصروف الآخرين وعلوم الأولين، وجب أن نفيض في موضوع اللغة العربية، ونوضح أن العامة يعلمون من لغة مُضَر حظًّا صالحًا، وأن عامة المصريين بلغة العرب عارفون، ولكنهم بذلك لا يشعرون، فانتظر البيان.



الفصل الثاني
لغة الآباء كنز ثمين
لغة الفلاحين هي العربية الصحيحة

من خالط عامة المصريين في الحقول والقرى وجدهم يعرفون من لغة مضر حظًّا صالحًا، ويحفظون من مَتْن اللغة العربية أثرًا صحيحًا، فتراهم يقولون: النار دخنت، ويقول العرب: دَخَنَت النار من بابَيْ نصر وضرب، فهي داخنة وأدخنت أيضًا، وتقول العامة في مصر: دخن الطعام واللحم وغيرهما، وفي كتب اللغة دَخِنَ الطعام كفَرِحَ، ويقول العامة: دخنت النار إذا ألقيت عليها حطبًا فأفسدتها به حتى يهيج لذلك دخان، وفي القاموس بهذا المعنى عينه، ولكنه من باب فرح، ويقول العامة: عَبِق البيت بالدخان، وفي القاموس عبق من باب فرح بهذا المعنى، ويقال في الثوب أيضًا، ثم إن الدخان مفرده داخنة، ودخان جمع دخنة، وتقول العامة: ثار الدخان وثار الغبار وغيرهما: أي هاج، وهكذا في القاموس، وتقول العامة: يا فلان، عججت البيت دخانًا، وهكذا في القاموس عججت البيت دخانًا فتعجج: أي ملأته فتملأ، وتقول العامة: رمدت الفطير والخبز، وفي كتب اللغة رمدت اللحم وغيره. وترى العامة يقولون في نبات الفول بعد جزِّه من الأرض قصلاً، والمراد قصلة، وفي كتب اللغة إن الزراعة ما دامت غَضَّة، فهي خامة، فمتى

جز الزرع يقال إنه قُصِل بالبناء للمجهول قصلاً، واقتصل كذلك، وهو القصيل، والقصل هو القطع، فالقصيل بمعنى المقطوع. وتقول العامة: القمح قنبع: أي لم يخرج سنابله، وفي كتب اللغة قنبعت السنبلة: أي لم تخرج من ساقها، وتقول العامة: القمح سبل، وفي كتب اللغة: سنبل القمح وأسبل، وتقول العامة: السبل جملة سبلة، وفي كتب اللغة: السبل هو السنبل.

وتقول العامة: السبل قمح يريدون صار فيه حب، وفي كتب اللغة: أقمح السنبل جرى القمح فيه، وتقول العامة: أدرك القمح، وفي القاموس أدرك السنبل إذا ابيضّ. وتقول العامة: هاتوا لنا فريكة من الغيط، وفي القاموس: فركت الحَبَّ أفركه فركًا. وتقول العامة: نحصد القمح، وفي القاموس: حصد يحصد من بابي ضرب ونصر والعامة اختصتها بباب نصر. وتقول العامة: أرسل البقر في الحصيد، وفي القاموس: الحصيدة أسافل الزرع التي تبقى، ولا يتمكن المِنْجَل[1] من استئصالها والحصيدة أيضًا المزرعة. وتقول العامة: أعطني شمال برسيم وأعط الحاصد شمال قمح، وفي القاموس: كل قبضة قبض عليها الحاصد تدعى شِمالاً بكسر الشين، ويقول الرجل لابنه: هاتِ لنا جرزتين من القمح وفي القاموس: الجرزة الحزمة من القمح بضم أولهما، ولكن العامة تنطق بالكسر. ويقول العامة: عرمت العرمة، وفي القاموس بمعنى يقارب هذا، فيقال عرم يعرم تعريمًا. وتقول العامة: اذهبوا فالقطوا من الحصيدة، وفي القاموس: يقال لما سقط

(١) المِنْجَل: آلة لحصد الزرع أو لحشّ العشب. (م).

في الأرض من السنبل لُقَطة بضم ففتح والجمع لُقَط بضم ففتح، ويقال لالتقاطه اللقاط بفتح اللام وكسرها. وتقول العامة: وضعنا القمح في الجُرْن بضم فسكون، وفي القاموس الجُرُن بضمتين جمع جرين، ويقال في الجمع أيضًا أجرنة، فكأن العامة جعلت الجمع مفردًا، ثم جمعوه في بلادنا، فقالوا أجران. ونسمع العامة في بلادنا يقولون: درسنا القمح، ويقولون أيام الدراس، وهكذا في القاموس. ويقولون: الدياس والدقة، وكل هذا في القاموس قد دق الناس وداسوا وأداسوا ودوسّوا، وهكذا تقول العامة، وقال الشاعر في درس القمح:

تَقُولُ خَوْدٌ[١] ذاتُ طَرْفٍ بَرَّاق هَلاَّ اشْتَرَيْتَ حِنْطَةً[٢] بالرُّسْتَاق
سمراء مِمَّا دَرَسَ ابنُ مِخْرَاق؟

ويقول العامة: النورج، وهو معروف استعمله العرب.

تقول العامة: إحنا ندرّي القمح، وفي القاموس ذريت الطعام وذريته وذروته، وأداته المِذْرَى[٣].

وتقول العامة: المدراية محرفة، ويقولون التبن: وهو جمع تبنة، وبائع التبن تبان، وتقول العامة: تبنت البقرة علفتها تبنًا، وهكذا في كتب اللغة.

---

(١) الخَوْد: الفتاة الشابة، الناعمة الحسنة الخَلْق. (م).
(٢) الحنطة: البُرّ. (م).
(٣) المذرى: خشبة ذات أصابع ينقَّى بها الحب. (م).

وتقول العامة: في القمح المجتمع عرمة، ولفظ العَرَمة بفتحتين في اللغة لكل ما اجتمع من الطعام، والجمع العرم، فهو في الاستعمال قريب.

وتقول العامة لما خلط من القمح والشعير: بفيته، وفي اللغة بقت الشيء: خلطه بغيره فالصواب بالقاف، ويقولون في هذا القمح غلت وصوابه غلث بالثاء، وهو بمعنى الخلط أيضًا.

ويقولون: البصل حنبط: أي غلظت أنبوبته وقصرت، والصواب احبنطأ يحبنطئ لكل ما قصر وغلظ. والناس تقول للنعل من الخشب قبقاب بضم القاف، وفي اللغة قبقاب بفتح أوله بهذا المعنى. وتقول العامة: حَنَّا يده بالحناء، وفي القاموس حنأه يحنئه تحنئة فتحنأ: خَضَّبَه بالحناء. وتقول العامة في الرجل: يرفأ الثياب رفأ، وهو في القاموس: رفأ الثوب: لأَمَ خرقه وضم بعضه إلى بعض، وهو رفاء. وتقول العامة: لخرزات منظومات من الذهب لبه، وفي اللغة: اللبة بفتح اللام واللبب موضع القلادة من الصدر فكأن العامة استعملوها مجازًا. وتقول لما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل لبب، وهو هكذا في القاموس. وتقول العامة عن نبات معروف لبلاب بكسر اللام، وهو في اللغة: لَبلاب بفتحها. وتقول العامة: فلانة تلبلبت على ولدها، وهكذا في القاموس: اللبلبة الرقة على الولد. وتسمع العامة يقولون إذا أحسوا بحيوان صغير ينتاب الناس إذا كثرت المستنقعات: (هذا الصعو يؤذينا) يريدون البعوض الصغير، وفي القاموس: صعى يصعى كسعى يسعى: دق وصغر، فكل صغير يقال له صعو، والأَوْلَى وضع هذه

الكلمة بدل المكروب كما استعمله العامة في بعوض لم يروه، والصعو مؤنثه صعوة، والجمع صعوات بفتحتين.

لعلي أطلت القول عليك أيها القارئ، فأنا لم أطل في هذا المقام لغرض لُغَوي، إنني ما ذكرت ذلك إلا إيقاظًا لتلك اللغة المنتشرة بين العامة يسمعها الطفل بين أبويه في الدار والحقل والطريق حتى إذا دخل المدرسة رأى منها إعراضًا عن أكثر ما سمع مما لم يره في الكتب المعتادة ويعد ما عداها ألفاظًا عامية. ويا ليت شعري كيف نضيع كنزًا ثمينًا ورثناه عن آبائنا؟ وكيف نذر ما حفظنا عن الآباء زعمًا أنه لغة العامة، مع أن القاموس لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من تلك الكلمات إلا أحصاها؟ وإني لأعجب غاية العجب من هذا التقهقر الشائن المحزن، يشبّ الطفل وهو يعلم من متن اللغة حظًّا صالحًا حتى إذا ما نظم في سلك التلاميذ نسي ما لقنه أبواه! حتى أجمعت أوربا أن لغة المصريين غير العربية، ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[1]. إن اللغة محفوظة، وهي عربية لا ينقصها إلا الإعراب، نعم إن بعض الألفاظ حُرّف شكله كالمذرى جعلوها مدراية، وكلفظ عبق جعلوها على وزن فعل بالتشديد وهكذا.

وإن لي في ذلك رأيًا، وذلك أن يؤلف كتاب يجمع لغة المصريين في الوجهين القبلي والبحري، وينشر بين عامة المتعلمين، ثم تجعل كلماته في مواضع، وتصير كتب مطالعة للطالبين في المدارس الابتدائية حتى يحفظوا ما ورثوه عن الآباء،

(١) الواقعة/٧٥ - ٧٦. (م).

ويبقى كنزًا لهم في إنشائهم ومحاورتهم، وبهذا يتم إصلاح النطق بالمُحَرَّف على ألسنة المتعلمين، ويظهر للملأ أننا نعرف العربية البحتة كما هو الحق، ولعمري إن إصلاح اللغة العربية في بلادنا يتوقف على هذا، فإذا لم تؤلف لجنة وطنية تجمع رجالاً من الوجهين القبلي والبحري، ويضعون ذلك المعجم مع حضور بعض العامة الأذكياء الذين هم أدرى بلغة العامة، وتُدَوَّن تلك الألفاظ المطابقة للمعجم، ثم ينشر الكتاب نشرًا عامًّا، إذا لم يتم ذلك في مصر، فكل إصلاح في العربية سواه ضعيف قليل الثمرة، وإن أول واجب بَذْل الجهد في هذه السبيل وما سواها فجَلَل.

الفصل الثالث
الشعر والتاريخ

الشعر والتاريخ فَنَّانِ بينهما علاقة ونسب، يجتمعان ويفترقان، يكادان يكونان طبيعة في الإنسان، وكما أن الكهرباء سرت في عامة الأجسام خلقت معها ورُكِّبت في طبائعها، ومقدارها يغلب في الأجسام الحيوانية فالجواهر المعدنية، ويندر في النباتية ونحوها، فهكذا ترى أناسًا نبغوا في الشعر، وآخرين يتشبهون ويتقاربون ويتكلفون، وقد يصلون. إن شئت فقل الناس شعراء ومؤرخون.

قم واجلس في مجلس، فلا تسمع إلا قول الناس في سمرهم ألا سعد فلان وشقي فلان، وتارة يحلون المجالس بالشعر والموالي أو يذكرون تخيلاً شعريًّا غريبًا.

لم تترفع هذه عن صغرى الطبقات كما لم تتسام عنها أرقى الطبقات، ثم نرى الأمم في مبدأ أمرها تكون في الشعر أطفالاً، وفي البلاغة صغارًا، يعجبهم ما كان غريبَ اللفظ عَوِيصَ المعنى كأنهم يخضعون لما تقصر عنه طاقتهم، فإذا

أخذوا في الرقي قليلاً ماثلوا الشبان في العقل فأحبوا الخيال والنكت البلاغية غالبًا، فإذا ارتقوا مالوا إلى جمال المعاني، واعتبروا من اللفظ رَوْنَقه[١] ومن الخيال سبكه ونَظْمَه، وغاصوا على الحكمة وجمال المعنى، هذا ما عَنَّ[٢] لي في درجات الشعر، فمتى رأيت الرجل تدهشه تلك الكلمات وغرابتها، فاعلم أنه عامي، ألا ترى أن العامة يقولون لكلام لا يدرون معناه: هذا فصيح إذا كان معربًا! وإن رأيته لا يقف إلا عند الخيال ويعجب به فهو في الطبقة الثانية، فإن مرق من الخيال إلى ما فيه من حكم ووازن بينه وبين الحقيقة المقصودة من التأثير، فهو في المرتبة العليا.

قلنا إن الناس أجمعين يميلون للشعر ويحبونه، ومنهم فريق استمر في قرضه فمدح الملوك وذَمَّهم، فيا ليت شعري لم غرست هذه الطبيعة فينا؟ وهل ما رأيناه من الذم والمدح لغلبة الشهوات كان مقصود تلك الفطرة السامية، الله أكبر وأجلّ أن يضع هذه الغريزة لمثل هذه الصغائر.

وانظر كيف كان أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفي المتنبي – المتوفى سنة ٣٥٤ في جهة سواد بغداد – كان عظيم القدر شريف المنزلة سامي النفس، ومع هذا يقول الشعر إرضاءً لشهوات النفوس.

---

(١) رونقه: حُسنه. (م).
(٢) عنّ: ظهر، اعترض. (م).

فكم مدح سيف الدولة وكم ذَمَّه، وكم مدح كافورًا وكم ذمه، يقول في مدح الثاني وذم الأول تعريضًا[1]:

تُجَاذِبُ فُرْسَانَ الصَّبَاحِ أَعِنَّةً[1] كأنَّ على الأعناقِ منها أَفَاعِيَا
بعَزمٍ يسيرُ الجسمُ في السَّرْجِ[2] راكبًا به ويسيرُ القَلْبُ في الجِسْم ماشيا
قَوَاصِدَ كافورٍ تَوَارِكَ غَيْرِهِ ومَنْ قصدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيا
فجاءت بنا إِنسانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا ومَآقِيَا[3]
نَجُوزُ عليها المُحْسِنِينَ إلَى الذي نرى عِنْدَهُم إحسانَهُ والأَيادِيَا

وهذا من قصيدة يمدح بها كافورًا الإخشيدي؛ إذ ورد عليه وأكرم مثواه في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هجرية.

ثم ذمه بقصائد، منها قوله:

إنِّي نَزَلْتُ بكَذَّابِينَ ضَيْفُهُمُ عَنِ القِرَى وعَنِ التّرْحَالِ مَحْدُودُ
جُودُ الرِّجال مِنَ الأَيْدِي وَجُودُهُمُ مِنَ اللِّسَانِ فلا كانوا ولا الجُودُ
لا يَقْبِضُ المَوْتُ نَفْسًا من نفُوسِهِمُ إلاَّ وفي يَدِهِ من نَتْنِهَا عُودُ
أَكُلَّمَا اغتالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ أو خَانَهُ فلَهُ في مِصْرَ تَمْهِيدُ

---

(١) تعريضًا: ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح. (م).
(٢) أعِنَّة: جمع «عِنان» وهو اللجام. (م).
(٣) السَّرْج: رحل الدابة. (م).
(٤) مآقيا: مجاري الدموع من العين أي من طرفها مما يلي الأنف. (م).
(٥) الخصيّ: الذي سلَّت خصيتاه أو نُزعتا. (م).
(٦) الآبقين: جمع «الآبق» العبد الهارب من سيده. (م).

صارَ الخَصِيُّ[٤] إمامَ الأَبِقِينَ[٥] بها فالحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ والعَبْدُ مَعْبُودُ
العبدُ لَيْسَ لحُرٍّ صَالِحٍ بأخٍ لو أنه في ثِيَابِ الحُرّ مَوْلُودُ
لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلاَّ والعَصَا مَعَهُ إنَّ العَبِيدَ لأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ
ما كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَحْيَا إلى زَمَنٍ يُسِيءُ بي فِيهِ عَبْدٌ وَهْوَ مَحْمُودُ

ولسنا نطيل النقل، فمثل هذا الشعر مع حسنه وضع في مقام غير شريف تفرح به الأمم في أول أمرها وشبابها، فإذا وصلت للحكمة أبتها طباعهم، ولا يرون لأمثال هذا قيمة، وهكذا كثير من قصائد أبي تمام والبحتري وأضرابهم يمدحون ويذمون لتلك الشهوات.

وهذا لعمرك ما صرَّح به القرآن؛ إذ قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ[١]. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ[٢]. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء/ ٢٢٤ - ٢٢٦]. فانظر كيف وصفهم بالهُيَام في كل واد من أودية المدح والذم كما توحي إليهم الشهوات وتسعدهم المخيلات.

إذن لماذا غرس الله هذه الفطرة في نوع الإنسان؟

أجمع العلماء أن كل غريزة فينا ذات حكمة شريفة، وللشعر منزلة سامية في النفوس، لعل نفوسَ كثيرٍ من الشعراء حادت عن الطريق المستقيم،

---

(١) الغاوون: الضالون. (م).
(٢) يهيمون: يتحيرون ويضطربون ولا يدرون أين يتجهون. (م).

لعل هذه الفطرة تجنح إلى وصف ما نراه من جمال هذه العوالم وبهائها، تصف السحاب، تصف النجوم والشمس والقمر، تصف الأنهار، تلك الحِكَم الزاهرة الباهرة. الشعر كهرباء الأرواح الإنسانية تشع منها إلى النفوس، فتطوف هذه العوالم المشاهدة، فتستخرج المنافع المادية والمعنوية، يقود النفوس إلى الفضائل يبتعد بها عن الرذائل، في العوالم المشاهدة عجائب وغرائب فيها حكم وبدائع، وإنما يستخرجها الشعراء بقرائحهم.

وإنه ليعجبني ما يتغنى به شعراؤنا اليوم من وصف الكون وحكمه، والتشويق للعلوم وتحببهم للوطن والألفة والرقي، أذلك خير أم أولئك الذين يذمُّون ويمدحون كأنهم للشهوات عابدون، المدح والذم صفتان عرضتا للشعراء إذ حاد الملوك عن القصد ونأوا عن الصراط السوي فاستعطفوهم واستجدوهم، الله أكبر، كلما مالت الحكومات النيابية إلى الاستبدادية مال الشعر إلى الأشخاص ووصفهم، وكلما عدلت الحكومات اعتدل الشعر، وسار ملكًا للأمة يحرض أبناءها ويرشدهم إلى المعالي ويغريهم بمكارم الأخلاق، وإني لأرى أننا لا نختار من الشعر إلا ما يقوي إرادة الشبيبة، ويهديهم إلى طرق الرشاد، أما شعر المدح والذم فلن يفيد إلا حسن الألفاظ، وجمال الخيال، وهو خالٍ من كل فائدة، هذا هو الذي أراه في تعليم الشعر. مثاله ما قال أبو الطيب في الحكم:

هَـوِّنْ على بصرٍ مَا شقَّ منظَرُهُ فـإنَّمـا يَـقَـظَـاتُ الـعَـيْنِ كالحُلمِ

يقال: شق الأمر عليه صعب، والمعنى هَوِّن على عينك ما يشق عليها منظره، فإن ما تراه في اليقظة شبيه بما تراه في المنام، وكأن الحياة أحلام، ولِمَ الحزن على حوادثها:

ولا تَشَكَّ إلى خَلْقٍ فتُشْمِتَهُ شَكْوَى الجَرِيحِ إلى العِقْبَانِ والرَّخَمِ[1]
وكُنْ على حَذَرٍ للنَّاسِ تَسْتُرُهُ ولاَ يغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ[2] مُبْتَسِمِ
سُبْحَانَ خالقِ نَفْسِي كيف لَذَّتُهَا فيما النُّفُوسُ تراهُ غَايَةَ الأَلَمِ
الدَّهْرُ يَعْجَبُ مِنْ حَمْلِي نَوَائِبَه وصَبْرِ نَفْسِي على أَحْدَاثِهِ الحُطُم

ومن حكم أبي تمام الطائي حبيب بن أوس المتوفى سنة ٢٢١:

خُطُوبٌ[3] إذا لَقِيتُهُنَّ رَدَدْنَنِي جَرِيحًا كـأنِّي قد لَقِيتُ كَتَائِبا
ومَنْ لَمْ يُسَلِّمْ للنَّوَائِبِ أَصْبَحَتْ خـلائـقُـهُ طُـرًّا عليه نَـوَائِـبـا

ومن أجمل ما ينسب لعنترة:

ولأَحْمِيَنَّ النَّفْسَ عن شَهَوَاتِهَا حتـى أرى ذَا ذِمَّـةٍ وَوَفَـاءِ
فلئِنْ بقيتُ لأَصْنَعَنَّ عَجَائِبًا ولأُبْـكِـمَـنَّ[4] فصاحةَ البُلَغَاءِ

---

(١) الرخم: طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة. (م).
(٢) ثغر: فمّ. (م).
(٣) الحطم: التي تحطم من ألمّت به. (م).
(٤) خُطُوب: جمع «خَطْب»، أمر صغر أو عظم. (م).

ولأَجْهَدَنَّ على اللقاءِ لكي أرى ... ما أَرْتَجِيـهِ أو يَحِينَ قَضَائِي

ومن حكم أبي العلاء، وهو يشهد لما قلنا:

وما شُعَرَاؤُكُم إلاَّ ذِئَابٌ ... تلصّصُ في المَدَائِح والسِّبَابِ
أَأُذْهِبُ فيكُمُ أَيَّامَ شَيْبِي ... كما أَذْهَبْتُ أَيَّامَ الشَّبَابِ؟

فإن كان ولا بد من مدح فليكن بما عرف من فضائل الممدوح واشتهر، ثم يجعل ذلك قدوة لأهل وطنه، فيرجع المدح إلى ترغيب الناس في الاقتداء به، وهذا كأنه درس أخلاق وما عداه فلا أمدحه ولا أرضاه.

الشعر والتاريخ لا يُقْصَدَان لِذَاتِهِما، إنما يرادان لإنماء العواطف والحضّ على المكارم وما عدا ذلك فمنبوذ، فالشعر الذي قصد به الشهوات يهيمون به في كل وادٍ، فأما الآخر فهو ما ذكره الله بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الشعراء/ ٢٢٧]... إلخ، أراد به الشعر الذي قُصِدَ به غرضٌ شريف ونفع عام، وهكذا التاريخ أرى أن يصطفى من حوادثه ما يقود الشبيبة إلى المنافع والثمرات، التاريخ يراد منه إثارة الحَمِيَّة(١) والغيرة في الرؤوس، التاريخ وصف شجاعة الشجعان وخذلان الجبان وسياسة العادل وحب صالح الوطن ورجال الأمة وعظمائهم، حتى يكون ذلك داعية إلى رقي

(١) الحمية: الأنفة، والغيرة. (م).

الأمة والعمل لها، وأعجب ما رأيت تلك القصص القرآنية، فما رأيت حكاية قصيرة أو طويلة إلا وتخللها حكم ومواعظ وأمثال وترغيب أو ترهيب، كأنه يرينا كيف نعلم التاريخ، كأنه يقول ليس التاريخ فنًّا معبودًا، ألا إنما التاريخ آلة لنمو القرائح وإنارة العقول للغرض الذي توجه إليه الأمة، ومتى عري عن هذه الأغراض، فإنما هو من سفساف الأمور وضياع الوقت، وقراءة بعض كتب الإفرنج شهادة بذلك فيما يكتبون.

الفصل الرابع
الرِّقّ في الإسلام

لا نزال نسمع آنًا بعد آن الطعن على دين الإسلام، باستحلاله الرِّقّ الذي تمقته الإنسانية وتأباه الرحمة ويدمغه[1] الشرف، وأنا ما أدري أيَذُمُّون بهذا الإسلامَ أم المسلمين أم كليهما؟

الرق شريعة الإنسان من مبدأ الخليقة، بل أساتذة الإنسان، وهي الفئات ذات المدنية والنظام من الحيوانات: كالنمل اتخذت الأسرى ونظمت الجند، جاء الإسلام فماذا صنع؟ أجعل الرق من علم أصول الدين بحيث من تركه يكون خارجًا من الدين كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسوله؟ هل اتخذها من أمور الإسلام وهي العبادات الظاهرة كالصلاة والزكاة؟ هل اتخذها سننًا يثاب فاعلها كصيام أيام من كل شهر؟ لا هذا ولا ذاك.

رأى الإسلام الأمم جاهلة مُنحَطَّة، والمسيحيون يَشْرَهون[2] على الرق، والكنيسة لا تمنعه وإن كانت توصي به خيرًا، فلم يسعه إبطال الرق مرة واحدة،

---

(١) يدمغه: يمحوه. (م).
(٢) يشرهون: يشتد حرصهم. (م).

وكيف يبطله والأمم جمعاء تبيحه؟ أيمنع المسلمين منه إذ ذاك والأمم المحيطة بهم تنقضّ عليهم من كل حَدَب[١] تختطف أبناءهم وتستحي نساءهم وهم صامتون لا يقابلون الفعل بالفعل؟

لو فعل النبي عليه الصلاة والسلام ذلك لكان مَثَلُ المسلمين مع من جاورهم كَمَثَل المصريين وقمبيز؛ إذ سار الأخير إليهم بخيله ورَجِله[٢] فانقض عليهم، فماذا صنع المصريون؟ قابلوه بالمثل وحاربوه وانتصروا عليه، وذلك في الأسرة السادسة والعشرين.

فلما أَعْيَتْه القوة لجأ إلى الحيلة الدينية فصف الحيوانات المعبودة بين الصفين، فتحرّج المصريون عن قتل الآلهة، وانقضّ الفارسيون على العابد والمعبود فأفنوهم واحتل الفارسيون مصر.

فلو أن النبي ﷺ حرَّم الرق على المسلمين لانقرضوا في قرن واحد، فكنت ترى أبناءهم ونساءهم أسرى وهم لا يُبدون حِرَاكًا، ولا يقابلون العدو بالمثل.

كان يعترض على الإسلام لو أوجب الرق في الإسلام، ولكنه اتخذ طريقًا وسطًا بين الطرفين فأباح الرق، فلنا فعله ولنا تركه، ولقد صرح في القرآن به، إذ قال ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ﴾ أي بعد الحرب، ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد/ ٤]. فأباح الفدية وأباح

(١) من كل حدب: من كل مكان. (م).
(٢) رَجِله: جمع «راجل» من ليس له ظهر يركبه فمشى على رجليه. (م).

المنَّ عليهم والإفضال بإطلاق سراح الأسرى، فكأن الرق خصلة من ثلاث، وهي إخلاء سبيل الأسرى وفديتهم واتخاذهم أرقَّاء، وجعل الأمر موكولاً إلى فطنة رجال السياسة بحيث يراعون الزمان والمكان. إن القرآن والمسلمين يستقبلون أبطال الرق بالبِشْر والفرح والسرور، ومن العجيب أن أسرى المسلمين وأَرِقَّاءَهُم كانوا أكبر ممثلي أدوار السياسة في الإسلام!

لما رأى الشارع أن الرق يضطر إليه القائمون بالأمر في بعض الأوقات حوّله من الضرر إلى النفع، كما يتخذ الأستاذ صفة الغضب في التلميذ ذريعة لعلو الهمة والغيرة والنشاط كنهر فاض، فاتخذت له القناطر والسدود والحواجز ليحول إلى سقيا الأرض عن الإفساد فيها، وكما يحول الطبيب حب المرأة للزينة والجمال إلى المحافظة على الصحة فيتبعها بقاء الجمال.

وكما يجد علماء الأخلاق في تحويل وجهة المقامرين في الأموال إلى المغالبة في الفخار وحوز المجد والشرف والرفعة، ويقولون لهم (إما هلكًا وإما ملكًا) كما يقول المقامر: إما غنى كامل، وإما فقر شامل، وكما يحول حب الجمال إلى رقة الشعور والوجدان، وكما تتخذ رذيلة كثرة الكلام فضيلة في الوعظ والخطابة؛ لئلا تضيع سُدًى أو تضر ضررًا عظيمًا.

على هذا جعل الإسلام الرق مدرسة يتخرج منها أولئك الجهلاء في الأمم المنحطة، فهو بهذا درأ شرًّا باتِّقاء الأمم المغيرة، وجلب نفعًا عظيمًا بجلب الأرقاء

وتعليمهم وتدريبهم وتمليكهم مقاليد السياسة، فكان العبيد وعبيد العبيد يتولَّوْن الإدارة والمالية والجندية، ثم يتولون الملك ويدعى لهم على المنابر.

ولعلك أيها القارئ تسمع عن بني الإخشيد، وهم عبيد الدولة العباسية ملكوا مصر والشام والحرمين، ثم قام كافور الإخشيدي، وهو عبد عبيدنا فصار ملكًا على مصر، ومدحه المتنبي وقرنه بسيف الدولة، بل فضَّله عليه في منتصف القرن الرابع.

جلب المعتصم الأتراك وولاَّهم الجندية، فعظم أمرهم وصار الأمر بأيديهم، وكان من ذلك الإخشيديون والطولونيون، وما كان بيبرس والمظفر والمماليك البرية والبحرية إلا مماليك المسلمين تولوا أمرهم.

أبعد ذلك يشك عاقل في أن الإسلام حَوّل رذيلة الرق إلى فضيلة، وهو التدريس والتعليم؟ الرق في الإسلام كان مدرسة كبيرة يعلم فيها أبناء الأمم الضعيفة التي تأبى نشر التعليم في بلادها، ومن ذا الذي يرجو من العساكر الانكشارية الذين قويت بهم الدولة التركية زمنًا طويلاً أن يتعلموا ويتهذبوا في ديار آبائهم الجهلاء؟

هذا ما رأيته في مسألة الرق في الإسلام، فليأتنا رجال العلم والسياسة بأوربا بمثال واحد من اتباع وصايا المسيح عليه السلام الذي نُحِبّه كحبهم ونُجِلّه أعظم

إجلال؛ ليأتوا لنا ببرهان واحد على أنهم ولّوا العبيد السود أو البيض إدارة صغيرة أو كبيرة فضلاً عن الملك.

نحن لا نعترض على المسيحية؛ لأنا نُجِلّ صاحبها وإن اعترضوا على الإسلام، فإيماننا بعيسى كإيماننا بالله، لا نفرق بين أحد من رسله، وإنما نحن نحكم التاريخ، ونسألهم أين ذهبت سكان أمريكا الأصليون، وقد وعظ رجال الدين القسيسون والرهبان، فمن ذا الذي أجاب نداءهم؟ وما لأستراليا يقل نسل الوطنيين فيها؟ وما لنا لا نرى رجالاً من العبيد يمثلون تاريخًا في أوربا أو أمريكا كما مثّلوه في الشرق؟

لا جواب على هذا إلا أن المسلمين اعتادوا صدق النية في التعليم والإرشاد واتباع نصائح دينهم، لا سبيل لسرد وصايا النبي الآن ولكن نذكر ملخصها في قول وجيز.

أمر أن يجعل العبد في مقام الابن فعمل بها المسلمون، من كان في شك من ذلك فلينظر أحوال مصر الآن، فإنك لتجد لبقايا المعتوقين في بلادنا من المال والعقار والأُبَّهَة والجلال ما به يستعبدون الأحرار ويسودونهم من غير إنكار، كم يفضل المسلم عبده على كل قريب وبعيد، أيستطيع ذلك المعترض على الإسلام أن يعاملنا بما عاملنا به أرقاءنا فيتخذ أصغر الطبقات عندنا قواد الجيوش في إنكلترا وسائر الجزائر البريطانية، فيحل الفلاح محل إدوارد فوق عرش الملك وتضرب

له الموسيقى كما ضربها المسلمون لكافور الإخشيدي عبد عبدهم الأسود؟ إن مقترح مثل هذا يعد في جملة المهوسين، وإذًا لم تستطع أوربا أن تتخذ أدنى الطبقات عندنا في إدارتها في بلادها فضلاً عن أرقى الطبقات عندنا، بل لم تسمح لها نفسها الكريمة بإعدادنا لحكم بلادنا بأنفسنا، بل تركنا أكثر الدول عدلاً ورحمة تحت نِير[1] الاستعباد الحقيقي والتظاهر بالرحمة أمدًا طويلاً.

ليترك العالم الاسترقاق، ولتمد الدول أيديها معًا للاشتراك في محاربة هذه الوصمة الإنسانية، ونحن معاشر المسلمين أول المسارعين لها، وهل أنبئك بكيفية تقسيم بيت المال على المصارف؟

جاء في القرآن الشريف في سورة التوبة أن المحصول المجتمع من أموال الصدقات المستخرجة من الأرضين، والتجارات، والزرع، وزكاة الذهب، والفضة وغيرها يقسم ثمانية أقسام:

(١) للقوم الذين اشتد فقرهم.
(٢) وللمساكين الذين هم أقل فقرًا.
(٣) ولموظفي الحكومة الذين يجمعون الصدقات.
(٤) وللقوم الذين نصطفيهم لمحبتنا كسفراء الدول وأهل السياسة وذوي المودة معنا من المسيحيين وغيرهم، وعامة النزلاء في بلادنا والمتوددين إلينا من المعاهدين.

(١) نِير: ظلم، وقيد. (م).

(٥) وتحرير الرقيق لإبادة هذا النوع من الوجود أو تقليله.

(٦) وفي مساعدة أولئك الرجال العظماء الذين يغرمون[1] الأموال في إصلاح ذات البَيْن، وهكذا في قضاء الديون التي على أبناء الأمة، حتى لا تضيع أملاكهم، فيهلك الدائن والمدين.

(٧) وللأعمال العامة من الريّ وإصلاح الطرق والهندسة والجيش وبناء الحصون وغيرها مما تعم الحاجة إليه.

(٨) ولبناء النُّزُل للأضياف من السائحين الواردين علينا من البلاد القريبة والبعيدة وإكرامهم مع شروط وأحوال خاصة في جميع ذلك، وهي هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا [2] وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ [3] وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ [4] وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/ ٦٠].

عجبًا كيف يقول فريضة في هذا التقسيم حتى يحتم على المسلمين أخذ جزء كبير من أموالهم لإغاثة الأرقاء وإبطال هذه الصفة ويقرنها في القرآن بمصالح الحكومة والبلاد من الري والهندسة والطب، ثم نراه عند الاسترقاق لا ينطق بشيء، بل يقول: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد/ ٤].

---

(١) يغرمون: يتحملون الغرامة، وهي ما يلزم أداؤه. (م).

(٢) العاملين عليها: الساعين في جمعها. (م).

(٣) المؤلفة قلوبهم: من يُرجى إسلامه أو قوة إيمانه ونفعه للمسلمين أو لدفع شره عنهم. (م).

(٤) الغارمين: هم الذين لزمهم الدَّيْن. (م).

إذن فنحن نعلن الملأ أن الإسلام ينبذ الرق نبذًا، ويكرهه أشد الكراهة، ويأمر بالمساعدة في إبادته متى آن الزمن، وها هو الوقت أَزِفَ[١].

فها نحن معكم وأموالنا نقدمها لهذا الغرض الشريف. متى كانت لنا دولة ورجع الرق إلى أنه أمر سياسي بحت، فدعوا الكلام فيه مع الإسلام، وخاطبونا نحن المسلمين نجبكم.

(١) أَزِفَ: قرب. (م).



الفصل الخامس
جاموسة في جنازة

الجاموسة مذكرها جاموس، والجمع جواميس كلمة فارسية (كاوميش) والفعل منها جمس بمعنى جمد، والجنازة بفتح الجيم وكسرها: الميت أو سريره، ويتجوز بها عن الميت ومن يشيعونه، ولئن تعجب أيها القارئ من هذا العنوان فعجب معناه، ولئن استغربت مبناه فما أغرب مغزاه!

كم نشاهد نعشًا يحمل جُثَّة خاوية يتقدمها العساكر والجنود، وصفوف وبنود، وصدقات من طعام محمول، وجواميس تُقاد، والناس ينظرون ويقولون: هؤلاء إلى الله يتقربون، ويفدون الميت بما يذبحون، ويذكرهم الأهل والجيران بما يحبون، ويثنون عليهم بما يظهرون هذا ما يتوخاه[1] عامة الناس في قربانهم وما ينوونه في صدقاتهم، ولكن تعال معي أيها الأخ الصادق الثاقب الفكر، تأمل معي وانظر وحل هذا اللغز المُعَمّى، حل معي هذه السطور الأربعة: النعش والجنود والوفود والقربان، قل لي فَدَيْتُك[2]: إلام تشير؟ وما الذي تستخرجه

(١) يتوخّاه: يتحرّاه في الطلب. (م).
(٢) فديتك: يدعو للقارئ أن يكون فداه. (م).

بنور بصيرتك؟ سطور أربعة لها معان أرقى مما يفهم الجاهلون، لو كانت سطورًا في كتاب لكانت أقرب فَهْمًا وأسهل تناولاً، يفهمها من أوتي حظًّا من لغة التخاطب، ولكنها سطور مُجَسَّمَة مُصَوَّرة، كبرت كلمات على العقول وعَزَّت معاني على الأفهام.

لعلها تهدينا إلى أخلاق ذوي الأموال، وقد كتب عليها بحروف مكبرة لذوي البصائر (إنما يتقربون وهم ميتون)، الجثة الخامدة في غنى عن القربان، وهذه النفوس بخلت بالمال في حياتها وادخرته وكنزته، فجاء الوارثون فاقتطعوا منه قطعًا رياء للناس وسمعة.

عجبًا! المال مال الوارث، وقد نفض الميت منه يديه، بخل هو، فتصدق الوارث، وما نسبة ما يصل إليه من الثواب إلا كنسبة ما بين جسم ذي حياة وجسم خامد خاوٍ من الروح.

هذا ضرب مثل للأمم الجاهلة، مثلهم كمثل الجاهل كنز المال في حياته الحيوانية، وهو يشاهد بلاده تتخطفها الأيدي من كل جانب، ويقتسمون الثروة والغَلاَّت والحاصلات والشركات، وقد طاف طائف الجهالة على العقول فبخل على الكليات بدراهمه، وعلى المعوزين بطعامه، حتى إذا جاء أجله وقضى نَحْبَه، وعلم الوارث غلطه وجهله، تصدق بدريهمات وكسرات وصنع الولائم وبذل

النفقات، فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وغشّى على عقول الجهلاء بما جهل الآباء.

ليس المقام في أن الميت هل يناله الثواب، فلسنا في حل المسائل الفقهية، فسواء وصله أم لم يصله فنحن في مقام الكرم والفتوَّة.

المال ككرة الحرير تنسجها الدودة وتنام فيها نومة مستدفئة بها، فإما أن يشتد عليها الحرير فتموت، وإما أن تجاهد وتخترق الحجب وتخلص إلى نسيم الجو ونعيم الحياة، وتتحول تلك الدودة حشرة تطير في سعادة وحُبُور[١].

فهكذا الغني، فإن غفل في سجن المال ونام في ظلماته، ونعس مستدفئًا في رباط حريره حتى مات فلا ذكر له بعد موته، ولا فضل له على أمته، ولا سعادة له في آخرته، ثم يقبض الوارث على ما نسجه في حياته فيحله بيديه، ويقذف بتلك الجثة الخاوية إلى الهاوية، فأما أولئك الذين أسعدوا نفوسهم بالإنفاق وحلّوها من الوثاق فهم الذين اخترقوا الشهوات، وأنفقوا القربات وقدموها بأيديهم، وخلصت بذلك أرواحهم من الجمود وإخلال البخل، وطارت أرواحهم بعد موتهم إلى عالم سعادتها ونعيمها وأشبهت دودة الحرير إذ مزقت كرتها وفكت أزرارها وقطعت حريرتها، وطارت بأجنحتها، وأنشدت تغني بما قال عنترة:

ولا تَـخْـترْ فِـرَاشًـا مِـنْ حَـرِيـرٍ ... ولا تَـبْـكِ المَـنَـازِلَ والبِـقَـاعَـا

---

(١) حُبُور: سرور. (م).

كم من قارئ يسمع هذا فيقول: هذا ضرب مثل لا حقيقة له. نقول: على رِسْلِك، فلقد أثبت الفيلسوف (اسبنسر) المشابهة بين أرواحنا ورقيها وبين أحوال هذه الحشرات؛ إذ تكون دودة فتطير حشرة، فأرواحنا تتربى الآن في أجسامنا، فإذا جاء أجلها رجعت إلى عالمها مظلمة أو مضيئة، غبية أو ذكية، طالحة أو صالحة.

المال قربان لأرواح الأحياء، تنجو به من ظلمات البخل وقوارع الذم وقوارص الكلام.

يقول في الكتاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ. تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف/ ١٠ - ١١].

ومثل الأمة كمثل الشخص الواحد يقبضون أيديهم عن العمل، ويجمدون على المال فتنحل عصبيتهم وتذهب ريحهم وتخرج روحهم، وتحمل جثثهم على أعناق رجال من أمة أخرى وتفرق أموالهم بأيدي الذين ورثوهم، ويقال لهم:

نرى فَيْئَهُمْ في غَيْرِهم مُتَقَسَّمًا وأَيْدِيَهُمُ من فَيْئِهِم صَفِرات

تنادي الأمم الخامدة الجاهلة القابضة على أموالها إذا خرج الأمر من أيديهم: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا [1] أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة/ ٥٣].

---

(١) طوعًا: غير مكرهين. (م).

وإني أنذركم الطامَّة الكبرى والصَّيْحَة العظمى، أنذركم يومًا يشيب فيه الولدان، يوم يسحب أبناؤكم في نار الذل على وجوههم ويقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ[1]﴾ [القمر/ ٤٨]، الاستعباد ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر/ ٢٤]، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصِّلَت/ ١٦]، يوم تصير الأمة كالميت المحمول والجنود بها يحيطون وأموالهم تفرق شَذَر مَذَر.

هذا ما يفهمه العاقل من تلك السطور الأربعة المجسمة، وأنها طلسم الأمة ولغز يحله العاقلون فيوازنون بين حياة الرجل الجاهل وموته وجنازته وتفريق وارِثِه أموالَه، وبين حياة الأمة الخاملة وموتها وجثتها الخامدة المحمولة على نعش أمة قاهرة حوله الجنود، وتفريق أموالها بأيدي أولئك الوارثين من تلك الأمة القاهرة.

إنفاق المال

لعلك تقول: في أي سبيل أنفق الأموال؟ كم تصادفني عجوز قد حنى الدهر من عودها، وأنقض ظهرها، وانكمش جلدها، وخارت قواها، فسألتني درهمًا فأعطيتها، وكم كَسَوْت عاريًا، وأطعمت جائعًا.

ولقد أنفقت على الكُتَّاب وشيّدته وسأوقف أطياني على الحرمين الشريفين، وربما بنيت رباطًا وشيدت مسجدًا، أقول هل أنبئك بخيرٍ من ذلك مثوبةً عند الله والناس؟ ذكر في الدنيا والآخرة.

---

(١) سَقَر: عَلَم لجهنم. (م).

أنفق مالك في تأسيس المدارس الجامعة الإسلامية، فوالله لأن تربي رجلاً واحدًا حرًّا عاملاً خير لك وأبقى من بناء كتابين وتشييد مدرستين صغريين وإطعام ألفين وبناء تكيَّتين.

العلوم العصرية صارت واجبة على المسلمين. فَعَلِّمْهُم بمالك فهو أفضل وأبقى من أولئك الذين يأكلون في التكايا وهم نائمون، رُبَّ رجل في مدرسة كلية يكفك مؤونة ألف عجوز، هو يبني لك المساجد، يحيي الأرض بعد موتها، يطبب الناس، يقضي بينهم بالحق، ينشر الفضيلة، يشير لهذا حديث النبي ﷺ: «لَأَنْ يهدي اللهُ بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم» والمراد بها الإبل الحمر، وقد كانت أشرف أموال العرب. تسألك العجوز كسرة خبز، الأمة عجوز أبناؤها أيتام لا كافل لهم، لا أب لهم يشفق عليهم، ويعلمهم، فكن أنت الرءوف بأبنائها الرحيم بهم الشفيق عليهم، لتكن أنت أباهم البَرّ الرحيم.



الفصل السادس
أدب الهرّة والإنسان

بصرت بهرّة تخطر في فناء مدرسة، لا أنيس به، حتى أتت حائطًا فوقفت لحظة فحفرت حفرة وقضت حاجتها ودفنت ما أحدثت فهالت عليه التراب مرة، ولما أدركت أن الأرض لم تُسَوَّ هالت التراب مرة أخرى وسوت الأرض، وولت سائرة.

صنعت هذا وأنا أراها ولا تراني، أتدري ما الذي اعتراني[1]؟ جال في خاطري الفضيلة والرذيلة والطبع والتطبع والرقي والوقوف والتدلي، وقلت يا ليت شعري أهذه غريزة في هذا النوع أم تعلم من الإنسان؟ ينقض الأول ما نشاهد في بعضها من تركها ذلك ولئن تعلمه من الإنسان، فكيف صار فضيلة راسخة؟ نقول فضيلة؛ لأن علماء الأخلاق لا يسمون الخلق الحسن فضيلة ما لم يصر ملكة راسخة في الإنسان، هذه الهرة قلدت الإنسان، اتخذ بيوت الخلاء فوارى[2] فيها خبائثه[3]، استمسك الهر بالفضيلة ففعلها في خلوته، لم يره أحد، لم يفعلها

(١) اعتراني: ألمَّ بي. (م).
(٢) وارى: أخفى. (م).
(٣) خبائثه: نواتج قضاء حاجته في الخلاء. (م).

لرياء الناس أو خوفًا من عقاب، فإنه لم ير أحدًا حوله نعدها له فضيلة، وإن كان علماء الأخلاق لا يسمونها إلا للإنسان، فأنا لست في مقام الألفاظ والتسمية. الأمر عجيب، كيف يأخذ الحيوان عن الإنسان وقد أخذ الإنسان عنه دفن الموتى إذ قلد الغراب؟! تعجبت من الهرة وطهارتها ونظافة شعرها وتطهيرها الأرض، ثم تقول من القضايا المقررة أن الإنسان بل العالم كله في ارتقاء مستمر، وها هو ذا الإنسان يستر جراحه خشية أن ينفر الناس منه، ويتحاشاه الأصدقاء فضلاً عن المعارف، ولكنه لا يزال يجهل مركزه في الحياة.

تنبعث في براكين أفواه أقوام حمم العداوة والبغضاء، يقذفون بها في المجالس، وهم للفضيلة كارهون، يعادون أصدقاءهم لصدور الفضائل على أيديهم، عجزوا عنها ويَئِسُوا منها فحاربوا أربابها، ويا ليتهم يدفنون ما يُكِنّون ويسترون ذلك العضو المريض وهو اللسان فيقفلون عليه المصاريع الأربعة، أو لا ينظرون إلى العامة يسترون جراحهم حتى لا ينفر منها الناظرون، فَهَلاَّ ستروا ما هو أدهى وأمرّ من صفات الباطن الخبيثة المتفجرة ينابيع على جوارحهم والناس يكرهونها ويكتمون، فأين رقيّ الإنسان إذن؟ لعل رقيه في الماديات. أما الأخلاق فهي في وقوف إن لم تكن تدلَّت إلى الحضيض.

نحن الآن أحوج إلى الأخلاق والفضائل منا إلى الماديات، يظن أقوام أن الشرقيين في هذا الحين عاكفون على الفضائل عالمون بها أكثر من الماديات، ولكن المتأمل يعلم العكس، تقهقرنا في الفضائل أشد من تقهقرنا في المادة. المادة

ثمرة العمل والأعمال باتحاد العمال، ولا اتحاد بلا أخلاق، كم دارس قشور العلم جاهل بحقائقها عاجز عن نشرها، ينتبذ من بيته مكانًا قصيًّا(١)، ويأخذ في سباب من يعلوه فضلاً بغيًا وحسدًا، أولئك الذين قال فيهم ابن حزم ما نصه:

«من بديع ما يقع في الحسد قول الحاسد إذا سمع إنسانًا يغرب في علم: ما هذا؟ شيء بارد لم يتقدم إليه ولا قاله قبله أحد! فإن سمع من يبين ما قد قاله غيره قال: هذا بارد وقد قيل قبله. وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود في طريق العلم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال». هذا ما قاله ابن حزم القرطبي المتوفى سنة ٤٥٦ من الهجرة، يصف أولئك الأقوام الذين لا تخلو منهم أمة لاسيما في بلادنا وقد طفحت(٢) بهم.

يا قوم، قلّ العاملون في بلادنا وإن كثر المتعلمون، ألا فلتكونوا لهم أعوانًا لا أعداء، يقول في الحديث: «كن عالمًا، أو متعلمًا، أو محبًّا، أو مستمعًا، ولا تكن الخامسة فتهلك».

لا تخاطب بهذا من رسخت فيهم الرذيلة وصارت مَلَكَة ثابتة، فأولئك كالذباب والحيات والعقارب، تأوي إلى الأماكن العفنة فتلتقط القمامات الحاملة للصعو (المكروبات) فتكون أغذيتها من خبائث المواد فتتولد سمًّا قاتلاً، حتى إذا

(١) قصيًّا: بعيدًا. (م).
(٢) طفحت: امتلأت حتى فاضت. (م).

اقترب من أمكنتها أحد لدغته فأوبقته[١] وأهلكته، وترى الذباب لا يغتذي إلا من الأقذار ولا يعلو الوجوه إلا ليستخلص منها لنفسه ما خبث من بقايا المواد العفنة.

والجِعْلان[٢] إذا اشتمت ريح الورد استضرَّت، ولا تألف إلا ما عشقته طباعها، وما أحبته نفوسها من الخبائث والأقذار.

الأغذية تنقسم إلى قسمين: طعام للأجسام وعلوم ومعارف للأرواح، والطعام الخبيث لأخبث الحشرات وأدنى الحيوان، والغذاء الجيد لأعلاها نوعًا وأشرفها وأرقاها.

هكذا الأغذية العقلية أعمدة من النور وأُخَر من الظلمات، فذوو الحكمة والأدب تغتذي أرواحهم بأجمل المعاني وصور العلوم البديعة فتشغلها عن السفاسف والرذائل، لا شيء في الوجود معطل، الدنيا دار شغل ونَصَب[٣]، فهؤلاء ملئوا عقولهم بما جمل من الآراء وحلوها بحلي الأخلاق وحلت في نفوسهم صور الفضائل محل صور الرذائل فازدانت وابتهجت، وآخرون خلوا من الفضائل فحسدوا الفريق الأول فاستحبوا العمى على الهدى فقطعوا أوقاتهم بذم الأولين فأشبهوا الحيات والعقارب تمتص العفونات وتأكل المكروبات وتلدغ

(١) أوبقته: أهلكته. (م).
(٢) الجِعلان: جمع «الجُعَل»: دويْبّة سوداء من دواب الأرض كالخنفساء. (م).
(٣) نَصَب: تعب وإعياء. (م).

من دنا من الأَمْكِنَة الخربة رحمة بالعالمين. الأماكن الخربة عمرت بالمكروبات والأكاسيد والهواء الفاسد، فالمقترب منها أدنى إلى الأمراض من قاب قوسين[١]، فكانت تلك العقارب نذيرًا مبينًا فتعرضت للدغ المقتربين من تلك الأمكنة وصورت لهم صورة الأمراض من ملاقاة المكروبات وصورة السم المقذوف في الملدوغين.

هكذا حملة الأقلام وأهل العلم قد يغفلون عن الفضيلة في أقوالهم وأفعالهم، فنصب هؤلاء أنفسهم لالتقاط الأقذار اللاصقة بأخلاقهم، ثم يزيدون إثمًا وفِرْية[٢] ويقعدون لهم في كل مرصد ويناصبونهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارًا لحربهم أطفأها الله بظهور فضائلهم ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين.

فريق الجهال لا يختص بالأميين بل هم أقرب للفطرة وأدنى للسلامة.

فريق الجهال هم أولئك الذين سابقوا إلى الفضائل فسبقتهم فذموا ساداتهم، فكان ذلك نارًا في قلوبهم ونورًا لأعدائهم.

عِـدَايَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ ... فلا أَبْعَدَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الأَعَادِيَا
هُمُ بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِي فاجْتَنَبْتُهَا ... وهُمْ نافَسُونِي فاجْتَنَيْتُ المَعَالِيَا

(١) قاب قوسين: قَدْر ما بين المقبض وطرف القوس (كناية عن القرب). (م).
(٢) فرية: كذب. (م).

يزيدون في ذمهم فيأخذون الأنظار، ويوقظون لهم العقول فينتشر فضلهم ويبعد صيتهم، يختلقون لهم الأكاذيب، ويفترون عليهم رحمة بهم لتكون تلك المسابّ أشبه بحصن حصين لأولئك الفضلاء، وهداية لهم وإنذارًا فيما عساه يقع منهم في مستقبل أمرهم، أولئك زنابير الأمم، وذباب الأجيال، وجعلان الرجال، خلقوا في نوع الإنسان أشبه بمن يكسحون المراحيض ويكنسون الطرقات.

نفوسهم تطالبهم بأغذية رُوحانية لأنها عاطلة فلا يستجيدون إلا ما خبث من لحوم ساداتهم ساء مثلاً القوم الغافلون، وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب – بالكسر – لتحسبوه من الكتاب – بضم الكاف – وما هو من الكتاب، إن هو إلا رجل نبذه العلم فانتبذ مكانًا قصيًّا، ومنهم أُمِّيُّون لا يعلمون القول إلا تقليدًا وأمانيَّ، ومنهم قوم استكبروا وقالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا وما بلغه علمنا، وكذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وكبروا أن يتعلموا فصغروا عن الرقي وقصروا عن العلا.

والمستكبرون يجاوزهم العلم، وإن قرءوا قشوره ودرسوا قواعد اللغات، وما اللغات إلا وسائل الفهم، منزلتها من العلوم منزلة الرسول من الكتاب، فكيف بقواعدها وبلاغتها وصرفها؟ فهؤلاء عن الفهم معزولون ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف / ١٤٦].

وليس من هؤلاء فريق المصلحين الذين ينتشلون[١] إخوانهم من وهداتهم[٢] إلى الاتحاد، ويسقونهم بماء الحكمة ليتّسِمُوا بالفضيلة، فتتمازج أرواحهم وتتعاشق شمائلهم، ويكثر فرحهم بكثرة أشباههم وأمثالهم، فتتزاوج عقولهم تزاوج أصوات الموسيقار في موسيقاه، تزداد إطرابًا كلما تناسبت كيفياتها وتكاثرت كمياتها، ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين، اهـ.

(١) ينتشلون: يختطفون بسرعة. (م).
(٢) وهداتهم: جمع «وَهْدة»، وهي المكان المنخفض أو الحفرة. (م).

الفصل السابع
الرسالة القازانية

وهي عبارة عن إجابة سؤال وجَّهَه إليه أحد شبان القازان يقول: أَبَلَغَ علماء الإسلام المتقدمين النهاية فلا نفكر نحن بعدهم، أم بقي لنا مجال للتفكير في أمر الدين؟ وهذا الجواب نشر في ثلاث مقالات تنشيطًا للقراء وتسهيلاً للفهم.

أيها العزيز، سألتني عن مبلغ ما وصل إليه علماؤنا السابقون، وهل شادوا صروح المدنية، ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد إليهم من القيام بما يكفل للأمة ثباتها ودوامها ويكلأ غُدُوَّها ورواحها، سألت من أحسنت به ظنًّا، ومن لي بأن أكون ذلك الحبر[1] الخبير العالم بأسرارهم المحيط بعلومهم المُطَّلع على جَلِيَّاتهم وخَفِيَّاتهم، وما كان لي أن أقف حكمًا في موقف عظيم مهيب طأطأت لعظمته رؤوس الرؤوس وخضعت لجلالته أكابر حكماء الشرق وأساطين الحكمة في الغرب، قوم يقول فيهم سديو الفرنسي في كتابه: «إن هؤلاء الأطباء العظام والفلاسفة الكبار والمهندسين الأجلاء والعلماء الأعلام في قارة أوربا، إنما هم تلاميذ علماء الأندلس المسلمين»، وبرهن على ذلك بآيات بَيِّنات وحجج واضحات جليات،

(١) الحبر: العالم الصالح. (م).

قسم كتابه أبوابًا وأبان فيه أن كثيرًا من مخترعات الأوربيين واكتشاف المكتشفين كانت قبسات من أنوارهم ونفحات من أسرارهم عثر عليها الباحثون في كتبهم فنَقَّبوا عن أسرارها وعرفوا سرها ثم ترجموها فأحرقوها وأسندوا الاكتشافات إلى أنفسهم، ولقد فصل ذلك تفصيلاً في الفلك والطبيعة والكيمياء، وذكر أسماء أناس غربيين في نحو القرن الرابع عشر ادَّعَوْا اكتشاف عجائب من الفلك، فدحض حججهم بأنه إذ ذاك لم تكن صروحٌ للرصد قائمات، ولا بروج لبلوغ أسباب السماء مبنيات في عواصم الشرق.

أناس كانوا نور الله للناس فازدانت بهم الدنيا وأشرقت بهم الأرض، فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية.

هذه مسألة دوران الأرض حول الشمس تجدها مسطورة في كتاب المواقف، وقد وضحها الشارح هناك أَيَّما إيضاح وذكر الخلاف القائم بين المذهب القديم، وهو دوران الأرض المعلوم قبل أربعة آلاف سنة، وبين المذهب الحديث، وهو ثبوتها في المركز، ودوران الشمس حولها، وهو مذهب بطليموس قبل الميلاد.

أليس الناس أصبحوا يقولون إن دوران الشمس هو المذهب الجديد، وينسبونه إلى كوبر نيكوس العالم الأوربي الحديث المولود بعد تأليف المواقف، بل بعد شرحه بمائة سنة؟

أليست أوربا تفتخر علينا بمثل هذا، وتقول هي مذاهبنا الحديثة، وهي مسطورة في كتب المسلمين تقرضها الفأرة تحت جدران الأزهر ودور كتب الإسلام؟

جاء عالم من علماء أوربا في عصرنا، وسار في البلاد شرقًا وغربًا يدعي اختراع الكتابة بالفضة على الزجاج، وأعطته الحكومة المصرية قدرًا عظيمًا من المال، فقام ذلك اليوم حكيم من حكمائنا، وأرانا رجلاً لا يُؤْبَهُ له[١] يصنعها بالميراث عن الأساتذة المصريين في هذا الفن.

عثر علي مبارك باشا على كتاب في رسم المنحنيات، فاستعجم عليه واستغلقت معضلاته عليه، فلم يوفق لفتح كنوزه، ولم يهتد لحل طلاسمه، وأشكل أمرها عليه، فاستعاره منه عالم فرنسي فغاب عشر سنين، وأرسل كتابًا في رسم المنحنيات ضخمًا مفصلاً تفصيلاً، ونسب الاختراع إلى نفسه فعضّ الباشا على يديه، وسُقِطَ في يده، وقال: «يا حسرتا على ما فَرَّط الشرقيون».

منذ شهر قابلني أستاذ من أَجِلاَّء علماء الإنكليز المستشرقين، فأخبرني أن عالمًا ألمانيًا طار صيته في الآفاق بالفلسفة، أقبل عليه الغربيون أيما إقبال، وأهم أبحاثه التفريق بين المحسوسات والمعقولات، ثم قال: «ولقد عثرت على أبحاثه في الفصوص لابن العربي، وسأترجمها باللغة الإنكليزية؛ ليطلع علماء أوربا على

(١) لا يؤبه له: لا يحتفل به لحقارته. (م).

أَلْوِيَة[١] العلم التي كانت منشورة على ربوع الشرق قبل يوم تنفس صبحه على أوربا في ليلها الأليل[٢] وضلالها القديم».

لعلك تعني بالسؤال علماء الدين كالأئمة الأربعة - رضوان الله عليهم - فمن بعدهم أولئك كانوا مصابيح الدُّجَى وأنوار البصائر وشموس الحق في آفاق الشرق.

وما تقول في قوم يستخرجون علوم العبادات، والحيض والنفاس والطهارة والنجاسة والحج والصيام والزكاة والقضايا والدعاوى والميراث وأحكام الزواج والطلاق والصيد والذبائح والبيع والهبة والوقف والإجارة[٣] والعارية[٤] واللقْطة[٥] وغيرها من مئات من الأحاديث معدودة، وآيات من القرآن محدودة لا تبلغ المائتين.

وها هو الشافعي رضي الله عنه استخرج دليلاً من أدلة الفقه الأربعة وهو القياس (كقياس النبيذ على الخمر في التحريم) من آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر/ ٢]، وهي واردة في تحذير قوم الكفار وإخافتهم من ظبات الهند والمثقفات السمر وخزًا وطعنًا فيحل بهم البوار إذا حَمِي وَطِيس الحرب بينهم وبين المسلمين، بعد أن أذاقوا أمثالهم عذاب الخزي في يوم بدر

(١) ألوية: جمع «لِوَاء»، وهو العلم والمقصود حواضر العالم الإسلامي كبغداد والقاهرة. (م).
(٢) ليل أليل: طويل شديد، وهو أشد ليالي الشهر ظلمة. (م).
(٣) الإجارة: مبادلة مال في مقابل المنفعة. (م).
(٤) العارية: عقد مفاده الانتفاع من العين على بقائها بلا عوض. (م).
(٥) اللقْطة: الشيء الذي تجده ملقى فتأخذه. (م).

وسقوهم كأس الموت الزؤام وأصلوهم نارًا حامية على قليب بدر، عجب عجاب يقتبس الشافعي من آية في تحذير من حرب أقيسة فقهية لا نهاية لها يحكمها في أحوال المسلمين عامَّتهم وخاصَّتهم. هذا المثال الصغير سيريك بأجلى بيان وأوضحه ما كان لهؤلاء العظماء من توقد الذهن والحرية والإقدام، وكبر العقل، وبُعْد الهِمَّة، أولئك استفرغوا مجهودهم في ضروريات الحياة، ورتبوا أحكامها بما يطابق أحوال أزمنتهم وأمكنتهم فأحسنوا صنعًا وأحكموا وضعًا.

أيها العزيز، اقرأ رسالة الشافعي رضي الله عنه تجده يقول: «ما فرض الله على المسلمين في الفقه أكثر مما يعرفه العامة جيلاً عن جيل وطبقة عن طبقة وجماعة عن جماعة إلى زمن النبوة. فأما ما زاد عليه فهو فرض كفاية يعرفه رجال من الأمة؛ بحيث يستطيعون كفاية الأمة وشمولها، وإلا عذبها الله مرتين وأصلاها نارين: ذل الحياة وسعير الممات». ولم يفرق - رحمه الله - بين التبحر في الفقه الإسلامي وفي غيره من علوم الحياة من جميع الصناعات كالطب والهندسة وما نحتاج إليه في حياتنا.

أيها العزيز، تنحصر أعمال أولئك الأئمة العظام في أمرين: خاص وعام. فأما الخاص، فذلك تفصيل فروع الفقه إذ لم يقم غيرهم مقامهم، وهي أمور ضرورية كفصل الخصومات والدعاوى والميراث والعبادات.

وأما العام، فإنهم قالوا إن عامة العلوم والصناعات التي يحتاج إليها الناس في حياتهم الدنيا فروض كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم وأسعدهم استعدادهم لحملها، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره، ففكت العقول من عُقُلها، ونهضت الأمة من مرقدها، وانتشرت الحرارة الحيوية، وأشرقت شموس العلم على ربوع البلاد، فظهر فيهم أمثال المنصور والرشيد والمأمون، وترجموا الكتب اليونانية إلى العربية، وقامت الحركة الفكرية، وساروا شوطًا بعيدًا في ميدان الحياة والسعادة.

طويت تلك القرون كطي السِّجِلّ للكتاب، وحصر علماء الدين هَمَّهم في فروع الفقه وحدها، وقصروا هممهم على القضايا الفقهية، وجالوا فيها جولات، وحمي بينهم وَطِيس الجدال في ميدان الخلاف، وتسابقوا لأصولها وفروعها، ولم يعيروا غيرها التفاتة، بل زادوا الطين بِلّة، ووضعوا ضِغْثًا[1] على إبالة؛ إذ ذَمُّوا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة.

وقد علمت أنهم نظراؤهم في قيامهم بركن من أركان الحياة وسعيهم معهم إلى رقي الأمة وسعادتها.

ولقد حملهم على ذلك أمران؛ الأول: أنهم رأوا الأئمة العظام – رضوان الله عليهم – هم الذين دَوَّنوا هذه الأحكام باجتهادهم، ولم يفطنوا أنهم أوجبوا

(١) ضغثًا: ما جمع وقبض عليه دفعة واحدة من عيدان أو عشب، ووضعوا ضِغْثًا على إبالة: مثل يراد به تراكم المصائب والمشكلات. (م).

العلوم على السواء، ولم يفرقوا في الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه، وقيامهم به وحدهم لأنه أهم فتقديمه مُحَتَّم، وتركوا النظر في العلوم الأخرى لسواهم. الثاني: أنهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استطالة على الأقران، ولا تولي الإدارات القضائية والأحكام السلطانية نبذوها، بل ذَمُّوا القائمين بها؛ فانقسم الناس إذ ذاك فريقين، فريق للعلوم وفريق للدين.

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالي[١]، ورأوا أن السلف الصالح خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا العلوم وانكبُّوا على فروع الفقه وصرفوا كثيرًا من الناس عن علوم الحياة والعمران والطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة، وتعلموا أن الدين يطلبها كالفقه سواء فأخذوا يحملون الناس على قراءتها وعدُّوها علومًا دينية.

ألف الغزالي كتابًا سماه (إحياء علوم الدين) ومزج الفقه كالحلال والحرام بعجائب الحكمة الإلهية كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وعجائبها ونواميس الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس.

ولقد شرح في كتاب الشكر من الإحياء أنواع السعادات، وجعلها ١٦ قسمًا، وأدخل فيها العلوم أجمع، وترى الغزالي أتى بعجب عجاب في حكمه،

---

(١) الامام أبو حامد الغزالي. (م).

فتارة تراه يذم الفلاسفة ويكفرهم وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالقصور والجهل، ثم أشار في كثير من كتبه إلى أنهم من العامة هم ورجال علم التوحيد.

ولقد فكرت في ذلك كثيرًا، ففهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم بما أوحى إليهم أولئك العلماء القاصرون، فأنحى على الفلاسفة في تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة، ولكن في نحو ثلاث مسائل لا غير، ثم رجع إلى أولئك العلماء القاصرين فأوسعهم ذمًّا وتقريعًا[١] ليطلق الناس من أسرهم ويفك قيود تقليدهم.

ولما أعلن ذلك عمد إلى مسائل الفلسفة فوضعها في قوالب إسلامية فتراه ذكر في باب الشكر نواميس كثيرة، وفي باب الفكر عجائب الصفة الإلهية.

وتراه اقتبس أقيسة المنطق الأربعة في كتاب القسطاس من القرآن استئناسًا لقلوب عامة المسلمين؛ لحوز هذه العلوم وإخراجًا لهم من حظيرة الجمود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فحرموا المسلمين العلوم العقلية والحكمة واتبعه ابن رشد وناقشه في بعض القول، وأوضح في كتابه في التوحيد ما يجب على علماء الإسلام من معرفة العلوم الكونية، وأنحى على الجامدين الجاهلين، وأناخ بكلكله على طريقة تعليم التوحيد، وأشار إلى من بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ويجِدُّوا في اكتسابها ومعرفة أسرارها والتشمير في

(١) تقريعًا: تعنيفًا. (م).

طلابها، ثم خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِ خَلْفٌ رأوا وعورة الطريق وبعد الشُّقَّة فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا في أعين أتباعهم، فحكموا بكفر أولئك المرشدين، وصارت تلك سُنَّة في الغابرين كلما جاءهم عالم بما لا تهوى أنفسهم من الجمود والجهل استكبروا عليه سترًا لجهلهم وحفظًا لمراكزهم وصونًا لمقاماتهم أن تسام بسوء، ففريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون. ولئن سألتهم لم نبذتم هذه العلوم؟ قالوا قلوبنا غُلْف[1] وفي آذاننا وَقْر.

ولعمرك إذا كفر الرازي وابن رشد والغزالي وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رؤوس الماضين والغابرين من العلماء، فليس على وجه البسيطة مؤمن.

ومن العجيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكرهم، وإذا قلت لهم: هؤلاء دوَّنوا العلوم التي يقرؤها صغار التلاميذ في المدارس، وأهل أوربا يدرسون علومهم في مدارسهم يُنْغِضُون[2] إليك رؤوسهم، ويقولون: ما لنا ولهذا؟ إننا نقرأ الوجيز والبسيط للغزالي وما عداه فليس من الدين في شيء.

وبينما نرى هؤلاء يبغضون العلماء من وجه، نرى زعانف الصوفية لا أكابرهم يمرحون في الأرض بغير الحق ويقولون: العلم حجاب بينك وبين الله، فاجعل صورة شيخك في خيالك والله من ورائها، وإياك والعلوم. يقولون ذلك لئلا يستضيء الناس بأنوار المعارف، فيفتضح أمر هؤلاء الدَّجَّالين وينبذوهم نبذ

(١) غلف: لم تعِ الرشد، كأن على قلوبهم غلافًا. (م).
(٢) ينغضون: يحَرِّكون. (م).

النواة، فأرسل الله طائفة أخرى ظالمة غشتهم بغاشية من عذاب الظلم فأرهقت الأمة واستعبدتها وأخذت تلقب بالعلماء وتقرب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات كهربائية تحرك بهم صورًا من الرجال وأشباحًا من الجهال في مسارح الحياة وتمثل بهم فصولاً في الحياة والسياسة، فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت الأمم الإسلامية أَجِنَّة في الدهر خلقًا من بعد[1] خلق في ظلمات ثلاث سلط عليهم سيولاً جارفة وصواعق محرقة من أمم الإفرنجة فأذلوهم واستعبدوهم ومزقوهم كل مُمَزَّق وتفرقوا أَيْدِي سَبأ.

(١) لفظ (بعد): إضافة من طبعة مطبعة اللواء (١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨م). (م).



الفصل الثامن
أضاع الإسلام ملك ظالم، وصوفي طامع، وفقيه جاهل..إلخ

أيها العزيز، إذا اختصرنا نقول: أضاع الإسلام ملك ظالم وصوفي طامع وفقيه جاهل، اتَّحدوا على جهالة الأمة؛ لينالوا حظ الرياسة.

أَمَا وربك لو أنهم رجعوا إلى القرآن لرأوه سَوَّى بين العلوم على تباين مشاربها. ليس الفقه تلك الفروع المدونة: ألا إنما الفقه هو الفهم، فليس مختصًّا بنحو فروع الحيض التي قد تبلغ أربعة آلاف.

أليس القائل في الحيض: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٢٢]، هو بذاته الذي أنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام/ ٩٥]؟ نعم هو الذي لم ينزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبي ﷺ، وأنزل ناموس النبات وعجائبه بدون سؤال، أليس ذلك برهانًا قويًّا وحجة لامعة على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على

الأمة من تلك الفروع الفقهية التي يشيب الدهر ولا يسأل عنها سائل؟ لا، بل أصبحت كأنها عبادة يتعبد بها الناس، وهم لا يعلمون ما بها يصنعون.

لَمْ يُجِب عن الخمر والقمار إلا بعد السؤال، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة/ ٢١٩].

ولكنه أنزل بيان عجائب الليل وبدائع الصبح وإشراق الآفاق، وبين بديعة من العجائب بلا سؤال، فقال: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام/ ٩٦].

وهو الذي لم يجبهم عن معاملة اليتامى -وهي أحرى بالعناية من غيرها- إلا بعد السؤال، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة/ ٢٢٠]، مع أنه هو الذي أنزل بلا سؤال بيان عجائب النجوم، وعجائب تكوين الأَجِنَّة في بطون أمهاتها وأركام السحاب، وأنه به ابتهجت الأرض، وأنبتت من كل زوج بهيج، عجيب الإتقان، بديع الحكم مُفَصَّل تفصيلاً عجبًا، ولم يكفه البيان حتى أمر بالنظر في الثمر ونضجه والنبات وبدائعه، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا

قِنْوَانٌ[(١)] دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ[(٢)] إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام / ٩٧ – ٩٩].

فتراه ذكر النجوم وهديها، والنفوس البشرية وخلقها، والسحاب وأمطارها، والنبات وبهجتها، والأثمار وأنواعها، والنخيل وقِنْوَانَها، والأعناب وجناتها، والزيتون والرُّمَّان، وتشاكل أوراقها، وتباين أثمارها، وأمرنا بالنظر في الأثمار ونضجها.

وجعل معرفة هذه خاصة بالعلماء والفقهاء والمؤمنين، أنزل الله ذلك وقرأه النبي بلا سؤال من أحد، وما ذلك إلا لأن هذا من علوم الدين وإن نبذه من لا يعلمون.

وهل الذي يقول في الكتاب: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ [فاطر / ٢٧ – ٢٨] يذكر الماء والثمرات والجبال وألوانها الحمر القانيات، والبيض اليَقَقات[(٣)]، والسود المُدْلَهِمَّات[(٤)]، وهكذا الدوابّ والأنعام، ثم يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر / ٢٨]. أنزل هذا بلا سؤال من أحد، وجعل أولئك

(١) القنوان: العِذْق بما فيه من الرُّطب، وهو من النخل كالعنقود من العنب. (م).
(٢) ينعه: وقت قطافه. (م).
(٣) اليَقَقَات: شديدة البياض. (م).
(٤) المدلهمات: كثيفة السواد. (م).

المفكرين في هذا هم العلماء، وحصر الخشية فيهم، من ذا الذي يرى هذا ثم يشك في أن الذين يعلمون هذه العلوم أعز مقامًا وأرفع جاهًا وأعظم قربًا عند الله ممن أضاع العمر في مسائل الخنثى المشكل، ودقائق الحيض والنفاس، ومسألة الخُفَّيْن وغرائب النجاسة؟

أيها العزيز، أليس الذي أعلمَنَا أن الوالد ينفق على زوجته مما آتاه الله حولين كاملين إذا أراد إتمام مدة إرضاع طفله بقوله: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾ [البقرة/ ٢٣٣] أليس هو نفسه الذي أبان أن السماوات رفعت على الأثير الذي لا نراه؟ وأنه أدار الكواكب والشمس والقمر، وفصَّل هذا العالم تفصيلاً عجيبًا ودبَّره تدبيرًا محكمًا، ففصل السماوات عن الأرض فمَدَّها ودَحَاها[1] وثبت فيها الجبال، وأجرى الأنهار، ونوَّع الثمرات، ففصلها ذكرانًا وإناثًا، وألقحها بالمُلقحات من الهواء والحشرات، وجعل في الأرض مناطق مختلفات متجاورات، وحقولاً مختلفات، وزرعًا ونخيلاً تنوعت أثمارها وألوانها وطعومها وروائحها مع اتحاد الماء والهواء، أبان ذلك كله في قوله: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(١) دحاها: بسطها. (م).

وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ[1] وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد/ ٢ - ٤].

هو الذي أبان إلقاح النبات جليًّا واضحًا في قوله: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات/ ٤٩]، وقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد/ ٣]، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر/ ٢٢].

أيها العزيز، إني أخالك تسألني عن أحكام الدين: من الطلاق والخلع والنفقة والعدة، وما شاكل ذلك مما قد يتخذه بعض العلماء حرفة يحترفونها، إني أنبئك عن ذلك.

أنبئ الشبان أن قومًا من العلماء يستمسكون بمذهب من المذاهب أو رأي عالم من العلماء، ولو أرهقوا الناس عذابًا وحرجًا وضيقًا وأصلوهم نارًا حامية. ترى بعض الفقهاء ينظر بعينه المرأة وقد انتبذ منها الزوج مكانًا قَصِيًّا وتركها، لا هو يطعمها ولا هو يدعها تأكل من أرض الله وتتزوج من يَعُولُها، ويرى كثيرًا من الأزواج يذرونهن يخبطن في دياجير[2] الحياة ليتكففن الناس يسألنهم القوت إلحافًا ويثبتون الأعسار عند ذلك القاضي، ثم لا يطلق عليه، فيقال له: وهَلاَّ اتخذت معها سبيلاً وسلكت بها فَجًّا غير هذا المذهب؟ يجيبك هذا قول

(١) صِنوان: جمع «صِنْو»، وهو فسيلة متفرعة مع غيرها من أصل شجرة واحدة. (م).
(٢) الدياجير: جمع «الديجور»، وهو الظلام. (م).

أبي حنيفة النعمان، وهو مذهب السلطان. فإن قيل له: وهلا قلدت السلطان وقد سلك برعيته أحسن مسلك، واتبع أبعد المذاهب وأندرها وأغربها تسهيلاً على الناس، فلم يزجّ بنفسه في ضيق مذهب واحد من الأربعة، بل جاوز ذلك وقلد سواها؟ أفلا يسعك ما وسع خليفة المسلمين، فيقول لك: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة/ ١٠٤] كان لا يتجاوز ذلك ويذر النساء يسرقن ويزنين ويقتلن أولادهن تحت أذقان الأمة استهزاءً بها واستخفافًا بحقها عمدًا ليحصل على منصب في يديه ولا يشرك معه في الحكم شافعيًّا أو مالكيًّا ويكون أهون عليه أن يكون الحكم بقانون الرومان أو آراء نابليون؟

فأما مذاهب الإسلام فلن يجيزها طمعًا وشرهًا واستكبارًا، حرام عليكم أن تصمتوا على هذا العار، إن هي إلا غفلة، وأيّ غفلة؟ هذا الخلق ورثه القوم كابرًا عن كابر، جيلاً عن جيل.

أيها العزيز، أيرضي ذلك الذي أنزل في الكتاب ناموس الترقي في الحياة وضرب له الأمثال، فجعله كالزبد يعلو الماء إذا سقى الأرض وأغرقها؟ وهكذا زبد آخر يطفو على ما يطبخه الناس في قدورهم وما يعلو المعادن عند تذويبها ثم تطبخ تلك الأزباد والرغوات التي أشبهها الباطل ويبقى ما يصلح الناس من ماء تنمو به الزروع، وطبيخ تسمن به الأبدان، وجواهر وحلي وصناعات كيماوية تتحلى بها الصدور والرؤوس، وتصلح بها أحوال الحياة.

هكذا ضرب مثل الحق والباطل في قوله: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد/ ١٧]، ألم يقل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر/ ١٧ – ١٨]؟

هذا ناموس الرقي في هذه الحياة الذي افتخر به علينا الإفرنج، وهو في كتابنا ونحن عنه غافلون، وربما تَغَنَّى به المتغنون في القرآن، ثم إذا أيقظتهم إلى العمل به والسير على موجبه تولَّوا وأعرضوا، وقالوا: حسبنا ما نحن عليه، وهل الله الذي يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة/ ٢٨٦]، يكلف الناس أن يخضعوا لعالم يرهقهم ذلة ويغشاهم بشواظ من نار ونحاس من جهل، فإذا غضب قال: «أيها الثقلان لا تنتصرا».

أيها العزيز، قل للشبان ارفعوا رؤوسكم، أقيموا وجوهكم، لا تطيعوهم واهتدوا أنتم، واسألوا رجال أمتكم إصلاحًا، اسألوا أهل الذكر وذوي الحل والعقد من الأمة أن يباشروا وجوه الإصلاح، ويذروا أوجه الإضرار، ويسنوا سننًا تكفل للناس العدل وتشملهم بالرحمة، ويطبقوها على آراء توافقها من آراء المسلمين أيًّا كانوا من المذاهب الأربعة أو غيرهم، يفعلون هذا ما دامت الأمة في

سكرتها، وما فتئت في جهالتها فإنهم يخلدون إلى آراء القدماء، يطمئنون لما أوصى به العظماء.

فأما إذا استناروا بعد هذا الجيل فلتكن آراء رجال الأمة وعظمائها وحكمائها الموافقة للكتاب والسنة، هي الآراء الإجماعية، ويكون حجتهم جديدة «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، ولا يظن أن ما ارتآه ملايين من علماء الأمة في ألف وثلثمائة سنة لا يسع الناس في دينهم ودنياهم، كلا، فلقد ساسوا الناس بآراء وأحكام لها علائق بالزمان والمكان والكتاب، ولا يقفنكم عن الرقي أولئك الجامدون الذين يطببون الناس أجمعين بدواء واحد ويطعمونهم جميعًا طعامًا واحدًا.

أيها العزيز، إن المستقبل للشبيبة، فلا تَتَّكلوا إلا على أنفسكم ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام/ ١٥١]، ألا تذروا الإصلاح اتباعًا لفقيه متعصب، ولا تكونوا للطب تاركين، وللهندسة ناسين، وعن العلوم الكونية معرضين، ولا تكونوا عيالاً على الأمم الغربية، بل اسعوا سعيهم واقرءوا علومهم وسيروا معهم بسلام ووفاق، وتذكروا قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة/ ٨٢].

أيها العزيز، لئن جاءكم فاسق بنبأ الخذلان والجهل فتبينوا خبره ولا يصدنكم عن سبيل الله فقيه متعصب، فإنما التعصب لقوته لا للإسلام، ولا

يجرمنكم شنآن الصوفية للعلوم وبغضهم للمعارف، ولا يرهقنكم الأمراء بالجهل، ابتغوا الوسيلة للمعالي بالعلوم، ولئن اتبعتم أكثر من في الأرض ليضلنكم عن سبيل العلا والشرف ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام/ ١١٦].

ابغضوا كل رئيس لا يعين على العلوم، وأحبوا كل أمير وعالم وصوفي يحثكم على مجاراة الغربيين.

أيها العزيز، إنا لنرجو منكم فوق ما سطرناه، نرجو أن تكونوا قدوة الأمم أجمعين فما بالنا أصبحنا أذنابًا عاجزين، وفي أخريات الأمم قاصرين، وفي فيافي الجهالات تائهين، وعن سبيل الإصلاح معرضين.



الفصل التاسع
في الحث على استعمال ما عملته أيدينا

أيها العزيز، ليكن كل قَدُوم ومنشار وإبرة وبخار وحرارة وكهرباء مما عملت أيدينا، ومتى أعوزتنا الأيام إلى إبرة أو مدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين نعذب به مرتين مرة في الحياة وأخرى في الممات.

أليس الذي قال في الكتاب: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ[1] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج/ ٢٧]، هو الذي يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم/ ٤٢]، فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخرابها وسياساتها، كما أوجب الحج في ميقاته على المستطيع؟

أتدري لماذا ترك الناس الأول وأدوا الثاني؟ لأن الحج سهل معروف. أما السير في الأرض فما أحوجه إلى اللغات وفهمها، والأموال وصرفها، والعلوم وجمعها وذلك أصعب الأمور وأشق على الجمهور، فاستحب الناس العمى على

---

(١) ضامر: جمل أو ناقة قليلة اللحم. (م).

الهدى، والراحة مع الذلة، وذل الاستعباد مع التخلف، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون.

طمس على قلوب كثير، فاتبعوا أهواءهم، وصدوا الناس عن سبيل الإصلاح، صرح بهذا الكتاب، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج/ ٤٦].

وفي هذه الآية من التقريع والذم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن السير في الأرض ما يدلك على ما ذكرناه.

وتراه لم يكتف بذلك التوبيخ بالعمى بل صرح بأن إيمانهم معدوم، فقال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس/ ١٠١]، ثم هدد بالعذاب في الدنيا، فقال: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾[يونس/ ١٠٢]، وقد أكد ذلك الإنذار والتهديد بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام/ ٦٥]. نعم ذاق المسلمون أنهم تفرقوا شيعًا، وتمزقوا طرائق، وتفرقوا خرائق، واقتتلوا أجيالاً طوالاً، وهو قوله: ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ

بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ ﴾ وسلط عليهم أخس المماليك وأحقر الصعاليك، فأذلُّوا ملوك العباسيين والدول الإسلامية كالمماليك البرية والبحرية.

وهل ينظر المسلمون اليوم إلا إنذار العذاب من السماء الذي نص عليه بقوله: ﴿أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾؟ وتراه أشد وضوحًا، وذكر مشروحًا في قوله عَزَّلَّ: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ [1] بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا [2] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سبأ/ ٩]، وفي وقوله ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾ [الطور/ ٤٤].

أتدري ما ذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود؟ تلك المطاود (البالونات) الهوائية والأساطين الجوية، والمدافع المكسيمية، وتلك الآلات الجهنمية تعدها الآن الأمم الغربية، فإذا وقعت الواقعة، وانشقَّت المرائر[3]، وأمطرت السماء مطرًا من سِجِّين[4]، وتنزلت الصواعق على الغافلين، فعند ذلك لا ينفع نفسًا إيمانُها من المسلمين إلا الذين آمنوا ونظروا وعلموا وجاروا الغربيين، أولئك هم الناجون من ذلك العذاب الواقع ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ . مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴾ [الطور/ ٧-٨]، على أولئك المسلمين الذين لا ينظرون ولا يفكرون ولا يعتبرون بالأندلس وهلاكهم وخراب ديارهم وأهل أمريكة وعذابهم وفنائهم، فإلى متى أيها الناس أنتم ساهون؟

---

(١) نخسف بهم الأرض: نُغَيِّبهم في الأرض. (م).
(٢) كِسَفًا: قطعًا. (م).
(٣) المرائر: الجبال الطويلة الدقيقة المنعطفة في تداخلها. (م).
(٤) سجِّين: وادٍ في جهنم. (م).

أنذركم صيحة فاجعة وحروبًا واقعة، فإذا جاءت الطامَّة الكبرى وشاهدتم سحابًا مركومًا بالمدافع والجنود، وأرسلت الصواعق من البارود وزمجرت[١] الرعود، وأمطرت السماء حجارة وحديدًا ودمدمًا[٢] ورصاصًا، فأول واقع في العذاب هم الجاهلون، ولن ينجو من هولها إلا العالمون الذين يصلحون في الأرض وهم يعقلون، واتخذوا لهم حصونًا في الهواء، ولن يكون ذلك إلا إذا أُتقنت الصناعات، وقُرئت الرياضات، وفُهمت الطبيعيات، وعُلمت النواميس، ودُرست السياسات، وصرتم أمة كالأمم.

هذه نصيحة لكم فافقهوها وإياكم أن تضيعوها، فوالله إني لأعلم ذلك يقينًا، وكأني بالطيارات تجري في السماء كالسحاب والدول تصطدم في الهواء أساطيلها وتقتتل على بلاد الإسلام جيوشها، والمسلمون ينظرون ولا يتكلمون إلا من يعقلون منهم ويعملون، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتي ذلك اليوم المشئوم لعلكم تتخذون لكم مع القوم سبيلاً، وأنذرهم يوم تصطفُّ المراكب الهوائية وهي تقترب من السحاب، هناك تنزل الصواعق وتهطل الحجارة وشآبيب[٣] شآبيب تدكّ الصروح وتهشم البيوت وتدهور القصور، يوم تمور[٤] السماء مورًا بالجيوش الحربية، يوم تأتي السماء بدُخَان مُبِين يغشى الناس في الشرق والغرب، هذا عذاب أليم ربنا اكشف العذاب إنا مؤمنون.

---

(١) زمجرت: أحدثت صخبًا. (م).
(٢) دمدمًا: هلاكًا. (م).
(٣) شآبيب: جمع «شؤبوب»، وهو دفعة من المطر. (م).
(٤) تمور: تضطرب. (م).

أيها العزيز، أنذر المسلمين الصيحة العظمى والبطشة الكبرى ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك / ١٧].

هو ها ذا زمان الدخان يغشى الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التي تعدها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[يس / ٧]، ولا يعلمون تلك النواميس العجيبة المدهشة، تلك الصواعق تنزلت على الناس لتنتشلهم من مرابض جهلهم إعلاء عرش العلم والحكمة.

أنذر الله الناس وحذرهم ثم هو يعد لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل[١] حتى يكونوا كعصف مأكول[٢] ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر / ٣٦].

ولعل فريقًا يقولون: إنما وُعِدنا هذا يوم القيامة، ونحن الآن في الدنيا. نقول: على رِسْلِكم، فما من صورة في الآخرة والقيامة الكبرى إلا ولها أخت نظيرتها في الدنيا: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء / ٧٢]، ولئن سألتهم لِمَ تدهور المسلمون وارتطموا في وهدتهم وزلوا من حالق[٣]؟ ليقولن الفقهاء: إنهم عاصون مجرمون ليسوا على الصراط السوي. ولئن سألتهم

(١) سِجِّيل: حجر من طين محروق في نار جهنم. (م).
(٢) كعصف مأكول: كورق أُخذ ما فيه من الحب وبقي هو لا حب فيه. (م).
(٣) زلُّوا من حالق: هلكوا. (م).

عدوا المعاصي لأجابوك: هي الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وكلها رجس من عمل الشيطان، والغيبة والنميمة وهلم جرًّا.

يجيبونك بهذا الجواب الأبتر الناقص، ويذرون الذنوب الكبرى والمعاصي والموبقات العظمى وهي سحائب الجهل المركومة، تغشى عقولهم وتحجب النور عنهم وترسل عليهم غاشية من نار ودخان بجهل تلك التي يسمونها فروض كفايات.

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا.

رأوا بُعْدَ الشُّقَّة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته، فأعرضوا عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصي إلا أسهلها، وهي التروك. من ترك شيئًا فقد عاش بغيره، وما أسهل ترك الخمر والقمار والأصنام، الترك أمر سهل فأعرض عن الشيء يعرض عنك.

فأما العلوم فلن تُنال إلا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر، فكانت الكلفة فيها أشق، والعمل أصعب، والفكر فيها أدق، والحيلة لجلبها أغمض، والقيام عليها أدوم وأعظم؛ لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها. وقالوا للناس: ما أهلك المسلمين إلا تلك المعاصي المعلومة ونسوا حَظًّا مما ذكروا به من فروض الكفايات، ولم يذكروهم بنحو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ/ ٩].... الآية، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت/ ٥٣]، ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا

يأتهم تأويله كذلك ﴾ [يونس / ٣٩]، ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ [الأنعام / ١٤٨]، هكذا كان حتى قرعت القارعة وانشقت المرائر وأحيط بنا وأصبحنا مضغة الأفواه.

أيها العزيز، إليكم أُوَجِّه خطابي وأدعوكم للعلم والعمل، فقد بزغت شمس الإصلاح وبشرت بوادر الأمور بالإقبال، فالآمال بهذا الجيل معقودة، فأبشروا بالنجاح وتذكروا قوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد / ٧].



الفصل العاشر
البِدَع والضلالات
محادثة مُهِمَّة بين أستاذ وابنه الصغير

سأل الأستاذ ابنه: أي بني، لِمَ ارْتَعْتَ من الحجرة منفردًا، وهلعت من العزلة وخفت من الظلمة كما أخبرت بذلك؟ أي بُنَيّ، مِمَّ تخاف وماذا تحذر؟

الغلام: إني إنما أفرق من العفاريت، وأخاف من الجانّ وأهلع من أزيائها وأشكالها وصورها المزعجات في ظلمات الليل، أولئك يفتكون بالإنسان ويقتلون الرجال ويُهلكون الأطفال.

الأستاذ: أي بني، ما ذلك إلا خيال ووهم وضلال، الجن لا نراهم ولم يشأ الله أن يُسَلِّط علينا جنودًا لا قِبَل لنا بهم ولم نر وجوههم. الله أكرم أن يظهر للبشر ما يحصدهم حصدًا بلا رحمة ولا رأفة. إن هي إلا أساطير وخرافات العجائز والعاجزين.

الغلام: إذن كيف أسمع صوتًا يشبه صوتي، وأنا صاعد في درجات المنزل وسلالم الغرفات، أو منحدر في درجات أسفل الدار.

لعمري لقد سمعت عجبًا؛ ناديت أختي فسمعت صوتًا كصوتي، أليس ذلك فعل الجان ومناداة الشياطين وكلام العفاريت؟

الأستاذ: إنما ذلك الصدى.

الابن: لا أدري ما الصدى؟

الأستاذ: يا بني، إن الإنسان وما على الأرض جميعًا في بحر لُجِّيٍّ من الهواء والجميع فيه غارقون. نحن في الهواء كالسمك في ماء البحر منه تنفسنا وبه حياتنا، ألست تتنفس؟ قال: نعم.

الأستاذ: هذا النفس جزء من الهواء يدخل في أجسامنا، ومنه يكون الكلام، أتعرف تموّج الماء؟

الابن: نعم يا والدي، وإني لأذكر إذ سافرت إلى القرية، وأخذت أحرك الماء بيدي، وهو يصنع أمواجًا متتابعات مرسلات عُرْفًا(١) تقوى وتضعف على مقدار حركات يدي في الماء (هنا تذكر الأستاذ ما قاله العلاَّمة الفيلسوف سبنسر من أن ألاعيب الأطفال وإيقادهم النار ونحوها كلها اكتشاف للحقائق ونظر في الموجودات وتعلم من الطبيعة)، وتذكر قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم/ ٣٠].

---

(١) مرسلات عُرْفًا: مرسلات في تتابع. (م).

قال الأستاذ: أي بني، هكذا حركات اللسان وما حوله في الأفواه تحدث أمواجًا متتابعات متناسقات مرسلات في الهواء؛ فتصطكّ بالحيطان، وتصطدم بالأركان في الحجرات، وتلاقي أجزاء الغرفات والدهاليز[١]، وكل بيت قليل المنافذ فيشبه الصوت الحادث من ذلك التلاقي الصوت الأول، وهذا هو المعبر عنه بالصدى.

الغلام: يا أبتِ، إذن ما للناس لا يفتئون يذكرون العفاريت ولا يقولون كما نقول؟ إن صبيًّا من أبناء جيراننا خبرني أن عفريتين ذوي رأسين طالت أعناقهما واسودَّت شعورهما وأخاف منظرهما قد برزا في المنزل وفعلا الأعاجيب.

الأستاذ: هؤلاء يا بني هم الجهلاء الذين لم يثقفهم التعليم ولم تهذبهم التربية، أولئك يعيشون جاهلين أذلاَّء يهلعون من حشرات الأرض ويُهرعون من خَشَاشها[٢] ويفرُّون من الفأرة ويولُّون الأدبار من الأرانب.

وأنا ومثلي نعلمهم حتى يكونوا ذوي عقول لنخرجهم من الظلمات إلى النور، ونبعثهم من أجداث الجاهلين ونحشرهم في زُمْرَة العالمين.

يا بني، إني كنت وأنا طفل أتلقف مثل هذه الضلالات من أفواه الجاهلين، وأرويها من أولئك الخاملين الغافلين، فما زلت في غفلة من الساهين، وفي جهالة

---

(١) الدهاليز: جمع «الدهليز»، وهو المدخل بين الباب والدار. (م).
(٢) خَشَاش الأرض: حشراتها. (م).

مع اللاهين حتى قرأت في العلم أن ذلك ضلال فأقلعت عنه، ولكن بقيت في النفس بقيَّة من آثار جهالة الصبي، فأخذت أقتلع جذور تلك السيئة من أصولها فانتبذت من أهلي مكانًا قصيًّا، وقد أرخى عليَّ الليل سدوله، وكساني خُلَعًا من جلابيبه، وأحاطني بجيوش من ظلامه حتى دخلت المسجد بجانب القرية، وتبوَّأت مغتسله ووقفت أسامر الظلام وأساور الأوهام لأعلم نفسي فضلية الشجاعة وخلق الكمال فبقيت هناك زُلَفًا[1] من الليل، ولما أن غربت نجمة المساء كررت راجعًا وعدت لمثل هذه الليلة الثانية، وهكذا حتى ثبت قلبي على الشجاعة وتمرن على الإقدام وتعلم الجرأة، وقويت عزيمتي، ولقد كان الرجل من أهل قريتنا يجتاز المسجد فيحس بي فيهلع فرقًا ويجزع خوفًا، ويقول ألا إن هذا هو العفريت.

هنالك تبسم الصبي ضاحكًا ثم أغرق فيه، وقال: أهكذا كانوا يظنون؟ قاتل الله الجهالة. كنت أخاف من كل ما أسمع في الظلام كفأرة بيوت الأدب. أما الآن فلن أخاف أبدًا.

ثم انتقل الغلام من خيال إلى صور حقيقية أُلْبِست ثوب الخيال أو خيال أُلْبِس ثوب الحقيقة واخترع له الوهم ما هجس بباله وذكر معلمه بالمدرسة، وقد أنشب به أظفاره. فقال: قد كنت ومعلمي يوجعني ضربًا ويؤلمني بسياط أتمنى أن

(١) زُلَفًا: جمع: «زُلْفة»، وهي الساعات الأولى من الليل. (م).

أقلب إلى عصفور لعلي أفلت من بين يديه فأطير وأنجو من العذاب الأليم، سمع الأستاذ ذلك فاغتمَّ وعلم أن وحشية التعليم لا تزال ضاربة أطنابها بالبلاد مُنِيخَة بكلكلها مميتة للعواطف قاتلة للصبيان، وأن هناك علاقة بين الهلع من العفاريت ووهم الخوف من فزع العصى وضرب السياط، وأن تصور الشاب نفسه أن يكون عصفورًا خيال كما تخيل الجان في الأذهان.

هنالك انتقل الغلام إلى حديث شيوخ الأضرحة لعلاقة المشابهة بين الطرفين، فقال: يا أبي، أرأيت هؤلاء الشيوخ في برازخهم؟ أَوَ ليس الناس يرونهم؟ أنا لا ريب عندي في ذلك، فقد روى الناس وأبناء الزقاق أحاديث صحاحًا عن شيخ هذا الضريح (العمري)، وقد شاهدوه ونفعهم وأضرَّ أقوامًا عصوه.

الأستاذ: يا بني، هؤلاء كانوا قومًا مثلنا وامتازوا بالصلاح والعلم وتقوى الله والعبادة ونفع الناس فأحبوهم، فلما اختطفتهم المنون وأدخلوا في قبورهم انقسم الناس فيهم فريقين: عالمين وجاهلين، فأما العالمون فأخذوا يزورونهم اعتبارًا بموتهم وتذكارًا لطريقهم واهتداءً بهديهم وسيرًا على منوالهم؛ ليكونوا عظماء في الأمة نافعين للناس مثلهم حتى يحبهم الناس ويرجعوا إلى ربهم ويفوزوا بلقائه فيدخلهم جنته كما أدخل أولئك الأولياء الصالحين والشيوخ المقبورين الغابرين في دهر الدهارير.

وأما الجاهلون فقد ضلوا السبيل، واتخذوا من الموت حياة واشتقوا من القبر طبيبًا وتوهَّموا في الأجداث أملاكًا أو أربابًا، ونادوهم بالغياث في الأجداث أولئك هم الجاهلون. يا بني، انظر بعقلك وتأمل بفكرك إذا كانوا ينفعون أو يضرون.

فما بالنا نتعلم وما بال الصبيان يغدون ويروحون إلى المدارس، وما بال الزارع يزرع والحاصد يحصد؟ أرأيت إن صح ذلك، ألم يكن الأجدر بالناس أن يصطفوا حول تلك البرازخ خاشعين ويَخِرُّوا لها جِثِيًّا[١] خاضعين ثم يطلبوا منها الغوث مُخْبِتين[٢]؟ فإذا رأيت هؤلاء فقل لهم سلوا ربكم وافعلوا ما تؤمرون، سُنَّة الله في خلقه علم وعمل واعتماد عليه بالقلوب.

هناك تبسم الغلام وقال: حَقًّا إنه لمن أعجب العجب أن تلج تلك الأضرحةَ من رمدت عينُ ابنتها أو أُصيب ابنُها بعرج ثم تسأل الشفاء، أفلا يسألون الله وهو الذي سَخَّر الطبيب وخلقه لهذه الأمراض؟ اهـ.

يا والدي، حقًّا حقًّا الكلب يحرس المنازل ويَخْفِر البيوت ما دام حيًّا ينبح، فإذا اختطفته المنون وأذيق الحتف فكيف تحرس البيوت عظام نَخِرَات وأوصال ممزَّقات وجلود مقطَّعات وأحشاء مفرَّقات، أم كيف يخفر الأحياء الأموات

(١) جِثِيًّا: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال. (م).
(٢) مُخْبِتين: خاشعين. (م).

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر / ٢٢] اهـ.

هذا الحديث حقيقي بهذا الترتيب ومعناه، ولم يزد عليه إلا الصورة اللفظية.



الفصل الحادي عشر
الدولة الفاطمية واللغات الأجنبية

مني الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا بما قتل عواطفهم وأمات وجدانهم وأهلك حرثهم وأباد نسلهم. ذلك أن قادتهم طالما غشوا على أبصارهم فهم لا يبصرون طالما أوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، واتخذ شيوخهم الأولون من الباطنية رموزًا ابتدعوها وأشكالاً اتبعوها وبدعًا استحدثوها، فاتبعها المرؤوسون فضربوا على آذانهم في كهف الجهالة سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون.

تلقَّف الخلافةَ الإسلاميةَ قومٌ عن قوم، حتى إذا جاء الفاطمية في نهاية القرن الثالث اتخذوا شعارهم السلطة الرُّوحية وولوا وجوه القوم شطر خلافتهم، وكان نداؤهم في الآذان (حي على خير العمل)، ونداؤهم في السر (لا يعرف العلوم إلا إمام معصوم احتجب عن الأنظار وأدركته البصائر، والناس أجمعون دونه جاهلون)، أولئك أعدُّوا أنفسهم سَدَنَة العلوم وخزنة الجنان وباب الرحمات ومناط الأحكام وأرباب الشرائع، فلا غرابة إذا سمعنا ما استحدثه الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر من الفتك والقتل والتحريم والتحليل والتضليل والإفك

على الله، والناس حول قصره مستصرخون وبه عائذون[1]، وله وَالِهُون، وعلى رحمته الموهومة مُتَّكِلون. قفى على آثارهم أقوام وضعوا رموزًا وأساطير وقالوا للناس هي أسرار لا يطَّلع عليها أقوام أمثالكم وأخذوا يستخرجون العلوم من جمل الآيات، كقول قائلهم لفظة (رفيع) في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر/١٥]. جمل لفظ رفيع يبلغ ٣٦٠، وهي الدرجات التي تقطعها الشمس في الفلك أعني دائرة منطقة فلك البروج، وهكذا كل دائرة سماوية وحمل الدرجات على درجات الفلك، والله يعلم والعالمون أن معنى ذلك أن الله رفيع القدر سامي المنزلة تقدس عن المادة واتصف بأجمل الصفات وأبهاها، وكقول قائلهم: إن جمل لفظ محمد يجعل الميم المشددة بميمين بحسب التلفظ به يبلغ ١٣٢، وهو عدد حروف الفاتحة اللفظية: أي التي يُعَوَّل فيها على اللفظ دون الخط وأراهم يرجعون جميع العلوم إلى الاستنباط من النقطة تحت الباء من بسم الله الرحمن الرحيم، ولقد رأيت كتابًا مع درويش فيه مائة فصل، كل فصل مشتمل على خلق من الأخلاق أو فضيلة من الفضائل وضعه واضعه كأنه استخرج من النقطة تحت الباء في بسم الله، ولا حاجة للإشارة إلى أن ذلك مشروح في كتب أخرى مفصل فيها أجمل تفصيل معلوم بين أهل العلم.

قلت لذلك المقلد المسكين: يا هذا ذلك يعلمه المجاورون وأهل العلم وبعض تلاميذ المدارس، وليس خاصًّا بشيوخك الغابرين ولا هو من أسرار

(١) عائذون: لاجئون. (م).

الماضين، وإنما هي علوم عرفها المحصّلون، فَعَبَس[١] وبَسَر[٢]، ثم أدبر وقال: هذه أسرار غامضة، وإنما يعرفها الواحد بعد الواحد.

قارن بين هذا وبين تعاليم المصريين القدماء تجدهم حَذَوْا حذوهم إلا قليلاً، والقاعدة العامة: خذ الناس بالقوة وأوهمهم أنهم قاصرون، ولقد سرى ذلك إلى ابن سينا، فقال في الإشارات: لا يعرف الله إلا الواحد بعد الواحد، بل نقلها عنه الغزالي في الإحياء، ولعمري إن مسألة الأقطاب والأنجاب والأوتاد وقطب الغوث أركان الأندية الفاطمية السرية وجمعية أهل الباطن لا تزال تطن في الآذان وأصبحت لغزًا معمًّى بين الطبقات الجاهلة يكررونها ويفهمون فيه ما يوحيه لهم المسيطرون الساحرون بتلك الضلالات والأوهام، ماتت العزائم وطمست البصائر وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فهم لا يفهمون، ذلك نوع من السحر وضرب من التضليل وباب من التملك والقهر.

على أنه لم تَسْلَم منه أمة من الأمم المتمدينة، بل ذلك تنويم مغناطيسي للأمم كتنويم الأفراد، ولكن تنويم الأمة يحتاج إلى عناء وعمل وزمر كثيرة ومكر عظيم ينوم الرجل الرجل والأمة الأمة.

---

(١) عبس: تجهَّم، قطَّب وجهه. (م).
(٢) بسر: أظهر العبوس، نظر بكراهة شديدة. (م).

اللغات الأجنبية

وليس تغرير الباطنية وإرهاب شيوخهم وغرائبهم وترنُّماتهم ورموزهم بأقل إضلالاً وإدهاشًا مما تضعه الأمم الفاتحة من العقبات للأمم المقهورة بهم، يقولون: أيها الناس لا تقرءوا العلوم إلا بلغتنا ثم لا يلقنونهم إلا قليلاً من العلم مع حفظ قاموس لغتهم، ثم يقولون: ليس لهذه العلوم في دياركم مقام، وليس لها إلا أقطاب الوجود وخزنة الأسرار وحملة العرش، أولئك هم ساداتكم خلقهم الله لذلك بفطرهم. خلقوا للقيادة وخلقتم للعبادة، خلقوا للعلم وخلقتم للجهل، خلقوا للعز وخلقتم للذل، هم السادة ولهم السعادة، فهم الملوك عليكم وأنتم العبيد إلى القيامة، فإذا اختلط المحكومون المقهورون بسواهم وعرف غش الفاتحين ومكر المسيطرين، ثم قالوا لساداتهم: أفيضوا علينا من ماء العلم أو مما رزقكم الله من الصناعات أو خلونا وشأننا نختر لنا طريقًا في بحر الحياة اللُّجِّيّ، ناداهم أولئك السادات إن الله حرم العلوم والصناعات على الضالين ولاسيما الشرقيين، ثم إذا لم ينجع القول رفعوا سيوفهم على رؤوسهم وقالوا بعزة جبروت فرعون إنا لنحن الغالبون.

يذكر القاهرون المقهورين تاريخ أسلافهم وأبطالهم وشعرائهم وشعرهم وتاريخ لغتهم ووقائعهم وجمال بلادهم وفضل قومهم، عجبًا عجبًا يا قوم إن الحياة ضلال في ضلال وفي ظني أن رجال أغلب الأمم جهال.

ما للناس لا يفقهون؟ ما للقوم لا يعقلون؟ أُفّ للأغنياء، أُفّ للفقراء، أُفّ للكتاب أنى يؤفكون؟!

يا قوم، إني لكم نذير مبين، سيعذب الأغنياء على شُحِّهم[١] على بناء الكليات، يعذَّبون مرتين: مرة في الدنيا بالعذاب والخزي في الحياة وموت أسمائهم من التاريخ، ومرة في الآخرة فتكوى بأموالهم جباههم وجنوبهم وظهورهم ويقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة/ ٣٥]. تكوى ضمائرهم بألم الأحزان في دار البرزخ يعضُّون أيديهم حسرة وندامة يعذَّبون بنار تطلع على أفئدتهم، به يَخِرُّون في الحياة الدنيا وفي الآخرة، سيعذب الأغنياء بالأموال، والأغنياء بالعلوم والشعراء إذا بخلوا بما عندهم، كل امرئ بما كسب رهين[٢]، كل منكم يا قوم مسئول على مقدار ما منحه الله من المال والحكمة: أنذركم صاعقة أهل أمريكا الأصليين صاعقة الأمم البائدة، أزف الوقت فاستمعوا. إذا اتسم بالشح الأغنياء، وكتم العلم العلماء أسرع إلى الأمة الفناء.

التلميذ ابن الأستاذ، فإن هو لم يعرف بعدُ أسلافَه وتاريخ رجاله وعظمة ملوكه وآداب قومه، فمن أين يتخذ له قومًا أو يبني له مجدًا.

---

(١) شحهم: بخلهم. (م).
(٢) رهين: مأخوذ بالشيء. (م).

هذه نصيحتي لكم يا قوم وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعون، ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.



الفصل الثاني عشر
كتاب من المؤلف إلى صديق له من الإنكليز

هذا كتاب من المؤلف إلى صديق له من الإنكليز كتبه باللغة الإنكليزية ثم نقله إلى العربية، وقد رأينا من المفيد نشره لانتفاع الناطقين بالضاد من حكمه الباهرة، قال صديقي الفاضل:

إنه أُلقي إليّ منك كتاب كريم، فشكرت لك لما بذلت من العناية في تحيتي وما أبديت من الحكمة في تحريره، ووددت لو يتاح لي سعة الوقت، وقرور العين، فأشرح ما أجمل صديقي من الحكمة، وما أبدع من المعاني؛ إذ قال: المرء يسعى في الحياة ويجدّ في طلاب العلم لسد عَوَزه، وتحصيل قوته، وجلب لباسه حتى إذا ما قضى أَرَبَه[1] وأشبع بطنه وكسى جلده، أخذ يستهيم بالعلوم لِذَاتها ويخطبها لِلَذَّاتها ويعلمها الناس على حبها، فتراه بالشِعر هائمًا وبالموسيقى مغرمًا وبالفنون الجميلة مُولَعًا، وكلما أَوْغَل في طِلابِها زاد في حبها، ومنهم من قرأها ليتعرف بها إلهه لا هواه، وكلما ازداد علمًا ازداد من ربه قربًا حتى يصير من المُصْطَفَيْنَ الأخيار.

---

(١) أَرَبَه: حاجته. (م).

هذا ما فهمته من فحوى خطابك ومضمون مقالك، وإني لموضح ما أدمجتموه بعض الإيضاح مع تبيان واستحسان نمط مغاير بعض المغايرة فأقول:

الإنسان والعلم

عجبًا للإنسان وأطواره، وغرائب أحواله! يستلذ الأعاجيب ويفرح بالصور والتماثيل، حتى إن الفتاة في قرى الفلاحين لتصور التماثيل من طين، وتتخذها سلوة اللاعبين وقوة المرتاضين.

ولئن سألت العامة ما السبب في أنكم بهذه الألاعيب مولعون؟ ليقولن (هذا ما فطر عليه الإنسان)، ولكنك إن سألت أكابر الحكماء ومديري المدارس والمدرسين شرحوا لك السبب. ذلك أن صور المخلوقات، وتماثيل الموجودات، وهياكل الحيوان، وأشكال النباتات دروس التلاميذ، هنا يعرف الإنسان الحكمة في ولوع الناشئين بالصور والتماثيل.

وربما ترى طفلاً يلعب بالكرة وهو بها جذل[1]، فإذا دخل الدرس آنس كرة صورت العالم كله، فما كان لعب الصبي أضحى علمًا في الشباب وعقلاً في الكبر، وربما ترى ابن المكاري (الحمار) يجري وهو يجر وراءه حبلاً قد شد فيه

---

(١) جَذِل: فَرِح. (م).

حلقة تجري كأنها عجلة وهو بها فرح، حتى إذا كبر كانت العجلة المفروح بها عربة يعيش منها، فتبارك ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وهنا مثل آخر، ذلك أن عامة الناس والصبيان يعجبون من جذب الكهرمان للتبن والمغناطيس للحديد، ويضحكون لتلك الألاعيب، ويتخذونها هُزوًا ولعبًا يضحكون منها وهم ساهون، ولئن سألتهم عن السبب لقالوا هذا ما وجدنا عليه نوع الإنسان ولكن الرُّوح الإنسانية العامة في هذا النوع، المبدعة من الحكمة الإلهية هي التي أوحي إليها هذا السر، ففرح به عموم الصبيان وعامة الجاهلين، واختص بسرائر الوحي أكابر العلماء والمُصْطَفَيْنَ من الحكماء، فكان الوحي الفطري الإلهي إليهم أن امزجوا المغناطيس بالكهرباء ودعوهما يتمددان في الأسلاك، تستعينوا بهما على الكلام في آلة التليفون، ولئن نطقت هذه الآلة لقالت «أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء»، فتعجب معي يا أخي من هذا الإنسان العجيب أمره البعيد غَوْرُه. تسابقت لَذَّاته العقلية وشهواته الجسمية، فهو أبدًا ما بين ملك وبهيم ونعيم وجحيم وحياة الملائكة والشياطين والملوك والحدادين، وإن الإنسان ليحار أيهما عليه أغلب، حرمت الديانات السماوية تتبع خطوات الشيطان بتعاطي الشهوات، وأباحت اللذات العقلية، بل جعلتها أهم السعادات إلى آخر ما قالوا، ولكن أصبحت بعض أممها خاضعين أمام عبيد الشهوات الجسمية من الأمم القاهرة بالأسلحة النارية، وأباحت المدنية الحاضرة اللذائذ الجسمية، ولم يفرق كثير من الناس فيها بين الإنسانية والحيوانية، فها نحن أولاء نرى أكثرهن

ترفًا وفسوقًا أقربهن فناء وأسرعهن انتقاصًا كمثل بعض دول أوربا الذين تناقص نسلهم، وبعض البوذيين إذ تناهى الأولون في شهوات الأجسام، وأفرط الآخرون في سعادات الأرواح، فأخذ يسرع الفناء في الأولين واستعد لأن يُداس بالأقدام الآخرون، وهذا من التناهي في الإفراط في الشهوات الجسمية والروحية، وما وضعها الله في نفوس الناس إلا لتشوقهم إلى الحكمة والفضيلة والدأب في طلاب الحكمة بالعقل، فلا آخر لشوق الإنسان للعلوم كما لا آخر لها.

والجاهل من يظن نفسه أعلم العالمين، يحدد الطفل الأرض بآفاقها المنظورة، والرجل الكبير يعتقد أن الدنيا أوسع دائرةً وأرحب فضاءً من الأرض. هكذا ترى الجاهل يحدد العالم بأوهامه ويتخذ من معلوماته لها حدودًا، وأكابر الحكماء لا يجدون في نفوسهم لها حدًّا ويعترفون بالتقصير فيما حَصَّلوا، ويعتقدون أن ما تركوه أكثر مما أخذوه.

إن فيما نشاهد من المحسوسات لعبرة للمعقولات. نرى السائحين يرسمون في سيرهم سبلاً في الجبال والأَوْدِية، ويخترقون الآفاق تسهيلاً لمن بعدهم وإن لم يفقهوه، وتمهيدًا للجيل المقبل وإن كانوا لا يشعرون، كما كان الآباء لنا يمهدون، أفلا يجدّ الذين أوتوا نصيبًا من العلم ليمهدوا السبيل لأبناء الجيل المقبل كما كان الأوَّلون لنا يفعلون.

لَعَمْرِي لَلْعُلَمَاء أجدر بالعمل، وأحرى بالمنهج الأَقْوَم والسبيل الأبلج[١]، والعلماء فريقان: فريق بالعلم يرتزقون، وآخرون به وَلِعُون وله وَالِهُون وبه جَذِلون، ولعمرك، إن الأولين لا يورثون، وإنما الموروث هم الآخرون، وهم الرافعون للأمم المجددون لمجدها السابقون لخيرها. فويل لأمة قل نصيبها منهم، والويل ثم الويل لأمة عدمتهم.

بمثل الشيخ الغزالي وابن سينا في الأمة العربية وإسحق نيوتن وسبنسر في الأمة الإنكليزية، سادت الأمتان ولم يعلمهما إلا الفَرْقَدَان[٢].

(١) الأبلج: الواضح. (م).
(٢) الفرقدان: نجمان يُهتدى بهما، ويضرب بهما المثل في البعد وعلو الرفعة. (م).



الفصل الثالث عشر
الحقائق في الحدائق
العالم كتاب لا يقرؤه إلا المستبصرون

صديقي الفاضل:

لما أن فرغت من رسالتي السالفة انتبذت مكانًا قصيًّا خارج القاهرة؛ لأريح النفس من عنائها، ولأزور صديقًا حميمًا، فقصدته فألفيته في حديقته، فجلسنا بين أشجار خَضِرات وغصون نضرات وأوراق وارفات والظل ظليل والنسيم عليل، وقد حلا السمر وطاب الخبر وترى ثمر البرتقال يبدو بين الغصون في إشراق بهيج، ثم رأيت جلال الأفق مدى البصر يمتد إلى مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، عجبًا! أنا أرى نصف الكرة الأرضية، أرى نصف المعمورة، لقد نسيت أن ما نراه من الأفق يحدد الكرة بقسمين متساويين تقريبًا. ما أوسع الأفق وما أضيق العين أن تراه فكأني أراه ولا أراه: كم من حقل مخبوء في طي كتابه، وكم من قرية وبلدة وأمة وقارة ونهر وواد وبحر مِلْح أُجَاج[1] وسهل وجبل، كل هذا مندمج فيما يحيط به بصري الآن. ما أضعف بصر الإنسان وما أكثر الحِكَم المودعة في عجائب الدنيا! ومن ذا الذي يقدر أن يصوغها في قالب التعبير، ومن

(١) مِلْح أُجَاج: شديد الملوحة. (م).

ذا الذي يحصرها في سطور التحرير. بينما أنا هائم في هذه الأعاجيب مغرم بهذا الأفق الرهيب إذا صديقي صاحب الحديقة يقول: لقد رأيت عجبًا في حديقتنا، رأيت حشرة أبي دقيق ذات ألوان بيض وحمر وصفر مختلف ألوانها مُشَاكِلةَ لما تعيش بينه من الأزهار وما يقيتها من الأنوار، لاحظت ذلك في أماكن فيها، فكان الزهر الأبيض يسكنه البيض والأحمر الحمر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فقلت: مهما بحث الإنسان ودقق فلن يصل له من العلم إلا قليل، ولم يتجاوز ولن يتجاوز في الإجابة عن مثل هذا الأجوبة الغائبة المسمَّاة بالبراهين الأَنِّيَّة: أي التي يقال فيها (لأنَّ)، كأن يقال هكذا خلقت حشرة أبي دقيق مشاكلة لما حولها لتنجو من كيد عدو يفاجئها فتختبئ في أزهارها فلا يمسها المغيرات عليها بسوء، ولو اختلفت الألوان لكانت مع الهالكين كما يرى في الآساد المشاكلات لجبالها، والنمور المشابهات لغاباتها، وطيور صيد السمك الخضر لمشاكلة زرقة أمواج البحر؛ لئلا يهرب منها السمك المطلوب صيده. بمثل هذا يجيب الإنسان المحصور علمه في دائرة ضيقة من المعرفة، كم حيوان في هذا الشأن رقيق الجثة صغير الخلقة، لا تراه عيوننا لدقته، وعجز أبصارنا عن رؤيته، ولئن رأيناه لأعجزنا وصفه فلم نَفْقَه ظاهر خلقته، فضلاً عن باطن حكمته، فما أضعف الإنسان، لننظر في الأفق كم حوى في دائرته من مخلوقات لا تراها، وما نراه فلن نصل منه إلا لما ظهر من صورته، فالمعرفة إجمالية.

ولئن أَلَّف العلماء ووصف الشعراء مظاهر الكون فلعمرك ما وصلوا في وصف دقائقه وتبيان حكمه إلى غاية أكثر مما وصل البصر، وهو يشاهد هذا الأفق وهو ما عرف إلا النزر اليسير، فما يراه العلماء ببصائرهم نسبته إلى ما هو غائب عنها كنسبة ما أخفي عن الأبصار في دائرة هذا الفضاء لما استوضح عند البصر ووضح للنظر.

أيها الإنسان، انظر وتفكر وتأمل، انظر واكتب، وإياك أن تكتب أو تتكلم بلا نظر وفكر.

الله ﷻ خلق الإنسان وصَوَّره وجَمَّله وفضَّله على الحيوان واصطفاه ليكلمه، مَن الإنسان حتى يكلم الله؟ مَن الإنسان وهو من الطبيعة خُلقِ والله مُقَدَّس عنها؟ كيف يتكلم الأجلّ العالي مكانه البعيد مناله، مع الضعيف السحيق داره؟ كَلَّم الله الإنسان، فالأنبياء بالوحي والإلهام والحكماء ورجال الأمم والمجددون لمجدها بهذه المخلوقات الطبيعية، الله كلمنا بها، رتب العناصر كالحروف الأبجدية، وربما جاوزت السبعين، فهي أكثر اللغات حروفًا، ثم جمعها كما نجمع نحن الحروف في هواء الفم، وركب منها الأشجار والأثمار والأزهار كما نركب نحن الكلمات، ولعمري لن يعقل هذه الكلمات إلا العلماء ولن يفقهها إلا الحكماء، ثم نظرتها أبصارنا فانتزعت صورها واحتوت ظلالها الحدقة كالخزانة المظلمة ترسم صور الأشياء على شَبَكِيَّتها، ترسمها بغير زجاج موضوع ولا ذاك السائل الفضي الذي يظهر الصورة، العين ترسم الصورة رسمًا حقيقيًّا تبقى

فيها، نعم تبقى ثابتة ثباتًا في الخيال أدوم من ثبات الصور في أوراقها، نتذكرها بعد حين بل عند الموت تخزن الصور في الخيال ثم يجعلها العقل أفكارًا وآراء وحكمًا وعلومًا ويحولها اللسان كلمات فالقلم حروفًا وسطورًا.

أيها الإنسان، هذا كتابك المقروء المكتوب بيديك منسوخ من أصله، منسوخ أربع مرات، فما هو إلا ظل نور انعكس أربع مرات في العين وفي العقل وفي اللسان وفي الكتاب.

ولعمرك ما قرأ قارئ في كتاب إلا غيضًا من فيض[١] مظاهر الصنع الموجودة وأعلام الحكم المنشورة في صفحات الوجود لن تبلغ في نسبتها إلى الحقائق المنظورة مقدار نسبة صورة الشمس المنظورة في الماء إلى قرصها في السماء، من لم ينظر لها في هذه الحكم المودعة، فهم الصُّمُّ البُكْم الذين لا يعقلون.

أما الناظرون فيها فأولئك هم الحكماء والعلماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر / ٢٨]، وهم لَعَمْرُك السابقون السابقون بالخيرات لأممهم الرافعون لها المجدِّدون لمجدها.

وما فرغت من قولي حتى احتجبت الغزالة بالحجاب وتوارت وغادرت السحاب وقد أقبلت جيوش الظلام ولبست السماء حلة زرقاء صافية الأديم[٢]،

(١) غَيْضًا من فيض: قليل من كثير. (م).
(٢) أديم السماء: الظاهر منها. (م).

مُرَصَّعة بجواهر الدراري، مُطَرَّزة بالسحاب، مُوَشَّاة بالشفق، ذهبية الطراز تشوق الناظر، وتبهر العاقل. فنظر صاحبي نظرة في النجوم، فقال: أليس لك أن تنظر النجوم والسحاب وما فيهن من عجب عجاب؟ إن فكرًا فيها يعلو بالمرء من دَرَكَات[١] الجاهلين إلى درجات الحكماء العاملين. فقلت: بل إلى أفق الملائكة في جوار العالم الأعلى هؤلاء الناظرون أجلّ العالمين.

كأن الليل والنهار فصلان تمثلهما الشمس. فإذا أشرقت ألقت على السماء سترًا يحجب ما يُكِنُّه من الصور الحِسَان والجمال، وترفع عن الأرض ستارها الحالك فتتجلى مناظرها زينة للناظرين، حتى إذا غربت أبدت المستور وأغطشت: أي أخفت المنشور، فترفع ستر السماء فيبدو جمالها وينجلي سناؤها وتلقي على الأرض ستارها فيتجنى بهاؤها ويحتجب رواؤها، ونحن في موقفنا نشاهد أجمل الفصلين منظرًا وأحبهما مخبرًا، فإذا سحاب تَبَدَّى جمل منظره الأدهم وكأنه الجبل في هيشة وهيبة يتخلله أودية زرقاء نباتها النجوم الزاهرات لا النجوم المخضرات: أي النبات؛ إذ هو يسمى بالنجم: أي ماعدا الشجر. وما أجمل الرجل يتجلى في هيبة ووقار وفؤاده بالأنوار جذل وقلبه بالعلم فرح كما يتجلى هذا المنظر البهيج، أيها الإنسان إني لك ناصح أمين.

(١) دَرَكَات: جمع «دَرَكَة»، وهي منزلة سُفْلَى. (م).

اقرأ كتابًا حروفه كبيرة لا صغيرة، وكلماته مخضرّة لا مسودّة، فيها العلوم الواسعة لا فضلاتها ووَشَلها[١]، اقرأها بعينك وعقلك لا بلسانك، عن الكتاب المفتوح، عن كتابك الذي خَطَّه اليَرَاع[٢]، انتهى.

(١) وَشَلها: قليلها. (م).
(٢) اليَرَاع: القلم. (م).

الفصل الرابع عشر
أنشودة وطنية

يا أيها المِصْرِيُّ قُمْ — وخُذِ الحِذَارَ ولا تَنَم
إنا سَنُقْرِئُكَ الحِكَم — إنَّا نُرِيدُ بيانا
قُومُوا إلى رفع العَلَم — وخذوا بقوةٍ القلم
ولَكَمْ رَجَوْتُ لكم وكم — أن تلحقوا اليابانا
فَابْكُوا على مَجْدٍ سَلَف — واستنهِضُوا هِمَمَ الخَلَف
واسترجِعُوا ذاك الشَّرَف — لا تصبحوا عُبْدَانا
لا تَتْرُكُوا علمًا ولا — فَنًّا يقوم به الملا
إلاَّ عرفتُم مجملاً — ومُفَصَّلاً تبيانا
كن عسكريًا باسلاً — أو هندسيًّا عاقلا
أو كن طبيبًا فاضلاً — لتقوِّم الأبدانا
مَنْ لَمْ يَنَلْ شَرَفَ العُلُوم — نالَ المَعَرَّةَ[1] والوُجُوم[2]
وأرى الممالك لا تَدُوم — إلا بها ميزانا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طعمَ العُلُوم — فهو الذي يَلْقَى الهُمُوم

(١) المَعَرَّة: الأذى، المكروه. (م).
(٢) الوجوم: العبوس المطرق لشدة الحزن. (م).

والمـــالُ ليـــس لـه يَـدُوم   دومـــًا يـــرى الحِرْمَانا
وإذا الفـــتى حُـــرِمَ الأَدَب   قاســـى العـداوةَ والنَّصَب
من لـم يَـذُقْ طعمَ الأدب   فهو الـذي يلـقى النّـصَب
والمـــالُ ليـس لـــه نســـب   فـــارفـع بـــه الأوطـــانا
فابـــنوا المـدارسَ في القُـــرَى   والجامعـات كمـــا يُـــرَى
فـــي كمـــبردج ولـــندرا   فـــزَمَانُـــه قـــد آنـــــا
يـــا مـــصر يـــا أم القـــرى   ســـيَبِينُ مَجْـــدُك للورى
ويلـــوح ســـعدك مُسْـــفِرًا   بشبـــابنـــا مُـــزْدَانـــا
قـــد كنـــتِ سَيِّـــدَةَ الأُمَم   ودليلنـــا هـــذا الهـــرم
فيـــك المصـــانعُ والحِـــكَم   عَظُمَـــت بعِـــزِّك شـــانا
مـــا مِصـــْرنا والقـــاهرة   إلا كمـــركـــزِ دائـــرة
وهـــما الـــرِّيَاضُ الزَّاهِـــرَة   مـــا أجمـــلَ البـــستانا
كـــم فـــي البـــرابيّ اســـتتر   مـــن كـــنزِ علـــم مُدَّخر
والأجنـــبـــي بـــه افتـــخر   بالعـــلم عـــن عُـــلَمَانا
آبـــاؤنـــا غـــرٌّ كِـــرَام   أســـلافُنا أعـــلى الأَنَـــام
عـــارٌ عـــلينـــا أن نَـــنَـــام   ويُـــرَى الشُّـــجَاعُ جبـــانا
إِنَّـــا لنـــا أَصْـــلُ الشَّـــرَف   لِمَ لا نـــكونُ كَمَنْ سلف؟
فاجـــهرْ بقـــولِكَ لا تَخَـــفْ   كَـــي ترفعـــوا البُنْـــيَانَا
إنـــا بَنُـــو العـــربِ الأُوَل   كانـــوا الملـوك ذوي الـدُّوَل
ملـــكوا الجـــزيرةَ والجبـــل   واســـتعبدوا الإســـبانا
ملـــكوا الهنـــودَ بـــلا خَـــطَر   وعَلَـــوْا علـــى جبل القمر

منه إلى أرض التَّتَر	والروم تحت حِمَانا
قولوا لمن لم يَعْرِفُوا	مقدارَنا أو يُنْصِفُوا
من ذا أَعَزُّ وأَشْرَفُ	حتى يقال عَلانا؟
كُنَّا الجَهَابِذَةَ الكبار	كم قائدٍ سَلَكَ القِفَار
وبجيشِنا قَطَعَ البِحَار	وطَغَى على أعدانا
منا الرَّشيدُ الأروعُ	والراشِدُون الأربعُ
والحِمْيَرِيُّ وتُبَّعُ	والشمُّ[1] من غَسَّانا
أَسَفِي عليهم حسرةً	فابْكُوا ممالِكَ حُرَّةً
ومحافلاً وأسِرّةً	والبيضَ والتِّيجَانَا
إنَّا مَلَكْنَا المَشْرِقَين	إنا ملكنا المَغْرِبَين
ولقد قرأنا الحِكْمَتَين	العلمَ والإيمانا
يا قوم ما هذا الكَسَل	والله إني في خَجَل
إن قُلْتُمُوا كيفَ العَمَل	قلتُ اتبعوا حُكَمَانا
مالي أراكم نِمْتُمُوا	والصِّينُ قامَ وأَنْتُم
في غفلةٍ لم تعلموا	ما أَيْقَظَ الحبشانا
نشر النَّجَاشِي نشرةً	وإليك منها صورةً
لِتَعِشْ بِلادِي حُرَّةً	وتعمّم العِرْفَانا
فإذا أردتم سُلَّمًا	كي تَرْتَقُوهُ إلى السَّمَا
فأَرَوْا بنيكم مَعْلَمًا	كي يُصْبِحُوا إخوانا
إن شِئْتُموا فضلاً على	أهل البَسِيطَةِ أوّلا

فتــأدَّبــوا بــيــن المــلا	كي تُصبحوا إخــوانا
فالــوالديــنِ أَطِعْــهُمَــا	وبفضــلِ مَالــكَ عِلْهُمَا
وبِبَــذْلِ رُوحِــكَ صُنــْهُمَا	وارفــقْ وقُــلْ إحــسانا
وكــذا القــريبُ إذا أســا	أَحْسِـــنْ إليــهِ وقُلْ عَسَى
فعـــساه ينتـــزعُ الإســاءةَ منـ	ـه والغِــلَّ والأَضْــغَانا
قــال الفــلاسفةُ الــكبــار	الخَمْــرُ عــارُ أيُّ عَــار
لا تَقْــرَبُوا كــأسَ العــقار	كم أهــلكت شــبانــا
قــال الفــلاسفــةُ الأُوَل	الخمــرُ صــاعقةُ الــدُّوَل
تســطو فتَخْتَرِمُ الأَجَــل(١)	وتُــدَمّــرُ العُــمْرانــا
إن الخـــمــورَ بِمِــصْرِنَــا	جُــلِبَت لتقــرضَ نسلَنا
جُلِبَــت لتُهْــلِكَ مُلْــكَنا	وتُعَــمِّــرَ اليــونانــا
لا تَضْــحَكَنَّ بــلاســبــب	الوقــت قيــمَتُه ذَهَــب
فاصــرِفْهُ فــي أَمــْرٍ وَجَب	واشــرحْ لــه الحـُسْبَانا
مــن كــان يَــأْخُذُ رِشْــوَةً	من أهــل قُطْرِك خُفْيَةً
فَأَذِقْــهُ ذَمـّــا جــَهــْرَةً	هــل تُــكْرِمُ الخــوَّانا؟
وإذا رَضِيــتُــم بالــرِّشــا	وسَكَتـُّـمُ حــتَّى فشــا
أَنْذَرْتُــكُــم مــا لا أشــا	ءُ وذُقْتُــمُ الأشــجانــا
لا تَقْــرَبُــوا الآثَــامــا	لا تَظْــلِمُــوا الأَيْــتَاما
وخُــذُوا الرَّسُــولَ إمــامــا	لِتُنــافِسُــوا البُــلْدانا
وإذا غَــدَوْتَ مُهَنْدِســا	لا تَــظْلِمَــنَّ الأَنْفُسَــا

(١) تَخْتَرِم الأجل: تُميت. (م).

يا وَيْحه قَلْبًا قَسا ... واستَوْجبَ الخُسْرانا
يا قومِ إن لم تَعْدِلُوا ... بالكَظْم[١] يومًا تُبْتَلُوا
ويقولُ قومٌ عَجِّلُوا ... واستعبِدُوا عَدْنانا
إن كنتَ يا هذا ظَلُوم ... فَقِيَامَةُ المصري تقوم
ويُقالُ في نادي العُمُوم ... أعطوهُمُ الحرْمانا
فنَبِيُّكُم قال ارْحَمُوا ... هذي الخليقةَ تُرْحَمُوا
إيّاكُمُ أن تَظْلِمُوا ... أو تُغْضِبُوا الرَّحْمَانا
اُقْنُتْ لِرَبِّكَ طائِعًا ... اُعْبُد إِلَهكَ خَاشِعًا
أَطْعِمْ فقيرًا جائعًا ... فيُثِيبكَ الرِّضْوَانا

(١) الكَظْم: الإمساك على ما في النفس عند الغضب. (م).



الفصل الخامس عشر
الدرس الافتتاحي لتفسير القرآن الشريف

الذي ألقاه حضرة المؤلف على طائفة من متخرجي المدارس العليا ليلة الاثنين أول يونيه سنة ١٩٠٨ م:

إن حال الأمة اليوم داعٍ للتفكير في أمرها والتذكير لنشئها، ومن يقرأ اليوم كتابها، ويقلب صفحاتها، ويتصفح وجوهها، ويخالط طبقاتها يجدهم أخذوا يَصْبُون(١) لإعلاء شأنها ورفعة مجدها، ولكن حركة النهوض الاختيارية لا تزال في ابتداء نشأتها تمدّ يدها للمعونة، وتسأل ذوي الرأي قبسهم وأولي الألباب حكمتهم. الأمة هيكل كبير وجسم عظيم تَكَوّن من أعضاء وعظام وشحم وعروق وأوتار وأعصاب ومفاصل. وبالجملة، كل ما من شأنه تكوين جسم مفرد، غير أن فَرْقَ ما بين الجسمين أن عناصر جسم الأمة أفرادها المختلفون، وعناصر جسم الفرد شرحه المشرحون، ويعرفه الأطباء النطاسيون. عناصر الأمم عقلاء وعناصر الأجسام خَوَالٍ من الإدراكات. لجسم الأمة غذاء ودواء كجسم الإنسان، غذاؤها العلوم التي بها حياتها كالحكمة النظرية من الطبيعيات

(١) يَصْبُون: يميلون. (م).

والرياضيات والأمور العامة من النظر في أحوال الأمم والتعرف لآثارها. ودواؤها تهذيب النفوس، وتمحيصها من الرذائل، وتهذيب الأخلاق وتخليصها من كل خلق يدعو للباطل، واجتناب باطلها وإنماء حقِّها والأخذ بيدها كي لا تُلْقَى في التَّهْلُكة، وإنجادها من الغرق في ظلمات الجهل والإثم، وحمايتها أن ترعى في مراتع الهلكة أو تستمرئ مراتع الآثام. ثم حياطة تلك الأخلاق بالقانون كي لا يتعدى الآثمون الظالمون على غيرهم فيكون الهرج والمرج.

نتج مما ذكرنا أن الأمم تعيش وتحيا بما به يتغذى هيكلها العظيم المهول من العلوم الطبيعيات والرياضيات والصناعيات وغيرها، فإذا لم تستطع عقاقير الأخلاق شفاءها، وعجز الأطباء الحكماء عن علاج ما انحرف من نفوس جامحة وشهوة طامحة، ولم يبق في قدرة سائس النفوس ترويضها، فالقانون من ورائها والقضاة أسوارها قَوَّامون على نظامها حافظون لكيانها.

إذا تقرر هذا فلننظر في حالها اليوم ولنقرر ما فهمناه في صورتها المنعكسة في مرآة أعمالها وصقيل أقوالها، فنقول نظرة واحدة للحركة الفكرية تكفي للحكم بأن اتجاه الإصلاح اليوم للقضاء والقانون، ونرى أكثر من يشار إليهم بالبنان القائدين للرأي العام هم القائمون بالشرائع والقضاء والحكومة، والأمة في هذا العمل مشتركون، فعَمَّت الحركة الفكرية لترقية القضاء الشرعي والأهلي، وسارت الأمة أجمعها في هذا النهج تطلب تمهيد السبيل للإصلاح القضائي العام، فليبارك الله فيها ولنطلب المزيد والتوفيق.

فأما العلوم التي بها حياة الأمة والأخلاق، فالعناية بها ضعيفة، ولن يقرأها الطالبون إلا ليجوزوا الامتحان، نعم إن من الأطباء وعلماء الرياضة من شافههم جمال العلوم وبهرهم حسن وجوهها فعشقوها غرامًا بها وطلبًا للمزيد، ولكنهم قليل وكثير من أولئك العاشقين النابغين لم تعرف الأمة مكانتهم، فهم في زاوية الهجران هاجعون.

حرام على أمةٍ تَسَنُّم[١] ذُرا[٢] المجد إلا إذا شغف أبناؤها بالعلوم لذاتها، وخالط أفئدتهم بشاشة جمال المعارف، وعشقوا الفضائل (القوانين الشرعية والأهلية وضعت كأنها كيّ النار إذا يئس الأطباء من غناء العلاج). حياة الأمم بعلومها وصناعاتها، ودواؤها أخلاقها، وقانونها كآخر ما يلجأ له الأطباء من العلاج.

ولو أن الأمم حسنت أخلاقها، واتسمت بالفضائل وابتعدت عن الرذائل لكان في نفوسها ما يضمن سلامتها ويُلِمُّ شَعَثَهَا[٣]، البراعة في القانون لا تدل على رقي الأمة إن هو إلا برهان على حفظ الموجود طيبًا أو خبيثًا، حسنًا أو قبيحًا.

العلوم الكونية مما نشاهده في الكائنات، وما ذرأ الله في الأرض والسموات أفضل العلوم وأجلّها وأهمها، ويليها علوم الأخلاق والقانون من ورائها محيط.

---

(١) تسنُّم: صعود. (م).
(٢) ذُرا: جمع «ذروة» وهي القمة. (م).
(٣) شعثها: تفرقها. (م).

حق علينا اليوم أن نوقظ ما كمن من الفطر السليمة، ونحرك ما سكن من العقول الخامدة، ونستثير العزمات، ونرهف نصال الذكاء، ونبذر ما اختزنته الآباء في مخازن دور الكتب في هذه الأرض الطيبة حتى نبتت نباتًا حسنًا ورياضًا ناضرة مزدهرة.

الأمة القاصر تعليمها على القانون فقيرة ضائعة، الغذاء أفضل من الدواء.

إن نظرة واحدة في فاتحة الكتاب الكريم التي يتلوها المسلمون في صلواتهم، ويقرءونها في معاهدهم، ويكررونها في دعواتهم، ويناجون بها ربهم في خلواتهم، توضح لنا هذه المَحَجّة، وترينا آية هذه الحُجَّة.

علماؤنا في القرون الأولى قالوا: «إن الفاتحة تشير إلى ستة علوم؛ علوم الطبيعيات والرياضيات، علوم العبادات، علوم الأخلاق، تاريخ الأمم الفاضلة، تاريخ الأمم الجاهلة والمغضوب عليها، معرفة أحوال القيامة وما للإنسان بعد الموت»، وبيانه أن الناس إلى الله مسافرون ولا مناص لهم من معرفة المقصود وهو الله عَزَّ وَجَلَّ، وسِيَر من أنعم عليهم، وقصص من غضب عليهم وأحوال الموقف أمامه، ولابد من طريق وزاد، ومعرفة الله إنما تكون لأفعاله وآثاره، وهي علوم الطبيعيات والرياضيات كالطبيعة والكيميا والتاريخ الطبيعي والهندسة والجبر والفلك وما يلي ذلك من الآلات والصناعات، فالتفكر فيها للإيمان والعمل بها لحياتِنا وبقائنا. يشير لهذا كله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة/ ٢]: أي الذي ربى العالمين جمع عالَم،

وهو كل ما ذرأه الله في العالم العلوي والسفلي من عناصر ومعدن ونبات وحيوان وإنسان وجو وسحاب ونجم وقمر وشمس وروح ونفس. ويشير لنوعي التاريخ، أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وأحوال الموقوف قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[الفاتحة/ ٤] أي الجزاء، وللطريق، وهو علم الأخلاق ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة/ ٦]، وللزاد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾[الفاتحة/ ٥]، وقد قرر العلماء أن أهم العلوم المذكورة في الفاتحة العلوم الدالة على أفعال الله تعالى، وهي الطبيعيات على رغم ما عليه المسلمون اليوم إذا عكسوا القضية وعصوا علماءهم وربهم وناموا ستة قرون في كهف الجهالة، وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال في شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها.

يا قوم، هذا كلام علمائكم من القرون الأولى الذين تظنون بهم الظنون، وتَسِمُونَهم بالجمود قرروا أن الطبيعيات أهم علومهم، وكفر بهم العامة، وعاندهم الجهلة، فوضعوا رموزهم في صحفهم، وودَّعوا العالم، وانصرفوا إلى ربهم، فرضي الله عنهم ورضوا عنه. يا قوم إنا سنستخرج ما دفنوه في كتبهم ونوضح ما أجملوه ونُبَيِّن ما قرروه.

قام فيهم إمامان حكيمان من نحو سبعة قرون فقررا ما قلنا اليوم وأوضحاه، فاتهمهم المسلمون بالكفر والزندقة، فلما ماتا ترحَّموا عليهما وعدوهما حُجَّتَي الإسلام، ولكنهم عصوا أمرهما، وبقي الناس في ظلمات الجهالة تكتنفهم قطع

من ليلهم المظلم. نريد يا قوم أن ننشر للناس ما كتمه الخاصة في القرون الأولى في قلوبهم.

يا قوم، إن الحاجة ماسَّة والأمة لا تزال في صباها، كان قدماؤكم يقولون: إن المعاملات الفقهية من بيوع وهبات وغيرها وعلم التوحيد، ما جُعلا إلا لحراسة الأمم في سيرها نحو سعادتها.

تسير قافلة الحج ومعها زادها، ممهدة سبلها، تؤم مقصدها، يكلؤها حراسها، ولعمرك ما علوم المعاملة الشرعية والقوانين الوضعية، والتوحيد إلا حراس على الأمم في سيرها لسعادتها؛ لئلا يتعدى امرؤ على امرئ وهم سائرون في سفرهم، فينتهب زاده المعد لسفره الضروري لحياته، أو يزلزل عليه عقيدته الراسخة في قلبه، الناظمة لعقد جمعهم اللامّة لشَعَثِهم الملائمة لما بين طباعهم.

فأهم العلوم عندهم الطبيعيات، والرياضيات، والفلكيات، فالعبادات، فالأخلاق، فالتاريخ. غلب العامة العلماء قديمًا على أمرهم، واجتزءوا بالقشور، ونبذوا اللباب، فماذا صنع حكماؤهم؟ اختزنوا بذورهم في أدمغة لا تصلح للزرع حتى تستقل بها الرياح، فتحملها إلى أرض صالحة طيبة فتنبت نباتًا حسنًا، فإن البلد الطيب يخرج نباته سهلاً والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا[١]. فما الذي صنعوا؟

(١) نكدًا: شحيحًا، قليل النفع. (م).

لَقَّنُوا تلاميذهم آيات علم الطبيعيات والفلك وعجائب الحكمة، وما ذرأ الله في السماوات والأرض ليقرءوها عقب الصلوات وأوصوهم بتكرارها نحو ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة/ ١٦٤]... إلخ مما سنوضحه بعد، كررها القوم عقب صلواتهم وهم غافلون عما يشير إليه وعما كان الآمرون بها يرون، ولم يعلموا أنهم يكررون بألسنتهم ما درسته أوربا بآلاتهم، واكتشفوا غوامضه بعقولهم. بذر قدماؤكم هذه البذور في أرض غير صالحة وماتوا ولكن أثمرت في بلاد بعيدة. يا قوم، أُنْذِرُكم صاعقة العذاب الهُونِ[1] إذا لم تتلافوا أمركم بأيديكم، أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، أنذركم ما أنذرت به أهل أمريكا الأولين والأندلس.

إني سأجمع الآيات المشوقة للعلوم الطبيعية، وأشرحها بالحكمة والعلم حتى تكون شائقة معشقة للنشء؛ فيدرسوا العلوم لجمالها ويقرءوها للذَّاتها، ثم تجمع آيات الأخلاق حتى تكرر على الأسماع وتحلو في الأذواق ونشرحها لتتربى في الأمة ملكة عشق العلوم والفضائل.

يا قوم، إننا نريد أن تكون المناظر البهجة والرياض الغَنّاء وأجواز الفلوات والحدائق الجميلات وبساتين الحيوانات داعية لجولان الأفكار، ومناجاة الأرواح

(١) العذاب الهون: المهين، المُذِلّ. (م).

لا مسارح الصبا ومرتع الشهوات، غفل الناس وحُقّ لهم أن يغفلوا، من ذا الذي أيقظهم؟

سائق القطار في سكة الحديد يدعو الناس وينبههم بصفير بخاره، ويعرض الصناع مصنوعاتهم، وترى السيماوي يدعو الناس بناقوره أو يزمر لهم بمزماره، فيُهرعون إليه، فيبهرهم بخفة يده وعجائب أعماله.

ومن يريد أن يصيبه الانتخاب في البلاد الأوربية أبان للناس قدرته فعرفوه. فلكل عمل داعٍ يسوق الناس إليه، وما للعلوم ولا للأخلاق اليوم من داع في هذه الأمة الأسيفة، وأجلّ ما ندعو به اليوم آيات العلوم وآيات الأخلاق وهي تبلغ نحو ١٦٠٠ آية، فلنبدأ بها في تفسيرنا ولنحلها بالحكمة والعلم والبراهين العقلية حتى ندعو المؤمن بها إلى اليقين ولا ينبو عنها من لا يؤمن بها لحكمتها العقلية. إنا لا ندع في تفسيرنا حكمة إلا وعيناها، ودعونا إليها، ولنشرح فيه العلوم والأخلاق وعلم الاجتماع ونظام الأمم وعجائب الخلقة وبدائع الحكمة، حتى نُشَوِّق النشء الحديث للعلوم والمعارف، ولن يهدأ بالنا أو يسكن رَوْعنا[١] أو يقف قلمنا حتى نرى عشق العلوم حَلّ من القلوب محل اللهو والصبا، ونرى الفضيلة نَمَت أشجارها وأزهرت غصونها وأثمرت، عسى أن يخرج جيل يهيم بالعلوم لذاتها ويخامر هذا الميل أفئدة الناشئين لتكراره على أسماعهم وتعويدهم النظر من مبدأ حياتهم؛ فلا يدعون شجرًا ولا حجرًا إلا نظروا فيه، وعملوا كما

(١) رَوْعنا: فزعنا. (م).

أشار عليه الصلاة والسلام فقال: «واذكر الله عند كُلِّ حجر وشجر»، عسى أن نجد نشئًا يقلع عن الكذب وشهادة الزور لما يسمع منه تكرار قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء/ ١٣٥]. ويزيل الاعتقاد الراسخ في الأفئدة اليوم أن الشهادات تبع المصالح والعصبيات والجماعات مما يدعو لضياع الأمة وذهاب شَوْكَتِها[١] بين الأمم، ولعلنا نجد من يفهمون حقوق الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين إذا تلوا قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء/ ٣٦].

ولعلنا نجد من يفهمون نظام الأمم وحياتها وأنها كالجسم وكل فرد كأنه عضو يعمل للجميع، ويبدي لهم رأيه إذا سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان/ ٢٨]. وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج/ ٤٦].

لتحذر الأمم الجاهلة ضياع بلدانها وفقدان ولدانها، أفلا ترغبون في العلوم لذاتها؟ أين من أوصى بقسط من ماله على علم الحكمة النظرية؟ أين من بنى مدرسة للعلوم الطبيعية؟ أين من حبس من بعض ماله على مدرسة طِبِّيَّة؟

---

(١) شوكتها: قوَّتها، وبأسها. (م).

ألا هُبُّوا من نومكم، واستيقظوا من رقدتكم، واعلموا أنكم اليوم مسئولون ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات/ ٢٤ - ٢٦].

يا قوم، قُوْا أنفسكم وأهليكم وأبناءكم نارًا بالعلم والتعليم وفتح المدارس، حرام عليكم هجران العلوم ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر/ ١]، ووضح الأمر، أنذر الجاهلين يوم هلاكهم، ووالله لئن لم يتلافوا الأمر في هذه السنين ليكونن أبناؤهم خدمًا لأمم آخرين، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبًا من تلك المراكب الهوائية (البالونات)؟ يوم تأتي السماء بدخان يملأ الأفق، ويسد الجو والسهل والوعر من المدافع والآلات القاتلة حين ترتقي الأمم ولا يبقى إلا الضعفاء عاجزين عن مساواة غيرهم أذلاَّء محسورين.

فهَلُمُّوا للعلوم، فها هو ذا كتابكم يأمركم، والمَثُلاَت[١] والنذر تحيط بكم من خلفكم ومن أمامكم ومن فوقكم، فاستعِدُّوا للعمل وانتظروا الخير إنا معكم منتظرون.

(١) المَثُلات: ما أصاب القرون الماضية من العذاب وهي عِبَر يعتبر بها. (م).



الفصل السادس عشر
مُلَخَّص الخُطْبة التي ألقاها المؤلف...إلخ

التي ألقاها المؤلف ليلة ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨، بقاعة عبد العزيز في جمع حافل من الفضلاء بنادي دار العلوم، مع محادثات له في رد شبه اعترضت الموضوع.

اتحاد اللغتين الفصحى والعامية بالبلاد المصرية

استهل الخطيب الكلام بمدح الاجتماع والنادي ورجاله والخطباء الذين سبقوه في الأسبوع قبله، ثم حدد الموضوع بأنه مقصور على اللغة المعروفة عند العامة المصريين بدون تحريف، وأن المحرف قليل، وكذا الدخيل وربما لا يبلغ مقدارهما خمسًا في المائة من مجموع ألفاظهم، وألقى هذه الأسئلة: ما معنى عامية؟ ما الذي منعنا من استعمالها لغة التحرير؟ أهي غير عربية أو مُبْتَذَلَة؟ وإذا ثبت أنه لا ابتذال ولا دخيل إلا القليل، فلم يبق إلا الوهم السائد علينا، نحن المصريين توارثناه وأخذنا نستتبع الألفاظ الدخيلة ونحن عما بين أيدينا غافلون، وكأننا إذ أَلِفْنَا الانتقاد واتَّبَعْنا طريقة الذم نبذنا الصحيح وأعملنا الفكر في الغلط

وهو قليل. ولع الناس في بلادنا جيلاً بعد جيل بما هو كالدواء لداء اللغة من النحو والصرف وعلوم البلاغة، ونسوا أن متن اللغة كالغذاء وتلك العلوم كالدواء، وأي فرد أو أمة اشتغل بالعَرَض عن الجوهر أو بالداء وأغفل الغذاء كانت العاقبة أشد النكال والداء العضال.

يقولون: اللغة العربية فقيرة، وما فقرها إلا الوهم السائد العام، ويقولون لا آخر لها، وكلا الوجهين له صحة من وجه كما أنهما متضاربان ظاهرًا، والسبب الحقيقي هو تَخَبُّط الأمة في متن اللغة كما تتخبط العشواء، نحن على هدى في القواعد وفي علوم البلاغة، ولكنا في متن اللغة مُتَخَبِّطُون.

الأمور التي نعبر عنها كثيرة كالفرح والحزن والفقر والغنى والغضب والرضا والشهوة والجبن والشجاعة والكرم والبخل والمسموعات والمبصرات والمشمومات والمذوقات، وهكذا إلى ما تصل إليه تفاصيل المقولات، ولنذكر الليلة موضوعين اثنين مما يقع تحت حواسنا في المبصرات، وهما الملابس والحبوب، موافقة لما في كتب اللغة مع تحريف قليل في بعضها.

الملابس

نرى العامة يقولون ثوب هلاهل ومهلهلة، وثوب هفاف ومضلع وشبارق ومشبرق والقصب، وثوب بشوكه (جديد)، وثوب مخطط ومسير ومسبهم

ومنمق ومنقرش ومبرقش، وحبرة وحبر ومنه حبرته فهو حبير، وخيش والجمع أخياش، وفوطة وفوط، ونخ ونخاح، وبساط وبسط، وشملة وبردة وغدفة ولحاف وقطيفة وعبعب وعباءة وعباية وقميص وقمصان، والجيب جمعه جيوب، والقب وهو ما يدخل في الجيب من الرقاع، وزر وزررته وأزررته، والعروة مدخل الزر، والبنائق جمع بنيقة، وهو ما زيد في عرض القميص تحت كمه، والطرة والكفة والشقة والكم والردن والأكمام والأردان.

هذا في الأسماء المعروفة عند العامة في الملابس، ويقولون: ندفت القطن بالمندف والمنداف وحلجته بالمحلج، والنداف نادفه، والحلاج حالجه، والحرفة الحلاجة، ويقال الردن نوع من الغزل، والمردن المغزل، ومزعت القطن نفشته، الهبر مشاقة الكتان، القنب ضرب من الكتان، بسطت البساط وفرشته، وهذا بساط يبسطك يسعك، سجف وسجف، وشف الستر رُؤي ما وراءه، أكممته جعلت له كُمَّيْن كما تقول أردنته جعلت له أردانًا، وهي أسافل الأكمام، وكففت الثوب وشللته وكففته من باب ضرب، وخطته بالإبرة، وخطت الشيء بالمسلة، وثوب خلق وخلقان وشراذم (العامة تقول شلاضم) وذلاذل (قطع) والعامة تقول دلادل، وزبرقب الثوب صنصرته، وتلفعت والتفعت، والكمكمة التغطي بالثوب، وأغدفت الثوب والإزار أرسلتهما إلى أسفل.

الحبوب

يقولون قصلة وقصل وسبلة وسبل والقمح مسبل ومقنبع: أي لم يخرج سنبله، والحصيدة (أسافل الزرع الباقية)، وفريكة وشمال قمح (وهو كل ما قبض عليه الحاصد) والجرن، وعرمت العرمة والجرزة كالحزمة لفظًا ومعنى، واللقاط والدياس والدق والدراس وداس الناس ودرسوا ودوسوا والتبن والتبان، ويقولون حصدنا الفول وشمسناه، ولكن القصل ما حمل يومين حتى نشف، والنوارج والمذراة (المدراية)، ثم قال الخطيب: فهذه لغة عربية أغفلها الخاصة والمتعمون، ولم يستعيضوا عنها بغيرها ولن يقدروا، فنحن كالذي ركب حماره وهو يبحث عنه، وعندي أن ألفاظ العامة تبلغ خمسة آلاف أو ثمانية آلاف في صحاح اللغة، ولما ذكر الخطيب هذه الكلمات من بابي الملابس والحبوب ذكر أمثلة أخرى، واستشهد بكلام العرب والقرآن، وأتى بأقوال علماء البلاغة كالجاحظ والإمام عبد القادر الجرجاني وصاحب المثل السائر القائلين بألا فصاحة إلا بما كان متعارفًا مألوفًا على شريطة حسن السبك الذي هو كالأرواح في أجسامها والأنوار في كواكبها، وأن المغربين مثلهم كمثل التركي مع العربي والإنكليزي مع التركي، ثم قال على أنه لو لم تكن هذه الألفاظ فصيحة على فرص المحال أفليس جهل أهل العلم بما يعلم الفلاح في حقله والمرأة في خدرها عارًا عظيمًا؟ على أن ما ذكرناه من الألفاظ في بابي الملابس والطعام لا يتسنى لأحد أن يستبدل بها منها، وإني لأبذل عشرة جنيهات لمن يستبدل بها كلها خيرًا منها أو مثلها في

موضوع بعد أسبوع، وأقول إنه على كل شيء في البلاغة قدير وإنه له ملك الفصاحة والبلاغة، وليس لمُتَحَدِّيه من ولي ولا نصير.

وعليه، فمن المحتم الواجب الاعتناء بمتن اللغة والابتداء بما عند العامة، وأن نزيد عليه ما نشاء وما نحتاج إليه في معجم يدرس ويعلم ويكتب عليه المتعلمون في الإنشاء ويتناوله الكتاب قاطبةً، وقد اعترض على هذا القول طوائف، فطائفة قالت: «إن لغة المصريين مختلفة حتى إنك لا تجد قريتين مُتَّحِدَتَيْن»، ونحن نقول: «إن الاختلاف في اللهجات وبعض الألفاظ، وهذا لا يقدح في الاتفاق في أكثرها»، وقالت طائفة أخرى: «إن هذا العمل لغو، فنحن نعلم التلاميذ كيف يبحثون في المعجم ونتركهم وشأنهم والكتاب والمنشئون كذلك»، ونقول جوابًا عنه: «إن هذا كقول القائل لمن يُخَزِّن ماء في الصهريج: لا تفعل، وأرشد الناس للطريق الموصل للبحر ولمن يحضر الطعام للآكلين، لا تفعل، بل أرشدهم للمطبخ، ودعهم يبحثوا، ولمن يتعلم الفقه راجع في ابن عابدين وهذا تأباه العقول».

وقالت طائفة أخرى: «لو أردت عمل معجم لنا لزم التبلبل، واختلف التونسي والسوري والهندي»، وهذا قول بَيّن السقوط بنفسه، وإلا لزم تبلبلها في الإعراب، بقراءة الكفراوي مختصرًا من النحو الذي يسعه الأشموني، والجزء الأول في المدارس المختصر من الثاني وما بعده فليس الاختصار ضارًّا، كلا بل هو تقريب للفهم والمعرفة.

وقالت طائفة: «نحن لا نستغني عن المعجم العام»، فعجبنا منه أيضًا، وقلنا: وهل يلزم من الجهل بعويص اللغة أن ندع الجلي الظاهر؟ فإذا كان الجهل مقصورًا على العويص كان خيرًا من انضمام الجلي إليه في الخفاء.

وقالت طائفة: «لعلك تريد الاقتصار على لغة العامة»، فنقول: «لم نرد ذلك بل نزيد عليه ما نحتاج إليه في المدنية»، وقال آخرون: «أتريد أن نأتي بالألفاظ المبتذلة كلفظ (خش) بدل دخل»، قلنا هذا نادر، وإنما علينا حفظ ما عداه، ونحن لا يتسنى لنا استبدال ما ذكرناه الليلة بغيره، وقد غاب أكثره عن أهل العلم فواخجلتاه، ثم قال: والذي أراه أن يجعل متن اللغة علمًا يدرس في المدارس، ويلقن للتلميذ، ولا تترك ألفاظ العامة بل تعلم وتصحح؛ إذ هي أقرب للتلميذ وأسهل وأبين وأقل زمنًا وأكثر مجاراة للأمم، فإنا ما رأينا أمة تذر متن اللغة تبعًا للمصادفات العمياء ولو فعلوا فعلنا لضاقت لغاتهم كما ترى لدينا اليوم، وليتداول مثل هذه الألفاظ المنشئون والكتاب والصحف حتى تحيا بعد موتها وتنشر من أجداثها ويتعارفها الخاصة، ثم لخص الموضوع في سبع عشرة قاعدة»، فقال:

خلاصة هذه المباحث

(١) اللغة العامية فيها الأصول الضرورية لمعاشنا.
(٢) الدخيل لا يبلغ خمسة في المائة وكذا المُحَرَّف تحريفًا بَيِّنًا.

(٣) اللغة العامية تبلغ أصولُها وما قاربها خمسة آلاف كلمة على أقل تقدير، وربما وصلت إلى ثمانية آلاف.

(٤) العامة يعدون البليغ ما كان غريبًا؛ لأنهم يخضعون لما يجهلون، والمتوسطون يعشقون سَبْكَ النظم وينبذون الغريب، والحكماء يرون مع ذلك ما هو أدق في المعنى وأنفع للأمم.

(٥) غلبت الفكرة العامية قديمًا فنبذ الناس ما ينطق به العامة، فتحول من الابتذال إلى الغرابة.

(٦) اللحن والدخيل والتحريف جعلنا نظنها كلها لغة فاسدة، ولا يحكم على فساد الكل بالبعض.

(٧) وردت ألفاظ أهل بلادنا في القرآن والحديث وكلام العرب فليست مُبْتَذَلة.

(٨) الحاجة ماسَّة إليها والأمة تتكلم بها، فمن العبث نبذها.

(٩) تحقق أن الفصيح والبليغ ما عرفه الناس الذين نخاطبهم إذا سبكته بنَظْم عجيب وأسلوب غريب.

(١٠) لا نريد بالعامة من كانوا من الأجيال السابقين، ومن لاحظهم في خطابه اليوم فإنه يكلم الموتى ولا يخاطب جيل المصريين الأحياء، فليعلم الناس هذه الحقيقة وليعملوا بها.

(١١) يجب أن نستوعب ألفاظها أولاً ليستعان بها على أصول الحياة، ونزيد عليها ما تمسُّ إليه الحاجة.

(١٢) كلامنا خاص بلغة التخاطب، وعلى ذلك لا يقال عربية وعامية بل تكون كلها عربية صحيحة مع ملاحظة الإعراب على سبيل التدريج، واستبدال الدخيل وإصلاح المُحَرَّف عند الإمكان.

(١٣) ينشر هذا المعجم بين الطبقات المتعلمة حتى تدخل ملكة اللغة بالتدريج فيكتفي به الناس في أعمالهم، ومن كان مختصًّا بفن زاد لأجله من اللغة ما شاء من اصطلاحه، وعالم البلاغة واللغة يجب أن يزيدا من اللغة العربية ما شاءا أن يزيدا.

(١٤) يراعى في المعجم الذي ينشر ألا يذر نباتًا في بلادنا المصرية ولا حيوانًا ولا غيرها ولا صفة من صفاتها إلا وضعه ورسمه، والغفلة عنها عيب فاضح.

(١٥) يجب إدخال كلمات ذلك القاموس في محاورات صغيرة لما يحيط بنا من الأمور الخارجة حتى يعرف أبناؤنا أحوال الحياة والعبارة عنها.

(١٦) إذا شُرع في هذا العمل اليوم فلا يمضي عشر سنين حتى تصير لغة الكلام لغة التحرير، وتزول تلك الوصمة، ويخرج جيل عالم باللغة، عالم بأصول الحياة.

(١٧) النتيجة بعد هذا الإصلاح، تَتَّحِد اللغة.

خاتمة الكتاب
الإصلاح العام

إصلاح الأمم يتوقف على توخي أحسن المثل التي ينتهجها قادة الشعوب، وانتهاج أوضح المسالك التي يسلكها المصلحون ليسيروا مع الأمم سير الأستاذ مع تلميذه، وليأتوا البيوت من أبوابها، وليخاطبوها بلسانها، وكما أن الأستاذ يحادث قلب التلميذ بما يشاكل طباعه ويناسب طور استعداده، فهكذا قادة الأمم مع الشعوب، هذه سُنَّة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ومن غَيَّرَها فقد حاد عن صراطه المسنون وطريقه الواضح.

على هذه النظرية كان تحدي الأنبياء، فموسى عليه السلام بالعصا لغلبة السحر، وعيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص إلخ لغلبة الطب، والنبي ﷺ بالقرآن لولوع القوم إذ ذاك بالبلاغة كالمعلقات ونحوها، في الأمة اليوم أربع طبقات بينها عموم وخصوص وجهي.

على قادة الشعب أن يُوَجِّهوا إليهم النظر: علماء الدين، ورجال الصوفية، والصناع، والرابعة طائفة لها سلطان على صغار العامة وهم شعراء الربابة الذين

لا يُؤْبَهُ لهم ولا يعيرهم التفاتةً المفكرون، وهم مع دَمَامتهم[1] أنفع للطبقة السفلى من ممثلي الروايات العليا والوسطى، فالأولون نفعهم أكبر من إثمهم، والآخرون إثمهم أكبر من نفعهم، ولقد قال سائح إنكليزي إذ رأى هؤلاء الشعراء: يا ليت لنا مثل هؤلاء القصَّاصين في بلادنا، فإنهم أخذوا بأيدي رعاعكم وانتشلوهم من وهدة الآثام ورفعوهم عن نظائرهم في بلادنا. علماء الدين ورجال الصوفية لهم السلطان الأعظم على القلوب وهو أقوى أثرًا من سلطان الملوك ورجال السياسة على الأجسام، وقد قال علماء العمران: «إن الإصلاح الديني أسرع تأثيرًا في إسعاد الأمم من الإصلاح السياسي».

فإذا لم يتجه أولئك للإصلاح العام، فلا سبيل لترقي الأمة وسعادتها.

الصناع قائمون برُكْنٍ شديد من أركان الحياة الاجتماعية وبناء هيكل الأمة، فللإصلاح أربع دعائم:

(١) الدعامة الأولى: أن يسرع قادة الشعب في تعميم مزج علوم الحياة بالدين، حتى يطمئن المتدين إلى النظر في هذا العالم، ويعشق العلوم عشقًا قلبيًّا. وما أسرع سريان هذا الشوق في القلوب، وما أنفع هذه الطريقة للأمة إذا انتهجها المصلحون.

(٢) الدعامة الثانية: أن تعمم آداب الدين الإسلامي التي حصرها الإمام الغزالي في سبعمائة وخمسين آية بين مشايخ الطرق الصوفية؛ كإكرام

---

(١) دمامتهم: قبحهم، وحقارتهم. (م).

الوالدين والجار والأهل وإطعام اليتيم والمسكين والصدق والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس وغير ذلك، حتى يقتربوا من إخوانهم طالبي علم الدين، ويقودوا الشعب إلى المدنية والعلم، وما ذلك على ساداتهم المخلصين بعزيز.

(٣) الدعامة الثالثة: أن يشجع قادة الأمة الصناع في المدارس وخارجها بترويج ما صنعوا وإطرائه والإقبال عليه، وهذا أمر ليس بالعسير.

(٤) الدعامة الرابعة: شعراء الربابة الذين يقُصُّون أقاصيص خيالية اتخذها قادة الشعوب في الأزمان الغابرة لما كانوا يقصدون، ولم تزل بيننا تأخذ بألباب فريق من العامة إلى ذكرى الأيام الخالية والعظام البالية. ألا فلتهذب تلك الروايات ولتحول عن مجراها إلى ما نحتاج إليه من الأخلاق الفاضلة وحب العلم ورقي الأمة، وليقم بهذا العمل أناس ساعدهم استعدادهم، وليرغبهم المخلصون من الأمة وقادتها بالمال حتى يهذبوها وينشط أولئك الشعراء، ولعمري لَسُلطان هؤلاء على قلوب بعض العامّة كسلطان علماء الدين ورجال الصوفية على الباقين، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله المسلمين. **تمّ الكتاب.**

معد التقديم في سطور

حازم زكريا محيي الدين

- باحث فلسطيني مقيم في سورية.
- حصل على ليسانس في الشريعة، جامعة دمشق، ودبلوم الدراسات العليا في الفقه وأصوله من جامعة دمشق، ١٩٩٤م، وماجستير في الدراسات الإسلامية من كلية الإمام الأوزاعي، ودكتوراه الفلسفة في الدراسات القرآنية من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠٠٧.
- مدرس في كلية الشريعة بجامعة حلب.
- محاضر في كلية الشريعة والقانون بجامعة أم درمان، فرع دمشق.

أبرز الأعمال والمؤلفات العلمية

- الشيخ طاهر الجزائري: رائد التجديد الإسلامي في بلاد الشام في العصر الحديث، ٢٠٠١م.
- خطاب التجديد الإسلامي: الأزمنة والأسئلة، بالاشتراك مع آخرين، ٢٠٠٤م.
- مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي: رشيد رضا نموذجًا.٢٠٠٧م.

أعضاء اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١٠/ ٢٠١١

رئيس اللجنة:

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر.

أعضاء اللجنة:

إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة)، مصر.
إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالامبور)، ماليزيا.
حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
رجب شان ترك (جامعة فاتح، إستانبول)، تركيا.
زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة التراث بالرياض)، السعودية.
زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
زينب الخضيري (كلية الآداب، جامعة القاهرة)، مصر.
سيد دسوقي حسن (كلية الهندسة، جامعة القاهرة)، مصر.
صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر - **أمين اللجنة.**
ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشئون الدينية)، عُمان.
عبد الرحيم بنحادة (جامعة الرباط)، المغرب.
عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.
محمد الحداد (الجامعة التونسية)، تونس.
محمد عمارة (مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
محمد موفق الأرناؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.
منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
نور الدين الخادمي (جامعة الزيتونة، تونس)، تونس.

NAHDAT AL-UMMAH WA HAYATUHA

The Awakening and Life of the Muslim Nation

Tantawi Jawhari

DAR AL-KITAB AL-MASRI



DAR AL-KITAB AL-LUBNANI

NAHDAT AL-UMMAH WA HAYATUHA



NAHDAT AL-UMMAH WA HAYATUHA

The Awakening and Life of the Muslim Nation

Tantawi Jawhari

(22)

هذا الكتاب

طُبع لأول مرة عام (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، ويسعى إلى تجديد الفكر الإسلامي؛ ليواكب محاولات نهضة المسلمين على كل المستويات العلمية والحضارية، كما يحاول تقديم نظرية شبه متكاملة في النهضة، مؤصلة تأصيلاً شرعيًّا ومعرفيًّا، ومعززة بالخبرة التاريخية، والأمثلة الواقعية.

وتقوم رؤيته في النهضة بشكل رئيس على أساس المؤاخاة بين العلم والدين، وإحياء قيم الاجتهاد والنقد في الفكر الإسلامي، والانفتاح النقدي على الثقافة الغربية، ومحاصرة ظاهرتي الاستبداد والاستعمار، وتعزيز قيم الحرية والشورى والمشاركة السياسية، والعمل الدؤوب على نشر فكرة السلام العالمي بين الشعوب.

ISBN: 978-977-452-133-8

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO



DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT